

الشعر السياسي
في الأندلس
خلال القرن الخامس الهجري

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه دولة في الأدب العربي القديم

إشراف:

أ . الدكتور الربيعي بن سلامة

إعداد:

أحمد بن لخضر فورار

لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة.....	أ. د.....
مشرفا ومقررا	جامعة قسنطينة	أ.د الربيعي بن سلامة
عضوا مناقشا	جامعة.....
عضوا مناقشا	جامعة.....
عضوا مناقشا	جامعة.....

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

كان التراث الأندلسي ، ولا يزال ، مفعما بالموضوعات التي تحتاج إلى نفض الغبار عنها ، لتري النور ، ولعل هذا من الدوافع التي كانت تراودني منذ أن أُنجزت بحثي للماجستير ، وموضوعه: (الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية 366هـ-399هـ)، هذه الفترة ولدت لنا موضوعات جديدة ، نظرا لطابعها الاستبدادي ، وأتت أكلها في القرن الخامس الهجري ، ثم ازدهار موضوعات كانت السمة البارزة للفترة ، مما لها من قوة وعظمة ، ولكنها انقلبت إلى موضوعات تراثي حال العصر اللاحق .
من هنا واستكمالا للبحث في التراث الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري وتصوير العصر في بعض جوانبه الأساسية ، تم اختياري من هذا التراث عنوان البحث على الشكل التالي :

الشعر السياسي

في الأندلس

خلال القرن الخامس الهجري

وإن هذا البحث حين انفرد بدراسة الشعر السياسي ، في القرن الخامس الهجري ، إنما انفرد بأهمية خاصة تجلت في أنه الوحيد — حسب علمي — الذي لم يحظ بالدراسات ، لسير أغواره ، بما أتيح له من سبل وأدوات ، مسهما بذلك — قدر الإمكان — في سد النقص ، في مجال الدراسات الأندلسية .
وأعترف أنني عانيت من قلة المصادر التي لها صلة بالموضوع ، لكنني — رغم هذه المعاناة — واصلت بعون الله وهدايته بحثي ، وتغلبت على كثير من صعوباته بفضل العزيمة والكد والبحث الدائمين ، متنقلا بين المكتبات متحملا أعباء السفر خارج الوطن، نظرا لقلّة وجود هذا التراث داخل الوطن ، فضلا عن الإرشادات والتوجيهات

-ب-

التي كان أستاذاً المشرف الدكتور الربيعي بن سلامة يسديها لي كلما سنحت لي فرصة الاتصال به ، فقد كان - حفظه الله - حريصاً على أن ينجز هذا البحث المتواضع . وكان يناقشني بصراحة فيما يعرض لي من أمور و يرشديني و يهديني إلى وجهة الصواب ، وإسداء نصح الأخ دون أن ألمس منه ضيقاً أو تبرماً . ورحت في ضوء هذا وذاك أبحث في هذا الموضوع ، متتبعا مختلف الكليات والجزئيات فيه . بمنهج لم أكن أقصده - مسبقاً - و أنا أدرس جوانبه ، و الحقيقة أن بعضها كانت تفرضه المادة فرضاً ، وتبعاً لذلك أقول : إن المنهج التاريخي قد فرض نوعاً من السيطرة على مختلف مراحل البحث و فصوله ، فقد اعتمدت في دراسة كثير من النصوص على علاقتها بسيرة مبدعيها تارة ، والمؤثرات المختلفة التي تفاعلت معها تارة أخرى ، سواء أكانت مرتبطة بالناحية السياسية أو الاجتماعية أو الأدبية أو الطبيعية ، وذلك في تداخل تام مع عملية استبطان هذه النصوص الذاتية وفك أسرارها .

وقد قسمت بحثي إلى مدخل وخمسة فصول وخاتمة . يقوم المدخل على ثلاثة جوانب أساسية ، كان لها - في نظري - أثر بالغ في تسليط الضوء على القرن الخامس الهجري ، أقصد الحياة السياسية والاجتماعية والحركة العلمية والأدبية . ففي الحياة السياسية تمت الإشارة إلى طبيعتها ، وما سادها من صراع حاد والذي يتمثل في العوامل المساعدة على سقوط الدولة العامرية رغم أنها كانت امتداداً للعصر الذهبي ، في ظل الخلافة الأموية ، لكن وقعت الفتنة التي أشعل نارها حب الاستئثار بالخلافة ، وزوال حكم الأمويين ، وجاء عهد ملوك الطوائف ، فازداد الصراع والتنافس أكثر ، والخضوع للأعداء النصراني بشكل يثير العجب ويفوق كل حد ، وإني وإن أطنبت ، فعذري في ذلك ، يهدف إلى الوقوف على الأسباب الجوهرية لحدوث الفتنة ، وانقسام الأندلس إلى دويلات ، ثم إزالتها نهائياً بحلول المرابطين محلهم ، فكانت الأندلس ولاية تابعة للمغرب .

-ج-

أما الحياة الاجتماعية ، فإنها تحددت بعد الدراسة المستفيضة للحياة السياسية ، وتحددت السمات المميزة للظروف السياسية ، وفي ضوءها تحددت شخصية المجتمع الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري ، وهذا المجتمع الذي تألف من عناصر بشرية متنوعة في أصولها وعقائدها وثقافتها ، والتي عاشت متآخية ومتجانسة وكونت لنا شخصية أندلسية متميزة .

وهذه العناصر هي العرب ، والبربر ، و المولدون ، وأهل الذمة من نصارى ويهود ، وصقالبة .

ولعل عدم قيام وحدة سياسة ، خلال القرن الخامس الهجري كان راجعا لسيرة الخلفاء السيئة ، وكذا ملوك الطوائف تجاه الرعية بالاستئثار بخيرات البلاد وفرض الضرائب الباهضة عليها لتأمين أنفسهم ، وممالكهم هجمات الجيران والأعداء النصارى ، فلما كان من الرعية التي لعبت دورا رئيسيا في خلق ملوك الطوائف ، قامت بنفس الدور في إزالتهم وثل عروشهم .

وأما الحركة العلمية والأدبية فإنها بلغت أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس ، برغم ما اتسم به القرن الخامس من تفكك وانحلال سياسي شامل ، فقد ازدهرت الدراسات العلمية المختلفة ، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء ، في العلوم الدينية واللغوية ، والتاريخية ، والجغرافية ، وانتشار المكتبات عند الخاصة .

ونشطت الحركة الأدبية التي حظيت بتشجيع ملوك الطوائف خاصة ، وكان الشعر أمرا مشتركا بينهم بفعل تهافت هؤلاء الملوك لاجتذاب الأدباء والشعراء والعلماء لبلاطهم، فصاغوا أحاسيسهم و مشاعرهم في قصائد رائعة ترددها الأجيال ، ومنها القصائد والمقطوعات التي هي محل بحثنا .

ومهدت للشعر السياسي بتمهيد عرفت فيه بموضوعات البحث الذي تناولت

في فصله الأول :

الهجاء السياسي وعرفت فيه بهذا اللون الفني الذي اختص في هجاء الخلفاء وملوك الطوائف ووزرائهم وولاتهم ، ودافع الشعراء لهجائهم ، هو اختلال الأوضاع

السياسية — كما تقدم — ولم يستثنوا حتى من أغدق العطاء عليهم في شعرهم الساخر واللاذع .

أما **الفصل الثاني** فقد خصصته لشعر السجن الذي كشف لنا عن مواقف الشعراء السجناء التي لم ترض الحكام ، أو اقترفوا ما استوجب في نظرهم سجنهم أو حتى قتلهم ، وهم أحيانا من كبار رجال السياسة .

ووصف لنا هؤلاء الشعراء السجناء داخليا و خارجيا ، ووصفوا حالاتهم داخله في قيودهم ، ومع السجن واستعطفوا واعتذروا ، وحنوا إلى الأهل والديار والعالم الخارجي ، ثم فيهم من نال حريته ، وفيهم من فر ، وفيهم من قتل ، وفيهم من استسلم لقضاء الله وقدره ، في شعرهم الذي تتجلى فيه العاطفة الصادقة .

وأما **الفصل الثالث** فقد ركزت فيه على شعر الحرب وبخاصة معركة الزلاقة الشهيرة لأن فترة الفتنة العظمى لم تشهد غزوات للمسلمين ضد النصارى بسبب الأحداث الداخلية ، والفتن المحلية ، التي سهلت عملية تفتيت الوحدة الأندلسية ، وظهر ملوك الطوائف في موقف الضعف أمام النصارى الذين ابتلعوا مدنهم وممالكهم ، الشيء الذي مكنهم من الاعتماد على المرابطين في حوض معركة الزلاقة ، التي وقفنا عندها بالدراسة والتحليل للنصوص الشعرية التي أبرزت لنا تسميتها والاستعداد لها وخوضها والانتصار فيها ضد النصارى ، ونجاح الاستراتيجية العسكرية التي انتهجها أمير المرابطين باستخدامه للطبول والجمال التي لم تستخدم قبل في الغزوات ضد النصارى .

و تناولت في **الفصل الرابع الرثاء السياسي** الذي قسمته إلى فرعين، فرع يتجه نحو رثاء المدن و آخر يرثي الممالك الزائلة وكلاهما يتصف بالصدق الفني وكتب له الشهرة والذيع .

أما رثاء المدن فقد اتجه إلى رثاء المدن أثناء الفتنة ، واختص في رثاء قرطبة المخربة ، ورثاء مدن سقطت في أيدي النصارى واستردت ، ورثاء مملكة طليطلة التي رحل عنها أهلها إلى الأبد .

و أما الفرع الثاني من الرثاء السياسي ، فقد انصب على رثاء المدن الزائلة ، أي التي ضاعت بسبب التفكك و الانقسامات والصراعات بين ملوك الطوائف ، فعمل المرابطون على إزالتها ، بعد طلب أهلها منهم على ألسنة فقهاءها ، فكان لهم ذلك .
و أخيرا جاء الفصل الخامس الذي خصصته للبناء الفني تعرضت فيه إلى بناء القصيدة من حيث مطلعها ومقدمتها وحسن تلخيصها وموضوعها الرئيس وخاتمتها ، ثم الوزن والقافية .

ثم ركزت على بعض مشارب هذا الشعر من حيث أثر القرآن والحديث والفقهاء ، معنى ولفظا ، إلى جانب الموروث الشعري باعتباره ظاهرة واضحة في شعر الأندلسيين ، وأشارت إلى أثر بعض الثقافات كالتاريخ ، والأمثال ، إلى جانب بعض المصطلحات اللغوية والأدبية ، ثم أثر الثقافة الأندلسية .

و أنهت هذه الدراسة ، في هذا الفصل ، باللغة والأسلوب ووجدت أن شعراء القرن كانوا يغرفون من معجم متأثر بالجو السياسي والاجتماعي والعلمي ، مع انصهار معظمهم في واقع بيئتهم ، ونقلوه إلى موضوعات الشعر السياسي التي عاجلها ، وقد احتفوا فيها بأنواع البديع و البيان ، وكانوا صادقي العاطفة في أغلب ذلك .

وفي الخاتمة سجلت أهم النقاط و النتائج التي توصلت إليها .

أما المصادر و المراجع التي اعتمدها في هذا البحث ، فهي متنوعة و يمكن تصنيف

المصادر كما يلي :

— كتب التراجم

— كتب الأدب والنقد

— الدواوين والمجموعات الشعرية المتوفرة

— المعاجم وهي لغوية وجغرافية

و أما المراجع الحديثة ، فهي إما دراسات أدبية و نقدية ، و إما دراسات تاريخية .

ولا يسعني في النهاية إلا الإقرار بمجددا بالفضل لذويه ، وأخص بالذكر مجددا ودائما أستاذي المشرف الدكتور الربيعي بن سلامة ، الذي رعى هذا البحث مذ كان فكرة إلى أن استوى في وضعه هذا ، وأسأل الله أن يقيه لنا ذخرا وللعلم موئلا ، وللمتعلمين هاديا ومرشدا ، ولكل من أعان بمشورة أو أسدى رأيا ، وأنا أواجه مختلف صعوبات هذا البحث ، أو ساهم بأية مساعدة ، سواء أثناء الاستشارة ، أو في المكتبات التي قصدتها ، أو في الطبع ، أو تحمل مشقته في هذه الرحلة من أسرتي بخاصة ، وزملائي ، ولأعضاء هيئة الإدارة واللجنة العلمية ، بقسم اللغة العربية وآدابها ، وكلية الآداب واللغات بجامعة قسنطينة ، وكذا قسم الأدب العربي بجامعة بسكرة ، بما أولوه لي من دعم مادي ومعنوي ، فلكل أولئك ولأعضاء اللجنة المحترمين الذين صرفوا الغالي من وقتهم ، من أجل قراءة هذا العمل المتواضع ، آملا أن أكون قد حققت بعض ما قصدت إليه ، في الكشف عن جانب من تراثنا ، وإن جانبي الصواب ، استسمح أساتذتي عذرا ، فإني أترسم خطي من سبقي ، وأفيد من علمهم وتوجيهاتهم التي لا يمكن لأي بحث أن يتحقق بعض منه بدونها ، وعلى الله قصد السبيل ، وإياه أسال الهدى والتوفيق.

مدخل

تتركز دراستنا على الشعر السياسي في الأندلس ، خلال القرن الخامس الهجري ، ويقتضينا البحث في هذا العهد وقفات متأنية لتوضيح طبيعة النشاط الأدبي خلاله ، بدراسة الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية التي ظهرت مراسمها و خفقت معالمها في تلك الأزمنة.

الحياة السياسية :

يعد القرن الرابع الهجري أزهى قرون الحكم العربي الإسلامي في الأندلس ، وأقواها على الإطلاق ، وقد بدأ بتولي عبد الرحمن الثالث (1) الحكم بعد وفاة جده الأمير عبد الله ابن محمد سنة 300 هجرية (2) ، ((وكانت ولايته من الغريب ، لأنه كان شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها ، وحازها دونهم)) (3) .

لقد تقلد عبد الرحمن هذه الإمارة يوم وفاة جده عبد الله — كما تقدم — لأن جده كان يؤثره على بنيه ويخصه بالخطوة ، وقيل : إن جده رمى بخاتمته إليه إبانة لاستخلافه (4) . ويبدو أن رأي أعمامه وأعمام أبيه لم يكن دون رأي جده ، ذلك لأنهم أقبلوا جميعا على مبايعته يوم توليه الحكم ، وأنثوا عليه بكل جميل (5) .

وكان عبد الرحمن الثالث شابا في منتصف الرابعة والعشرين من سني عمره حينما ارتقى العرش إذ كان مولده سنة 277 هجرية (6) . وكانت ملامح الذكاء والشهامة والحزم بادية عليه ، فاستطاع أن يمسك بزمام الأمور ويوطد أركان الدولة في الأندلس (7) ،

1 - انظر ترجمة عبد الرحمن الناصر لدين الله في: أخبار مجموعة 153-158 ، ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس. 1: 7 ، الحميدي. جذوة المقتبس. 41-42 ، المراكشي . المعجب . 45 ، ابن سعيد. المغرب. 1: 181-186 ، ابن الأبار. الحلة السيرة. 1: 197 ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ . 8: 335 - 336 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 28 ، ابن خلدون . التاريخ. 1/4: 289 ، ابن ثعري . النجوم الزاهرة. 3: 330 ، المقري . نفع الطيب . 1: 353 - 373 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2: 120 .

3 - ابن خلدون . التاريخ . 1/4: 289 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 1: 150، 157 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 2: 157 .

6 - ابن عذارى . المصدر نفس . 2: 157 .

7 - ابن خلدون . التاريخ . 1/4 : 298 .

وأن يقضي على الثورات الداخلية للمنشقين من أصحاب الفتن من العرب والمولدين ولاسيما فتنة عمر ابن حفصون (1) ، واستطاع كذلك أن يمنح الدولة هيبه أمام أعدائها النصارى لكثرة غزواته لهم ، وتوالي انتصاراته عليهم (2) ، حتى جنح أكثرهم للمهادنة بل لدفع الجزية ، وإقامة سفارات ومراسلات وعلاقات دبلوماسية ، وتوالت وفودهم يومئذ على بلاط قرطبة تنشدهم الحلف والصدقة . وبذلك قضى على الأخطار المحدقة بهم (3) .

وعاشت الأندلس في عهد الناصر الذي استمر زهاء خمسين سنة ، أزهى عهودها قوة ومنعة ورخاء وأماناً ((ولم يبلغ أحد من بني أمية في الولاية مدته فيها)) (4).

عبد الرحمن الثالث والخلافة:

كان أمراء بني أمية منذ أقام دولتهم في الأندلس عبد الرحمن الداخل (5) ، عازفين على ألقاب الخلافة مكتفين بلقب الإمارة ، فلم يلقب أحد بلقب خليفة أو أمير المؤمنين ، احتراماً منهم _ ولو بصورة لاشعورية _ لوحدة المسلمين ، ومهابة لمنصب خلافة . وقيل في تعليق ذلك : إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك ((بالقصور عن ملك أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية)) (6) ، وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون لمن ((يملك الحجاز والشام والعراق)) (7). ولكن محمد عبد الله عنان يرجع هذا الإحجام بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ،

1 - هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن إذفونش ، من مسالمة الذمة ، وهو كبير الثوار بالأندلس على الأمراء الأمويين من سنة 270هـ ، ثم اعتنق النصرانية سنة 286هـ ، واتخذ اسماً نصرانياً سموئيل . واستمر في ثورته ضد الأمويين ببشتر من كورة رية إلى أن استفحل أمر الناصر فجنح للصلح سنة 303هـ . وتوفي سنة 306هـ . وانقرض أمر بني حفصون من بعده على يد الناصر سنة 315هـ انظر : ابن القوطية. تاريخ افتتاح الأندلس. 103-105 ، ابن حيان .المقتبس. 393 ، ابن عذارى. البيان المغرب . 2:106، 133، 177 ، ابن خلدون التاريخ . 1/4:298 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 32 ، الحميري. الروض المعطار . 69:280-279 ، دوزي . المسلمون في الأندلس. 148 - 141:1.

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2:172، 173.

3 - ابن خلدون . التاريخ. 1/4:310.

4 - الحميدي . جذوة المقتبس. 13.

5 - ابن القوطية. تاريخ افتتاح الأندلس. 46 ، مؤلف مجهول . أخبار مجموعة. 49_51 ، الضبي . بغية الملتبس. 12 ، الحميدي. جذوة المقتبس. 9 - 10 ، ابن عذارى. البيان المغرب. 40 - 60 ، المراكشي. المعجب. 40 ، ابن الأبار . الحلة السبراء. 1:35_36 ، المقرئ . نفع الطيب. 1:299 - 300 ، ابن خلدون. التاريخ. 272 - 1/4:262.

6 - ابن خلدون . المقدمة. 210.

7 - ابن خلدون . المصدر نفسه. 210.

والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات المذهبية والدينية (1) ولما ظهرت الخلافة الفاطمية في القيروان (2) ، وتمت بسرعة دعوته تما إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من الأندلس ، مع قصورهم على امتلاك الحجاز ، قبيل حكم عبد الرحمن الثالث ، كان ذلك في مقدمة البواعث التي حدثت به إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحي ، بعد أن توطدت دولتها السياسية بالأندلس — كما تقدم — ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الاضطراب والفوضى ((ذلك حين هاجت الخلافة العباسية وضعفت ، ظهرت الدولة التركية والدلمية)) (3) ، ورأى عبد الرحمن الثالث أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد تراث أسرته الروحي ، وأنه أحق بالخلافة من دولة منحلّة وأخرى طارئة ، أعلن نفسه خليفة سنة 316 هـ ، وكان أول من تسمى بأمر المؤمنين عندما تلاشى أثر الخلافة بالمشرق (4) ، ((وصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية في عقبه)) (5) . وفصل الخليفة الناصر الأندلس عن العالم العربي بعد أن ظلت تخضع لسلطان العباسيين الروحي قبله ، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية .

ومن أهم منشآت الخليفة الناصر العمرانية ، بناء مدينة الزهراء ، لأنه يرى أن البنيان يدل على عظيم الشأن ويخلد ذكره بعد موته ، فقال (6) :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حادث الأزمان
إن البنيان إذا تعاضم شأنه أضحى يدلّ على عظيم الشأن

وفيما يتعلق بسياسة الخليفة في الحكم ، فقد كان يعتمد على الصقالبة والبربر لكسر شوكة الطامحين إلى الحكم وتفتيت عصبيتهم القبلية ، وسيكون لذلك أثره في الحياة فيما بعد.

1 - عنان ، محمد عبد الله . الدولة الإسلامية في الأندلس . 429 .

2 - ابن خلدون . التاريخ . 1/4 : 64 .

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2 : 157 .

4 - ابن خلدون . التاريخ . 1/4 : 298 .

5 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2 : 157 .

6 - ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب . 1 : 179 - 180 .

الحكم المستنصر بالله:

كان الناصر قد آثر ولده الأكبر الحكم (1) منذ حداثة على سائر إخوته وولاه عهده ((وهو طفل صغير في ثماني سنين أو نحوها ، حسبما اقتضاه على الناس من العهد بذلك)) (2) .

وبعد وفاة الناصر سنة 350 هجرية ، تولى ابنه الحكم الخلافة ، وتلقب بالمستنصر بالله (3) ، و لم يكن حين ولايته محدثا في شؤون الحكم ، بل لقد مارسها في حياة أبيه ، فكان عند جلوسه خليفة مكتمل النضج والخبرة .

و استمر الخليفة الحكم المستنصر بالله على منهج أبيه في توطيد أركان الحكم ، وغزو النصارى لرد أخطارها ، وقد علق العلامة بيدال بقوله : ((ووصلت الخلافة في عهده إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة)) (4).

تولى الحكم المستنصر بالله مقاليد الحكم وهو كهل في الثامنة والأربعين من عمره (5) ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولدا ((وكان شديد الكلف يطلب الولد لعلو سنه)) (6) ، على أن القدر حباه بولد أنجبته له جاريتته (صبح) البشكنسية النفارية سماه عبد الرحمن سنة 351 هجرية ، وقالت في ذلك الشعراء (7) ، ولكنه لم يلبث أن مات ، فحزن على فراقه كثيرا ، وأنجبت له (صبح) ولدا آخر ((فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه)) (8)

1 - الحكم المستنصر بالله، انظر ترجمته في: أين الفرضي. تاريخ علماء الأندلس. 1:7 ، الحميدي . جذوة المقتبس. 42_46 ، الضبي . بغية الملتبس. 18 ، المراكشي. المعجب . 51 ، 61 ، ابن الأثير. الكامل في التاريخ. 9: 677 ، ابن سعيد. المغرب. 1: 186 ، ابن الأبار. الحلة السيرة. 1: 200_202 ، ابن خلكان. وفيات الأعيان. 4: 369_372 ، ابن عذارى. البيان المغرب. 2: 233_253 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام. 41 ، ابن خلدون. التاريخ. 1/4: 312-318 ، ابن العماد. شذرات الذهب. 56 - 55:3 .

2 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 41 .

3 - ابن عذارى . البيان المغرب. 2: 233 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام . 41 .

4- محمد عبد الله عنان . الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية. 14

5- ابن الأبار . الحلة السيرة. 1: 200

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2: 237 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 2: 235 ، 237

8 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 42 .

وكان ذلك سنة 354 هـ ، سماه هشاما ، وكان ولي عهده الملقب بالمؤيد (1) . واتفق أن حضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي (2) عند الخليفة ساعة أتاه البشير بولادته ، فقال على البديهة يهنئه (3) :

إطلع البدر من حجابـــــــــــــــــه واطرد السيف من قرابه
وجاءنا وارثُ المعـــــــــــــــــالي ليُثبِتَ الملِكُ في نصابه
بشّرنا سيّدُ البرايـــــــــــــــــا بنعمة الله في كتابه
لو كنت أعطي السير نفسي لم أقض حقا لما أتى به

وبهشام بدأت مكانة (صبح) تسمو في نفس الخليفة و تعظم سيطرتها عليه و يقوى امتلاكها لقلبه . و بعد امتلاكها هذه المكانة المرموقة لدى زوجها أرادت أن تعين وكيلا لأملاك ابنها البكر عبد الرحمن ، وأبلغت الحكم رغبتهما ، وتم اختيار محمد بن أبي عامر(4)-والذي سيخصص له عنصر في هذا البحث_سنة 356هجرية ، فنصبته لخدمتها وخدمة ابنها عبد الرحمن ثم استأثر الله به ، صرف إلى وكالة أخيه هشام

1 - ابن عذارى. البيان المغرب. 2: 237 .

2 - أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة الحاجب المصحفي، من بربر بلنسية ، أديب عمل كاتباً أيام الناصر لدين الله ، وتقلد خطة الوزارة إبان خلافة الحكم المستنصر، ولما آلت إلى هشام المؤيد، تصرف في أمور الدولة، لكن المنصور محمد بن أبي عامر صرفه عن الحجابة وأودعه السجن، واستمرت البلية عليه سنين إلى أن مات سنة 372هجرية. انظر: الحميدي. جذوة المقتبس التاريخ علماء الأندلس. 289. وفيها المعروف بابن المصحف. ابن خاقان. مطمح الأنفس. 166_153. ابن بسام. الذخيرة. 58:1/4. الضبي. بغية الملتمس. 257. المراكشي. المعجب. 62، ابن الأبار. الحلة السراء. 1: 257_267، ابن سعيد. المغرب. 1: 195_196، ورايات المرزبن. 69، ابن عذارى. البيان المغرب. 2: 267، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 60_61، المقرئ. نفع الطيب. 402

3_ ابن عذارى. البيان المغرب. 2: 237 .

4 - محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، الملقب بالمنصور معافري قحطا ني ، أصله من الجزيرة الخضراء قرب جبل طارق ، وهناك ولد ثم قدم إلى قرطبة شابا ، وبها درس وتثقف ، وتقرب من الحكم المستنصر حتى ولّاه عدة مناصب ، وغدا من رجالات الدولة العظام . وعند وفاة الحكم سنة 366 هجرية ، تسلم المنصور زمام الأمور وإن بقي المؤيد الخليفة بالاسم فقط . غزا — كما تقول الروايات — سبعا وخمسين غزوة ، ومات بمدينة سالم سنة 392 هجرية على أغلب الأقوال ، وباني مدينة الزاهرة له ولوزرائه . انظر : ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . 418_419 ، الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . 131-132 ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس . 41-42 ، ابن بسام الذخيرة . 56:1/4 ، الضبي . بغية الملتمس . 115-117 ، ابن عذارى البيان المغرب . 2: 256-279 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 199 - 203 ، المراكشي . المعجب . 72 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 1: 268-277 ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ . 11: 285 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام . 59 ، ابن خلدون التاريخ . 1/4: 318-321 ، المقرئ . نفع الطيب . 1: 399 ، ابن العماد شذرات الذهب . 3: 144 ، فوران، احمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . (رسالة ماجستير) . 7-42 .

سنة 359 هجرية (1). ومع ما عرف به الحكم من رجاحة في العقل و بعد في النظر ، فقد كان ممن استهواه حب الولد وخالف الحزم في توريثه الملك من بعده ، وهو لم يزل في سن الصبا (2) . واعتلّ الحكم المستنصر في أواخر حياته فأسرع لتولية ابنه هشام الحكم ، وأخذ له البيعة سنة 365 هجرية (3). وتولّى محمد بن أبي عامر أخذ البيعة له من سائر الناس ، وهو يومئذ صاحب الشرطة . ثم دعي لهشام في الخطبة في الأندلس و المغرب (4) ، ولازال الخليفة الحكم في علته التي مات بها بالفالج سنة 366 هجرية (5) .

هشام المؤيد بالله:

بعد موت الحكم المستنصر بالله ، ينتهي آخر خلفاء بني أمية الأقباء ، ببيع بعده بالخلافة ابنه هشام المؤيد ، الذي كان فتى صغيرا ، ولأن السياسة تحتاج إلى القوي البصير ، والسياسي القدير ، أفلت الأمر من يده ، و أمسك مقاليد محمد بن أبي عامر الذي سعى بإرادة قوية ، منتهزا في ذلك الفرص المواتية لنشر نفوذه ، و توسيع سلطانه ، و فرض هيئته على حساب زملائه من كبار رجال الدولة يضرب بعضهم ببعض ثم يصرعهم واحدا بعد الآخر غير مبال بضمير أو أخلاق في سبيل الوصول إلى مأربه ، في هذا الصدد يقول ابن خلدون عنه ((تجرد لرؤساء الدولة من عانده و زاحمه فمال عليهم و حطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام و خطه و توقيعه حتى استأصل شأفتهم و مزق جموعهم)) (6).

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2:251.

2 - انظر ابن بسام . الذخيرة . 57:1/4 ، المقري . نفع الطيب . 86-85:3 .

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 2:248،249:.

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 2:299.

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 2:251،253 .

6 - ابن خلدون . التاريخ . 318:1/4 .

محمد بن أبي عامر يسيطر على مراكز القوى:

كانت أول خطوة اتخذها ابن أبي عامر في هذا السبيل هو قتل المغيرة (1) بن عبد الرحمن الناصر ليلة البيعة لهشام ، بممالة الحاجب المصحفي (2) ، وهذه البيعة لم يرغب فيها الصقالبة وبلغه أن جؤذرا وفائقا قائدا الصقالبة يديران على الدولة (3) ، فاستغل محمد بن أبي عامر الخصومة ووجهها لصالحه ، وأخذ يوقع بين الفريقين ، واستطاع بهذه الطريقة أن يشتت قوات الصقالبة وأن يخرجهم من القصر (4) .

وبذلك فصم ابن أبي عامر أول عروة من عرى الخلافة ، ورقاه الخليفة هشام كعماون للمصحفي (5) ، حينها بدأ في اقتناص الفرص المناسبة لكي يطيح به منها :
— موقف الحاجب المصحفي السليبي إزاء هجوم نصارى الشمال نحو قرطبة وانشغاله بالصراع الداخلي على السلطة (6) ، فتصدى محمد بن أبي عامر لهذا الهجوم ، وأحرز انتصارا فأحبه الجيش ، وأخلص له ، والتفّ حوله (7) كما أفاد وجوده في القصر معرفة القوى والمراكز المضادة للإفادة منها في الوقت المناسب ، وكان للمصحفي بحكم استمراره في إدارة الدولة مدة طويلة من التصدي لبعض الطامحين فيصيبه منهم العداوة والخصومة ، الشيء الذي كان يريده محمد بن أبي عامر وتمكن من حشد القوى ضده ، بدافع من العصبية حيناً وبدافع من تقديمه على غيره من قبل الخليفة الحكم في حياته ، فأسرع ((أعالي الوزراء وأعظم الدولة إلى مهاودة المنصور عليه والانحراف عنه إليه)) (8) ،

1— أبو المطرف المغيرة من أبناء الخليفة الناصر الأحد عشر ، قتل الليلة التي توفي فيها أخوه الحكم ، من قبل محمد بن أبي عامر وأصحابه — رغم أنه أخبرهم بأنه موافق على كل ما يقررون — خنقا أمام زوجته وأشاعوا أنه انتحر . انظر : ابن حيان . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . 29 ، ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . 91 ، ابن عذارى البيان المغرب . 260:2-261 .

2— ابن عذارى . البيان المغرب . 260:2_261 .

3— ابن عذارى . البيان المغرب . 259:2 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 60 .

4— ابن عذارى . المصدر نفسه . 259:2 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 60 .

5— ابن عذارى . المصدر نفسه . 254:2 .

6— ابن بسام . الذخيرة . 62:1/4 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 262:2 .

7— ابن بسام . الذخيرة . 62:1/4 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 266:2 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 68 .

8— ابن خاقان . مطلع الأنفس . 161 - 162

ومن هؤلاء الوزراء الذين آثروا ابن أبي عامر على الحاجب المصحفي ، غالب (1) ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله فاستعان به ابن أبي عامر ضد المصحفي (2) ، الذي تآلق نجمه كأبرز الوزراء في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس إلى الموت قتلا في سجن المطبق بالزهراء سنة 372 هجرية (3) .

وبالأسلوب نفسه يقضي محمد بن أبي عامر على غالب بعد أن استقدم جعفر بن علي بن حمدون (4) ، المغربي واستوزره ووثق به ، وقدمه على أعظم رجال الدولة (5) . ثم دبر حيلة لهذا الأخير وتخلص منه كغيره من الذين يهاب جانبهم سنة 372 (6) .

وقد لخص أحد المؤرخين السياسة التي انتهجها محمد بن أبي عامر تلخيصا جميلا بقوله: ((كان آية من آيات الله فطرة دهاء ، ومكر سياسة ، عدا بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم ، ثم عدا بغالب على المصاحفة حتى قتلهم ، ثم عدا بجعفر الأندلسي على غالب حتى استراح منه ، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر هل من مبارز ، فلما لم يجده ، حمل الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعده ، فاستقام له الأمر منفردا بسابقه لا يشاركه فيها غيره)) (7) .

هكذا تخلص محمد بن أبي عامر من منافسيه ، وتوج نفسه بعد ذلك بلقب (المنصور) (8) ، وبذلك أضحى الحاجب المنصور ، سيد الميدان و صاحب السلطة

1- هو غالب بن عبد الرحمن الناصري ، أضحى أيام الحكم المستنصر من أكابر رجالات الدولة . ثم صار حاكم النغر الأعلى ، مقره مدينة سالم . وهو من فرسان الأندلس العظام . دب الخلاف بينه وبين محمد بن أبي عامر صهره ، وانتهى إلى معركة حربية قتل فيها غالب سنة 371 هجرية . انظر: ابن حيان . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . 24-26 ، ابن عذارى البيان المغرب . 2:265 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 62-65 .

2- ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 61 .

3- ابن بسام . الذخيرة . 66:1/4 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 1:259 .

4- جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي ، صاحب المسيلة . كان شيخا من شيوخ زناته المواليين لبني أمية الأندلسيين ، وكان يقوم بأمر العدو ، استوزره ، المنصور بن أبي عامر ، وقدمه على أكابر رجالات الدولة ، ثم قتله سنة 372 هجرية . انظر: ابن حيان . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . 32-34 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 278-280 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 1:216 - 217 . ابن سعيد . المغرب . 1:202 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1:360 ، أعمال الأعلام . 65 ، نفع الطيب . 1:216-217

محمد اليعلاوي . ابن هانئ المغربي الأندلسي . 83-88 .

5- ابن عذارى . البيان المغرب . 2:278 ، 279 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 64 .

6- ابن عذارى ز البيان المغرب . 2:279-280 .

7- ابن عذارى . البيان المغرب . 2:279-280 .

8- ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 77 ، المقرئ . نفع الطيب . 407 .

العليا دون منازع ولا مدافع ، ولم يكن للخليفة هشام المؤيد بالله الذي تمكن من حجه ، وبمساعدة أمه السيدة صبح ولم يسمح لأحد غيره رؤيته أو مخاطبته ، يقول المقري : ((حجب المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بالله بحيث لم يره أحد مذ ولي الحجابة)) (1) . لم يكن الخليفة هشام المؤيد سوى أداة طيعة في يد المتغلب القوي يوجهها كيف يشاء و أبعد من ذلك اعترف له الخليفة بالفضل والاضطلاع بالدولة ، فأذاع المنصور اعتراف الخليفة وتفويضه إياه في جميع الأنحاء (2) وتم ذلك بعد أن قضى على كل نفوذ السيدة صبح (3).

لقد حقق المنصور في النهاية خططه ، وانفراده بالأمر وأصبح صاحب الأمر ، لكن رغم استبداده بالأمر وانفراده بالسلطة ، فقد حرص على المحافظة على شكل الخلافة الشرعية ، والإبقاء على رمز الأمويين ، وأوصى ابنه عبد الملك (4) سلوك نفس الطريق (5) .

عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر :

بعد وفاة الحاجب المنصور سنة 392 هجرية (6) ، أقام عبد الملك بالحجابة بعده ((وخلع عليه (هشام المؤيد) ، وأخرج معه كتابه بولاية الحجابة مكان أبيه)) (7). والملاحظ أن عبد الملك قد ورث كثيرا من صفات أبيه ، واستوسق له الأمر واجتمع الناس على حبه لعدله وإنسانيته وحمانيته للشرع ، وسهره على رعيته ، ونصرته للمظلوم ، وجهاده في سبيل الدين (8) ((حتى أنس الأعداء من دولة بني عامر وعلموا أنها وراثته)) (9) .

1- المقري . نفع الطيب . 521:1 .

2- ابن بسام . الذخيرة . 73:1/4 ، المقري . المصدر نفسه . 93:3 .

3- ابن بسام . الذخيرة . 70:1/4 ، 70 ، 72 ، المقري . نفع الطيب . 92:3 ، 93 ، السلاوي . الإستقصا . 91:1 .

4- هو أبو مروان عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر . ولد بقرطبة سنة 364 هجرية ، وأمه حرة تدعى الذلفاء . تولى الحجابة سنة 392 هجرية . توفي بمرض الذبحة سنة 399 هجرية . انظر : ابن بسام . الذخيرة . 86-78:1/4 ، ابن عذارى . البيان المغرب .

3:3-37 ، المراكشي . المعجب . 78 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 212 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام . 81-82

5- ابن بسام . الذخيرة . 76 : 1/4 - 77 .

6- ابن عذارى . البيان المغرب . 3:3 . أعمال الأعلام . 83 .

7- ابن بسام . الذخيرة . 78 : 1/4 .

8- ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 84 .

9- ابن بسام . الذخيرة . 78 : 1/4 .

ثم ظفر عبد الملك بلقب المظفر سنة 397 هـ (1) من قبل الخليفة هشام المؤيد الذي ((انبسطت حاشية الخليفة هشام على عبد الملك طول مدته في جميع أحوالها ، فحملهم على مرادهم . وانهمك هشام طول أيامه فلم يظهر وقتا فيها ، ولا شهد صلاة ، واحتجب في نزهه الباطنة على رسمه في أيام أبيه المنصور وبلغه منها عبد الملك بغيته)) (2) . هكذانال عبد الملك حظوة الخليفة ورضاه عنه بلقب المظفر ، ولم يتح له أن يتمتع طويلا بهذا اللقب ، إذ اعتلّ ومات بمرض الذبحة (3) ، وضبط أخوه عبد الرحمن (4) الأمر بعده لنفسه (5).

عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر:

لما مات عبد الملك المظفر ، خلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنحول ، وعزاه الخليفة في أخيه ، وقلده الحجابة ، وأصدر له بخطه تسميته بالمأمون ، فتلقب للحين بالناصر ، ثم المأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة (6) كان عبد الرحمن شنحول شابا يمقته الفقهاء ويعدون مولده عارا لايمحي إذ كانت أمه ابنة أحد شائحين : إما قومس قشتالة وإما ملك نفارة (7) . ثم أن سيرته كانت إلى جانب أرومته النصرانية الواضحة ، لها أثرها الواضح في انصراف الشعب عن محبته والعطف عليه ، فقد ((افتتح أمره بالخلاعة ، فكان يخرج من منية إلى منية ، ومن منتزه إلى منتزه ، مع المغنين والمضحكين مجاهرا بالفتك وشرب الخمر)) (8) . وبجانب ذلك أساء التصرف واستعدى الرعية لأنه ((نظر في الأمور نظرا غير سديد ، وأنفق الأموال في غير وجهها ، وأعان على كثير من الناس ، وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم ، ونسب إليهم أباطيل القول

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:13-18 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 88-89 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 4:82.

3 - ابن بسام . المصدر نفسه . 4:86.

4 - هو أبو الطرف عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر ، الملقب بشنحول . أمه عبدة بنت شائجة النصراني ملك نفارة . كانت أمه تدعوه في صغره بشنحول ، وهو تصغير لشائجة لشبهه بأبيها . تقلد الحجابة في الخامس والعشرين من عمره وذلك سنة 399 هـ . قتل بعد ستة أشهر من حجابته وزالت الدولة العامرية . انظر : ابن عذارى . البيان المغرب . 3:38 ، ابن الأبار . الحلة السرياء . 1:270-271 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 89 ، ابن خلدون . التاريخ . 1/4:321-324 ، المقرئ . نفع الطيب . 1:424 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ . 8:225.

5 - ابن بسام . الذخيرة . 4:86.

6 - ابن عذارى البيان المغرب . 3:38 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 90

7 - دوزي المسلمون في الأندلس . 2:161 .

8 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:39 .

والفعل حتى قلق .الناس به وأبغضوه في الله ، وابتهلوا الله في الدعاء عليه)) (1). وكان شنجول هذا نحسا على نفسه وعلى أهل الأندلس ، فمنه انفتح باب الفتنة العظمى ، وفسد الناموس (2) ، فتح عبد الرحمن شنجول بطمعه باب الفتنة بمشروعه أن يستحوذ على ولاية العهد ، ولم يقدم أبوه المنصور نفسه على هذه الخطوة لأنه كان يدرك مدى خطورتها (3) ، ولا أخوه عبد الملك المظفر ، رغم أعمالهما العظيمة ومآثرهما العديدة ، وامكانياتهما المتوفرة في الظفر به (4) ، لكن عبد الرحمن شنجول لم يقدر عواقب مثل هذا التصرف ، ذكر ابن حيان ((وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجزية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحا ، ولا فكر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة)) (5). لقد كان شنجول جاهلا بما أوصى به أبوه المنصور من قبل أخاه عبد الملك ، لكن شنجول تعلق بدعوى الخلافة ، بعد أن تقرب من الخليفة هشام ((واستدنى نسبه منه بالخزولة ، إذ كانت أمهما بشكنسيتين ، فقدرها عبد الرحمن قرابة سما بها إلى ميراث الخلافة)) (6) . وطلب من الخليفة هشام أن يعهد إليه بولاية العهد فوافق (7) ، وكتب عهدا بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر (8) ، هذا الذي جاء فيه الأثر عن النبي (ص) ((لا تقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه)) (9). وخرج شنجول ((يزعم أن الخليفة ولأه عهده صراحة ، واختاره للخلافة دون بني عمه إذ ليس له ولد يؤمل خلافته)) (10).

1- ابن عذارى.البيان المغرب.38:3.

2- ابن سعيد.المغرب.1:213.

3- المقرئ.نفع الطيب.1:405.

4- ابن بسام.الذخيرة.1/4:76-77.

5- ابن الخطيب.أعمال الأعلام.91.

6- ابن عذارى.البيان المغرب.3:42.

7- ابن عذارى.المصدر نفسه.38:3، ابن سعيد.المغرب.1:213.

8- ابن عذارى.المصدر نفسه . 3:44-46 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام.91-93.

9- ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:45 ، ابن الخطيب.المصدر نفسه.92.

10- ابن عذارى.المصدر نفسه.3:42.

وعلى إثر صدور المرسوم ظن عبد الرحمن شنجول أنه أصبح وارث الخلافة فأمر بإفاد الكتب إلى مختلف الأقاليم في الأندلس ، وبلاد المغرب بجزر ولايته للعهد ويأمرهم فيها بالدعاء له على المنابر بالعهد بعد الدعاء للخليفة هشام المؤيد بالله (1) . والشعر صور جانباً من حقيقة تعيين شنجول لولاية العهد ، فهو لم يكن رغبة شعبية ، وإنما يتعين شأنه القدرة الإلهية ، ونفذه الخليفة هشام باعتباره ظلاً له على الأرض فهذا زيادة الله الضبي (2) ، يقول (3):

تَحْيَرُ اللهُ وَالسُّلْطَانَ لِلْأَمَمِ وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهِ اللهُ مِنْ كُلِّ كَرَمٍ

ونجد الشاعر نفسه ، يبرر تقديم شنجول للخلافة ، بالنظر إلى الواقع ، والرجوع إلى ما تقدم من أقوال. والخليفة هشام نفسه، فتش عن مقتدر من بني مروان لولاية العهد، فلم يجد (4):

فالله يشهد للمؤيد أنه قد أحاط أمة أحمد منه بقا
و أحلهم في باذخٍ ممتنع صعب حواشيه عسير الملتقا
أمسى يفتش قومه وعشيرته شحاً عليها و الحميم الألقا
ورجا بأن يُلْفِي إذا ما فتشوا في عبد شمس للخلافة معلما
فراهم متخلفين عن العالا لا يصلحون لأن يسوسوا جردقا
فرمى إلى المأمون أمر جميعهم إذ لم يزل حذباً عليها مُشفقا
قالوا إذا ضعفت قريشٌ أخرت و أبو هريرة قال ذاك مُصدقا
و أتى عن الفاروق أكرم أسوة خبرٌ غدا للخائفين مُطبّقا
لو أن فيكم سالما قدمته ليلى الأمور مغربا و مشرقا

هكذا حفر عبد الرحمن شنجول قبره بيده إذ أن فكرة استحواذه على ولاية العهد، هي الشرارة الأولى التي أشعلت نار الفتنة ، ((ونقم عليه أهل الدولة ذلك، فكان فيه حتفه ، وانقراض دولته ودولة قومه ، وكان أسرع الناس كراهية لذلك الأمويون والقرشيون ، فغصوا بأمره ، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمينية)) (5).

1- ابن عذاري . البيان المغرب . 46:3.

2 - لم نجد ترجمة له .

3 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 94 .

4 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 95-96.

5- ابن خلدون . التاريخ . 223:1/4 ، المقري نفع الطيب . 421:1 .

لقد هزّ هذا الأمر الدولة الأموية هزًّا عنيفا ، وعزّ على المضربين أن ينتقل الملك إلى اليمينيين ، وأن تنقل الخلافة عن قريش ، فانبعثت العصبية العربية القديمة ، وبلغ سخط الأندلسيين ذروته ، ونقدوا أحمد بن برد (1) الذي أنشأ صيغة البيعة ، ومن الشهود أحمد بن ذكوان (2) اللذين جدّا في ذلك السعي الخبيث (3) ، وتغنوا جميعهم بمثل هذا الشعر الذي من نظم الشاعر ابن أبي يزيد المصري (4) ، يقول (5) :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين بعد عمد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجيه ولي عهد

من الطبيعي أن ينتهز الأمويون فرصة العمل ضد غاصب الخلافة في وقت ولى فيه عبد الرحمن شنجول ابنه عبد العزيز خطة الحجابة ولقبه بسيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر عبد الملك (6) ، وبهذا أساء لأهل أخيه وعلى رأسهم الذلفاء ، أمّ عبد الملك التي كانت تتهم عبد الرحمن شنجول بقتل أخيه ليحل محله كما اتهمه القوم بأنه دسّ السم لأخيه المظفر (7) ، ذلك ((أنه قطع تفاحة بسكين غمس أحد جانبيها في السمّ ، تناول هو النصف السليم وأعطى أخاه النصف الآخر)) (8) .

فنشطت الذلفاء للتعاون مع الأمويين ، رغم أنهم أعداء ألداء للأسرة العامرية كلها ، وذلك بواسطة الفتى بشر الصقلي الذي اتصل بالأمويين ووعدهم بتزويدهم بالمال من قبل الذلفاء (9) ، كما أن شنجول أغضب كبار موظفي الدولة بحيث فرض عليهم أن يتزيوا

-
- 1— أحمد بن برد أبو حفص الكاتب. كان ذا حظ وافر من البلاغة والأدب والشعر. وقد شارك في السياسة، وخدم المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك المظفر، وعبد الرحمن شنجول، وعمل أمره في أيام هذا الأخير حتى وصل إلى الوزارة. توفي سنة 418 هـ . انظر: الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس. 188، ابن بسام . الذخيرة. 103:1/1، الضبي . بغية الملتمس . 172.
 - 2— أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان الأموي، قاضي الجماعة على أيام المنصور و ابنه، وهو أول الموقعين على الوثيقة التي استصدرها عبد الرحمن شنجول بتوليته العهد للخليفة هشام المؤيد، واستوزره عبد الرحمن، وتسمى بقاضي القضاة، وظل جليل القدر إلى وفاته سنة 413 هـ. انظر النباهي . المرقبة العليا . 84 ، الضبي . بغية الملتمس. 186، ابن سعيد. المغرب. 1:215، ابن عذارى البيان المغرب. 3:46.
 - 3— ابن الأبار . الحلة السرياء . 1:272.
 - 4— لم نجد ترجمة له.
 - 5— ابن الأبار . الحلة السرياء . 1:272.
 - 6— ابن عذارى . البيان المغرب . 3:47.
 - 7— ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 109.
 - 8— دوزي . المسلمون في إسبانيا . 2:161.
 - 9— ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 109.

بالزّي المغربي ، وخلع قلانسهم الطوال المرّقشة ، التي كانت حسب قول ابن حيان ((على
قديم الدهر تيجانهم التي يباهون بها طبقات الرعية وأهل المملكة)) (1) ، واستبدالها بالعمائم
المغربية دون تفريط ، فاستعان كثير منهم بالبرابر حتى لبسوها ((فكانوا أقبح منظر وأهجن
زيّ وملبس لمخالفة العادة وأصبحوا في الناس فضيحة)) (2).

ومجمل القول: إن الحقد والكراهية على شنجول كانا له من كل مكان ، من جهة
دعوة الأمويين التي تدعمها الذلفاء وتمولها ، تكسب لنفسها الأنصار من عوام قرطبة ، وحتى
من بين بعض صفوف الجند ، واختار هذا السير للغزو أسوة بأبيه وأخيه ، ولم يعر أذنا
صاغية لنصيحة أحد فتياه بالامتناع عن الغزو في هذا الوقت ، وأوضح له أن بني أمية
يأترون به ، ويدبرون للإطاحة به ، فقال: ((والله لو اجتمع بنو مروان إلى مرقيدي ،
وأنا نائم ، ما أيقظوني)) (3).

وكان خروجه من قرطبة في 16 جمادى الأولى سنة 399 هـ (4) ، في أعماق
الشتاء ، ولم يجد مقاومة من قبل النصارى ، فقرر العودة ، وما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى
طارت إليه الأخبار عن قيام محمد (5) بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن
الناصر وسيخصص له عنصر في هذا البحث — بالثورة في قرطبة ، ووراءه أهل الحاضرة ؛
فاقتحم القصر الخلافي ليزيل قريبه الإسمي ويجلس مكانه (6) ، وكذلك الزاهرة سقطت
بدورها في قبضة المهدي ، وعبثت فيها أيدي جنوده نهباً وتدميراً ، فاجتثت جذور الأسرة
العامرية ، وقضت على آثارها (7) ، ورغم كل ما حدث ، فقد قرر عبد الرحمن شنجول

1- ابن عذارى . البيان المغرب . 48:3.

2- ابن عذارى المصدر نفسه . 48:3.

3- ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 96.

4- ابن الخطيب . المصدر نفسه . 96، ابن خلدون . التاريخ . 324:1/4 ، المقرئ . نفع الطيب . 426:1.

5 — هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر. ولد بقرطبة سنة 366 هـ . بويع بالخلافة وعمره ثلاث وثلاثون سنة، بعد
خلع الخليفة هشام، ولقب نفسه بالمهدي، ولقبته العامة المنقشلهشاشته وطيشه وخفته. ولي الخلافة مرتين، وكانت مدة خلافته فيهما عشرة
أشهر وتسعة عشر يوماً، لقي حتفه على يد الخليفة هشام. انظر: ابن حزم . رسائله . 196-197، الحميدي . جذوة المقتبس . 18-19.
الضيبي . بغية الملتمس . 22-23 ، ابن بسام . الذخيرة 1/1 : 45، 44-46 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3:50، المراكشي . المعجب
88-89 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 115، 109-116 ، المقرئ . نفع الطيب . 1:426 ، ابن خلدون . التاريخ 4 : 323-
327 .

6- ابن عذارى . البيان المغرب . 47:3.

7- ابن عذارى . المصدر نفسه . 49:3.

العودة لمواجهة الثورة بالقوة وكان كلما اقترب من قرطبة انفض من حوله جنده (1) ويذكر أنّ شنجول حين لمس تخلي جنده عنه ، تبرأ من ولاية العهد ، وأعلن اقتصاره على الحجابة فلم يصغ أحد إلى كتابه (2) . ونصحه بعض خواصه بالفرار بعد أن رأى اضطراب حاله ، ولكنه أصرّ على السير إلى قرطبة (3) ، على الرغم من تفرق جنده — كما سنرى — وما زال سائرا حتى اقترب من قرطبة فلم يجد أحدا من رجاله ، وهناك أرسل إليه المهدي من قتله واجتز رأسه وحمله إليه ، وسمّر على خشبة طويلة على باب السدة من قصر قرطبة ، وذلك في الثالث من رجب سنة 399 هـ (4) .

هكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مذهشة لم يكن يتوقعها أحد ، والتي لبثت زهاء خمسة وثلاثين عاما ، تنعم الأندلس في ظلها بالسلامة والأمن والرخاء (5) .
ومن الواضح أن هناك أسبابا جوهرية — قد تقدم بعضها — لمثل هذه الفتنة العظمى ، كما يصفها المؤرخون ، وسقوط الخلافة الأموية كما سنرى .

1- ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 97-98 ، المقري . نفع الطيب . 1:462.

2- ابن عذارى . البيان المغرب . 3:69.

3- ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:70

4- ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:73 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 98 ، المقري . نفع الطيب . 1:426.

5- فورار ، احمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . (رسالة ماجستير) . 52.

الفتنة العظمى:

بعبد الرحمن شنجول انفتح باب الفتنة العظمى بطمعه على أن يستحوذ على ولاية العهد بعد الخليفة هشام ، وتنقل الخلافة جملة من المضربة إلى اليمينية (1) ، فعز على الأمويين والقرشيين والأندلسيين ذلك ، وأزعجهم هذا الحادث ، يقول ابن عذارى ((كانت عندهم أعظم محنة ، كلهم يعزي عنها نفسه ، ويكفكف عبرته)) (2).
كان هذا فيما يبدو هو السبب المباشر والرئيسي الذي مهد للفتنة التي انتهت بسقوط الدولة العامرية ، وقدمت لاضمحلال الخلافة الأموية في الأندلس وانحلالها (3).
ولقد تقدم توضيح دور الذلفاء أم عبد الملك المظفر في تعاونها مع الأمويين ، وتمويلهم للإيقاع بعبد الرحمن شنجول (4) ، بالرغم مما أسبغه عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك من ضروب الرعاية والإكرام (5). كما انضم إلى هذه الدعوة أهل الأسواق لنقمتهم على شنجول هذا الذي ((أكثر أنواع النكر والزيادات والإسعاف بالمحلات حتى تفاقم أمر النفقات)) (6). وحتى كبار الموظفين أغضبهم بعد أن فرض عليهم أن يتزينوا بالزي المغربي كما تقدم (7) ، فتعاطفوا مع هذه الدعوة. ومع اتساع نطاقها وازدياد المنضوين إليها ازدادت تنظيما ، فاتخذت قاعدة لها في كهوف جبل قرطبة (8) ، بزعامة محمد بن هشام الذي قتل عبد الملك المظفر أباه لنفس الدعوة (9) ، فبويع سرا ، واستمال إليه خلقا كثيرا كانوا يبائعونه بأطراف قرطبة (10) ، ثم واته فرصة خروج عبد الرحمن شنجول في غزوته المشؤومة ، فقام بالثورة في قرطبة ووراءه أهل الحاضرة — كما

-
- 1 - انظر هذا البحث . 11 .
 - 2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 47:3 .
 - 3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 42:3 .
 - 4 - انظر هذا البحث . 12-13 .
 - 5 - ابن عذارى . البيان المغرب . 52:3 .
 - 6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 47:3 .
 - 7 - انظر هذا البحث . 13 .
 - 8 - ابن عذارى . البيان المغرب . 53:3 .
 - 9 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 34-35:52 .
 - 10 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 53:3 ، ابن الخطيب . أعمل الأعلام . 109 .

تقدم — واقتحم القصر الخلافي مع العامة، فيهم من ((العنازين والجزارين والسفلة وسائر غوغاء الأسواق ما لا يحصيهم إلا الله تعالى)) (1)، دون مقاومة ، وهي تصيح في وجه الخليفة هشام ، قائلة: ((لا حاجة لنا بك وليس الملك من شأنك وهذا ، مشيرة للمهدي ، أولى به منك)) (2) ، وفي تلك الليلة تنازل هشام المؤيد عن الخلافة ، وتلقى محمد بن هشام البيعة بلقب المهدي ((لقب لم يلبسه مروان قبله)) (3) ، ثم سقطت الزاهرة بدورها في قبضة المهدي ، بمشاركة العامة، كما انضم إليهم من اللصوص الجرمين الذين أطلق سراحهم من سجن العامة (4) ، وتدفقت حشودهم على المدينة كالسيل الجارف واجتاحوا سورها فخرّبوه (5) ، وانتشروا في المدينة ينهبون تحفها ويسلبون روائعها ، وكل ما وقعت عليه أيديهم — بعد أن استصفى المهدي ما يرغب فيه — ثم أمر بهدمها واقتلاع أبوابها وتشعيث قصورها وطمس آثارها (6) وكان نبوءة المنصور بن أبي عامر قد تحققت ، حينما قال: ((ويها لك يا زاهرة فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب)) فرد عليه بعض خاصته مستفهما ، فقال: ((والله لترون ما قلت، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبرسومها قد غيرت ، وبمبانيها قد هُدمت ونُحيت ، وبخزائنها قد نُهبت، وبساحتها قد أضرمت نار الفتنة وأُهبت)) (7) . ويروي واحد من خاصته أنه كان مع المنصور يوما فطلع ابنه عبد الرحمن وهو ابن سبع سنين خارجا إلى الكتاب ، قال: تأمل من طلع علينا والذي يكون خراب دولتنا على يديه، وأنا أخشى أن يكون هذا (8) ، وكان كذلك إذ لم تطل المدة وتولى عبد الرحمن شنجول الحجابة ، فقام المهدي والعامة عليه ، وخربت الزاهرة، وصارت قاعا صفصفا (9) ، وتحقق ما كان الناس يرددونه من أن رجلا من الصالحين

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 56:3.

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 56:3.

3 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 111.

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 56:3.

5 - سالم، السيد عبد العزيز . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة . 347.

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 65،64:3 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 101-102،111.

7 - المقرئ . نفع الطيب . 589:1 ابن عذارى . المصدر نفسه . 65:3.

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 65:3 .

9 - المقرئ . نفع الطيب . 590:1 .

مرّ بالزاهرة فصاح: ((يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك في كل دار)) (1).
لما وصلت أنباء الثورة التي وقعت في قرطبة ، إلى عبد الرحمن شنجول ، وهو قرب
طليطلة — كما تقدم — سار إلى قلعة رباح (2) ، والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود
فرق جنده (3) وهناك ، حيث أعلن تنازله أولاً عن ولاية العهد ، واقتصر على الحجابة ،
وأنفذ كتبه بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يدعو الناس إلى نصرة الخليفة هشام المظلوم ،
وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدي ودهماء أهل قرطبة من العيث
والسفك ، فلم يصغ أحد إلى كتابه وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح الكبير مولى
أبيه (4) ، وهو يومئذ والي طليطلة (5) وحاول شنجول في الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد
على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، وعلى رأسهم زعماء البربر من زناتة وصنهاجة ،
الذين أدركوا عدم فائدة ذلك ، وعدم المغامرة بمحاربة أهل قرطبة للأسباب — التي تقدم
بعضها — التالية:

— منها ما أفضى به القاضي أحمد بن عباس بن ذكوان ، وكان قد صحب شنجول
في غزاته ، من أنه يتبرأ من شنجول ويقضي بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من الثورة
لنصرة الخليفة المظلوم ، بقتال أهل قرطبة ، وفيهم من العلماء والنساء والأطفال (6) وابن
ذكوان هذا كان من الساعين لانتزاع ولاية العهد من هشام كما تقدم (7) .
— إن موقف القاضي ابن ذكوان قد قوى من عزم زعماء البربر على التخلي عن شنجول،
وقد صارحه كبيرهم محمد بن يعلى الزناتي، قائلاً: ((إياك أن تغترب فليس والله يقاتل عنك
أحد من زناتة، والناس لهم تبع)) (8) وهناك دافع آخر لتخلي البربر من زناتة وصنهاجة

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 65:3 ، المقرئ . المصدر السابق . 590:1 .

2 - قلعة رباح، مدينة محدثة في عهد بني أمية، تقع بين قرطبة وطليطلة . انظر: الحميري . الروض المعطار . 469.

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 66:3 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 69:3 .

5 - عنان، محمد عبد الله . الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية . 141 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 67:3 .

7 - انظر هذا البحث . . 10، 11، 13.

8 - ابن عذارى . البيان المغرب . 68:3 .

عن شنجول ، فهم يرون أهلهم وأموالهم في قرطبة ، ولا يضمنون وقوع المكروه بهم إذا حاربوا أهل قرطبة (1).

وكان إلى جانب شنجول في جنده أحد أعوانه من القمامسة ، وهو شانجة بن غومس ، رافقه لاسترجاع حكمه في قرطبة ، فلما رأى اضطراب حال شنجول ، وتأكد من صحة أخبار المهدي وظهوره ، قال له شانجة بن غومس : ((أخبرني عن هذا الرجل بقرطبة ، أنت أشرف أم هو ، قال: بل هو ، قال: الناس أميل إليك أم إليه ، قال: ما أراهم إلا إليه أميل)) (2) .

بعد أن أدرك شانجة بن غومس وهن شنجول نصحه بأن يأخذ باليقين ويترك الظن مادام جنده عليه ، وأن يرحل ، وهو معه ، لكن شنجول أصر على الإشراف على قرطبة ، فقرر القومس شانجة بن غومس مرافقته وفاء بعهده (3) ولما أشرف شنجول على قرطبة ، استراح في منزل هانئ ، تخلى عنه الجميع ((نزع عنه عامة البربر... وابن ذكوان ووجوه الصقالبة العامريين ووجوه الأندلسيين)) (4) ، ولم يبق معه إلا ((نفر يسير من حرمه وحشمه وابن غومس معه في نفر من النصارى ، وتفرق القوم أيادي سباً)) (5). ولما حاول الهرب أدركته خيل المهدي ، واقتادته إلى قرطبة ، وعندما حاول الانتحار قتله المرافقون له ، وقتلوا شانجة بن غومس بعده وأنه ما نطق بلفظة واحدة (6).

هكذا فتح عبد الرحمن شنجول باب الفتنة بطمعه في ولاية العهد ، وزندقته ومجونه ، لتعظم الفتنة في عهد الخليفة المهدي كما سنرى .

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 67:3 .

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 70:3 .

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 70:3 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 71:3 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 71:3 .

6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 71:3 .

خلافة المهدي والفتنة العظمى

جلس محمد المهدي على كرسي العرش ، بعد أن أزاح الخليفة هشام وسد عليه أبواب القصر (1) ، وانقضى عهد الثنائية ، سلطة الخليفة الشرعي الاسمية، وسلطة حاجبه المتغلب عليه الفعلية ، ليفسح مجالاً لعودة السلطة الموحدة (2).

ويعد قيام محمد المهدي انتصاراً لعامة قرطبة ، وسيطرة لها على الحكم ، واستقبل القرطبيون قيامه بسرور عظيم ((وأقاموا ولائم وأعراساً ، وداموا على ذلك أياماً تباعاً ينتقلون من موضع إلى موضع بالمزامر والملاهي)) (3) ثم شرع محمد المهدي في بناء دولته معتمداً في ذلك على أحفاد عبد الرحمن الناصر ، وأبنائهم ، فعين سليمان بن هشام بن سليمان الناصر ولياً لعهد (4) ، واستلحق من العامة في ديوان العطاء حسب ابن الخطيب ((ويقال: إنَّ عِدَّةً من تبعه من سفلة قرطبة، فأثبت أسماءهم في العطاء ، خمسون ألفاً)) (5) . واستتب الأمر لمحمد المهدي أكثر ، بعد أن أعلن الفتي واضح في كتاب أرسله إليه يؤكد فيه طاعته له ، وييدي استبشاره بقتل عبد الرحمن شنجول ، وكافأه المهدي على ذلك بأموال ، وقيادة الثغر الأعلى كله (5) . ولا يخفى أن الثغري يمثل الثقل العسكري بالنسبة للأندلس (7) .

وبعد أن تمَّ للمهدي مراده ، وانتظمت الخلافة له ، والخليفة هشام في قبضته ، أخرجته من قصره ، وأخفاه في دار بقرطبة ، وأحضر رجلاً نصرانياً أو يهودياً ، ميتاً للقصر ، وكان يشبه الخليفة هشاماً ، وأحضر المهدي الوزراء والفقهاء ، فشهدوا بأنه الخليفة هشام ميت لا أثر فيه من جرح ولا خنق ، وبزعمهم صلوا عليه ودفن ، وكانت هذه الميتة الأولى من ميتاته (8) .

1 - ابن عذارى البيان المغرب . 77:3 . ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 112 .

2 - عنان، محمد عبد الله . الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية . 146 .

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 74:3 .

4 - سليمان بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر: انظر ابن عذارى . البيان المغرب . 78:3، 84 .

5 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 111 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 76:3-77 . ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 112 .

7 - بدر، أحمد . تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، عصر الخلافة . 204-205 .

8 - ابن عذارى . البيان المغرب . 77:3-78 .

وحصل المهدي على كتاب فيه جميع ما تركه الخلفاء الأمويون وذخائرهم من نفيس الأعلام والجواهر والأمتعة الغالية والآنية فاحتوى عليه (1):

بهذا الميراث الذي احتججه المهدي لنفسه ، وما استأثر به أثناء خراب الزاهرة — كما تقدم — على حساب المر وانيين من أحفاد الناصر وأبنائهم ، فحاول أن يجسم الخلاف بسجن وليّ عهده سليمان بن هشام بن الناصر ، وسجن معه جماعة من قريش (2) ، فكان ذلك ((في الغاية من قلة الرياسة)) (3) .

ولم يمض طويل على عهد المهدي حتى أدرك الأندلسيون أنهم ليسوا أحسن حالا مما كانوا عليه ، في عهد شنجول ، فقد شغلته أسباب اللهو في قصره عن الخروج إلى الرعية، والنظر في أمورها ، فقد كان له مائتان من الموسيقيين يعزفون له شجي الأنغام ، واستعمل من الخمر مائة خابية (4) ، يقول ابن عذارى: ((ولم يزل طول مدته مشتهرا بالفسق مظهرا للخلاعة ، لايفيق من سكر ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي)) (5) . يتضح أن المهدي أظهر من الخلاعة والفسق ((واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها)) (6) ، وحتى الخليفة هشام وجد جاريتين من جواربه قد حبستا منه (7) ، وحتى الشعراء انتقدوا تصرفاته ، قال بعضهم فيه (8) :

لقد ولّوا خلافتهم سفيها ضعيف العقل شينا غير زين

وقال آخر (9) :

قد قام مهدينا ولكن بملة الفسق والمجون

وشارك الناس في حريم لولاه ما زال بالمصون

بهذا السلوك كان المهدي أثار حفيظة رجال الدين ، وصبوا عليه لعنائهم ، كما كانت

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 76:3 .

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 78:3 .

3 - مؤنس، حسين . موسوعة تاريخ الأندلس . 403:1 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 80:3 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 80:3 .

6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 80:3 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 91:3 .

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 80:3 .

9 - المقرئ . نفع الطيب . 426:1 .

غلظته عاملا على ضياعه لدى العامة ، ((قد حدث أن بعث إليه واضح برؤوس كثيرين من سكان الثغور الذين رفضوا الاعتراف به فأمر أن ترشق بالزهور وأن توضع على شاطئ النهر تجاه قصره ، وكان يلذ له إنعام النظر في هذه الحديقة العجيبة)) (1) .

بعدئذ انقلب محمد المهدي على العبيد العامريين ، وعلى الطائفة البربرية ، وأساء إليهما ، فاستوحشوا منه، أما العبيد العامريون ، فغادر كثير منهم قرطبة ولجأوا إلى شرق الأندلس (2) ، حيث أقاموا دولا فيه ، كما سئرى .

وأما البربر فإن المهدي لم يحسن مقابلتهم ويجذبهم إليه ، رغم أنهم تحولوا عن نصره عبد الرحمن شنجول ولحقوا به ، بل كان يغتنم كل فرصة لإظهار احتقاره لهم ، وكرهيته لهم ، وطالبهم بوضع السلاح عند دخولهم القصر (3) ، فكان ذلك غفلة كبرى منه ((إذ كان البربر يعرفون قدرهم ويدركون خطرهم لما ألفوه من احترام البلاط وتبجيله لهم ، ثم تعودوا أن يكونوا في الدولة الجماعة التي يعتد بها)) (4) .

وأما رجال المهدي الموكلون بالقصر ، فإنهم يحرصون البربر بالبغض والكره ، فإنهم يبادرونهم بما يكرهون ، ويسمعونهم الخنى من غير تمييز بين أدانهم وأعلامهم (5) ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوي بن زيري بن مناد (6) الذي كان قومه ملوك إفريقيا، يملكون من طرابلس إلى طنجة (7) ((احتبس بالباب للازدحام مدة، لا يفرج له ولا يعرف مكانه ، وكلما همّ بالاستقدام رثوه وقرعوا رأس فرسه، فلما أكثروا

1 - دوزي . المسلمون في الأندلس . 170:1 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 82:3-83 .

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 75:3 .

4 - دوزي . المسلمون في الأندلس . 170:1 .

5 - ابن عذارى . البيان المغرب . 75:3 .

6 - هو زيري بن زيري بن مناد الصنهاجي، يكنى أبا مثنى، عبر إلى الأندلس مع أبناء أخيه ماكسن، في عهد الدولة العامرية، رغبة في الجهاد. وكان زاوي هذا ليث الحروب، ورجل القبيل قاطبة، دهاء وحزما وحصافة وصبرا وإقداما ورأيا. خدم قومه شهير الذكر. فلما احتل بناء الخلافة بالمهدي، أشار على قومه مبايعة سليمان المستعين، ثم أقام ملكه في غرناطة فيما بعد، وفي سنة 416هـ رحل إلى إفريقيا، واستقر في القيروان إلى أن مات بالسهم هناك . انظر: الضبي . البغية . 296 ، الأمير عبد الله. كتاب التبيان ، 22، 19، 20، 17، 25، 24 . ابن عذارى . البيان المغرب . 263:3-264 ، ابن سعيد . المغرب . 106:2 . ابن الخطيب. أعمال الأعلام 228-229 . الإحاطة . 513:1-517 ، مؤلف مجهول . مفاخر البربر . 43 .

7 - ابن عذارى . البيان المغرب . 75:3 ، ابن الخطيب . الإحاطة . 513:1 .

عليه جعل يقول : هذا الرأس فاضربوا ، فالدابة لا ذنب لها)) (1) ، كما نُهبت دور كثيرة بالرصافة لجماعة البربر ، وسبب ذلك أن المهدي بردأته وسوء تصرفه ، أصدر أمرا في ذلك اليوم يقول فيه : ((لا يركب أحد من الغزاة — إشارة إلى البربر — ولا يحمل سلاحا ، ولا يأت القصر)) (2) واتفق أن ركب زاوي بن زيري في جماعة معه ، فردوا عن باب القصر في غاية الذل (3) ، ولما رأى هشام(4) بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر رداءة المهدي، وإهانتته رؤساء البربر وزعماءهم (5) ، وما صنعه المهدي له ولابنه ، يقول : ((ظلمت وأوذيت وسُجِّن ولدي على غير شيء)) (6) . ويرى أنه أحق بالأمر من المهدي (7) ، وخشي سوء العاقبة على بني أمية، فأخذ يسعى في خلع المهدي ، وانضم إليه جماعة الناقمين ، من الفقهاء والعبيد العامرين ، والسبعة آلاف الذين أسقطهم المهدي من ديوانه (8) ، فألف سليمان منهم جيشا، ولقبوه بالرشيد (9) زد على ذلك أن المهدي أشاع عزمه على قتل رجال من كبار البربر ، فقد كان هذا أكبر دافع لهم على التفكير في أمرهم ، وإذ ذاك التفوا حول الرشيد ، وقاموا بثورة ضد المهدي ، إلا أنها لم يكتب لها النجاح ، إذ استطاع المهدي وجموعه أن يَحمِدوها ويقضوا عليها في المهد ، وقبضوا على الرشيد وجماعة من بني عمه ، قَتَلهم المهدي (10) ونُهبت ودمرت دور جماعة من خواصه ، وكذا دور البربر الذين دافعوا عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط ضاحية قرطبة (11) وأمر المهدي بأن ينادى في الناس عن مكافأة لكل من أتى برأس بربري ، فتسارع أهل

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 75:3.

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 75:3.

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 75:3.

4 - هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالرشيد، هو والد سليمان ولي العهد. قام على المهدي في 5 شوال سنة 399هـ، فأسر وضرب المهدي عنقه . انظر: الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . 48 ، ابن بسام . الذخيرة . 941:2/1 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 78:3، 79 . ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 113 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 78:3.

6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 79:3.

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 79:3.

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 78:3.

9 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 82:3-83.

10 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 81:3، 84.

11 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 81:3.

قرطبة في قتل من قدروا عليه ، ومن بينهم عدة من الزعماء البربر ، وقتلوا النساء الحوامل ، وقتلوا سبعة عشر رجلا من أهل تلمسان قدموا للجهاد في سبيل الله ، ونهبوا ديارهم ، وهتكوا حريمهم وسبوا نساءهم وباعوهن في دار البنات ، وقتلوا حتى بعض من أتوا من حراسان والشام على أنهم بربر ، وكثير من زعمائهم (1) وقد لخص لنا هذا الحادث أبو طالب عبد الجبار (2) ، بقوله (3):

فجاءه البربر في حفل الجنود مع ابن عمه المسمى بالرشيد
فظفر المهدي بابن عمه وكان ذاك زائدا في غمه

يتضح — مما تقدم — أنه بعبد الرحمن شنجول انفتح باب الفتنة ، وبالمهدي عظمت ولم يكن لها من آخر ، والمؤرخون العرب أحسوا كلهم بمسؤولية المهدي عن هذا العمل الطائش ، يقول ابن الأبار إنه: ((باعث الفتنة بالأندلس ، وموقد نارها الخامدة ، وشاهر سيفها المغمدة)) (4) ، وبالطريقة نفسها يعبر ابن بسام عنه إنه ((مفرق الجماعة بقرطبة ، ومبتعث الفتنة المسبيرة)) (5) ، ويشير ابن الأبار إلى عظمة الفتنة بقوله: ((وقعت الفتنة العظمى بالأندلس ، وأول من أرت نارها ، وأورث شنارها ، محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي)) (6) ، ونجد ابن عذارى يصف هذه الفتنة بالعظيمة والطويلة ، ويلقي مسؤولية نتائجها على المهدي ، بقوله: ((كان هذا من فعل السفية ابن عبد الجبار ، ورأيه سبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية ، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى)) (7) . ويؤكد ذلك بعض الباحثين عربا وغيرهم (8).

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 82:3، 81

2 - هو أبو طالب عبد الجبار ، كان يعرف بمتني الأندلس ، له شعر في أوصاف شتى ، وله أرجوزة أوردتها في تاريخ الأندلس . عاش بعد الخمسمائة بدليل ذكره لعلي بن يوسف بن تاشفين ، الذي توفي سنة 537هـ . ويجدد الزركلي وفاته سنة 516هـ . انظر: ابن بسام الذخيرة . 2/1: 916 - 944 ، العماد الأصفهاني . خريدة القصر وجريدة العصر . 2: 210 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 371 ، الزركلي . الأعلام . 4: 48 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1: 941

4 - ابن الأبار . الحلة السيرة . 2: 5

5 - ابن بسام . الذخيرة . 2: 1/27

6 - ابن الأبار . الحلة السيرة . 2: 30 . 7- ابن عذارى . البيان المغرب . 76

8 - مؤنس ، حسين . موسوعة تاريخ الأندلس . 1: 402 ، عنان ، محمد عبد الله . الدولة العامرية و سقوط الخلافة الأندلسية . 147 ، دوزي . المسلمون في الأندلس . 171، 2: 170 ، بيريس ، هنري . الشعر الأندلسي في عصر الطوائف . 14 .

بهذا يكون المهدي قد فرق الجماعة ، وأساء لكل طائفة، يقول ابن الخطيب مشيراً إلى هذا الحدث في أرجوزته (1) :

ثم محا الخلافة الخلاف
فلم يكن من بعده ائتلاف
فغلب الأمر المسمى المهدي
وأصبح الدين به في جهد

وكان محمدا المهدي لم يستقرئ التاريخ ليرى دور البربر بقيادة طارق بن زياد البربري ، الذي عبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، بنحو سبعة آلاف جندي بربري ليس فيهم من العرب إلا القليل (2) ، تلبية لنداء الجهاد المقدس، وهذا ما تؤكد الأبيات التي قالها طارق بن زياد (3) عند الفتح (4) :

ركبنا سفينا في الجاز مقيرا
عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة
إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا

ثم توالى عبور البربر إلى الأندلس لنفس الهدف كما سنرى

1 - ابن الخطيب . رقم الحلل . 39 .

2 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 17 .

3 - طارق بن زياد، بربري، من نفزة، زناقي، ويبدو أن أباه زياد قد أسلم أيام عقبة بن نافع، وحسن إسلامه، وخلفه ابنه في خدمة ولاية المسلمين. وكان طارق عسكريا ناجحا، وقائدا ممتازا، مخلصا للإسلام، متحمسا لنشره. ويبدو أنه كان صغير السن حين أسند إليه موسى بن نصير هذه المهمة الكبرى. وكان طارق يومئذ واليا على طنجة، وركب في أربع سفن من صنعهم، سنة 92هـ وعبر المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد، مضيق جبل طارق، وبكل اللغات. وكانت أول مدينة فتحها طارق هي الجزيرة الخضراء، ثم سار للملاقاة ملك النصراري لظريف، بعد أن دعم بمدد يقدر بخمسة آلاف جندي بربري، والتقى طارق بجيشه القليل مقارنة بجيش لظريف المقدر بنحو مائة ألف جندي، في مكان يعرف بوادي لكه، وهو يصب في البحر غير بعيد عن رأس جبل طارق وانتصر المسلمون في هذه المعركة الشهيرة، وقتل فيها لظريف على أغلب الأخبار. وواصل طارق فتوحاته، فسار نحو طليطلة، عاصمة ملك النصراري، ثم عبر موسى سنة 93هـ بعد أن عز عليه أن ينسب الفتح لقائده غيره، وحسد طارقا على ذلك، ودار بينهما اختلاف. ثم تابع الفتح متوغلين في بلاد النصراري إلى أن طلب موسى من قبل الخليفة الأموي، ورحل إلى الشام وبصحبته طار الذي لم يحسن الخليفة الأموي معاملته، فانزوى ومات في حمول. انظر: ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس . 29-30، 33-36 ، مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 17-35، 27-36 ، الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . 31-33 ، ابن حزم . رسائله . 2:128 ، الإدريس . القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق . 263 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 1:43، 9، 5، 2، 4:16 ، المراكشي . المعجب . 32-34 ، الحميري . الروض المعطار . 34-605، 530، 511، 396، 382، 223، 35 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 5:328، 323-329 ، ابن خلدون . التاريخ . 1/3: 295-296 ، المقرئ . نفع الطيب . 1:159، 229، 161-290 ، مؤنس، حسين . فجر الأندلس . 68، ولنفس المؤلف . موسوعة تاريخ الأندلس . 1:17-24 ، الحجي، عبد الرحمن علي . التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة . 56، 46، 128-62 ، دوزي . المسلمون في الأندلس . 1:43-46 ، العبادي، أحمد مختار . في تاريخ المغرب والأندلس . 56-75 .

4 - المقرئ . نفع الطيب . 1:265 .

وحاول المهدي أن يعيد الهدوء للبلاد ، ويتخلص من البربر ، فأصدر أمانا ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم ((أن يرجعوا إلى بلادهم فيصبرون حرّاثين كما كانوا)) (1) ، لكنهم غادروا أرملاط وساروا إلى قلعة رباح (2) ، وفي الشمال أخذوا ينظمون أنفسهم استعدادا لمقاومته والإطاحة بعرشه بقيادة سليمان (3) بن الحكم بن سليمان ، كما سنرى .

سليمان المستعين بالله:

لقد رفض البربر طلب المهدي الذي سيفرقهم في الأرض ويضعفهم ويعدون عن السلطة ، وفي الشمال كان قد فرّ من قبضة المهدي ، من بني أمية بعد هزيمة هشام بن سليمان وقتله ، ابن أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان يومئذ إماما للبربر ، فبايعوه خليفة لهم ، وتسمّى بالمستعين بالله (4) ، وذلك في عقب شوال سنة 399هـ (5) ، واتجه الخليفة المستعين بالله بجيشه نحو مدينة سالم في أقصى شرق الأندلس (6) ، وعرضوا على واضح الفتى أن يعمل صلحا بينهم والمهدي ، على أن يكون سليمان وليّ عهده ، ويستقر بذلك وضع المسلمين ، لكن واضحا رفض ذلك بعدما أنجده المهدي بمدد من قرطبة (7) ، كتب إلى سائر الثغور أمرا جاء فيه: ((من حمل شيئا من الطعام إلى محلّة البربر، فقد حلّ ماله ودمه)) (8) . وهذا يعرض جيش المستعين للموت جوعا ، واستمر الحال كذلك ، خمسة عشر يوما ، يقتاتون بمحشيش الأرض (9) . فأرسل

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 82:3 .

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 82:3 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 113 .

3 - هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، يكنى أبا أيوب، ويلقب بالمستعين (354هـ — 407هـ)، هو ثاني من تولى الخلافة من الأمويين بعد الفتنة ولي الأولى سنة 400 هـ، والثانية سنة 403 هـ دارت بينه وبين المهدي في الفترتين حروب شديدة انتهت بانتصاره وهو يتزعم البربر، وقتل على يد الحموديين وهم من جنده سنة 407 هـ . حكم في الفترتين ست سنين وعشرة أشهر . وكان من أهل العلم والفهم فصيحاً شاعراً . انظر ترجمته :ابن حزم طوق الحمامة . 48 . رسائل ابن حزم . 2: 2197-199 . ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 35-48 ، الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . 49 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 91:3 - 113، 95، 117 ، ابن سعيد المغرب . 157، 156:1 ، المراكشي . المعجب . 90 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 119، 114 ، ابن خلدون . التاريخ . 1/4 : 324-327 ، المقرئ نفع الطيب . 1: 428-431 ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ . 7: 268 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 82:3، 83 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 83:3، 84 ، المراكشي . المعجب . 90 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 113 .

6 - المقرئ . نفع الطيب . 1: 400 .

7 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 85 - 86 .

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 86:3 .

9 - ابن عذارى . المصدر السابق . 86:3 .

المستعين بالله وزعماء البربر رسلهم إلى شانجه بن غرسية ابن فرذند (1) قومن قشتالة (3) الذي يرد اسمه عند ابن عذارى ((ابن مامة النصراني)) (4) يطلبون منه مسالمتهم ومساعدتهم على خصمهم المهدي (5) وعند وصولهم وجدوا رسل المهدي ووضح الفتى لدى شانجه هذا ، قدموا له الهدايا ، وطلبوا منه الصلح على أن يتنازلوا له على ما أحب من مدائن الثغر (6) وكأنَّ شانجه بن غرسية قد تحقق له ما كان يأمله بعد ترقبه ما كان يجري من أحداث بين المسلمين ، وتهيأت له الفرصة للقضاء على قوتهم ، وذلك بمؤازرة المستعين بالله وزعماء البربر ، وقدم لهم المؤونة والعون العسكري مقابل إعطائه من مدن الثغر عند انتصارهم ما أحب، بينما رفض عرض المهدي ووضح الفتى (7). توجه المستعين بالله وجيشه والمتحالفون لمحاربة المهدي ووضح ، واشتبك الجيشان عند وادي شرنبة (8) قرب مدينة سالم ، وهزم جيش الأخيرين (9)، وفي ذلك يقول ابن دراج القسطلي (10) من قصيدة يمدح بها المستعين بالله (11) :

واستودعوا جنبي شرنبة وقعةً هداً الجبال الرأسيات وثيئها

ويشيد الشاعر بربر صنهاجة وزناته، فهم العمود الفقري لجيش المستعين بالله،

2 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 113 .

3 - دوزي . المسلمون في الأندلس . 2:172 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:86 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:86 .

6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:86 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:86 .

8 - هذا وادي فرع من نهر تاجه ابن دراج . ديوان . 54، هامش 2 .

9 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:87 .

10 - هو أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج، المعروف بالقسطلي (347هـ - 421هـ). يقول عنه الحميدي: ((كان كاتباً من كتاب الإنشاء في أيام المنصور بن أبي عامر، وهو معدود في جملة العلماء والمقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء، وشعره كثير ومجموع يدل على علمه... وأول من مدح من الملوك المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر)). جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس. 177 ، وانظر: ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 59-96 ، الضبي . بغية الملتبس . 158-161 ، ابن بشكوال . الصلة 40 ، المراكشي . المعجب . 84 - 85 ، ابن سعيد . المغرب . 2:60-62 ، ولنفس المؤلف . رايات المرزبين . 104-105 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1:135-139 ، الحميري . الروض المعطار . 479، 348، 480 ، ابن دحية . المطرب . 145-146 ، النعلالي . يتيمة الدهر . 2:103-116 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 212، 197، 122 ، ابن العماد . شذرات الذهب . 3:217 ، مكى ، محمود علي . مقدمة ديوان ابن دراج . 11-70 .

11 - ابن دراج . ديوان . 54 .

ويتحلون ، مع الأمانة والوفاء لخليفتهم ، بالشجاعة والبأس ضد أعدائه ، يقول (1) :

في قُبَّة الملك الذي صَنهاجَةً وزَنائَةً أَطنأُبها وعمودها
وسَراها ودُعَاها ورُعَاها وبناتها وحماها وأسودها

وسار المستعين بالله وجيشه وحلفاؤه النصارى بقيادة شانجه بن غرسية صوب قرطبة، وبعد وصولهم بثلاثة أيام ، وقعت المعركة في 13 ربيع الأول سنة 400هـ (2) ، في جبل قنتيش (3) ، انتهت بهزيمة المهدي وواضح ، وقتل الكثير من جيش المهدي ، كما قتل أخلاط من الناس ، يقول ابن بسام: ((من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش)) (4)، وأشار ابن دراج في قصيدته السابقة إلى كثرة القتلى ، بقوله (5) :

وشِعاب قنتيشٍ وقد حُشِرَت لهم أمم بُغاةً لا يُكْتُ عديدها(6)
تركوا بها ظهر الصَّعيد وقد غدا بَطْنًا وأجاد العُواة صعيدها

هذا وأجبرت هزيمة قنتيش المهدي على استخدام الحيلة، فأظهر هشاما المؤيد ، وأجلسه حيث يراه الناس في شرفة القصر ، وحاول بذلك أن يستميل البربر، لأنهم كانوا يكثرون من الترحم عليه والمطالبة بدمه (7) ، لكن ذلك لم يغنه شيئاً ، إذ تمسك البربر بخليفتهم وإمامهم المستعين بالله ، وسخروا من ابن ذكوان، رسول المهدي إليهم ، يقول ابن عذارى: ((سبحان الله يا قاضي ، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه ، وجعلوا يتضحكون منه)) (8) ، عندئذ اضطر المهدي إلى الفرار إلى طليطلة في أول جمادى الأولى سنة 400هـ ، ملتحقاً بالفتى واضح الذي كان قد سبقه إليها إثر هزيمة قنتيش (9) .

1 - ابن دراج . ديوان . 54 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 80 - 81 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 36

3 - قنتيش أوقنطش: يشيران بسام إلى الوقعة بقوله: ((وقعة قنتيش المشهورة)) الذخيرة . 1/1: 43 . . المراكشي يشير إليها، بقوله: ((في

جبل هناك يعرف بجبل قنطشن وهو الوقعة المشهورة)) . المعجب . 88-89 . وانظر: ابن الأبار . الحلة السرياء . 2: 6، هامش . 2

4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 44 .

5 - ابن دراج . ديوان . 52 .

6 - لا يُكْتُ: لا يعد ولا يحصى .

7 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 44-45

8 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 89

9 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 89 ، ابن بسام الذخيرة . 1/1: 44، 45 ، ابن الخطيب . أعمال العلام . 114 .

المستعين بالله يدخل قرطبة:

دخل المستعين بالله قرطبة في 17 ربيع الأول سنة 400هـ ، وبايعه أهلها ، وأنفذ الكتب إلى سائر أنحاء الأندلس يخبرهم فتحه قرطبة(1) وانتقل مع جيشه إلى مدينة الزهراء(2) ، وودع حليفه شانجه بن غرسية ، ووعدته ثانية بأن يتنازل له عن القلاع والحصون حين تصبح ملكه ، وجنده الذي جمع ثروة من نهب أملاك الأندلسيين (3) .

ولما استقرت دعائم ملك المستعين بالله ، رحل إلى طليطلة في جمادى الآخرة سنة 400هـ ، يدعو أهلها للاستجابة له ، ولكنه لم ينجح في مهمته لتمسك أهل الثغر بطاعة المهدي وواضح الفتى ، فتجاوز المستعين طليطلة إلى مدينة سالم ، بعد أن أخلاها واضح له، وأوهمه بأنه يعترف به خليفة طالما تركه في منصبه ، فلبى المستعين طلبه (4) ، لكن لجوء واضح إلى طرطوشة (5) ، مكنه من الاتفاق مع حاكم برشلونة (6) ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمقند على أن يساعدها حربيا نظير تخليه لهم عن مدينة سالم ، فدخلها النصارى وحولوا مسجدها إلى كنيسة (7) ، وفرضوا على واضح شروطا قاسية منها: أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم ، ويجرى القومس(الملك)مائة دينار في كل يوم ، وتوفير لهم الطعام والشراب وغير ذلك ، وعلى ما حازوه من عسكر البربر ، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لا يجوز أحد بينهم وبينهم (8).

رحل واضح مع المتحالفين إلى طليطلة، وانضموا إلى المهدي ، وساروا جميعا إلى قرطبة ، والتقوا مع البربر بقيادة المستعين بالله ، بعد أن تخلى عنها أهل قرطبة لعجزهم وجبنهم (9) ، وآثر البربر أن يكون لهم شرف كسب المعركة من أجل خليفتهم المستعين

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 91:3 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 114 .

2 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 114

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 91:3

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 93:3،90

5 - طرطوشة:مدينة بالأندلس شرق بلنسية وقرطبة،وهي في سفح جبل .انظر: الحميري ز الروض المعطار . 391-392 .

6 - برشلونة:مدينة على البحر،والدخول إليها والخروج عنها إلى الأندلس على باب الجبل يسمى بميكل الزهرة.وهي دار ملك الإفرنجية،واليهود يعدلون النصارى كثرة . انظر: البكري . جغرافية الأندلس وأوربا . 96-97 ، الحمير .الروض المعطار . 86-87 .

7 - ابن عذارى . البيان المغرب . 94:3

8 - ابن عذارى .المصدر نفسه .93:3 . - 94.

9 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 94 :3 .

الذي جعلوه في المؤخرة ، ونصحوه ألا يبرح موضعه حتى ولو وطقته الخيل(1) ، ثم تقدموا، فحمل عليهم النصارى حملة منكرة ، فتراجع البربر لهم ليتمكنوا منهم (2) ، تبعا لخطط هجوم الحرب الشرقية (3) فلما رأى المستعين مقدمة الجيش تتقهقر أمام النصارى ، قدر أنهم هزموا فأطلق لجواده العنان ، وكشف بذلك المؤخرة ، على حين كَرَّ البربر على العدو بشدة ، وقتلوا من وجوه النصارى عددا كبيرا (4) ، من بينهم الملك أرمقند ، وقتل للبربر ثلاثمائة من رجالتهم، ولم يقتل لهم فارس واحد (5) ، ولكن البربر لما رأوا المستعين غادر مكانه ، وفرَّ إلى شاطبة (6) انحازوا إلى الزهراء واخرجوا نساءهم وأولادهم وأموالهم ، واتجهوا إلى الجزيرة الخضراء (7) . وبذلك كسب المتحالفون المعركة في عقبه البقر (8) أو دار البقر ، على مسافة غير بعيدة من قرطبة (9) في 14 شوال سنة 400هـ (10) وفي ذلك يقول ابن الخطيب في أرجوزته(11):

وبعد ذا أوقع فيهم وقعه فجُدَّتْ أبطاهم في عقبه

وأما ابن دراج فإنه اضطر أن يتجنب ذكر الموقعة ، وأشار إلى قوات النصارى في المعركة مع المهدي ، ورغم عددها وعدتها ، فقد سقط قائدها أرمقند قتيلا ، يقول (12):

وكتائب الإفرنج إذ كادت في أشياعها والله عنك بعيدها
بسوايح في لَجِّ بَحْرِ سِوَابِغٍ فاضت على الأرض الفضاء مدودها
شَلُوْا لأرْمَنَقُودِهَا حَشْدَتْ بِه للزَّحْفِ ثَمَّ إِلَى الْجَحِيمِ حَشُودِهَا

- 1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 94:3 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام . 114 .
- 2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 95:3 .
- 3 - دوزي . المسلمون في الأندلس . 176:2 .
- 4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 95:3 ، ابن الخطيب ((بحدد عدد كبار قوم النصارى الذين قتلوا بمائتين)). أعمال الأعلام . 115 .
- 5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 95:3 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 115 .
- 6 - شاطبة: مدينة الأندلس وهي حاضرة أهلة بما مساجد وفنادق وأسواق، وقد أحاط بها الوادي. انظر: الحميدي . الروض المعطار. 337 .
- 7 - ابن عذارى . البيان المغرب . 95:3 .
- 8 - الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . 48 ، ابن خلدون . التاريخ . 326:7/4 .
- 9 - المراكشي . المعجب . 89 .
- 10 - ابن عذارى . البيان المغرب . 94:3 .
- 11 - ابن الخطيب . رقم الحل . 40 .
- 12 - ابن دراج . ديوان . 55 .

المهدي يصبح خليفة من جديد:

دخل المهدي قرطبة وأخذت له البيعة للمرة الثانية ، وكان هشام المؤيد أول من بايعه (1) ، ثم أقسم ألا يستقر حتى ينتهي من أمر البربر . وخرجت جميع جيوشه مع النصارى ، في 6 ذي القعدة سنة 400هـ (2) ، ورد في البيان المغرب ((كان مع ابن عبد الجبار يومئذ نحو من ثلاثين ألف فارس دون النصارى ، وكانوا في تسعة آلاف ، فتوجه بهم أتباع البربر)) (3) ، بينما النسبة بين البربر وأعدائهم تقدر بواحد مقابل أحد عشر (4) .

التقى المهدي والنصارى مع البربر عند وادي آروه (5) بالقرب من رندة (6) ، في 6 ذي القعدة سنة 400هـ ، واقتتلوا قتالا شديدا ، ولاقى المهدي والنصارى عناء كبيرا ((وبلوا من البربر قتال المستميت الذي لا يطمع في الحياة)) (7) وفي المعركة ثار البربر لهزيمتهم في موقعة عقبة البقر ، وهزم المهدي ، وقتل عدد كبير من قواده ، وأكثر من ثلاثة آلاف من النصارى ، وغرق منهم في الوادي خلق كثير (8) ، ويشير ابن دراج إلى انتصار البربر في هذه المعركة ، بقوله (9) :

ودنوا لها في آر تحت صوارم
وريت بعز المسلمين زُنودها

ومن باب التفاخر ، يروى عن بعض ضربات الفرسان من البربر في هذه المعركة ، حتى أصبحت مثلا بين الناس آنذ ، وتذكر الرواية أسماء أصحابها: ((كان من عجائب الضراب ، يوم آره المتحدث عنه في الآفاق ، إلى اليوم ثلاث ضربات ، ما سمع بمثلها في الدهر ، مضاء سيوف وقوة سواعد ، لبيضة التي حملت إلى مدينة برشلونة ، والتي وضعتها الإفرنجية في الكنيسة هناك ، اعتبارا ومعذرة ، وضربة حباسة بن ماكسن الصنهاجي فارسا آخر منهم ، بدرع حصينة ثقيلة فهتكت الزرد وقده،وقدت جنب لابسه فجدلته ، وضربة

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:95

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:96

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:96

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3:96

5 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:96 . ابن الخطيب . يسميه ((بوادي يارو من أحواز مريلة)) أعمال الأعلام . . 115

6 - رندة: بالأندلس مدينة قديمة بها آثار كثيرة وهي على نهر ينسب إليها، ويصب في نهر لكّة. انظر: الحميري . الروض العطار . 269

7 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 115 .

8 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3:98 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 115 .

9 - ابن دراج . ديوان . 55 ، الذخيرة . ابن بسام . 1/1 :69 .

بهلول بن تمايت الدمري يخطم فرس علج منهم ففصلت حديدتي اللجام ، ولحيي الفرس جميعا ، ورمت بخطمه وما تكنفه من الحديد ، وخر الفرس لفيه ، فصارت هذه الضربات أعجوبة عند الناس)) (1) .

عاد المنهزمون إلى قرطبة غاضبين ، وأكثروا في القتل من عامة الناس ، ولاسيما كل من يشبه البربر على نحو ما ، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربري ، فيقتلونه دون أن يسألوه ، وقتلوا الأطفال وشقوا بطون الحوامل (2) . وحدث أن أخذ جندي نصراني ابنة رجل من البادية ، جميلة حسنة ، وعرف أبوها الجندي الذي أخذها ، فشكاه إلى واضح ، وقال :إنها ليست بربرية ، فرد عليه قائلاً :لا تتكلم في شيء من هذا ، فما إلى ردها من سبيل ، وعلى هذا عاهدناهم ، مضى الرجل باكياً إلى الجندي ، وبذل له أربعمئة دينار ذهبي ، مقابل ردها إليه ، فأخذها منه ثم قتله (3) .

وطلب المهدي من النصارى معاودة القتال إلى جانبه ، فرفضوا طلبه ، محتجين بالخسائر التي لحقت بهم ، ثم رحلوا إلى بلادهم في 23 ذي القعدة سنة 400هـ (4) . ورغم جميع المساوئ التي ارتكبتها النصارى فقد حزن أهل قرطبة لرحيلهم ، يقول ابن عذارى : ((كان لأهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقي بعضاً فيعزيه كما يعزى من فقد أهله وماله ، أسفا على رحيلهم من وصول البربر إليهم)) (5) .

أما المهدي فقد عدل عن قتال البربر ، تهيأ منهم ، واكتفى بحفر خندق حول قرطبة ، وإقامة سور خلفه (6) ، لكن القدر أراد أن يسقط بيد الصقالبة لايد البربر ، كما سرى . لقد كان وضع قرطبة يسوء بالتدريج ، ويزداد التفكك بين عناصره ، وكان من مظاهره أن الصقالبة وأغلبهم من المعارضين ، استغلوا الفرصة السانحة للانتقام من المهدي ، الذي يصوره المقرئ ، بقوله : ((ولقد كان قيامه مشؤوماً على الدين والدنيا ، فإنه فاتح أبواب الفتنة في الأندلس ، ومأحي معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتشر السلك ، وكثر

1 - العبادي، أحمد مختار . صورة من حياة الحرب والجهاد في الأندلس . 88 ، نقلا عن مفاخر البربر لمؤلف مجهول . ورقة 158 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 97:3 .

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 97:3 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 99:3 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 116 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 99:3 .

6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 99:3 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 116 .

الرؤساء ، وتطاول العدو إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً حتى محا اسم الإسلام منها (((1) . ثم دعم الصقالبية التجار الذين أثقل عليهم بطلب الأموال ، فقاموا يتزعمهم واضح بقتله ، في 8 ذي القعدة سنة 400 هـ ، بعد أن أجلسوا هشاماً المؤيد مرة ثانية (2) . توهم واضح أن المستعين والبربر سوف يعترفون بهشام بن الحكم ، صاحب البيعة في أعناقهم ، لكنه وجدهم على غير ما توقع ، وعرف أن له أعداء في قرطبة ، يرون مصلحتهم في أن يؤيدوا المستعين ، وقد أرسلوا إليه سرا أن يعود إلى قرطبة وحددوا له يوماً ، وأنهم سوف يسلمون المدينة ، ووعدهم المستعين بتحقيق رغبتهم ، ولكن واضحاً تفتن للمؤامرة وقضى على المتآمرين ، وأخفق المستعين بعد أن واجه هجوماً عنيفاً (3) .

لجأ واضح لدعم موقفه إلى كسب ودّ النصارى في الشمال ، ولكن ملوك النصارى وجدوا الفرصة سانحة للاستيلاء على كل ما يرغبون بقليل من التهديد والوعيد ، دون حاجة إلى القيام بحملات حربية ، وإلاّ سوف يساعدون المستعين والبربر ، وتنازل لهم واضح والأندلسيون على أكثر من مائتي حصن سنة 400 هـ . واتخذ ملوك النصارى الحادث مثلاً يحتذى ، فقد طلب ملك نصراني آخر ، التنازل على عدد من الحصون فكان له ما أراد (4) . وبذلك أضعوا كل ما كسبته الخلافة أيام الحكم المستنصر بالله والمنصور بن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك (5) . وعلى هذا النحو ازداد المستعين والبربر عزماً على دخول قرطبة ، بعد حصارها أكثر من شهر ونصف (6) ، انعدمت فيها الأقوات وتفشى الوباء ، وهدمت السيول جوانب كثيرة من قرطبة ، ومات نحو خمسة آلاف ردماً وغرقاً ، وذهبت أمتعة الناس وأموالهم (7) . وكان واضح يرسل كتائب من الفرسان إلى القرى والأقاليم ينهاهم ويعودون ، لأن البربر كانوا يمنعون دخول الأغذية إلى قرطبة ، وهو ينسب ذلك إلى البربر ، فترح أهل الأرياف إلى العاصمة أفواجا ، خوفاً على نفوسهم ، وفنيت مواشيهم ،

1 - المقرئ . نفع الطيب . 577:1 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 99:3 - 100 .

3 - مكّي، الطاهر أحمد . دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . 120 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 103:3 - 104 .

5 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 117 .

6 - مكّي، الطاهر أحمد . دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . 121 .

7 - ابن عذارى . البيان المغرب . 105:3 .

ومات أكثرهم جوعاً بها ، بعد أن ((أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم ، وأكلوا الميتة والجيف ، وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشربون الخمر ظاهراً ، وأصبح الزنا مباحاً ، واللواط غير مستور ، ولا ترى إلا مجاهراً بمعصية)) (1) .

ونسب الجنود إلى واضح ما حلَّ بهم من نكبات ، وعلى رأسهم قائد الشرطة الصقلي ابن أبي وداعة (2) ، عدوه الشخصي ، فأخذ يغذي هذا السخط ضده ، وحين أحسَّ واضح بضعف مواقفه ، حاول مصالحة البربر ، ولكن ابن أبي وداعة أدرك أنه يدبر للهرب فافتحم عليه قصره ، قائلاً له: ((لقد أسرفت في الأموال ، ثم تعترزم بعد ذلك على مصالحة البربر)) (3) . ثم قتله بسيفه في 15 ربيع الأول سنة 402هـ ، وحمل عليه القوم ، واحتزوا رأسه ، وطافوا به البلد ، وألقوا جسده في الرصيف ، إلى جانب جثة المهدي (4) . ومر عام ونصف قبل دخول المستعين بالله قرطبة ، كان فيها حكم ابن أبي وداعة حاجب هشام المؤيد ، يتميز بقسوة متناهية ، ودفع بالفقهاء درجات إلى الوراثة ، ودعا إلى الجهاد (5) ، فازداد الأندلسيون كراهية للبربر ، وقتلوا كل من أتى على ذكر الصلح معهم ، قتلوا في الحال رجلاً من وجوه أهل العلم ، قال في الجامع: اللهم أصلح علينا ، وقال آخر: إن الله أحب الصلح ، فقتل في الحين ، ومثل ذلك كثير (6) .

وقد عجل باضطراب النار ، حادث وقع في ذي الحجة سنة 402هـ ، إذ تقدم خمسة من جماعة البربر ، على رأسهم حباسة بن ماكسن ، قرب قرطبة ، وهو لا يعبأ بالقرطبيين لشجاعته وبسالته ، فهجموا عليه ، مع سبعين فارساً ، وبعد اقتتال شديد ، طعن حباسة وسقط على فرسه ، وأسر ، فلما عرفوه ، قتلوه بوحشية ، وقطعوه قطعاً ، وتهادوا لحمه فأكلوه. ولما سمع أخوه حبوس بن ماكسن ، وعمه زاوي بن زيري ، قاتلوا أهل قرطبة قتالاً لم يسمع بمثله قط ، حتى قيل عن الجند الذين خرجوا إلى البربر ، لم يفلت منهم فارس (7) .

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 106:3.

2 - ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 105.

3 - ابن عذارى المصدر نفسه . 3: 105

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 105 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 118.

5 - مكى، الطاهر أحمد . دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . 123 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 112 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 103 .

وفي 26 شوال سنة 403 هـ انهزم أهل قرطبة ، ودخل المستعين بالله في اليوم الموالي القصر ، وأحضر هشاما المؤيد ، ووبخه على نقضه العهد ، فاعتذر له هشام على أنه مغلوب على أمره . واختلف في أمره ، فقيل : إنه قضي عليه عند دخول المستعين القصر ، وقيل : إنه فرّ بين يديه (1) ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر فيما بعد. كما سنرى

وبعد أن حلّ المستعين بالله بجيشه مدينة الزهراء ، جاء القرطبيون إليه ، متلقين له ومسلمين عليه ، نشد متمثلا (2) :

إذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني

يقولون لي: أهلا وسهلا ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

ولما استتب الأمر للمستعين بالله ، أخذ نظم شؤون الحكومة المضطربة ، ولكن الفوضى كانت قد سرت إلى جميع النواحي ، وقصر نفوذ الحكومة على قرطبة وما جاورها (3) ، وتولى البربر المناصب الهامة في الدولة ((فكان منهم الحاحب والوزير)) (4) ، لأنهم رفعوا المستعين بالله إلى الخلافة ، فكافأهم بأن قسم بعض أقاليم الأندلس والعدوة على زعماء قبائلهم ، فأعطى صنهاجة إلبيرة (5) فبقيت بيد حبّوس (6) بن ماكسن وذريته، وأعطى جوف البلاد (7) لمغراوة (8) .

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 113:3 .

2 - ابن الأبار . الحلة السراء . 12:2 .

3 - عنان، محمد عبدالله . الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية . 157 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 114:3 .

5 - إلبيرة: مدينة بالأندلس، فهي بين القبلة والشرق من قرطبة، وبين إلبيرة وغرناطة ستة أميال، وهي من قواعد الأندلس الجلييلة، والأمصار النبيلة، خربت في الفتنة وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهي قاعدة كورها. انظر: الحميري . الروض المعطار . 28 - 29 .

6 - حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي، يكنى أبا مسعود، دخل مع عمه زاوي بن زيري الأندلس، وفي عهد الفتنة انحازوا إلى غرناطة، ثم أثر زاوي العودة إلى إفريقية، فأقام ابن أخيه حبوس ملكا عظيما، وكان داهية شجاعا، وحامى رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة المنتشرين حوله، ودامت رياسته إلى وفاته سنة 428 هـ أو إلى 429 هـ . انظر: ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 459 ، الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 19، 25 - 29 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 112، 143، 190 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام . 229 ، والإحاطة لنفس المؤلف . 1 : 477، 486 .

7 - جوف البلاد: أنحاء في الشمال إلى عمل إشبيلية . انظر: الحميري . الروض المعطار . 27، 611 .

8 - مغراوة: وهم أبناء مغراو بن يَصْلَتْن، وجدهم الأكبر هو زانا بن يحيى، وهم أشقاء بني يفرن، وبين واسين . انظر: ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . 498 ، بوزيان، الدراجي . القبائل الأمازيغية . 1 : 159 .

وأعطى سرقسطة (1) لمنذر بن يحيى التجيبي (2)، وأعطى جيان (3) لبني برزال (4) وبني يفرن (5)، وشذونة (6) ومورور (7) لبني دَمَّر (8) وأزداجة (9)، وغير ذلك من الحصون (10).

1 - سرقسطة: في شرق الأندلس، وهي المدينة البيضاء، لأن أسوارها من حجر الرخام الأبيض، وهي أطيب البلدان بقعة وأكثرها ثمرا لكثرة الفواكه في بساتينهم. أخذ النصارى سرقسطة من أيدي المسلمين، صلحا، بعد أن حاصروها تسعة أشهر وذلك سنة 502هـ - انظر: الحميري. الروض المعطار . 317 ، الإدريسي. القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس. (من كتاب نزهة المشتاق) . 278 .

2 - كان منذر بن يحيى التجيبي، صاحب سرقسطة، رجلا من عُرض الجند، وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى نيل الإمارة. وقد ساعد المستعين في الغدر بمشام مولى نعمته، كما قتل ضيفه محمد بن المستعين. وكان كريما وهب لقصاده مالا عظيما، فوفدوا عليه وعمرت بذلك حضرته، فحسنت أيامه وهتف المداح بذكره، إلى أن لقي حتفه على يد رجل مارد من بني عمه، يقال له عبد الله بن حكيم، وكان مقدا في قواده ، وذلك في آخر ذي الحجة سنة 430هـ. انظر: ابن بسام. الذخيرة 1/1: 61-180، 64-190 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 175-180 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 435 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 196-201 .

3 - جيان: مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة عشرون ميلا، وهي كثيرة الخصب، رخصية الأسعار. وتقع جيان على سفح جبل عال جدا، وهي حصينة. ومن أمثال العامة: يذكر البلدان ويسكن جيان، ولها أقاليم كثيرة وقرى عامرة، وتغني بها الشعراء. انظر: الحميري . الروض المعطار . 183-184 ، الإدريسي. القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس. من (نزهة المشتاق) . 295 .

4 - بنوا برزال فخذ من زناتة، وكانوا يسكنون أرض لمسيلا، ودخلت قبيلة بني برزال في طاعة ابن حمدون دون صعوبة، وقد عبر كثير منهم إلى الأندلس بعد أن طلب جعفر بن حمدون من الخليفة الحكم الإذن لهم، وقد دخل كثير منهم في خدمة خلفاء بني أمية فقويت شوكتهم فكسبوا إمارة مهمة عقب الفتنة كانت أهم مدنها قرمونة، وتشتت جمعهم وانحسر نفوذهم عقب مقتل زعمهم محمد ابن عبد الله السيزالي، في نهاية الحرب التي خاضوها ضد المعتضد بن عباد. انظر: ابن عذارى . البيان المغرب . 2: 267 - 268 ، ابن حزم. الجمهرة . 498 ، ابن خلدون . التاريخ . 7/4: 324 ، مؤلف مجهول . مفاخر البربر . 44 .

5 - بنوا يفرن: وهم أبناء يفرن بن يصلتن، وجدهم الأكبر هو شانا بن يحيى، وإخوانهم مغراوة وواسين، وبلادهم قرب مدينة تلمسان بالجزائر. واستولى بنو عباد على ملكهم بعد غدرهم لأميرهم أبي نور بن أبي قررة اليفرنى. انظر: ابن حزم . الجمهرة . 498 ، ابن عذارى. البيان المغرب. 370، 243، 113، 98: 3 - 371 ، ابن خلدون . التاريخ. 7/4: 324 ، مؤلف مجهول . مفاخر البربر . 45 ، بوزياني، الدراري. القبائل الأمازيغية . 156: 1 - 159 .

6 - شذونة: بالأندلس، وهي كورة متصلة بكورة مورور، وهي كورة جلييلة القدر، جامعة لخيرات البر والبحرن. ومن كور شذونة، شريش وفيها كانت الهزيمة على لذريق حين افتتحت الأندلس على يد طارق بن زياد، كما تقدم. انظر: الحميري . الروض المعطار . 339 .

7 - مورور: بالأندلس، وهي متصلة بأحواز قرمونة من جزيرة الأندلس، وهي في الغرب والجوف من كورة شذونة، وهي من قرطبة القبلة والغرب . انظر: الحميري . الروض المعطار . 564 .

8 - بنوا دَمَّر من بربر تونس ومن بطون زناتة، وهم حوارج إباضية، وفد جددهم أبو تَزيري إلى الأندلس أيام النصور بن أبي عامر، وفي أثناء الفتنة استقر أبو تَزيري في مورور و بسط عليها سلطانه . و بعد وفاته سنة 403هـ ، خلفه ولده نوح بن أبي تَزيري و حكم حوالي ثلاثين سنة ثم خلفه ولده محمد بن نوح سنة 433هـ إلى أن غدر به المعتضد بن عباد سنة 445هـ ثم خلفه ابنه مناد بن محمد بن نوح الذي يلقب بعماد الدولة إلى أن سقطت دولتهم الصغيرة في يد بني عباد سنة 458هـ ، و توفي مناد هذا سنة 468هـ. انظر ابن عذارى. البيان المغرب . 295، 168، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 238، 119، 70 ، عنان، محمد عبد الله . دول الطوائف. 152 ، بوزياني، الدراري. القبائل الأمازيغية. 1: 171 .

9 - أزداجة بن برنس بن مادغيس بن بر وهي قبيلة بربرية حلت بالأندلس. انظر: ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . 495 . ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 66 ، 119 .

10 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 113-114 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 121، 119 .

وكان من جملة جنده رجالان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب ، يسميان القاسم (1) وعلياً (2) ابني حمود بن ميمون بن أحمد بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقوَّدهما المستعين على المغاربة ، ثم ولى أحدهما سبتة (3) وطنجة (4) ، وهو الأصغر منهما ، وولى القاسم الجزيرة الخضراء (5) .

ولما بلغ الخبر عبد الله البرزالي من رؤساء البرابرة ، تقدم ابني حمود الإدريسي ، دخل على المستعين ، وقال له: ((يا أمير المؤمنين ، بلغني أنك وليتَ بني حمود العلويين على المغرب ، قال: نعم ، قال له :أليس العلويون طالبين قال: نعم قال : تأتي إلى خشاش تردهم

1 - هو القاسم بن حمود العلوي، ويلقب بالمأمون، ويكنى بأبي محمد، عمره سبعون سنة ولي الخلافة مرتين؛ الأولى بعد قتل أخيه علي بن حمود الناصر. وفر إلى إشبيلية تاركاً ابن أخيه يحي الذي يرى أن الخلافة أخذت منه لخلافة قرطبة، ثم تقلدها ثانية سنة 414هـ بعد سوء الأحوال و خوف يحي المعتلي بالله على نفسه من جنده البربر و السود و القرطيين. و بطرد القاسم من قرطبة إلى إشبيلية من قبل أهل قرطبة، توصل الأبواب أمامه من قبل بني عباد يتجه إلى شريش، و يعتقل من قبل ابن أخيه يحي المعتلي، و يسجن في مالقة مدة ثلاثة عشر عاماً إلى أن قتل سنة 427هـ. دام حكمه في المرتين أربع سنوات و ثلاثة و عشرين. انظر ترجمته: الحميدي. جذوة المقتبس. 23، الضبي. بغية الملتبس. 28، ابن حزم. رسائله 2: 201، ابن بسام. الذخيرة. 1: 481، ابن عذارى. البيان المغرب 3: 124، 133، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 130، 133، ابن سعيد. المغرب. 1: 124، ابن خلدون. التاريخ 7/4: 313، المقرئ. نفع الطيب. 1: 431، ابن الأثير. الكامل في التاريخ. 7: 286، التنسي، أبو عبد الله. تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان). 59، 55، دوزي. المسلمون في الأندلس. 2: 195 .

2 - هو علي بن حمود العلوي، أبو الحسن الناصر لدين الله، حاكم سبتة من قبل المستعين بالله، ثم أخذ يخطط ليتولى حكم الأندلس، فاعتمد على أخيه القاسم حاكم الجزيرة الخضراء، وخيران العامري حاكم المرية. وزعم علي هذا أن هشاماً المؤيد أرسل له بكتاب يوصيه فيه بولاية عهده، وإذا قتل يثار له. واستطاع علي بن حمود أن يجمع الأنصار، وتولى الخلافة، بعد قضاؤه على المستعين في 22 محرم سنة 407هـ، وقتله صقالبتة في الحمام في 2 ذي القعدة سنة 408هـ، وله من الولد يحي وإدريس. ودان حكمه سنة واحدة وتسعة أشهر وتسعة أيام. وتولى الخلافة بعده أخوه القاسم. انظر: ابن حزم. رسائله. 2: 199. ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 37-38، 41-43. الحميدي. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس. 52، 50-53. ابن عذارى. البيان المغرب. 119، 116، 114: 3، 124. المراكشي المعجب. 98. ابن الأبار. الحلة السيرة. 2: 7. ابن الأثير. الكامل. 7: 284-285. ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 128-129. ابن خلدون. التاريخ. 1/4: 328. التنسي. تاريخ دولة الأدارسة، (من كتاب نظم الدر و العقيان). 55-59. المقرئ. نفع الطيب. 1: 431 .

3 - سبتة: مدينة على شاطئ البحر المتوسط، في شمال المغرب الأقصى، وهي تقابل الجزيرة الخضراء، وهي عبارة عن شبه جزيرة يطيف بها البحر من جميع جهاتها إلا من جهة المغرب. انظر: ابن حوقل. صورة الأرض. 78. الإدريسي. القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (من كتاب نزهة المشتاق). 247، الحميري. الروض المعطار. 303.

4 - طنجة: مدينة بالمغرب الأقصى، قديمة على ساحل البحر، تقع عند الطرف الشرقي من مضيق جبل طارق ولا يفصلها عن الأندلس سوى ثمانية عشر كيلو متراً. انظر: ابن حوقل. صورة الأرض. 79، الإدريسي. القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (من كتاب نزهة المشتاق). 249، الحميري. الروض المعطار. 395.

5 - ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 114 .

ثعابين قال :نفذ الأمر في ذلك)) (1) .

وبهذا بدأ الحموديون يتجهون إلى حكم الأندلس و بخاصة أنهم من النسب الشريف
-كما تقدم-و ينتمون من حيث الخثولة إلى البربر ،فتعصب معهم الكثير (2) .

وهذا ما شجع علي بن حمود يطمح إلى الخلافة في الأندلس ، إلى جانب تعصب
البربر له ، نجد خصوم المستعين بالله ، منهم خيران العامري ، صاحب المرية-كما سنرى -
كان من مؤيدي الخليفة هشام المؤيد بالله ، و قد دعا له في الأقاليم التي سيطر عليها ، راسله
علي بن حمود بزعمه أن هشام المحاصر في قرطبة من قبل المستعين بالله أرسل له كتابا يوصيه
فيه بولاية عهده ، و إذا قتل يثار له ((ذلك أن هشام لما رأى ما آلت إليه الأمور في دولته
قد منح علي بن حمود ولاية عهده و أوصى إليه بالخلافة من بعده و أرسل إليه ذلك بسببة
سرا و ولاه طلب دمه و استكتمه السر حتى يجين الأوان لذلك)) (3) .

و بالرغم من أن المستعين الظافر هو الذي ولى الحموديين المغرب إلا أنه أخذ يخشى
طموح علي بن حمود ، فكلف قاضي سبته محمد بن عيسى و الفقيه ابن يربوع كبيرها بمهمة
مراقبة تحركاته ، فقتلها علي بن حمود سنة 404 هـ (4) . ولما عزم الخروج من طاعة
المستعين الظافر خاطب أخاه القاسم فهرب من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء (5) .

و بإشاعة دعوة علي بن حمود بالأندلس أيدها المعارضون للخليفة المستعين الظافر
و على رأسهم عامر بن فتوح الفائق (6) . و كتب إليه كذلك خيران العامري يدعوه
إلى الأندلس لتولي الأمر فيها لإنقاذها من الحالة المتردية التي وصلت إليها .

بهذا كسب علي بن حمود قوة العامريين و كذلك شرعية الحكم لأنهم من مؤيدي
الخليفة هشام المؤيد بالله و هو الخليفة الشرعي في نظرهم ، فعبر المضيق من سبته إلى الجزيرة

1 - ابن عذارى . المصدر السابق . 3 : 114 .

2 - ابن خلدون . التاريخ . 7/4 : 328 .

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 114 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 121 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 115 ، ابن الخطيب المصدر نفسه . 121 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 115 .

6 - هو عامر بن فتوح الفائق مولى فائق ، مولى الحكم المستنصر بالله . انظر : الضبي . بغية المتتمس . 24 .

الخضراء سنة 405هـ (1) ، وسار إلى مالقة (2) فسلمه عامر بن فتوح المدينة وتملكها علي بن حمود ((ما وصل إلا لنصرة هشام)) (3) فانضم إليه جماعة من الناس ، ((و أتاه خيران العامري و زاوي بن زيري و حبوس بن ماكسن بن زيري و إخوته و بنو عمه الصنهاجيون فعظم شأنه و قوي أمره و حارب بهم سليمان)) (4) .

وبهذا نشبت معركة شديدة انتهت بانتصار علي بن حمود وهزيمة سليمان الظافر ، ودخل علي بن حمود قرطبة ، وطمع ((أن يجد هشاما المؤيد بالله حيا فلم يجده ، و ذكر أنه قتل و عرض عليه قبره فأخرجه ثم دفنه)) (5) .

وإثر ذلك أحضر سليمان الظافر و ضرب عنقه، قائلا بالبربرية : ((لا يقتل الزلطان إلا الزلطان)) (6) ، ثم قتل أخاه أمام أبيهما الحكم الذي قيل إن علي بن حمود قال له: ((يا شيخ هكذا قتلتهم هشاما! فقال : لا و الله ! ما قتلناه ولا هو إلا حي يرزق فعند ذلك عجل علي بقتله)) (7) ، و كان ذلك في المحرم سنة 407هـ (8) .

هكذا زالت دولة بني أمية من الأندلس بعد أن عاشت منذ دخول عبد الرحمن الداخل حتى مقتل سليمان الظافر مائتين وثمان وستين سنة (9) أنهاها الخصوم الحموديون للأمويين و جلس على عرش الخليفة علي بن حمود .

علي بن حمود الناصر لدين الله:

بمقتل سليمان الظافر ببيع علي بن حمود في اليوم الثاني بعد أن أدرك بثأر هشام المؤيد و لم يتخلف أحد عن بيعته و تسمى بالناصر لدين الله (10) .

- 1 - ابن عذارى . البيان المغرب .3: 116.
- 2 - مالقة مدينة بالأندلس على شاطئ البحر تقع بين الجزيرة الخضراء و المرية .انظر : الحميري .الروض المعطار .517.
- 3 - ابن عذارى .البيان المغرب.ابن بسام . الذخيرة .1/1: 41
- 4 - ابن عذارى. المصدر نفسه . 3: 120
- 5 - ابن عذارى . المصدر نفسه .3: 117. ابن بسام . الذخيرة .1/1: 41.
- 6 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 121 .
- 7 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 121 .
- 8 - لحميدي . الجذوة .20.الضي . بغية الملتمس.25.ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 41.ابن عذارى. البيان المغرب.117. ابن الخطيب . المصدر نفسه.121.
- 9 - ابن عذارى . المصدر نفسه.3: 115.
- 10 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 97 ، ابن حزم . رسائله . 2: 199 .

استهل علي بن حمود حكمه بوضع حد للفوضى ، إذ رفع الحجاب ، و جلس للمظالم بنفسه ، وأقام الحدود لا يحاشي فيها أحدا ، فانتشر العدل و أمنت السبل ، و رخي السعر ، وعاش الناس أحسن معاشرة قريبا من سنة (1) .
ومن الأمثلة على ذلك: ((ضرب عنق أحد البرابرة على حمل عنب قال أخذته كما يأخذ الناس ، فأمر به فقتل و طيف برأسه بسائر البلد)) (2) .
بفضل هذه السياسة السمحاء أمن أهل قرطبة على أنفسهم و أملاكهم ، فعادوا إلى مباشرة أعمالهم و هم ينعمون بالأمن يشجعهم على ذلك عدل الخليفة (3).
و كان من معاونيه في الحكم جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي الحزم بن جهور و أحمد بن برد و غيرهم (4) .
على أن خيبة الفتیان العامرين كانت كبيرة ، و على رأسهم خيران العامري الذي كان يأمل عند دخول قرطبة مع علي الناصر ، ((أن يجد هشام المؤيد حيا ، فلم يجده)) (5)
خشى سطوة علي الناصر ، فعادر قرطبة و سار إلى شرق الأندلس حيث العامريون و أنصارهم (6) . و أعاد الدعوة للأمويين في شخص مرشح جديد منهم :هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر (7) .
و كان قد فر من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران و بايعه مع الفتيان العامرين و لقبوه بالمرتضى (8) . و انضم إليهم المنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة و معه قوة من المرتزقة (9) .

-
- 1 - التنسي. تاريخ الدولة الأندلسية . 59 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 122 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . . 129
 - 2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 121 .
 - 3 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 229.
 - 4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 122
 - 5 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 41 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 130 .
 - 6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 122 .
 - 7 - هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر
 - 8 - الحميدي . جذوة المقتبس . 22 . الضبي . بغية الملتبس . 27 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 122 ، ابن حزم . رسائله . 2:
 - 199 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 130-132 ، المقرئ . نفح الطيب . 1: 483 .
 - 9 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 121 - 122 .

و لما أحس المرتضى بقوة من نفسه أعلن الثورة بقواته وسار إلى غرناطة (1) يريد الاستيلاء عليها، كما سنرى .

استمرت العلاقات الحسنة بين أهل قرطبة و علي الناصر مدة ثمانية أشهر ، و بعدها أحس من الناس الميل إلى بني مروان ، بظهور المرتضى ، و أنس منهم الكراهية لدولته (2) . و مهما يكن من أمر فقد مال علي الناصر سريعا إلى البربر و آثرهم و أغضى على مساوئهم (3) ، وراح يصب ((على أهل قرطبة ضربا من التنكيل و المغارم ، و انتزاع السلاح منهم ، و هدم دورهم و قبض أيدي الحكام عن إنصافهم و أغرم عامتهم ، و توصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم)) (4) . و عزم على إخلاء قرطبة ، و إبادة سكانها، فلا يعود للمروانيين سلطان (5) فاضطر أهل قرطبة إلى لزوم بيوتهم في النهار ، و انظمروا في بطون الأرض ، و قلما يخرجون ، حتى خلت الأسواق من الناس ، و إذا دنا المساء خرجوا من بيوتهم في جنح الظلام لبعض حاجاتهم (6) .

هذا ما جناه أهل قرطبة بعد رفضهم لسياسة العدل . و من الشخصيات التي تعرضت لامتحان علي الناصر و اضطهاده ، أبو الحزم بن جهور و أحمد بن برد و غيرهما (7) . و لما اشتدت وطأة علي الناصر ، أظلمت الدنيا على أهل قرطبة لجأوا إلى الله تعالى ((فسלט عليه بعض صقالبة بني مروان ، و كان علي استخلصهم لنفسه و أمنهم على مهجته ، فدخل معهم الحمام ليلة ، و هم ثلاثة فقتلوه من غير مواطاة أحد)) (8) .

1 - ابن الخطيب أعمال الأعلام . 130 .

2 - ابن بسام . الذخيرة. 1/1: 99 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 99 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 99 ، ابن عذارى البيان المغرب . 3: 123 .

5 - ابن بسام . المصدر نفسه. 1/1: 99

6 - ابن بسام . المصدر نفسه. 1/1: 100 . ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 123 .

7 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1: 100 .

8 - التنسي ، أبو عبد الله. تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان) . 58-59 ، الذخيرة ابن بسام . 1/1: 100-101 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 122 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 139 ، المقرئ . نفع الطيب . 1: 483 ، الضبي . بغية الملتبس . 22 .

ولما استطال نساؤه لبتة في الحمام ، دخلن عليه ، فوجدنه قتيلا ، والدم يسيل منه (1) ، وطار خبر مقتل علي الناصر في الآفاق ، وابتهل الناس شكرا لله .(2).

القاسم بن حمود :

استدعى أنصاره من زناته ، أخاه القاسم من إشبيلية (3) ، و كان واليا عليها (4) دون ولي عهده يحيى بن علي - كما سنرى - والي المغرب (5) .

بويق القاسم بن حمود بالخلافة بعد مقتل أخيه علي الناصر بستة أيام في ذي القعدة سنة 408 هـ ، و يلقب بالمأمون (6) .

و كان أول عمل قام به هو محاكمة الذين اغتالوا أخاه الناصر ، بعدما تأكد من عدم وجود أي تواطؤ ، ((و أقر الثلاثة الذين فتكوا بأخيه جريمتهم و نفوا عن جميع الناس المواطأة و التدليس فقتلهم القاسم لوقته)) (7) .

استهل القاسم المأمون حكمه بأن عدل عن سياسة الشدة التي انتهجها أخوه - كما تقدم - إلى سياسة اللين و المسالمة ، و أحسن إلى الناس و نادى بالأمان ، و أسقط عنهم ما كان أخوه قد طالبهم به ، و أقر القاضي و الحكام و الخدمة في مراكزهم و أسند للسودان أعمالهم (8) . وبذلك تنسم الناس روح الرفق واطمأنت بهم الديار (9) مستبشرين بالعهد الجديد .

و بعد سنة من حكم القاسم المأمون ، اصطدم بتمرد عبد الرحمن المرتضى في شرق الأندلس، فقد زحف بجيش من الأندلسيين و النصراري (10)، على غرناطة المساندة للخلافة .

-
- 1 - ابن بسام الذخيرة . 1/1 : 101 ، ابن خطيب أعمال الأعلام . 129 .
 - 2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1 : 101 ، ابن عذارى البيان المغرب 3 : 122 .
 - 3 - ابن عذارى المصدر نفسه . 3 : 122 ، ابن بسام المصدر نفسه . 1/1 : 101 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 129 .
 - 4 - التنسي أبو عبد الله . تاريخ دولة الأدارسة . (من كتاب نظم الدر و العقيان) . 59 .
 - 5 - التنسي ، أبو عبد الله . تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان) . 59 .
 - 6 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 480 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 130 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 130 ، ابن حزم . رسائله . 2 : 200 ، ابن خلدون . 4/7 : 331 .
 - 7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 130 ، ابن بسام المصدر نفسه . 1/1 : 481 .
 - 8 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1 : 481 ، ابن عذارى البيان المغرب 3 : 130 .
 - 9 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1 : 481 .
 - 10 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1 : 453 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 125 .

الأموية ، و على رأسها زاوي بن زيري الصنهاجي (1) و رغم أن القوتين غير متكافئتين فقد انتصر البربر و هم الأقل عددا وعدة ، ((اجتمع بصنهاجة دون الألف من خيرة الخيرة ، وكان الطوائف الباغية في نحو من أربعة ألف فارس)) (2) و قتل المرتضى (3) وقد وصف ابن حيان هزيمة الأندلسيين بالمصيبة ، يقول ((فحل بهذه الواقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها ، و لم يجتمع لهم على البربر جمعٌ بعد ، و أقروا بالإدبار ، و باءوا بالصغار)) (4) .

بمقتل عبد الرحمن المرتضى ، و فرار حلفائه ، سر القاسم المأمون و هنأه الشعراء بهذا الانتصار منهم الرعيبي الأعمى (5) ، يقول فيه(6):

لك الخير خيراُ مضى لسبيله و أصبح ملك الله في ابن رسوله
و فرَّق جمعُ الكفر و اجتمع الورى على ابن حبيب الله بعد خليله

لكن هذا الانتصار الذي أحرز عليه البربر لم يؤد إلى استقرار الحكم بقرطبة طويلا، إذ سرعان ما فسح المجال لصراع داخلي بين أبناء الأسرة الحمودية (7) ، و ذلك بقيام يحيى (8)

-
- 1 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 130 .
 - 2 - الأمير عبد الله . مذكراته . 22 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 131 . العربي ، إسماعيل.دوله الأدارسة . 243 .
 - 3 - ابن بسام . الذخيرة . 455 . ابن عذارى البيان المغرب . 3: 126 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 131 .
 - 4 - ابن بسام الذخيرة. 1/1: 485. ابن عذارى البيان المغرب. 23: 127.
 - 5 - هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الرعيبي، يعرف بابن الحناط، لأن أباه كان يبيع الخنطة بقرطبة. وهو شاعر ضرير. يقول الحميدي والضيبي فيه: ((كان ابن الحناط متقدما في الأدب والبلاغة والشعر، وشعره كثير مجموع مدح الملوك)). جذوة المقتبس. 57. بغية الملتبس. 77. و ذكره ابن حيان بقوله : ((كان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية و الإسلام... حاذقا بالطب و الفلسفة ، ماهرا في العربية و الآداب الإسلامية)) . ابن بسام الذخيرة . 1/1: 438 . توفي بالجزيرة الخضراء قريبا من 430 هـ كما حددها صاحب الجذوة و صاحب البغية في الصفحات نفسها . أما ابن سعيد في المغرب 1: 123 ، و ابن بسام في الذخيرة 1/1: 438 ، فإنهما قد حددا وفاته سنة 437 هـ في كنف الأمير محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء في عهد ملوك الطوائف (428-440)
 - 6 - ابن بسام . الذخيرة. 1/1: 452 ، ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب . 1: 124 .
 - 7 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 131 .
 - 8 - هو يحيى بن علي بن حمود ، يكنى بأبي زكريا ، عمره 42 سنة لما بويغ بالخلافة و لقب بالمعتلي بالله في المرة الأولى سنة 412 هـ و دام حكمه في هذه المرة سنقو ستة أشهر و نصف و في المرة الثانية بقي في قرطبة مدة ثلاثة أشهر و اثنين و عشرين يوما في سنة 416 هـ . و بهذا قطعت دعوته عن قرطبة و استقر بقرمونة حاكما إلى أن قتل من قبل بني عباد سنة 427 هـ . و كان من الولد الحسن و إدريس . انظر ترجمته في : ابن حزم . رسائله 2: 202 ، الحميدي . جذوة المقتبس . 24-25 ، الضبي بغية الملتبس. 30 ، ابن بسام الذخيرة . 1/1: 316 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 144، 131-145 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام . 136، 132 - 137 ، المراكشي . المعجب . 102-104 ، مؤنس ، حسين . موسوعة تاريخ الأندلس . 1: 416 ، العربي ، إسماعيل.دولة الأدارسة . 253-266 .

والي سبتة و أخيه إدريس (1) والي مالقة ،ابني علي الناصر، و كانا يظهران الولاء لعمهما (2) ثم عبر يحيى إلى مالقة و استخلف أخاه إدريس على سبتة(3). و جهز يحيى جيشا قويا من أنصاره ، و زحف به على قرطبة ، وهو واثق من مؤازرة البربر له (4) ، و خشي القاسم المأمون العاقبة فأثر الانسحاب على الحرب، و غادر قرطبة إلى إشبيلية في ربيع الآخر سنة 412هـ ، في خمسة فرسان من خواصه (5) ، و ضبط البربر قصر قرطبة إلى أن لحق به ابن أخيه يحيى كما سنرى .

يحيى بن علي الناصر:

دخل يحيى بن علي الناصر قرطبة و تلقى فيها البيعة من البربر و أهل الأندلس في مستهل جمادى الأولى سنة 412هـ ، و تلقب بالمعتلي لله (6) . كان يحيى المعتلي بالله ، بجانب العصبية ، و يؤثر العدل و يجزل العطاء لمن و فد عليه ، أو مدحه بشعره فأحبهه الناس (7) ، و كان من وزرائه ، أبو العباس أحمد بن برد ، و ابن ذكوان (8) الذي كان يعيش أيامه الأخيرة ،

-
- 1 - كان إدريس بن علي بن حمود واليا على مالقة ، ثم حل مكان أخيه بسبتة، و بعد مقتل هذا الأخير المعتلي بالله ، عبر إدريس إلى الأندلس، و تقلد الخلافة بمحاقة قاعدة المملكة الحمودية سنة 427هـ، و تلقب بالتأييد بالله ، و بقي فيها إلى أن توفي سنة 431هـ . انظر: الحميدي. جذوة المقتبس. 30، الضبي . بغية الملتبس . 37 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 191، 192 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام . 140 ، ابن خلدون . التاريخ . 7 - 4: 330 ، التنسي ، أبو عبد الله . دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان) . 61 ، العربي ، إسماعيل . دولة الأدارسة . 263 .
 - 2 - ابن عذارى البيان المغرب. 3: 131.
 - 3 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 131 ، المقرئ نفع الطيب . 1: 486 .
 - 4 - ابن بسام الذخيرة. 1/1: 481 ، ابن عذارى البيان المغرب. 3: 131 ، المقرئ. المصدر نفسه . 1: 486 ، التنسي ، أبو عبد الله. تاريخ دولة الأدارسة ، (من كتاب نظم الدر و العقيان) . 59 .
 - 5 - ابن عذارى البيان المغرب . 3: 131 ، ابن بسام الذخيرة . 1/1: 482 ، المقرئ المصدر نفسه . 1: 486 .
 - 6 - ابن عذارى البيان المغرب . 3: 131 ، ابن بسام الذخيرة . 1/1: 482 ، ابن خلدون . التاريخ . 4/7: 331 .
 - 7 - ابن عذارى . المصدر نفسه. 3: 132 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 132 .
 - 8 - هو أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، قال الجماعة على أيام المنصور بن أبي عامر و ابنه عبد الملك المظفر و عبد الرحمن شنجول . و قد ظل جليل القدر إلى وفاته في الواحد و العشرين من رجب سنة 413هـ انظر ترجمته : النباهي . تاريخ قضاة الأندلس . 84 ، الضبي . بغية الملتبس . 186 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 215 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 46 .

ومن كتابه أحمد بن برد (1)

أما القاسم بن حمود فقد كان أثناء ذلك ، قد استقر بإشبيلية، وبايعه فيها القاضي محمد ابن إسماعيل بن عباد - كما سنرى - وتلقب بالمستعلي (2) و قد تصالح مع عمه القاسم فقال في ذلك ابن حزم: ((خليفتان تصالحا و هو أمر لم يسمع بأذل منه و لا أدل على إدبار الأمور يحيى بن علي بن حمود بقرطبة و القاسم بن حمود بإشبيلية)) (3).

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا، ذلك أن البربر أعلنوا خلعة يحيى المعتلي في الثاني عشر من ذي القعدة سنة 413هـ (4)، فغادر قرطبة إلى مالقة . وفي نفس الليلة دخل القاسي المستعلي قرطبة تلبية لدعوة البربر و جددت له البيعة و تسمى بأمير المؤمنين (5) و بعد سبعة أشهر من خلافة القاسم ساءت العلاقات بينه و بين أهل قرطبة بتسلط البربر (6) فقاموا ((بخلعه كلمة إجماع)) (7) وحاصروه في القصر فاضطر إلى مغادرته و ذلك في آخر جمادى الثانية سنة 414هـ (8).

و بعد خروج القاسم حاصر قرطبة ، مدة خمسين يوما، و المعارك فيها كل يوم تتجدد إلى أن هزمه أهل قرطبة، و حينها غادر القاسم العاصمة إلى إشبيلية ، فسد أهلها أبواب المدينة في وجهه و عميدهم القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد مؤسس دولتهم (10)، كما سنرى .

1 - أبو حفص الوزير ، جد أحمد بن محمد الكاتب . كان ذا حظ وافر من الأدب و البلاغة والشعر ، رئيسا مقبلا في الدولة العامرية و بعدها ؛ فهو كاتب الرسائل عند علي بن حمود ، و أخيه القاسم و ابن أخيه يحيى المعتلي . مات سنة 418هـ . انظر ترجمته : الحميدي جذوة المقتبس . 119 ، الضبي . بغية الملتبس . 172 ، ابن بشكوال . الصلة . 38 ، ابن بسام ، الذخيرة . 1/1 : 103 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 137، 132، 123.

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 132

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 132-133

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 133.

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 133 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 133 .

6 - ابن عذارى المصدر السابق 3 : 134 .

7 - ابن الخطيب أعمال الأعلام . 133.

8 - ابن عذارى البيان المغرب 3 : 134 . ابن بسام الذخيرة . 1/1 : 485 .

9 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 134.

10 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 135 ، ابن بسام الذخيرة 1/1 : 485 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 133 ،

المقري . نفع الطيب . 1 : 488 .

اتجه القاسم بن حمود و استقر في مدينة شريش (1) ، و حاصره فيها ابن أخيه يحي المعتلي بالله ، ثم دخل المدينة و اعتقل عمه ، و سجنه في مالقة إلى أن مات فيه خنقا سنة 431هـ (2) و أما أهل قرطبة فقد أجمعوا على رد الخلافة للأمويين .

عودة الخلافة للأمويين:

بعد خروج علي بن حمود من قرطبة ردت الخلافة لبني أمية ، فكان عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الناصر (3) ، قد دعا لنفسه ، و بايعه وزراء و مشايخ الأندلس ، و هم بين راض و مكروه (4) ، و لقب بالمستظهر بالله في رمضان سنة 416 هـ (5) . استهل الخليفة المستظهر بالله حكمه بالاعتقال و سجن عدد من الوزراء السابقين ، و أغرمهم الأموال ، ثم أطلق ابن عمران أحد المعتقلين بعد أن غير رأيه فيه (6) ، و ما زاد الأمر سوءا عندما استقبل و فدا من البربر و أنزلهم في القصر (7) .

فثار القرطبيون و قالوا : ((نحن الذين قهرنا البرابرة و طردناهم عن قرطبة وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، و تمكينهم من نواصينا)) (8) ، و هجموا على القصر و قتلوا من به من البربر ، و وثبوا إلى جناح الحريم ، فاحتبأ المستظهر بالله في أتون الحمام (9) ،

1 - شريش من كور شدونة من الأندلس و هي على مقربة من البحر انظر الإدريسي القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس 301 ، الحميري. الروض المعطاء . 340 .

2 - الضبي . بغية الملتمس . 24. ابن عذارى البيان المغرب . 3: 135. ابن بسام الذخيرة . 1/1: 485. المراكشي . المعجب . 100 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 140 .

3 - هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر - شقيق المهدي - يكنى أبا المطرف . ولد سنة 392 هـ . بويع بالخلافة في الثالث عشر من رمضان سنة 414 هـ و تلقب بالمستظهر بالله و كان شابا في الثانية و العشرين من عمره ثم قام عليه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله على طائفة من أرذال القوم فقتل المستظهر و ذلك لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 414 هـ و لم يتجاوز سلطانه قرطبة في سبعة و أربعين يوما التي حكمها . كان المستظهر بالله في غاية الأدب و البلاغة و الفهم و رقة النفس . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 25-26 ، الضبي . بغية الملتمس . 21 ، ابن حزم . رسائله . 2: 201-202 ، ابن عذارى البيان المغرب . 3: 135-138 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 48-59 ، المراكشي المعجب . 105-106 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 2: 12-17 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام . 134-135 ، المقرئ . نفع الطيب . 1: 488-489 ، دوزي . تاريخ مسلمي إسبانيا . 2: 199-203 ، 205 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 137 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 134 ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ . 7: 287 .

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 138 .

6 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 138 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 53 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 138 ، ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1: 53 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 135 .

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 138 ، ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1: 53 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 135 .

9 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1: 54 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 138 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 135 .

وانتهكوا حريمه، و سبوا أكثرهن، و حملوهن إلى منازلهم علانية ((و جرى عليهن ما لم يجر على حرم السلطان في مدة تلك الفتنة))، ثم عثر على المستظهر و حمل إلى ابن عمه محمد ابن عبيدالله الناصر (1)، الذي بويع بالخلافة بعده، و تلقب بالمستكفي بالله، فأمر بقتل المستظهر على الفور في الثالث من ذي الحجة سنة 414هـ(2).

افتتح الخليفة المستكفي بالله حكمه بجرمة شنعاء، و واصل قتل ابن عمه محمد بن العراقي سنة 415هـ (3)، وألقى القبض على بعض وزراء المستظهر منهم علي بن أحمد بن

حزم(4) و عبد الوهاب ابن عمه(5)، و فر الكثير منهم إلى مالقة(6)، و منهم ابن شهيد(7)

1 - هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر و يكنى بأبي عبد الرحمن وهو والد الأديبة الشهيرة ولادة ولد سنة 366هـ بويع بالخلافة يوم قتل ابن عمه المستظهر بالله في الثالث ذي القعدة سنة 414هـ و تلقب بالمستكفي بالله. دام حكمه ستة عشر شهرا و أياما و فر يوم خلعه في الخامس و العشرين من ربيع الأول سنة 416هـ و في طريقه مات بالسم أو قتل طمعا في المال و عمره اثنان و خمسون عاما. انظر ترجمته الحميدي . جذوة المقتبس. 26-27. الضبي بغية الملتبس. 33، ابن حزم رسائله 2: 102-103، ابن بسام الذخيرة. 1/1: 437-433، ابن عذارى. البيان المغرب 3: 140-143، المراكشي المعجب 107-108، ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 135-136، المقرئ نفع الطيب 1: 437.

2- ابن عذارى . البيان المغرب. 139.

3 - ابن عذارى . البيان المغرب. 142.

4 - هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الظاهري ولد بقرطبة سنة 384هـ كان حافظا عالما بعلوم الحديث و اللغة من تصانيفه جمهرة أنساب العرب . طوق الحمامة . رسائل ابن حزم . توفي ابن حزم سنة 456هـ انظر ترجمته . صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. 181. الحميدي، جذوة المقتبس. 380. الضبي . بغية الملتبس. 415، الفتح بن خاقان . مطمح الأنفس. 279، ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 167، ابن بشكوال . الصلة. 415، ابن سعيد . المغرب 1: 354، الرايات لنفس المؤلف. 69. المراكشي . المعجب. 93، ابن خلكان . وفيات الأعيان. 3: 325، ابن العماد . شذرات الذهب 3: 299، ابن ثعري . النجوم الزاهرة. 5: 75. المقرئ . نفع الطيب. 1: 291. و في طوق الحمامة أخبار كثيرة عنه . و قد كتبت عنه دراسات كثيرة في العصر الحديث

5 - هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم، أبو المغيرة الوزير الكاتب من المتقدمين في الأدب و الشعر و البلاغة توفي أبو المغيرة سنة 432هـ . انظر ترجمته . الحميدي . جذوة المقتبس. 291، الضبي بغية الملتبس. 293، ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس. 1: 284، ابن بسام الذخيرة. 1/1: 132، ابن خاقان. مطمح الأنفس. 202، ابن سعيد . المغرب 1: 357، و الرايات لنفس المؤلف 70، ابن بشكوال الصلة. 380، المقرئ . نفع الطيب 1: 616.

6 - ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 436.

7 - هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأندلسي القرطبي. ولد ابن شهيد سنة 382هـ في عهد الدولة العامرية و شهد الفتنة، و عاش وزيرا كاتبا شاعرا حيث استوزره المستظهر ثم المعتد بالله و بعدها أصيب بمرض الفالج و ظل يعانى منه سبعة أشهر حتى وافته منيته سنة 426هـ ، له ديوان شعري جمعه و حققه كل من شارل بلا، يعقوب زكي و محي الدين ديب و له رسالة التوابع و الزوايع تحقيق بطرس البستاني. انظر ترجمته الحميدي . جذوة المقتبس . 133، الضبي بغية الملتبس. 191، ابن دحي المطرب. 158، ابن بسام. الذخيرة 1/1: 191، ابن خلكان . وفيات الأعيان .

1: 116، ابن خاقان . مطمح الأنفس . 189، ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 203، ابن سعيد . المغرب . 1: 78، الثعالبي . يتيمة الدهر .
1: 386، الحموي . معجم الأدياء . 1: 218 ، ابن العماد . شذرات الذهب . 3: 230 ، المقرئ . نفع الطيب . 1: 621 .

-48-

و في أيامه امتد الدمار إلى الزهراء و الزاهرة (1) ، كما وصف المستكفي بأنه ((لم يجلس للإمارة مدة الفتنة أنقص منه)) (2) .

مما تقدم نستخلص أن أهل قرطبة سئموا من حكم المستكفي و نادوا بخلعه ، ففر من قرطبة ((في زي غانية بين امرأتين لم يميز بينهما لمرانه على التخنث)) (3) ، و ذلك في الخامس و العشرين من ربيع الأول سنة 416 هـ، فمات في إقليش (4) بعد حكم دام ((سبعة عشر شهرا صعبا ناكدا ، سودا مشوهات مشؤومات)) (5) .

و بعد أشهر ، و قرطبة في فوضى لا ضابط لها ، قرر يحيى الحمودي السير إليها ، استجابة لطلب أهلها، و دخل القصر في رمضان سنة 416 هـ و بقي إلى نهاية السنة (6) ثم غادر قرطبة إلى مالقة في الثاني من محرم سنة 417 هـ ، و ترك بها وزيره أحمد بن موسى و دوناس بن أبي روح (7) ، فهاجمها زهير و خيران العامريان ، و أوعزا إلى أهل قرطبة بالتخلص من البربر ، ففتكوا بهم و هم زهاء ألف رجل ، و فر أحمد بن موسى و دوناس و نجيا في العشرين من ربيع الأول سنة 417 هـ (8) .

أما يحيى الحمودي المعتلي بالله فقد آثر البقاء بمالقة إلى أن قتل بقرمونة (9) على أيدي بني عباد (10) في محرم من سنة 427 هـ (11) .

1 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام .. 136

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 141 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 437 ، ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 142 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام .. 136 .

4 - إقليش مدينة متوسطة لها أقاليم و مزارع عامرة . انظر : الحميري . الروض المعطار . 51 ، الإدريسي . القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس . 287 ، ابن سعيد المغرب . 2: 11 .

5 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 437 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 143 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 136 ، دوزي . المسلمون في الأندلس . 2: 216 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 143 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه .. 136

8 - ابن الخطيب . المصدر نفسه .. 137

9 - قرمونة مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية ، و معقل عظيم من جهة الارتفاع والمنعة ، وهي من حصون الإسلام المشهورة . و كانت في أيدي البربر . انظر : الحميري . الروض المعطار . 300 ، الإدريسي . القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس (من كتاب نزهة المشتاق) . 300 ، الحموي . معجم البلدان . 4: 330 . محمد حسن ، حمدي عبد المنعم . دولة بني برزال في قرمونة .

10 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام .. 137

11 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 140 ، 137 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 144 ، النباهي المرقبة العليا . 90 .

اجتمع أهل قرطبة على رد الأمر لبني أمية (1) ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر (2) أخي المرتضى القليل - كما تقدم - فبايعوه وهو بحصن البونت (3) ، في شمال شرقي الأندلس ، في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة 418هـ، وتلقب بالمعتد بالله (4) ، فخُطب له بقرطبة وهو غائب عنها (5) ، ثم قدم إليها في الثامن ذي الحجة سنة 420هـ (6).

لم يطل عهد الخليفة المعتد بالله بسبب سوء سيرة وزيره الحكم بن سعيد القزاز (7) ، فقد كان ((يخلف الوزراء المتقدمين بقرطبة و يأخذ أموال التجار ، فيتكرم بها إلى البربر ويجزل لهم العطاء فيغضه أهل قرطبة لذلك)) (8) ، والخليفة كان مائلا لوزيره قائلًا بقوله (9) دفع بالناقمين إلى الالتفاف حول أمية بن عبد الرحمن العراقي (10) ، الذي سولت له نفسه نيل الخلافة (11) ، رغم أن أهل قرطبة نصحوه بالتخلي عن فكرة الخلافة، خوفا عليه من القتل ، فقال ((بايعوني اليوم و اقتلوني غدا)) (12) .

و في ذي القعدة سنة 422هـ تربص الناقمون بالوزير القزاز ، و قتلوه و طافوا

1 - ابن الخطيب .المصدر نفسه..137

2 - هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وهو أخو المرتضى . ولد سنة 364هـ ، وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام . يوبع بالخلافة وسنة أربع وخمسون سنة. وبقي يتنقل في الثغور إلى سنة 420 هـ ، حيث انتقل إلى قرطبة، ولم ينعم بالحكم إلا يسيرا وخلص من القصر مع أسرته ، وفر إلى لاردة فهلك بها سنة 427 هـ . وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية، وذكرهم بجميع أقطار الأندلس والعدوة. كانت مدة خلافته بالثغر وقرطبة أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة عشر يوما. انظر ترجمته: الحميدي. جذوة المقتبس. 27، الضبي. بغية الملتمس. 34، ابن حزم . رسائله. 2:203، ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 305، 304، المراكشي. المعجب. 109، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 148، 145 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 138.

3 - البونت: معقل من المعاقل الرفيعة والشواهد المنبئة، وهي قرية من أعمال بلنسية. انظر: الحميدي الروض المعطار. 115، الإدريسي. القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. (من كتاب نزهة المشتاق). 277 ، ابن سعيد. المغرب. 2: 395

4 - ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 145 ، الضبي . بغية الملتمس. 34 ، المراكشي . المعجب . 111

5 - ابن عذارى . المصدر نفسه. 3: 145 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 138

6 - ابن الخطيب . المصدر نفسه. 138 ، الضبي . بغية الملتمس. 34

7 - انظر أخباره: ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 147، 146 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 138 ، ابن الأثير . 7: 290

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه. 3: 146

9 - ابن عذارى . المصدر نفسه. 147

10 - هو أمية بن عبد الرحمن بن العراقي ، من أحفاد الناصر ، و هو ابن عم هشام . انظر أخباره ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 150

11 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 150

-50-

برأسه (1) ، ثم تقدم أمية و جموعه نحو القصر ، و هشام مقيم فيه ، و نهبوا بعض أجنحته (2) ، إلى أن نهبهم عن ذلك الشيخ أبو الحزم بن جهور (3) ، الذي ترأس اجتماعاً حضره زعماء قرطبة من وزراء و شيوخ ، و اتفقوا على خلع الخليفة هشام ، و إبطال رسم الخلافة و نفي الأمويين ، و إجلائهم جميعاً عن قرطبة (4) .
هكذا انتهى القوم إلى خلع هشام المعتد بالله ، و نفيه فسار إلى لاردة (5) و أقام بها حتى وفاته سنة 427هـ (6) .

و أما أمية بن عبد الرحمن العراقي فقد ترك القصر مكرهاً، وهو يحمل على الوزراء (7) و خرج عن البلد و قيل اختفى فيه (8) و نودي في الأسواق و الأرباض بأن لا يبقى أحد من بني أمية و لا يكتفهم أحد (9) ، و تولى أمر قرطبة بعد ذلك أبو الحزم بن جهور ، كما سنرى . هكذا تعاقبت أحداث الفتنة الشنيعة ، و تأتي في فترة قصيرة على عمران قرطبة ، و يكفيننا أن نذكر أن السنوات الثلاثة والعشرين التي انقضت بين ثورة محمد المهدي ، و إلغاء رسم الخلافة سنة 422هـ ، قد شهدت حكم تسعة من الخلفاء ؛ ستة منهم من بني أمية، و ثلاثة من بني حمود، و أن أكثر هؤلاء تقلدوا مرتين أو لأيام معدودة ، انتهوا إلى القتل أو النفي كما تقدم.

1 - ابن عذارى . المصدر نفسه .138،150.

2 - ابن عذارى . المصدر نفسه 150 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام .139.

3 - هو جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله أبو الحزم . ولد سنة 364 هـ . كان من وزراء الدولة العامرية إلى أن انقضت ، بايع هشاماً المعتد بالله مع أهل قرطبة ، و بعد خلعه سنة 422 هـ ، استقل أبو الحزم بقرطبة و ساسه أحسن سياسة . كان موصوفاً بالدهاء و السياسة . توفي سنة 435 هـ . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس : 28،188 ، الضبي . بغية الملتبس . 34،260 ، الفتح بن خاقان . مطمح الأنفس . 180 ، ابن حزم . رسائله . 2: 203 ، ابن بسام . الذخيرة . 2/1: 602 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 185 ، ابن بشكوال . الصلة . 131 ، المراكشي . المعجب . 111 ، ابن دحية . المطرب . 167،160 ، ابن الأبار . الحلة السبئية . 2: 30 ، ابن سعيد المغرب . 1: 56 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 147 ، ابن خلدون . التاريخ . 4/7: 332،343 ، ابن العماد . شذرات الذهب . 3: 255 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 151 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 139 .

5 - مدينة لاردة تقع في ثغر الأندلس الشرقي، وهي صغيرة ولها أسوار منيعة . انظر: الحميري . الروض المعطار . 507 ، الإدريسي . القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (من كتاب نزهة المشتاق) . 278 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 151 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 139 ، ابن حزم . رسائله . 2: 204 ، المراكشي . المعجب . 110 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 152 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 139 .

8 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 150،187 .

-51-

بداية عهد الطوائف

بعد إعلان أبو الحزم جهور على انتهاء رسم الخلافة لعدم وجود من يستحقها من بني أمية(1) ، وجعل الأمر شورى بين الوزراء والمشيخة ، أو ما أطلق عليه بالجماعة (2) يقول أبو طالب عبد الجبار في أرجوزته (3):

لما رأى أعلام أهل قرطبة
وعدم شاكلة للطاعة
أن الأمور عندهم مضطربة
استعملت آراءها الجماعة
فقدموا الشيخ من آل جهور
المكتنى بالحزم والتدبر

بانتهاء عصر الفتنة ، تلاه ما اصطاح المؤرخون العرب على تسميته عصا الطوائف ، وفي ذلك يقول المقرئ: ((انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتشر ملك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا خطتها ، وتغلب بعض على بعض)) (4).

يتضح من هذا القول أنه بعد سقوط الخلافة الأموية انقسمت الأندلس إلى دويلات يرأس كل واحدة أمير وهذه الدويلات انضوت تحت لواء ثلاثة أحزاب ، عمل كل حزب على بسط نفوذه على الأندلس .

الحزب الأول: ويمثله أهل الأندلس الذين استقروا فيها من قديم - وسنرى توضيح ذلك في الجانب الاجتماعي - وكان من أهم زعمائهم: بنو جهور في قرطبة ، وبنو عباد اللخميون في إشبيلية ، وبنو هود الجذاميون في سرقسطة ، وبنو صمادح أو بنو تجيب في المرية .

أما الحزب الثاني : فيمثله المغاربة الحديثو العهد بالأندلس ، ولاسيما بنو زييري الصنهاجيون الذين عبروا إليها في أيام المنصور بن أبي عامر، وبنو حمود الأدارسة الذين حكموا في عهد الفتنة ، وسنرى حكمهم في عهد الطوائف .

1 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام..147.

2 - ابن الخطيب . المصدر نفسه.130،ابن خلدون.التاريخ 4/7: 336.

3 - ابن بسام . الذخيرة .1/2: 942، العماد الإصفهاني . خريدة القصر .2: 210.

4 - المقرئ . نفع الطيب.1: 413 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام.139،ابن خلدون . التاريخ.4/7: 336.

و أما الحزب الثالث : فيمثله كبار الصقالبة الذين استقروا بشرق الأندلس . وقد شارك هؤلاء الصقالبة في المؤامرات التي شهدتها قرطبة وسائر البلاد - كما تقدم- وبعد سقوط الخلافة الأموية ، تشكلت من هذا الحزب دويلات صغيرة متحالفة وكان يطلق عليها الدولة العامرية الصقلبية ، لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصور بن أبي عامر وأبنائه .

ويمكن التعريف بأهم هذه الدول ودورها من خلال قادتها :

دولة بني جهور:

أسند أهل قرطبة أمرهم إلى شيخ الجماعة أبو الحزم جهور وفي منتصف ذي الحجة سنة 422هـ ، ((فأعطوا منه قوس السياسة باريها ، و ولوا من الجماعة أمينها، فاخترع لهم لأول وقته ، نوعا من التدبير حملهم عليه ، فاقترن صلاحهم به ، و أجاز السياسة ، فانسل به الستر على أهل قرطبة مدته)) (1).

قاد أبو الحزم حكومة قرطبة الجديدة ببراعة ونباهة أثنى عليها المؤرخون ، و كانت هذه الحكومة التي قامت على أنقاذ الخلافة الأموية تبسط سلطاتها على عدة مدن ، متوسطة الأندلس ، مثل جيان و بياسة (2) و أرجونة (3).

و كان أبو الحزم جهور جديرا بهذه الثقة ، فهو ينحدر من أسرة عريقة توارثت الحجابة والوزارة و القيادة ، إلى أن وقعت الفتنة العظمى (4)، وبهذا سماه ابن الخطيب شيخ الجماعة (5) فهو لم يستبد بالسلطة استبداد غيره من ملوك الطوائف ، و إنما كون مجلسا للحكم من شيوخ أهل قرطبة و انتخب أمينا لهذا المجلس ، و كان لا يبيت في أمر إلا بعد

1 - ابن الأبار . الحلة السراء .2: 30، ابن بسام . الذخيرة .1/2: 602 ، ابن عذارى . البيان المغرب .3: 186، ابن الخطيب. أعمال الأعلام . 148 ، ابن خلدون . التاريخ. 4/7: 343.

2 - بياسة مدينة بالأندلس بينها و بين جيان عشرين ميلا ، و هي على كدية تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة . انظر الحميري الروض المعطار . 121 ، الإدريسي . القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس . (من كتاب نزهة المشتاق) . 296.

3 - أرجونة قلعة بالأندلس ، إليها ينسب محمد بن يوسف بن الأحمر الأرجوني من متأخري سلاطين الأندلس . انظر الحميري الروض المعطار. 26 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 57.

4 - ابن الأبار . الحلة السراء .2: 30.

5 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 130.

مشاورة هؤلاء الشيوخ، بقوله : ((ليس لي عطاء و لا منع ،هو للجماعة و أنا أمينهم)) (1).

و استمرت حكومة الجماعة هذه ،تنشر الأمن والطمأنينة لسنوات عديدة (2) وعلى رأسها أبو الحزم جهور الذي لم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة ،إلى أن يجيء من يتفوق الناس على إمارته (3).

توفي أبو الحزم جهور سنة 435هـ و كانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وأشهرها (4) فلما مات خلفه في الرياسة ابنه أبو الوليد محمد بن جهور (5) ، ((فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه)) (6).

لقد أقر أبو الوليد بن جهور الحكام و ذوي المناصب على ما كانوا عليه أيام أبيه (7). و كان من معاونيه المؤرخ الأندلسي الكبير ابن حيان القرطبي (8) ، و من وزراء

-
- 1 - ابن عذارى . البيان المغرب .3: 186 ، ابن بسام . الذخيرة .2/1: 603.
 - 2 - ابن الأبار . الحلة السراء .2: 31 ، ابن عذارى . البيان المغرب .3: 186.
 - 3 - ابن الأبار . المصدر نفسه .2: 30 ، المراكشي . المعجب .111
 - 4 - ابن بسام . الذخيرة .2/1: 604 ، المراكشي . المصدر نفسه .112
 - 5- هو أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور الوزير .ولد في ذي القعدة سنة 391هـ ،درس في قرطبة و تقلد الرياسة بعد أبيه إلى أن مرض بالفالج و لزم الفراش ،و أناب ابنه عبد الملك ، إلى أن سقطت قرطبة في يد المعتمد بن عباد سنة 462هـ .توفي معتقلا في جزيرة شلطيخ بعد أربعين يوما من نفيه.انظر : ابن بسام . الذخيرة .2/1: 604 ، الحميدي. جذوة المقتبس .46 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 57 .
 - 6 - المراكشي . المعجب . 112 .
 - 7 - ابن بسام . الذخيرة .2/1: 605.
 - 8 - هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن الداخل من أهل قرطبة وصاحب تاريخها، يكنى أبا مروان و يرجح محمود علي مكي أن يكون ابن حيان من أسرة إسبانية قديمة أيدت عبد الرحمن الداخل فاصطنعها هو وأبناؤه المقتبس.، ولد ابن حيان في قرطبة سنة 377هـ ،ودرس بها على يد شيوخ أجلاء إلى أن برع في كتابة التاريخ و هو صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس و ملوكها . كان أبو مروان بن حيان((فصيحاً في كلامه بليغاً فيما يكتب في يده و كان لا يعتمد كذبا فيما يحكيه في تاريخه من القصص و الأخبار. تقلد منصبا في حكم أبو الوليد بن جهور. كما يستنتج من مقتبسه .توفي سنة 469هـ.انظر ترجمته: الحميدي جذوة المقتبس.200 ، الضبي بغية الملتبس .275، ابن بشكوال. الصلة .153 ، ابن بسام. الذخيرة.2/1: 573 ، ابن حيان المقتبس .تحقيق محمود علي مكي .9-21 ، بالنشيا آنخل . تاريخ الفكر الأندلسي .208.

الدولة الجمهورية الكاتب و الشاعر ابن زيدون (1) ، الذي كانت له صداقة متينة مع أبي الوليد بن جهور قبل حكمه و بعده .

لقد اقتفى أبو الوليد آثار أبيه في ((درء الحدود ما وجد إلى ذلك سبيلا)) (2)، محتجا لعدم وجود الإمام المجتمع عليه في الوقت (3) ، و الرفق بالرعية و بسط الأمن (4) ، و حاول بذل مساعيه للإصلاح بين ملوك الطوائف ، كما سنرى .

و ظلت قرطبة على هذا النحو من الاستقامة والصلاح إلى أن شعر أبو الوليد بن جهور بالضعف فقدم ابنه الأصغر عبد الملك فعينه وليا لعهدده وتلقب بذي السياتين المنصور بالله (5) ، و لم يبال بنصيحة بعض حلفائه من رؤساء الأندلس بإيثار عبد الرحمن ولكن

1 - هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون ، ينتهي بنسبه إلى بني مخزوم ، من بطون قريش ، ولد بقرطبة سنة 394هـ و نشأ و ترعرع فيها و فقد أباه في سن الصبا ، سنة 405هـ ، فكفله جده لأمه الذي بسط عليه ظل رعايته ، و فتح أمامه طريق العالم و المعرفة ، و ظل يحوطه حتى بلغ أشده و استوى . بعد سقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ تقلد الوزارة لدى أبي الحزم بن جهور ، ثم مشى الدساتر بابن زيدون فألقى به أبو الحزم جهور في السجن و فر منه متجها إلى إشبيلية ، ثم لزم بعد عودته إلى قرطبة أبا الوليد بن جهور بعد وفاة أبيه سنة 435هـ ، فكان وزيره و سفيره ، ثم غادر قرطبة سنة 441هـ إلى إشبيلية فاستوزره المعتضد بن عباد لمدة عشرين سنة أي إلى سنة 461هـ ، حين توفي المعتضد بن عباد و خلفه ابنه المعتمد بن عباد حظي عنده الشاعر المرموق المكان ، و عاد إلى قرطبة بعد سقوطها في يد بني عباد . توفي ابن زيدون سنة 463هـ . من آثاره ديوان شعري مطبوع و الرسالة الحديدية و الرسالة الهزلية . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 130 . يقول فيه ((شاعر مقدم ، و بليغ مجود ، كثير الشعر ، قبيح الهجاء)) ، الضبي . بغية الملمس . 186 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 63 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1: 139 ، ابن دحية . المطرب . 164 ، ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 207 ، الفتح بن خاقان . فلانند العقيان . 70 ، المراكشي . المعجب . 162 ، العماد الإصفهاني . خليفة القصر . 2: 48 ، ابن العماد . شذرات الذهب . 3: 312 ، ابن ثعري . بردي . النجوم الزاهرة . 5: 80 ، و انظر فهرس الأعلام في النسخ . 8: 62 ، عبد العظيم علي ، ابن زيدون . 69 ، الفحام ، شاعر . مختارات من شعر الأندلس . 261 ، الركايب جودت . في الأدب الأندلسي . 161 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1: 605 .

3 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1: 605 ، ابن عذارى البيان المغرب . 3: 234 .

4 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1: 604 .

5 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 233-259 .

حب الصغير سيطر عليه (1) و في هذا الصدد نجد الجزيري (2) ، يقول (3) :
و إذا الفتى فقد الشباب سما له حب البنين و لا كحب الأصغر
أساء عبد الملك السيرة و قرب إليه الأشرار (4) ، و اشتد التنافس بينه و بين أخيه
عبد الرحمن (5) ، فعمد أبو الوليد بن جهور إلى توزيع السلطة بينهما (6).
و من هنا يبدأ الفساد يدب إلى الدولة الجمهورية (7) من الداخل إذ نجد عبد الملك قد
طغى على سلطان أخيه عبد الرحمن، و استبد بالسلطة دونه (8) ، و فتك بوزير أبيه إبراهيم
ابن السقاء (9) ، فأثار ذلك سخط شيوخ قرطبة و زعمائها. كل ذلك يحدث و أبو الوليد
جهور ملتزم داره لشلل أفعده (10) .

- 1 - ابن عذارى . المصدر نفسه.3: 256.
- 2 - هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الخولاني الأزدي. ولد الجزيري كم يرجح صلاحية أحمد عبد القادر، لغموض زمان ولادته ومكانها، في أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري . أما بخصوص تعليمه فيكتفي الذين ترجموا للجزيري بأنه ((عالم أديب شاعر، كثير الشعر، غزير المادة، معدود في أكابر البلغاء)) وأنه ((من وزراء الدولة العامية، وكاتب من كتابها))، أن الجزيري كانت له ((رسائل وأشعار كثيرة مدونة)) وأما عن أشعاره، فإن صلاحية، أحمد عبد القادر بذل جدا كبيرا في جمع شعره وتحقيقه. سجن مرات عديدة في عهد المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر وبه توفي بعد أن سخط عليه هذا الخير سنة 394هـ. انظر ترجمته: الحميدي، جذوة المقتبس. 281 ، الضبي بغية الملتبس. 374 ، ابن بشكوا. الصلة. 356، الفتح بن خاقان. مطمح الأنفس. 177 ، ابن سعيد. المغرب. 1: 321 ، المقتطف من أزاهر الطرف لنفس المؤلف. 85 ، ابن الأبار . إعتاب اكتاب. 193 ، ابن بسام . الذخيرة. 1/4: 46 ، ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 26 ، فورار، محمد. الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامية. 161، هامش. 1. صلاحية ، أحمد عبد القادر . شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي .
- 3 - ابن بسام . الذخيرة. 2/1: 607 ، ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 256.
- 4 - ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 232.
- 5 - ابن بسام . الذخيرة. 2/1: 607.
- 6 - ابن عذارى . المصدر نفسه. 3: 255 ، ابن بسام . المصدر نفسه. 2/1: 607.
- 7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 251.
- 8 - ابن بسام . الذخيرة. 2/1: 607.
- 9 - هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء، إذ كان يعالج السقط، و أخذها وراثته، الابن عن الأب ،. كان وزيراً لأبي الوليد بن جهور إلى أن قتله ابنه عبد الملك بتدبير من المعتضد بن عباد سنة 455هـ. انظر ابن بسام . الذخيرة. 2/1: 244-238 ، ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 251.
- 10 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1: 611.

و أما من الخارج فقد كانت مطامح جيران الدولة الجمهورية ،من ملوك الطوائف تهدد سلامتها ،فقد كان المعتضد بن عباد(1) صاحب إشبيلية من ناحية — وسنتعرف على هذه الدولقـ و المأمون بن ذي النون (2) صاحب طليطلة من ناحية أخرى ، يتأهبان لاحتلال قرطبة ، و لكن المأمون سبق إلى ضرب الحصار عليها سنة 462هـ(3)، فاضطر عبد الملك بن جهور إلى الاستنجاد بالمعتمد بن عباد (4) ، فأعانه و دفع المأمون بن ذي النون ، ثم استولى على قرطبة و ضمها إلى ملكه (5)،و نفى بني جهور جميعا إلى جزيرة شلطيـش(6) . و مات الشيخ أبو الوليد بعد أربعين يوما في منفاه (7).

و هكذا زالت دولة بني جهور بعد أن لبثت أربعين عاما وآلت لبني عباد كما سنرى

-
- 1 - هو أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي،وتسمى أولا بفخر الدولة ثم بالمعتضد .ولد سنة 407هـ،وتقلد الحكم بعد وفاة أبيه سنة433 هـ ،ودام حكمه فيه مدة ثمانية وعشرين عاما إلى أن وفاته سنة 461هـ .وقد خلف من صنوف السريريات خاصة نحوا من سبعين جارية ،عدا حلاله بمن فيهن حرته الخطية لديه،الفذة من حلاله،بنت مجاهد العامري صاحب دانية.وكان له من الولد نحو من أربعين بين الذكور والإناث.انظر ترجمته:الحميدي .جدوة المقتبس. 296 ، ابن بسام . الذخيرة.1/2: 23 ، ابن حزم .رسائله.2: 46 ، ابن الأبار الحلة السراء.2: 39 ، ابن عذارى.البيان المغرب.3: 204 ، المراكشي . المعجب . 151 ، ابن الخطيب .أعمال الأعلام.155 ، المقرئ . نفع الطيب . 4: 242.
 - 2 - هو يحيى بن إسماعيل بن ذي النون ،تلقب بالمأمون.خلف أباه إسماعيل بن ذي النون سنة 435هـت ،في حكم طليطلة التي اتسعت حدودها ،وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموردا ،وساد بها الأمن والرخاء. توفي المأمون سنة 467هـ ،بعد حكم يارب الثلاث والثلاثين سنة.انظر ترجمته: ابن بسام .الذخيرة .1/2: 609 ، ابن عذارى . البيان المغرب.3: 257،277 ، ابن الأبار . الحلة السراء. 2: 129 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام.177.
 - 3 - ابن بسام . الذخيرة .1/2: 610
 - 4 - هو محمد بن عباد بن إسماعيل بن عباد،ويكنى أبا القاسم ويلقب بالمعتمد على الله ،والظافر بالله،ولد بمدينة باجة سنة 431هـ— ،وشب المير وترعرع بين السيف والقلم إلى أن أصبح واليا لشلب.ثم خلف أباه بعد وفاته سنة461 هـ .وسار على فحجه إلى أن أسر من قبل يوسف بن تاشفين سنة 484هـ ، وبعد أربع سنوات مات في السجن بأعمات قرب مراكش في جنوب المغرب الأقصى.وللمعتمد ديوان شعري تتوزع مقطوعاته الشعرية بين حياة الأمير فالملك إلى السير .حققه أحمد حامد بدوي وحامد عبد الحميد القاهرة.1951.كما حققه رضا الحبيب السويسي.تونسز 1971 ، انظر ترجمته: ابن بسام .الذخيرة.1/2: 41.الفتح بن خاقان.قلائد العقيان.4 ، ابن البار . الحلة السراء.2: 52.المراكشي .المعجب. 158 ، ابن خلكان.وفيات العيان.5: 25 ، ابن خلدون .التاريخ.7/4: 344. ابن العماد . شذرات الذهب.3: 386 ، ابن الخطيب.أعمال الأعلام.157 ، دوزي .المسلمون في الأندلس .3: 89.
 - 5 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 260 ، ابن سعيد . المغرب .1: 56.
 - 6 - شلطيـش و هي جزيرة لا سور لها و لا حظيرة إنما هي بنيان متصل ببعضه ببعض .و يحيط بجزيرة شلطيـش البحر من كل ناحية ،إلا مقدار نصف رمية حجر .و هي مرفأ للسفن و ركاب البحر،و هي كثيرة السفن ،و بها دار صناعة لإنشائها . انظر الإدريسي . القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس (من كتاب نزهة المشتاق) . 265 ، الحميري . الروض . المعطار . 343 ، ابن سعيد . المغرب .1: 57.
 - 7 - ابن بسام . الذخيرة .1/2: 611 ، ابن عذارى . البيان المغرب.3: 259 ، ابن سعيد . المصدر نفسه .1: 57.

دولة بني عباد:

بنو عباد من العرب الداخلين إلى الأندلس من لحم ، وكان صدر بيتهم ومؤسس مجدهم ، القاضي أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاء بن نعيم . وعطاء من حمص من صقع الشام هو الداخل منهم إلى الأندلس مع جند بلج بن بشر القشيري(1) ، ونزل بقرية يومين من عمل إشبيلية(2).

وتكاد جميع المصادر أن تتفق على نسبهم هذا ، وموضعهم من حمص الشام . وتصف رواية أخرى نسبهم إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي(3) ، آخر ملوك الحيرة(4).

بهذا النسب كانوا يفخرون ويُمدحون ، فوجد ابن اللبانة(5) ، يقول(6):

من بني المنذرين وهو انتساب زاد فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد

لكن دوزي ينفي عنهم هذا النسب الأخير دون الاستناد على أدلة تبرر زعمه ، ثم لا يوجد تناقض بين الروايتين مادامتا تؤكدان أنهم من لحم(7).

1 - ابن عذارى. البيان المغرب.3: 194 ، ابن الأبار. الحلة السراء.2: 34 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام. 153 ، ابن بشكوال . الصلة. 523.

2 - ابن الأبار. المصدر نفسه. 2: 35 ، ابن عذارى. المصدر نفسه.3: 195.

3 - ابن الأبار. المصدر نفسه. 2: 35.

4: محمد مجيد السعيد . الشعر في ظل بني عباد. 17.

5 -هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني ، المشهور بابن اللبانة ،عربي الأصل ،داني المنشأ والولادة ،و دانية مدينة على ساحل البحر الرومي في شرق الأندلس .وقد كانت عائلته فقيرة معذمة وكانت أمه تبيع اللبن لتعليه،عرف بقول الشعر في صغره .اتصل ببني الأفضس في صغره ،قصد إشبيلية واستقر بها ،وقد توثقت علاقته بالمعتمد بن عباد في ظل حكمه وبعده.توفي الشاعر في مدينة ميورقة سنة 507هـ انظر ترجمة ه: ابن بسام .الذخيرة.2/3: 666 ، الفتح بن خاقان .قلائد العقيان.282 ، ابن سعيد .المغرب .

2: 409 ، العماد الأصفهاني .خريدة القصر 2: 177 ، الصفدي. الوافي بالوفيات.4: 297 ، المقرئ نفع الطيب 4: 258 ، ابن اللبانة الداني شعره .

6 - ابن اللبانة . ديوان . 33 ، ابن الأبار.المصدر نفسه.2: 35.

7 - دوزي. المسلمون في الأندلس.3: 10.

استقر بنو عباد في إشبيلية ، و تصدوا لخدمة الملوك في الحياة السياسية في قرطبة و إشبيلية ، زمن الخليفة الحكم المستنصر بالله و ابنه هشام المؤيد ، و كان إسماعيل والد القاضي محمد بن عباد قدمه المنصور بن أبي عامر على خطة القضاء بإشبيلية ، فدام له ذلك إلى سقوط الدولة العامرية ، ثم واصل عمله هذا أثناء الفتنة (1) ، إلى أن بلغ به الكبر مبلغا و كلَّ بصره سنة 414هـ ، ولى ابنه أبا القاسم محمد بن عباد على رياسة البلد و تدبير الرأي إلى أن آتاه أجله سنة 414هـ (2) .

لقد خلف أبو القاسم محمد بن عباد أباه في القضاء ، و كان يخشى الحموديين ، فبدأ يعد للانفصال عنهم ، فاجتمع رأي أهل إشبيلية على ثلاثة من الزعماء لإدارة المدينة وهم : القاضي محمد بن عباد والفقير أبو عبد الله الزبيدي ، و الوزير أبو محمد بن عبد الله ابن مريم (3) . و كان محمد بن عباد أقواهم نفوذا و أكثرهم ثراء ، فعمل على توطيد سلطانه (4) . و لما عاد القاسم بن حمود إلى إشبيلية بعد أن خلعه أهل قرطبة ، و حاول دخولها منعه زعماء المدينة من ذلك (5) ، و صرفوه عنها مقابل مبلغ من المال و تكون له الخطبة (6) ، و أصبح القاضي محمد بن عباد الحاكم الشرعي و الفعلي لإشبيلية ، بعد أن رضي الناس به سنة 414هـ (7) .

نظم القاضي محمد بن عباد حكم المدينة ، معتمدا على تأييد زعماء البيوتات العربية و على الشعب و التفافه حوله ، ثم انصرف إلى ضم الدويلات المحيطة به ، فكانت له

1- ابن عذارى . البيان المغرب .3: 194 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام.152 ، ابن الأبار . الحلة السيرة..2:35

2- ابن عذارى . المصدر نفسه.3: 194 ، ابن الخطيب.المصدر نفسه.152

3- ابن الأبار . الحلة السيرة.2: 37.

4- انظر هذا البحث.صفحة.45

5- انظر هذا البحث .صفحة 45

6- ابن عذارى . البيان المغرب.3: 196.

7- ابن عذارى . البيان المغرب.3: 196.

حروب مع بني الأفطس (1) أصحاب بطليوس (2) و ضم مدينة باجة (3) إلى ملكه (4) و من أشهر أعمال القاضي محمد بن عباد في تلك الفترة ، إعلانه لظهور هشام المؤيد رغم موته الثانية - كما تقدم- وإقامته خليفة بإشبيلية بأنه حي لم يمّت سنة 426 هـ (5).
ومن أشهر أعمال القاضي محمد بن عباد في تلك الفترة ، إعلانه لظهور هشام المؤيد رغم موته الثانية - كما تقدم- وإقامته خليفة بإشبيلية بأنه حي لم يمّت سنة 426 هـ (6)،
و ذلك ليدحض دعوى الحموديين في الخلافة ، و يجعل من إشبيلية مقرا للخلافة بعد أن فقدته في قرطبة .

فقد أظهر شخصا يشبه هشاما ، كان مؤذنا في مسجد في قرية من قرى إشبيلية يسمى الخلف الحصري (7) ، و أنه حي أتى به من إشبيلية و نودي في الناس ((يا أهل إشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ! فهذا مولاكم ! قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلدكم)) (8).

1 - بنو الأفطس من أصل بربري وينتسبون إلى قبيلة مكناسة وإن كانوا ينتحلون النسب العربي في تجميل مدحتهم الشعراء بهذه النسبة. وقد أقاموا مملكة قوية كبيرة حاضرتها مدينة بطليوس شملت عدا العاصمة عدة مدن هامة أخرى كيابرة وماردة وشنترين وأشبونة وغيرها. وشهدت بطليوس في عهدهم لم تشهد من قبل وحتى بعد زوال ملكهم. وكان جدهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس قد نزل بفحص البلوط من أعمال قرطبة. فلما اندلعت نار الفتنة انتزى كل على ما بيده، استبد بغرب الأندلس الفتي سابور العامري أحد صبيان فائق الخادم فتى الخليفة الحكم المستنصر بالله. اتصل به عبد الله بن محمد بن مسلمة، وعمل في خدمته واكتسب ثقته، فلما توفي سابور سنة 413 هـ وترك ولدين لم يبلغا الحلم، أوصى ابن الأفطس أن يستمر في الحكم وصيا عليهما حتى يبلغا أشدهما، لكن ابن الأفطس استولى على المملكة واستأثر بالأمر وتلقب بالمنصور، إلى أن توفي سنة 437 هـ فخلفه ولده محمد بن عبد الله بن الأفطس وتلقب بالمظفر، إلى أن توفي سنة 461 هـ، فخلفه ولده يحيى بن محمد الملقب بالمنصور، ولم يقدر طويلا فقد توفي سنة 464 هـ ليخلفه أخوه عمر الملقب بالمتوكل إلى أن قتل على أيدي المرابطين سنة 488 هـ. انظر: ابن الأبار. الحلة السيرة. 96،

ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 276، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 176-186.

2 - بطليوس مدينة في غرب الأندلس تقع على ضفة نهر يانة، وهو نهر كبير ويسمى النهر الغوور، لأنه يكون في موضع يحمل السفن ثم تغور تحت الأرض حتى لا توجد منه قطرة فسمي الغوور لذلك. وكانت قديما من أعمال ماردة. انظر الحميري. الروض المعطار. 93، البكري. جغرافية الأندلس وأوربا. 119، 120، الإدريسي. القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، من (كتاب نزهة المشتاق). 268..
3- باجة الأندلس، وهي من أقدم مدائنها و بينها و بين قرطبة مئة فرسخ (الفرسخ يعادل 4452م)، انظر: الحميري. الروض 75.

4- ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 196.

5- ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 197، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 154.

6 - ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 197، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 154.

7 - ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 300، 343.

8 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 154.

و قد اتفقت المصادر على موته فابن حزم -رغم أمويته- ندد بقصة هذا الخليفة المزعوم ، و يصفها بأنها ((أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها)) (1).
وعلى إثر ذلك استعاد القاضي ابن عباد مدينة قرمونة سنة 427 هـ بعد قتله للخليفة يحيى المعتلي (2) .

المعتضد بن عباد :

توفي القاضي أبو القاسم محمد بن عباد سنة 433 هـ ، وولي ابنه أبو عمر عباد ابن محمد بن عباد وتلقب بالمعتضد بالله (3)، ويصفه ابن حيان وهو معاصره ومنتبع لأحداث حياته وحروبه ، بأنه ((زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته ، أسد الملوك وشهاب الفتنة، وداحض العار ومدرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعة)) (4) .

يتضح من هذا القول أن ابن حيان يبدو أنه أميل إلى تزكية المعتضد ، ولكن ابن بسام يحكم عليه بقوله: ((قطب رحى الفتنة ومنتهى غاية الخنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ولا سليم عليه قريب ولا بعيد جبار أبرم الأمور وهو متناقض... فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده ، واتسع بلده ، وكثر عدده وعديده)) (5) .

افتتح المعتضد حكمه بأمور كشفت عن صرامته وعنف وسائله منها قتل حبيب (6) وزير أبيه سنة 440 هـ (7) ، ثم نكب حليفي والده عبد الله الزبيدي وأبا محمد عبد الله ابن مريم (8) ، ثم سفك دم أخيه عبد الله (9) وباشر قتل ابنه إسماعيل بنفسه بعد فشل تأمره

1 - ابن حزم . رسائله. 2: 97 ، وقد نقل هذا النص ابن خلكان . في وفيات الأعيان. 5: 22.

2 - ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 199.

3- ابن بسام . الذخيرة. 1/2: 23 ، ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 204 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 155.

4 - ابن بسام . المصدر نفسه. 1/2: 24 ، ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 204 ، ابن الأبار . الحلة السرياء. 2: 40.

5 - ابن بسام . المصدر نفسه. 1/2: 24.

6 - هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الملقب بحبيب . قتله المعتضد بن عباد ، ابن تسع وعشرين سنة. وهو صاحب كتاب البديع في فضل الربيع، من تحقيق هنري بيريس. الرباط. 1940. انظر ترجمته: ابن سعيد . المغرب. 1: 250 ، الحميدي. الجذوة. 162 ، الضي. البغية. 228 ، ابن بسام . المصدر نفسه 1/2: 124 ، المقرئ . نفع الطيب . 3: 447.

7 - ابن سعيد. المغرب. 1: 250.

8 - ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 202.

9 - ابن حزم . رسائله. 2: 90.

عليه(1) ، كما دبر حيلة لبعض أمراء البربر وهم أبو نور بن أبي قرّة صاحب رندة ،
ومحمد بن نوح الدمري صاحب مورور وعبدون بن خزرون صاحب اركش(2)، بأن دعاهم
إلى إشبيلية وقتلهم في الحمام سنة 445 هـ (3).

لقد وضع المعتضد بن عباد خططه للسيطرة على غرب الأندلس ؛فبدأ بمدينة لبلة(4)
ضمها إلى ملكه سنة 455 هـ (5)، ثم استولى على ثغر ولبة وجزيرة شلطيش سنة
443 هـ(6)،وشلب (7) سنة 455 هـ (8) ،والجزيرة الخضراء سنة 446 هـ (9).

استطاع المعتضد أن يوسع حدود دولته تحت راية الخليفة هشام المؤيد التي اصطنعها
أبوه — كما تقدم — ويبتلع كل الدول الصغيرة المحيطة بها ، فبلغت حدودها الأطلسي
غربا ، وبلغ المضيق عندما ضم الجزيرة الخضراء ، أما في الشرق فقد اقترب من قرطبة
وعندما زالت الخلافة الحمودية لم يعد بحاجة إلى واجهة شرعية ، فقطع الدعوة لهشام
المؤيد في سائر أنحاء مملكته وأعلن أنه قد مات من سنوات وأخفى موته لمصلحة المسلمين
وذلك سنة 451 هـ (10) . ويعلق ابن حيان على ذلك بقوله: ((وصارت هذه الميتة
لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها تكون إن شاء الله الصادقة ، وكم قتل وكم مات
ثم انتفض عنه التراب ، قال بعضهم فيه:

ذاك الذي مات مرارا ودفن فانتفض التراب ومزق الكفن)) (11)

-
- 1 - ابن حزم. المصدر السابق. 2: 92 ، ابن عذارى .البيان المغرب.3: 244 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 156 ، المراكشي.
المعجب..153
 - 2 - انظر: ابن عذارى. المصدر نفسه.3: 234.-271،
 - 3: ابن الخطيب . أعمال الأعلام. 156.
 - 4 - لبلة مدينة في غرب الأندلس،حسنة متوسطة القد. ولها سور منيع بينها والبحر المحيط ستة أميال .انظر: الإدريسي .القارة الإفريقية
وجزيرة الأندلس (من كتاب نزهة المشتاق). 256 ، الحميري .الروض المعطار..342
 - 5 - ابن عذارى . البيان المغرب.3: 204،209
 - 6 - ابن عذارى .المصدر نفسه.3: 204،241،299.
 - 7 - شلب مدينة حسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين ولها غلات وجنات ،وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن ،وهم
يتكلمون بالكلام العربي الصريح ويقولون بالشعر وهم فضحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم. وشلب الآن قرية صغيرة في البرتغال. انظر:
الإدريسي.الإفريقية وجزيرة الأندلس(من كتاب نزهة المشتاق). 266 ، الحميري .الروض . المعطار.342 ، ابن سعيد.المغرب.1: 380.
 - 8 - ابن عذارى . البيان المغرب.3: 192،204،296،298.
 - 9 - ابن عذارى .المصدر نفسه.3: 242،243.
 - 10 - ابن عذارى. المصدر نفسه.3: 249.
 - 11 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 249 .

تتضح لنا — مما تقدم — صورة جلية للمعتضد بن عباد ، تتصف بالقسوة والحيلة وكثرة الغدر ، حتى أنه احتفظ برؤوس خصومه في خزانة لديه (1) ، ونال بطشه حتى ابنه وأخيه — كما تقدم — لكنه كان مع ذلك جميل الصورة ، شاعرا يطرب للشعر، وله ليالي خمرية وأمسيات شعرية بين الجوارى والقيان والرقص والغناء ، وقد وصف نفسه بقوله(2):

قسمت زماي بين الكد والراحة: فللرأي أسحار وللطيب آصال
فأمسي على اللذات واللهو عاكفا وأضحى بساحات الرئاسة أختال
ولست — على الإدمان — أغفل بغيي من المجد، إني في المعالي محتال

ويقضي المعتضد بن عباد نحبه سنة 461 هـ ، وهو في حزن وألم لموت طفله في اليوم الثاني من وفاتها، فهي الأثيرة لديه ، وأبدى لها حزنا شديدا(3) . ويخلفه ابنه المعتمد بن عباد.

المعتمد بن عباد:

خلف محمد بن عباد والده المعتضد يوم وفاته ، وهو في الثلاثين من عمره ، وتلقب بالظافر بالله ، والمعتمد على الله (4) ، وهو اللقب الذي اشتهر به.

كان المعتمد في حياة والده واليا على شلب سنة 455 هـ (5) ، وأول عمل عسكري قام به بعد وفاة أبيه هو ضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية سنة 462 هـ ، بعد القضاء على بني جهور (6). واستطاع أن يحقق انتصارا باستيلائه على مرسية بقيادة وزيره ابن عمار (7) ،

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2: 27 ، ابن الأبار . الحلة السيرة. 2: 50.

2 - ابن الأبار . المصدر نفسه. 2: 46.

3 - ابن الأبار . المصدر نفسه. 2: 52.

4 - ابن الأبار . المصدر نفسه. 2: 52.

5 - ابن عذارى . البيان المغرب. 3: 244.

6 - انظر هذا البحث. 60.

7 - هو ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار بن الحسين بن عمار المهري الأندلسي الشاعر المشهور . ولد في قرية شنتبوس قرب شلب، وهو من أسرة فقيرة، فكان ينتجع بشعره، ويطوف على ملوك الطوائف ، وتعلق في أول أمره بالمعتمد بن عباد في شلب، ثم صحبه إلى إشبيلية، وترقى إلى الوزارة ، وأصبح من ألمع شخصيات عصره السياسية، ولكن بعد فتح مرسية، سولت لابن عمار نفسه للاستقلال بها ، وينفرد بالحكم فيها . ولم يطل به المقام فيها حتى أسر وسجن وقتل من قبل المعتمد بن عبادن بيده سنة 477 هـ . انظر: الضبي . البغية. 113 ، الفتح بن خاقان قلاند العقيان. 94 ، ابن بسام.الذخيرة. 1/2: 368 ، ابن الأبار . الحلة السيرة. 2: 131 ، ابن سعيد.المغرب. 1: 389 ، رايات المرزبن لنفس المؤلف. 25 ، المراكشي.المعجب. 169 ، ابن دحية. المطرب. 169 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان. 4: 425 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 160 ، العماد الإصفيهان. الخريدة. 2: 71 ، المقرئ. نفع الطيب. 1: 625 ، وللدكتور صلاح خالص مؤلف جمع فيه شعره. بغداد. 1957.

وباتفاق مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجير(1) ، لقاء عشرة آلاف مثقال من الذهب وفشلت أعماله الأولى (2) ، ثم نجح ابن عمار في الاستيلاء عليها سنة 471 هـ (3).
كان ابن عمار قد سولت له نفسه بالاستقلال بمرسية، لكن سرعان ما وقع في قبضة المعتمد بن عباد مقابل هدية كبيرة ، وزج به في السجن وقتله بيده ، وذلك سنة 477 هـ (4).
وبعد أن استولى ألفونسو السادس(5) على مدينة طليطلة سنة 478 هـ (6) ، رأى أن يضاعف الجزية التي كان يدفعها إليه المعتمد بن عباد ، ومن قبله والده المعتضد فأرسل اليهودي ابن شاليب لهذا الأمر الذي كان بداية نهاية بني عباد كما سيأتي فيما بعد.

دولة بني زيري في غرناطة:

لاشك أن سليمان المستعين كان جلوسه على كرسي الخلافة في قرطبة سنة 403 هـ ، تم بمعاونة ونصرة البربر له ، كما تقدم ، وعندئذ كافأهم الخليفة المستعين بأن اقتطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيري ولاية البيرة (7).
ويورد لنا الأمير عبد الله في مذكراته قوله: إن صنهاجة حين تفكك الدولة واستيلاء كل أمير ببلدة ، اعتزموا الرحيل عن الأندلس ، ولكن أهل البيرة ، وقد كانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة ، والخصب والنماء ، ولم يكن من يدافع عنهم ، لجأوا إلى زاوي ابن زيري ، دعوه وقومه إلى الإقامة بأرضهم والدفاع عنهم. وقبل زاوي وقومه دعوتهم ، ونزلوا بتلك الأرض ، وأجمعوا على الدفاع عنها (8) .

-
- 1 - هو رامون برنجير الثاني، ابن الكونت رامون برنجير الكبير، وقد حكم برشلونة بالإشتراك مع أخيه برنجير بعد وفاة أبيهما سنة 1076 م. وقد قتل غيلة سنة 1082 م، فانفرد أخوه برنجير بالإمارة. انظر: عنان، محمد بن عبد الله. دول الطوائف. 492، ابن سلامة، الربيعي. أدب الخنة الإسلامية في الأندلس. 31. هامش. 124.
 - 2 - عنان، محمد عبد الله. المرجع نفسه. 64.
 - 3 - المراكشي. المعجب. 180.
 - 4 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 160، المراكشي. المصدر نفسه. 181، المقرئ. نفع الطيب. 1: 451.
 - 5 - ألفونسو أو الأذفونش بن فرناندو الأول (— 458 هـ = 1065 م) الذي قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة قبل وفاته بسنة، فكان نصيب ألفونسو السادس هذا مملكة ليون، وبعد صراع مع أخويه شانجة وخرسية استولى على مملكة قشتالة وحليقية وأصبح ملكا باسم ألفونسو السادس وهو الذي احتل طليطلة (سنة 478 هـ = 1085 م). انظر: ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 232، 304، عنان، محمد عبد الله. دول الطوائف. 375-387، الحجي، عبد الرحمن. التاريخ الأندلسي. 330، ملحمة السيد. ترجمة مكّي، الطاهر أحمد. 84.
 - 6 - ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 304.
 - 7 - انظر هذا البحث. 35.
 - 8 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 18 - 22.

وبعد نزول زاوي وقومه بالبيرة ، ثم سرعان ما عدلوا عنها إلى موقع قريب منها لخصائمه ، وبنوا مدينتهم الجديدة ، وهكذا قامت مدينة غرناطة، وبدأت تنمو وتحتل مكانة، وبالمقابل زالت البيرة بسرعة(1).

استقر بنو زيري في غرناطة ، ولكنهم لم يكونوا بمعزل عن حوادث قرطبة ؛ فبعد مقتل سليمان المستعين ، واستيلاء الحموديين على قرطبة (2)، أعلن خيران العامري، مع بعض من ولاية شرقي الأندلس(3) الدعوة لبني أمية في شخص عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى (4) ، وتوجهوا لمقاتلة الحموديين في قرطبة، وقبلهم ساروا نحو غرناطة فلقبهم زاوي بن زيري ، ونشبت بينهم معركة شديدة استمرت أياما ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس، ومقتل خليفتهم المرتضى ، وذلك سنة 409 هـ (5).

بعد النصر الذي حققه زاوي بن زيري على الأندلسيين ، قرر العودة إلى إفريقية سنة 410 هـ - لأسباب لا ندخل في ذكرها - بالرغم من معارضة ابنه جلال وقومه(6)، وبعده عُيِّن لولايتها حبوس بن ماكسن بن أخيه سنة 411 هـ (7).

سار حبوس بن ماكسن سيرة حسنة ، و ضبط النظام والأمن، وقسم الأعمال بين أقاربه وبني عمه، ونظم الجند (8). وتحالف مع جيرانه بني حمود أصحاب مالقة (9). وبهذا وطد حبوس ملك قومه بغرناطة ، إلى أن استأثرت به الموت سنة 428 هـ (10)، فكان محل إشادة من قبل المؤرخين والأدباء يصفه

1 - الأمير عبد الله. المصدر السابق. 22.

2 - انظر هذا البحث.. 39

3 - من الذين دعوا للمرتضى ، منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة . انظر ابن الخطيب أعمال الأعلام. 130، ابن الأثير. الكامل في التاريخ. 7: 285.

4 - انظر هذا البحث.. 42

5 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 22 - 23 ، ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 400 ، ابن خلدون. التاريخ. 7/4: 346 ، المقرئ. نفع الطيب. 2: 30.

6 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 24- 25 ، ابن بسام . الذخيرة. 1/1: 457 ، ابن الخطيب. الإحاطة. 1: 140، 477.

7 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 25 - 26 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 477.

8 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 25

9 - ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 191.

10 - ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 264 ، الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 27 ، ابن خلدون. التاريخ. 7/4: 346 وهو يحدد سنة وفاته 429 هـ ، ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. 1: 477.

ابن حيان ، بقوله : ((كان وقورا حليما،فظًا مهيبا ،نزر الكلام،قليل الضحك ،كثير الفكر ، شديد الغضب ،شجاعا حسن الفروسية ،له في كل ذلك أخبار مأثورة)) (1).
ويصفه الأمير عبد الله في مذكراته ، بقوله: ((صرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد،
وتعفف عن كل شئ ؛ وجمدت يده على الحرام من الأموال ، فأحبه الناس ، وأمنت منه
السبل ، وقلّ الفساد وارتفع الجور)) (2) .
خلف باديس (3) في حكم غرناطة أباه حبوس،وقدر له أن يكون أقوى ملوك البربر
في جنوب الأندلس ، وأعظمهم شأنًا في تلك الفترة التي كثرت فيها الصراعات،بسبب
التوسع أو الرياسة،ولم ينازعه في الملك أخوه بلقين بن حبوس(4) ، ولكن يدير بن حباسة
ابن ماكسن رغب في أن ينتزع السلطة من باديس لنفسه ، كما حاول من قبل مع عمه
حبوس وفشل في ذلك (5).

وكان من محرضي يدير في هذا السبيل، الكاتب أبو الفتوح ، ثابت بن محمد
الجرجاني(6) ، العالم المشرقي الذي لحق بقرطبة أيام الفتنة ، وكان يلقي بنبوءاته في روع
يدير ، أنه سوف يظفر بملك غرناطة ، ويحكمها ثلاثين سنة (7).

1 - ابن بسام . الذخيرة.1/1: 460 - 461.

2 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان. 25 - 26.

3 - هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي،ولي إمرة غرناطة بعد وفاة أبيه سنة 428 هـ ،وتلقب بالظافر بالله
الناصر لدين الله.وصفه المؤرخون بالشدة والصرامة التي تصل إلى حد البطش والجور، ونقل ابن حيان بعض أخباره في الشدة
والقسوة.دام حكمه طويلا إلى أن توفي سنة 465 هـ . انظر ترجمته: الأمير عبد الله . كتاب التبيان.30، ابن بسام،الذخيرة.2/1:
656 ، ابن عذارى. البيان المغرب.3: 262،،ابن الخطيب.الإحاطة.1: 140،435 ، وأعمال الأعلام لنفس المؤلف.230 ، ابن
خلدون. التاريخ.7/4: 345 ، دوزي. المسلمون في الأندلس.3: 26 ، عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف..129

4 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان. 28 ، دوزي. المسلمون في الأندلس.3: 26.

5 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه..28

6 - هو ثابت بن محمد الجرجاني،يكنى أبا الفتوح.ولد سنة 350 هـ ،وقدم الأندلس سنة 406 هـ . كان في العربية،ومتكنا في
الأدب،مذكورا في التقدم في علم المنطق.قتله باديس بن حبوس سنة 431 هـ ،لتهمة لحقته مع ابن عمه يدير بن حباسة. انظر ترجمته:
الحميدي.الجدوة.184 ، الضبي.البيعية.253 ، ابن بشكوال . الصلة.123 ، ابن بسام .الذخيرة.2/1: 668 ، دوزي .تاريخ
المسلمين في الأندلس.3: 33 - 37.

7 - ابن الخطيب .المصدر نفسه .1: 457.

ومن كتاب حبوس نجد أبا العباس (1) ، وله مساعد يدعى أبو إبراهيم
إسماعيل بن نغريلة (2) ، كان يتولى جمع المال ، وعلت منزلته بعد وفاة أبي العباس ،
وازدادت حظوته في عهد باديس ، بعد أن أحبط مؤامرة قتله من قبل يدير وجماعته ،
وحذره من اتساع نطاق الفتنة ، ونزل باديس عند نصيحة اليهودي ، واستتب له الأمر دون
منازع (3).

أول حادث خطير واجهه باديس ، حربه مع زهير العامري صاحب المرية — كما
سنرى فيما بعد — ويورد عن هذا الأخير الأمير عبد الله، قوله: ((أدركه الطمع في غرناطة لما
بلغه من موت حبوس بن ماكسن)) (4) ، ولكن باديس انتصر على زهير العامري، وقتله مع
بعض قواده وفرسانه ، وتم له التوسع على الجزء الغربي من المرية المتاخمة لغرناطة (5).
وبعد أن توطد الحكم لباديس ، ترك الكثير من شؤون تصريف إدارته إلى كتابه
ومعاونيه، وبخاصة بن النغريلة، وقد جاء في بعض ما وصفه مؤرخ العصر
ابن حيان ، أنه ((كان هذا اللعين، من أكمل الرجال علما وحلما وفهما، ودهاء ومكرا ،
ومعرفة بزمانه ، ومدارة لعدوه، واستسلا لا لحقودهم بحلمه ؛ ناهيك من رجل كتب
بالقلمين ، واعتنى بالعلمين ، وشغف باللسان العربي ، ونظر فيه وقرأ كتبه ، وصار يكتب
عنه وعن صاحبه بالعربي ، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله ، والصلاة على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، والتزكية لدين الإسلام وذكر فضائله)) (6).

1- الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 30.

2- هو أبو إبراهيم إسماعيل بن نغريلة. اليهودي، كاتب ووزير حبوس بن ماكسن، وعلت منزلته في عهد باديس، إلى أن فضل على وزرائه
في شؤون إدارته، واكتسب المال. كما كان من أهل الأدب والشعر إلى أن هلك. فخلفه ابنه يوسف. انظر: ابن عذارى. البيان
المغرب. 3: 264 ، الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 30 - 32 ، ابن الخطيب. الإحاطة. 438 - 439.

3- الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 30 - 34 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 439 ، ابن بسام. الذخيرة. 2/1: 766 ، هنري
بيريس. الشعر الأندلسي في عصر الطوائف. 240.، دوزي. المسلمون في الأندلس. 3: 21.

4- الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 34.

5- ابن بسام. الذخيرة. 2/1: 166 ، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 169 - 172 ، ابن الخطيب. الإحاطة. 526 ، الأمير عبد الله.
المصدر نفسه. 35، 34.

6- ابن الخطيب. الإحاطة. 1: 438.

وبعد وفاة ابن النغريلة هذا ، حل ابنه يوسف بن إسماعيل (1) محله ، لدى باديس ،
و لقي ابنه بلقين حتفه على يد هذا اليهودي سنة 457 هـ (2) ، وبرأ نفسه لدى باديس
وقبل حججه ، بعد أن نالت المحنة عددا من المقربين من بلقين (3).
وبذلك انفرد يوسف بن نغريلة بالسيطرة ، حتى أضحي أول رجل في الدولة
بوصفه رئيسا للوزراء (4) ، ولم يسمح لغيره بأي ظهور،ومما زاد من تفرده ، زهد باديس
بالحكم الطويل الذي بلغ إلى حدود سبعة وثلاثين عاما هجرية ، وموت ولده بلقين (5) ،
حتى وصل سلطان اليهودي حدَّ استصدار أمر من باديس بنفي ولده الثاني ماكسن إلى
جيان (6) ، لكن هذا التفرد لم يستمر لابن النغريلة ؛ إذ طرأ على الدولة واحد من عبيد
المعتضد بن عباد يسمى الناية كان متهما في المؤامرة التي دبرها ضده ولده إسماعيل ، ولجأ
إلى باديس وخدمه وحظي عنده ، وعهد إليه ببعض المهام الخطيرة (7).

بهذا وقع التنافس بين الطارئ الناية ، وبين يوسف بن نغريلة،فكان الناية يحرض على
قتله ، ويفضي إلى باديس بذلك كلما سنحت الفرص،وشعر ابن النغريلة، بأن الناية أفلح

-
- 1 - هو يوسف بن إسماعيل بن النغريلة، ويكنى أبا الحسن .مكن له أبوه إسماعيل في دولة بني زيري :حبوس ثم باديس.وكان فيه دهاء
وذكاء.وقد خلعت الأحياء لابن النغريلة بعد وفاة أبي العباس كاتب حبوس.وكانت الجباية التي يقدمها المتصرفون اليهود تسكت باديس
وتسره.غير أن الخاصة والعامة من الغرناطين استأوا من تسلط ابن النغريلة والجباة من جماعته.ورأوا استأثر هؤلاء القوم بخيرات
البلاد،فأنكروا عليهم ذلك ،وحرضوا باديس وقومه مرارا،فكان بلقين بن باديس ينظر إلى ذلك بعين السخط ،ويرغب في إزالته وقتله،لكن
ابن النغريلة تفضن لذلك ودعا لمجلس شراب ودس له السم في كأسه،ومات من أثره،واتهم غيره من المشكوك فيهم.سنة 456 هـ . ثم أن
ابن النغريلة خاف على نفسه ،فراسل ابن صمادح صاحب المرية للاستيلاء على غرناطة، وتسليمه مقاليد الأمور فيها،غير
أن مؤامراته انكشفت،لدى العامة ،بتحريض من قبل العلماء والمصلحين،فهجمت على داره فأخرجته وقتلته،وفتكت بقومه وجعلتهم بين
قتيل وجريح سنة 459 هـ . انظر ترجمته: ابن عذارى.البيان المغرب.3: 264 ، الأمير عبد الله.كتاب
التيبان.30 - 34،.42، 51 ، النباهي.المرقبة العليا.92 ، ابن الخطيب.الإحاطة.1: 439 ، ابن بسام .الذخيرة.2/1:
766 - 769 ، خليفة،عبد الكريم. ابن حزم الأندلسي.155 ، ابن سعيد.المغرب.2: 114- 115 ، دوزي.المسلمون في
الأندلس.3: 75 - 76 ، هنري بيريس.الشعر الأندلسي في عصر الطوائف.244 ، أبو إسحاق الإلييري .ديوان..128
 - 2 - النباهي.المرقبة العليا.92 ، الأمير عبد الله .كتاب النبيان.40 ، ابن الخطيب .الإحاطة .1: 440 ، ابن سعيد .المغرب.2: 110
 - 3 -ابن عذارى.البيان المغرب3: 265 ، ابن الخطيب.أعمال الأعلام..231
 - 4 - هنري بيريس.الشعر الأندلسي في عصر الطوائف..244
 - 5 - الأمير عبد الله .كتاب النبيان..42
 - 6 - الأمير عبد الله.المصدر نفسه..55،49
 - 7 - الأمير عبد الله المصدر نفسه.46 .

في تغيير باديس عليه.(1).

بعدئذ قرر ابن النغريلة الإجهاز على السلطان الزيري كله واستبداله بسلطان بني صمادح(2) أصحاب المرية ، على أن يقيم دولة لليهود في المرية(3) واتخذ الترتيبات الملائمة لتحقيق انتصارهم، بأن عين زعماء صنهاجة الذين يخشى بأسهم في الأماكن البعيدة (4) ، وأوعز لابن صمادح بالتقدم واستطاع احتلال وادي آشي (5) الواقعة شمال شرقي غرناطة . ومضى ابن النغريلة في مفاوضاته وهو محجم متهيب من تنفيذ المشروع . كل ذلك وباديس غارق في لهوه منكب على لذاته(6). وكان من الطبيعي أن يثير نفوذ وتفرد اليهودي سخط خصومه وأهل غرناطة، فيجدون في الشعر متنفسهم ، وذلك في قصيدة أبي إسحاق الإلبيري (7) ، التي

1 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 53 ، ابن الخطيب. الإحاطة. 1: 440.

2 - ينتمي بنو صمادح لتجيب العربية، وكان ظهورهم في عهد الأمير محمد، وفي عهد الطوائف نجد معن بن صمادح قد استقل بالمرية سنة 433 هـ على حساب عبد العزيز بن عبد الرحمن العامري صاحب بلنسية الذي هو الآخر تولى حكمها بعد مقتل زهير العامري - كما تقدم - ودام حكم معن هذا عشر سنوات. وخلفه في حكم المرية ابنه محمد بن معن بن صمادح، المعتصم بالله الواثق بفضل الله، وهو لم يستكمل ثمان عشرة سنة. كان المعتصم بالله حسن السيرة في رعيته وحنده وقرابته، فانتظمت أيامه واتصلت دولته واستقامت أموره. وكان المعتصم حسيص العقل، طاهرا، معنيا بالدين وإقامة الشرع، بقصره يعقد المجالس للمذاكرة. مات بمرض أصيب به سنة 484 هـ. وهذه السنة زامت سقوط المرية في يد المرابطين. انظر تفاصيل ذلك: ابن الأبار. الحلة السيرة. 2: 78 ، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 166، 173 ، ابن بسلام. الذخيرة. 2/1: 729 ، ابن خاقان. قلائد العقيان. 53 ، ابن سعيد. المغرب. 2: 195 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 189 ، المراكشي. المعجب. 196 ، ابن خلدون. التاريخ. 7/4: 430 ، ابن خلكان. وفيات الأعيان. 5: 39 ، العماد الإصفيهاني. الخريدة. 2: 83 ، ابن دحية. المطرب. 34 ، المقرئ. نفع الطيب. 3: 366، 395، 411، وصفحات متفرقة من الكتاب ، سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ مدينة المرية. 74.

3 - 1 ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 266 ، هنري بيريس. الشعر الأندلسي في عصر الطوائف. 244.

4 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 52.

5 - وادي آشي: مدينة بالبيارة قريبة من غرناطة، وهي ملتقى الطرق، وتطوف حولها المياه والأثمار. انظر: الحميري. الروض المعطار. 604 ، الإدريسي. القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. 295 ، ابن سعيد. المغرب. 2: 28.

6 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 50، 47، 46 - 52 ، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 440.

7 - هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي الإلبيري الغرناطي، الزاهد، ورد في التكملة، أنه ((كان من أهل العلم والعمل، وكان شاعرا مجودا))، وقال الضبي فيه، إنه كان ((فقيها فضلا زاهدا عارفا))، وقد نال الإلبيري أذى وعسف بسبب صراحته في التحريض على اليهودي الذي استوزره السلطان باديس وانقياد أهل غرناطة له، وبذلك أجلى الإلبيري عن غرناطة إلى أن توفي سنة 461 هـ. انظر ترجمته: ابن الأبار. التكملة. 1: 136 ، الضبي. البغية. 225 ، ابن سعيد. المغرب. 2: 132 ، المقرئ. نفع الطيب. 4: 322 ، الإلبيري. ديوان. 7- ، غومس، أميليو غرسية. الشعر الأندلسي. 11، 86 ، بالنشا، أنخل. تاريخ الفكر الأندلسي. 108 ، الزيات، عبد الله محمد. رثاء المدن في الشعر الأندلسي. 172.

يجرض فيها على سحق اليهود والتخلص من طغيانهم، ومنها(1):

ألا أقل لصنهاجة أجمعين بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلةً تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المسلمين
فعرّ اليهود به وانتموا وتاهوا وكانوا من الأردلين

بعد أن سيطر ابن صمادح على وادي آشي ، تقدم نحو غرناطة ، في الليلة المتفق عليها من سنة 459 هـ لفتح الأبواب له من ابن النغريلة ، أفشى أحد العبيد العالمين بالمؤامرة بالسر ، وصاح: ((يا معشر من سمع بالمظفر قد غدره اليهودي! ابن صمادح داخل في البلدة))(2). فهبت العامة على ابن النغريلة ، وقتلوه في القصر، رغم تنكره بأن صبغ وجهه بالسواد ، وأخذوه وصلبوه على باب غرناطة ، وأحالوا السيف على يهود البلدة ، وحصلوا على عظام من أمواهم ، وقتل من اليهود ما ينيف على أربعة آلاف (3) ، في تلك المذبحة التي يصفها ابن بسام بأنها ((ملحمة من ملاحم بني إسرائيل باءوا بدلها ، وطال عهدهم بمثلها)) (4) . وعاد ابن صمادح أدراجه بعد أن انهار مشروعه (5).
أفاق باديس بعد هذا الحادث من خموله وتهاونه ، وباشر عمله بنفسه ، واستوزر الناية ، بعد مقتل ابن النغريلة ، واسترجع وادي آشي وحيان ، وسيطر على بياسة.، وازدادت مكانة الناية توطدا إلى أن غدر به خصومه وقتلوه (6).
هكذا استطال حكم باديس سنوات أخرى ، و توفي بعدها سنة 465 هـ (7)، ويخلفه حفيده كما سيأتي.

وتشيد بعض الروايات بما كان عليه باديس، فيقول لنا معاصره ابن حيان: ((إنه كان

1 - الإلبيري . ديوان.96.المقري . نفع الطيب .4: 322.

2 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان..54

3 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 55 ، ابن بسام .الذخيرة.2/1: 769 ، ابن عذارى..البيان المغرب.3: 266، ابن خلدون.التاريخ.7/4: 346.، دوزي المسلمون في الأندلس.3: 76 ، أنخل بالنشيا.تاريخ الفكر الأندلسي..108

4 - ابن بسام. الذخيرة. المصدر نفسه.2/1: 769.

5 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان..54

6 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 63 ، عنان، محمد عبد الله.دول الطوائف..137

7 - ابن الخطيب.الإحاطة.1: 450 ، ابن خلدون .التاريخ.7/4: 346.

أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأننا ، وأشدهم سلطانا ، وأكثرهم رجالا ، وأوسعهم أعمالا ، أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختيارا ((1)).

أما حفيده عبد الله فإنه يقدمه في صورة أكثر إشراقا ، حين يقول: ((وكان باديس ابن حبوس — جدنا — رحمه الله ، كبير النفس ، عالي الهمة ، حاد المزاج ، لا يستطيع أحد أن يُخرق عليه في أمر من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بني عمه ، ثقة منه بسعاداته ؛ وإن الانخضاع والتمريض في القول لا يعنيه ذلك ولا يزيد في أيامه)) (2).

بعد وفاة باديس المظفر بالله ، اتفق رجال الدولة وشيوخ صنهجة ، على تولية حفيده عبد الله بن بلقين (3) مكانه ، وكان صبيا حدثا ، وأخوه كان حكما للملقة منذ أيام جده (4).

أما عمه ماكسن بن باديس ، فقد كان خارجا على أبيه — كما تقدم — لذلك لم يلتفت إليه ، وتولى تدبير الملك ورعاية الملك الصبي ، أحد شيوخ صنهجة ، يدعى سماجة ، مدة تقترب من العقد (5) ، علا فيها بسبب نجاحه في صد هجومه العباديين على غرناطة (6) . لكن هذه الشدة في الحكم ربما أدت إلى ضيق شيوخ صنهجة به ، ومهدت بذلك الأمر لعبد الله كي يستقل بالحكم (7) . أما سماجة فإنه رحل إلى المرية ، حيث أقام بقية عمره (8) .

حاول عبد الله بعد إزالة وزيره سماجة ، أن يعمل على تنظيم الإدارة ، وعزل الحكام

1 - ابن الخطيب أعمال الأعلام.. 230.

2 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان.. 27.

3 هو عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن ، ويرتفع نسبه إلى مناد. قلده شيوخ القبيلة الإمارة وهو صغير، ولقبوه المظفر بالله الناصر لدين الله. وانفرد بتدبير ملكه وزيره سماجة في صغر سنه، ولكن فيما بعد استقل بالحكم، ورحل عنه وزيره إلى المرية. قاد الأمير عبد الله البلاد إلى أن خلعه يوسف بن تاشفين، وآلت غرناطة للمرابطين سنة 483 هـ. أخذ الأمير عبدالله إلى أغمات، وفيها عكف على كتابة مذكراته التي تضمنت معلومات تاريخية هامة عن عصر ملوك الطوائف بصفة عامة. وقد اطلع عليها ابن الخطيب وأشار إلى أهميتها. هذه المذكرات نشرها ليفي بروفنسال في كتاب مستقل تحت عنوان: مذكرات الأمير عبد الله بن زيري آخر ملوك غرناطة، أو كتاب التبيان، القاهرة. 1955. انظر ترجمته: ابن الخطيب. الإحاطة. 1: 148 ، وأعمال الأعلام لنفس المؤلف. 233 ، مؤلف مجهول. مفاخر البربر. 51 ، بول ، لين. قصة العرب في إسبانيا.. 160.

4 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام.. 233.

5 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 84 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه.. 234.

6 - ابن الخطيب. المصدر نفسه.. 234.

7 - الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 84 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه. 234 - 235.

8 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 235.

الظلمة (1) ، وتصالح مع أخيه تميم بعد تدخل والدتهما في الأمر ، وخشية من ميله إلى العباديين ضده (2) ، الذين تصالح معهم بعد إجراء تعديلات في الحدود وذلك سنة 477 هـ (3) . كما سوى النزاع مع بني صمادح حول الحصون (4).
ولم تمض أسابيع قلائل حتى سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة 478 هـ (5) ، فنهض ملوك الطوائف، ومنهم عبد الله إلى دعوة المرابطين لإبناجدهم — كما سنرى — وخلعه من قبلهم سنة 483 هـ (6).

دولة بني عامر الصقلبية :

بعد تفكك الوحدة السياسية إثر سقوط الدولة العامرية ، ولم يكدي يمضي على بيععة محمد بن هشام بن عبد الجبار سنة 399 هـ (7) ، ما يزيد عن شهر حتى نفى جماعة الصقلبية العامريين ، حسب قول ابن عذارى: ((استولوا على أطراف بلاد الأندلس ، وملكوها من ذلك الوقت)) (8).

كان هؤلاء الصقلبية قد تزعمهم خيران العامري (9)، رئيس حزب الصقلبية في قرطبة، ومن هذا الحزب تكونت دولة العامريين في شرق الأندلس؛ يترأس كل دولة واحد

-
- 1 - الأمير عبد الله. المصدر السابق..84
 - 2 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه. 93 - 95..
 - 3 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه...82
 - 4 - الأمير عبد الله. المصدر نفسه..71
 - 5 - ابن عذارى. البيان المغرب.3: 304 ، الحميري.الروض المعطار.395 ، بروفنسال ، ليفي . الإسلام في المغرب والأندلس. 120 - 150 .
 - 6 - ابن الخطيب.أعمال الأعلام..236
 - 7 - انظر هذا البحث.22
 - 8 - ابن عذارى .البيان المغرب.3: 77.
 - 9 - هو خيران الصقلبي العامري ، وكان من جلة فتيان بني عامر، ولما تحزبت الخلافة المتمثلة في نظر الصقلبية في شخص هشام المؤيد بالله، وبعد ذهاب المنصور. استقل بمدينة المرية سنة 403 هـ ، وانضم إليه جميع فتيان محمد بن أبي عامر، فحولهم وخصيائهم. وكان خيران يدعى بالخليفة وبالفتح الكبير. ومدحه الشاعر ابن دراج القسطلي. وبعد مهلكة صارت المرية إلى صاحبه زهير العامري سنة 419 هـ . انظر ترجمته ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 32 ، ابن عذارى .المغرب.3: 166 ، ابن الخطيب.أعمال الأعلام.210 ، العبادي، أحمد مختار. الصقلبية في الأندلس. 17 ، سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ مدينة المرية الإسلامية.58 ، تشركوا ، كليليا سارنللي . مجاهد العامري . 109 .

من الفتيان الصقالبة ؛ فمجاهد العامري (1) يسيطر على مدينة دانية (2) والجزر المتاخمة: ميورقة (3) ومنورقة (4) ويابسة (5)، ولييب (6) يسيطر على طرطوشة ، ومظفر ومبارك (7) يسيطران على بلنسية (8) ، وأما خيران – وهو المخصص للدراسة – فإنه نزل بأريولة (9) ثم سيطر على المرية (10).

- 1 – هو أبو الجيش مجاهد العامري، كان من موالي العامرين، وقد نشأ وترى في بلاط المنصور بن أبي عامر. وعندما اندلعت نار الفتنة خرج من قرطبة مجاهد العامري مع الفتيان العارين إلى شرق الأندلس، وسيطر على مدينة دانية سنة 400 هـ ثم على الجزر الشرقية؛ ميورقة ومثورة أو منورقة ويابسة في أواخر سنة 405 هـ. ومن أهم أعماله فهي فتح جزيرة سردانية، ولكنه لم يمكث فيها أكثر من عشرة شهور وانسحب بعدها منها وعاد إلى بلاده، ثم انضم إلى جانب الخليفة المرتضى مع الأندلسيين في حرب ضد البربر والقاسم بن حمود، وانتهت المعركة بقتل المرتضى من قبل البربر سنة 409 هـ. مات سنة 436 هـ بعد حكم دام زهاء ثلاثين عاما، ساد فيها النظام والأمن والرخاء. انظر ترجمته: ابن بسام. الذخيرة. 1/4: 11، ابن الأبار. الحلة السرياء. 2: 116، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 155، الضبي. البغية. 472، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 217، ابن الأثير. الكامل. 9: 100، العبادي، أحمد مختار. الصقالبة في إسبانيا. 21، عنان، محمد عبد الله. دول الطوائف. 187، تشركوا، كليليا سارنللي. مجاهد العامري. 123 – 175.
- 2 – مدينة دانية بشرق الأندلس على البحر، عامرة حسنة لها، والسفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأما دار إنشاء. انظر: الحميري. المصدر نفسه. 231، الإدريسي. المصدر نفسه. 282، المقرئ. المصدر نفسه. 1: 166.
- 3 – مدينة ميورقة جزيرة في البحر المتوسط، يقابلها من الشرق جزيرة مثورة أو منورقة، وكذلك جزيرة سردانية، ومن الغرب جزيرة يابسة وميورقة أم هاتين الجزيرتين وهما بنتاها. انظر: الحميري. الروض المعطار. 567، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض. 180، الإدريسي. القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. (من كتاب نزهة المشتاق). 308، المقرئ. نفح الطيب. 1: 169، 128.
- 4 – مدينة مثورة أو منورقة جزيرة تقابل برشلونة، وهي إحدى بنيتي أو جزيرتي ميورقة، وهما منقرقة هذه ويابسة. انظر: الحميري. المصدر نفسه. 594، وصفة جزيرة الأندلس لنفس المؤلف. 185، الإدريسي. المصدر نفسه. 308، المقرئ. المصدر نفسه. 1: 169.
- 5 – مدينة يابسة وهي جزيرة تلي جزيرة ميورقة، ويقال لهذه الجزيرة والمنورقة، بنتا جزيرة ميورقة. وهي جزيرة حسنة، وبها مدينة حسنة، وأقرب بر إليها مدينة دانية. انظر: الحميري. المصدر نفسه. 616، وصفة جزيرة الأندلس لنفس المؤلف. 198، الإدريسي. المؤلف نفسه. 308، المقرئ. المصدر نفسه. 166، 429.
- 6 – لييب من فتيان ابن أبي عامر، سيطر على طرطوشة، عقب اندلاع الفتنة وسقوط الدولة العامرية، وساس أموره مع رعيته ومن يجاوره من الأمراء، إلى أن توفي سنة 433 هـ. انظر ترجمته: ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 250، 302، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 226، ابن خلدون. التاريخ. 7/4: 354، العبادي، أحمد مختار. الصقالبة في الأندلس. 21، عنان. محمد. دول الطوائف. 271.
- 7 – مظفر ومبارك كانا من موالي ابن أبي عامر، وارتفع شأنهما حتى تسلطا على إمارة بلنسية، ولعل ابن دراج كان قد أمل لديهما ما كان المتنبئ قد أمّله في كافور الإحشيدى حين قصده بعد مفارقتة لسيف الدولة. وقد مدحهما بقصيدتين. مات مظفر أولا ثم لحق به مبارك سنة 408 أو 409 هـ. انظر ترجمتهما: ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 158 – 163، 302، ابن دراج مقدمة ديوانه. 60، العبادي، أحمد مختار. الصقالبة في الأندلس. 19، تشركوا، كليليا سارنللي. مجاهد العامري. 116 – 117.
- 8 – وهي مدينة من أكبر مدن الساحل الشرقي ازدهارا في العصور الإسلامية، إلى الشمال من دانية على شاطئ البحر المتوسط. انظر: الحميري. المصدر نفسه. 97، الإدريسي. المصدر نفسه. 280، المقرئ. المصدر نفسه. 1: 166.
- 9 – أريولة أو أوريولة مدينة بالأندلس، تقع على ضفة النهر الأبيض. وهي قديمة أزلية، وهي من أعمال مرسية. انظر: الحميري. المصدر نفسه. 67، الإدريسي. المصدر نفسه. 282، المقرئ. المصدر نفسه. 1: 166، تشركوا، كليليا سارنللي. مجاهد العامري. 116.
- 10 – ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 166، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 211.

خيران العامري:

بعد الانتصار الذي حققه المستعين على المهدي وأنصاره من أهل قرطبة سنة 403 هـ فر الفتيان العامريون إلى شرق الأندلس — كما تقدم — وكان خيران ، ويكنى بالفتى الكبير (1) ، واحدا ممن فروا وأبجاء هروبه من قرطبة ، واستقر في أريولة، وهي يومئذ مثل في الحصانة والمنعة. وأقبل عليه الطامعون والصعالكة والدابرة ، أي قطاع الطرق، فاشتد بهم ساعده، وتمكن من الاستيلاء على مرسية سنة 404 هـ ثم جيان (2). كما تمكن من التغلب على المرية معقل الأندلس ، بعد قتل أفلح الصقلي الذي سبقه إليها بعد قيام الفتنة (3). اتخذ خيران العامري المرية مقرا له ، وطبق سياسة قوامها العدل والإنصاف معتمدا في ذلك على وزيره أحمد بن عباس (4) الذي كان معروفا برجاحة العقل والدهاء (5). ازدهرت المرية في عهد خيران هذا ازدهارا عظيما ، وأصبحت من أهم مدن الأندلس ، ويرجح بيريس أن الآبار التي عرفت بها المرية ، والتي مازالت أطلالها ترى حتى يومنا هذا ترجع إلى أيامه (6).

وقد قصد الأدباء والشعراء خيران ، منهم ابن دراج الذي أقام ببلاطه فترة ، وفيها مدحه بقصيدة مطلعها (7):

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبُشراك قد آواك عزُّ وسلطانُ

أصيب خيران بمرض سنة 419 هـ ، فاستدعى زهير الصقلي ، نائبه في مرسية

1 - ابن الخطيب. المصدر السابق.. 211

2 - ابن خلدون. التاريخ. 7/4: 348.

3 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام.. 211

4 - هو أبو جعفر ، أحمد بن عباس بن أبي زكريا الكاتب، كان وزيرا لزهير العامري. يصفه الأمير عبد الله، بقوله : ((كان أشد الناس حماقة واستخفافا مثيرا للشر، وكان العال على أمر زهر))، كما كان ابن عباس هذا ((كاتبا حسن الكتابة ، بارع الخط فصيحاً غزير الأدب)). وقد وقع ابن عباس أسيرا في يد باديس بن حبوس ، وحاول فداء نفسه بثلاثين ألف دينار من الذهب إلا أن باديس أمر بقتله سنة 427 هـ. انظر ترجمته : الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 44، 35 ، ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 656 - 667، 464، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 166 - 172 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه. 215، 212 ، والإحاطة لنفس المؤلف. 1: 259 ، دوزي.

المسلمون في الأندلس. 3: 28 ، سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ مدينة المرية الإسلامية. 69 - 71.

5 - ابن الخطيب. المصدر نفسه.. 212

6 - بيريس، هنري. الشعر الأندلسي في عصر الطوائف.. 129

7 - ابن دراج. ديوان. 73.

وحيان (1)، وأدركه ، فأوصاه بأن يخلفه. ولما توفي خيران في نفس السنة ، قام زهير في الحال مكانه ، وتسلم زمام السلطان ، ورضي به الناس ورجال الدولة (2).

زهير العامري:

خلف زهير العامري (3) أخاه خيران بعد وفاته ، وهو من أهم الفتيان العامريين، وأشهدهم بأسا ((وكان شهما داهية)) (4). وقد اقتفى أثر صاحبه خيران في حسن السيرة وحفظ النظام، وكان يشارك الفقهاء ويعمل بقولهم (5).

بمذه السيرة الحسنة وحفظ للنظام، اتسع ملك زهير العامري اتساعا كبيرا ، فامتدت المرية في عهده إلى قرطبة ونواحيها غربا، وإلى شاطبة ومرسية في الشمال الشرقي، وإلى بياسة حتى أعمال طليطلة في الشمال الغربي (6).

أما سياسة زهير الخارجية فإنه غير فيها ، وذلك بتأثره برأي وزيره أحمد بن عباس ((فألقى إليه أزمته ، فكان لا يحدث أمرا إلا بإشارته وبعد مشاورته ، فأشار عليه هذا الوزير بغزو باديس بن حبوس بغرناطة)) (7).

نظم زهير حملته المشؤومة إلى غرناطة ، ولم يلتفت إلى ما طلبه إليه باديس ، من تحديد أواصر الصداقة التي كانت معقودة بينه وبين أبيه حبوس (8)، ثم سار إلى غرناطة في قواته الكبيرة، وقد أخذه الغرور والعجب (9) ، وهناك التقى بقوات باديس في القرب

1 - ابن الخطيب. الإحاطة. 1: 517.

2 - ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 518 ، وأعمال الأعلام لنفس المؤلف. 215.

3 - زهير العامري الصقلي ، فتح المنصور بن أبي عامر. ولي بعد خيران العامري صاحب المرية ، وأقام بأمره سنة 419 هـ ، بعد أن كان أميرا له في مرسية وحيان، وذلك بطلب من خيران حين أحس بالموت. دامت ولايته عشرة أعوام ونصف عام إلى أن قتل سنة 429 هـ. انظر ترجمته : الأمير عبد الله . كتاب التبيان. 34 - 35 ، ابن بسام. الذخيرة. 1/2: 656 ، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 166 - 172 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 517 - 520 ، ونفس المصدر لنفس المؤلف. 216 ، العبادي، أحمد مختار. الصقالبة في الأندلس. 18 - 19 ، سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ مدينة المرية الإسلامية. 68 - 72 ، تشركوا ، كليليا سارنللي . مجاهد العامري . 113 .

4- ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 518.

5 - ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 518.

6 - ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 168 - 169 ، ابن الخطيب. المصدر نفسه. 1: 518.

7 - ابن عذارى. المصدر نفسه. 3: 293.

8 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام. 216.

9 - ابن الخطيب. الإحاطة. 1: 518 ، الأمير عبد الله. كتاب التبيان. 34.

من غرناطة(1) ، ونشبت بينهما معركة ، انتهت بهزيمة زهير ومصرعه وتمزيق قواته (2) ، وقتل وزيره ابن عباس بعد أسره من قبل باديس بأسابيع قلائل(3) .
بعد هذه النكبة اجتمع أهل المرية واسندوا أمرهم إلى عبد العزيز بن أبي عامر(4) صاحب بلنسية ، باعتباره صاحب الحق الشرعي في تراث الفتيان العامرين(5) ، فبادر عبد العزيز على إثر ذلك إلى المرية ، وبايعه أهلها(6) ، ((واستمد بما ورثه من تلاد الفتيان العامرين موالي جده))(7) .

بنو صمادح أمراء المرية:

رحل عبد العزيز عن المرية بعد أن ترك وزيره وصهره معن(8) بن صمادح التحيبي واليا عليها ، لكن هذا لأخير استولى على المرية بعد أن خلع طاعة صهره ، قال ابن حيان فيه: ((فكان شر مستخلف بدار ملك ؛ فلم يكذ يُوارى عبد العزيز وجهه حتى خانه الأمانة، وطرده عن الإمارة ، ونصب له الحرب ، وخلفها ميراثا لبنيه بعده))(9) .
استمر حكم معن للمرية وأعمالها زهاء عشرة أعوام، وطد فيها رياسته ، ومهد الملك لعقبه ، إلى أن توفي سنة 443 هـ فخلفه ابنه محمد بن صمادح الملقب بالمعتصم بالله(10) .
سار المعتصم بالله على نهج أبيه ، في علاقة مودة وصداقة مع باديس صاحب

1 - ابن عذارى .البيان المغرب.3: 169.

2 - ابن عذارى .المصدر نفسه.3: 171، ابن الخطيب.أعمال الأعلام..217.

3 - ابن عذارى .المصدر نفسه.3: 171.

4 - هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر ، وكان لقبه المنصور .كان مقيما بسرقسطة ثم خرج إلى بلنسية فاستقبله الموالي ، وقلدوه رياستهم سنة 417 هـ ، ثم لى طلب أهل المرية في حكمها بعد هزيمة وقتل زهير العامري سنة 429 هـ ، وولى عليها صهره ووزيره معن بن صمادح واليا له ، لكن هذا الأخير انفرد بما لنفسه ولأبنائه .طالت إمارة عبد العزيز هذا إلى سنة 452 هـ توفي فيها بعد حكم دام زهاء أربعين عاما.انظر ترجمته : ابن عذارى .المصدر نفسه.3: 164 ، ابن الخطيب.أعمال الأعلام ، 195 ، ابن بسام. الذخيرة.2/1: 730 ، ابن خلدون . التاريخ.7/4: 348 ، عنان، محمد عبد الله. 161 ، سالم، السيد عبد العزيز .تاريخ المرية الإسلامية ..73

5 - ابن الخطيب .أعمال الأعلام..216،195

6 - ابن عذارى.البيان المغرب.3: 293 ، ابن الخطيب.المصدر نفسه.217 ، ابن خلدون.التاريخ.7/4: 348.

7 - ابن بسام .الذخيرة.2/1: 730.

8 - انظر هذا البحث.68.هامش 2.

9 - ابن الخطيب.أعمال الأعلام.190 ، ابن بسام .الذخيرة.2/1: 731 ، ابن عذارى.البيان المغرب.3: 174.

10 - انظر هذا البحث.68.هامش 2.

غرناطة، إلى أن جره ابن النغيلة للاستيلاء على غرناطة ، وأخفق في ذلك ، كما تقدم (1) ، ثم تجددت العلاقة بين المعتصم بالله وعبد الله بن بلقين ، الذي خلف جده في الحكم (2) ، واستمرت هذه العلاقة إلى أن توفي المعتصم بالله زمن عبور المرابطين إلى الأندلس بعد حكم دام أكثر من أربعين عاما (3) .

لقد كان الصراع بين ملوك الطوائف سببا في ضعفهم ، وبالمقابل كانت قوة النصارى ووحدهم ، بزعامة الفونسو السادس الذي أخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى ظفر بالسيطرة على طليطلة — كما سنرى — فكانت السبب الرئيسي إلى لم شمل ملوك الطوائف للاستنصار بيوسف بن تاشفين ، كما سنرى .

نهاية دول الطوائف :

لقد كان الصراع بين ملوك الطوائف من أجل اقتطاع جزء من أرض الغير ، أو الاستيلاء على مملكته ، حتى ولو أدى الأمر إلى عقد معاهدة مع النصارى ، أو دفع الجزية لهم (4) ، فاضطربت الأوضاع السياسية ، وشاع العداء والتنافر والتنافس بينهم ، وآل أمرهم إلى المذلة والمهانة ، مع استمرار دفع الجزية للنصارى صاغرين ، وكأنهم لا يهتمون إلا بالبقاء في الحكم ، الذي دفع بهم إلى الارتقاء في أحضان النصارى بالتعاون معهم ، أو بالتسهيل إذا ما سقط إقليم في أيديهم ، وتروي الأخبار لما سقطت طليطلة في يد الفونس السادس ، أخذ ملوك الطوائف يسعون إلى خطب وده مهنيين ، ويقدمون إليه الأموال ، حتى إن صاحب شنتمرية (5) حسام الدولة ابن رزين (6) ذهب إليه بنفسه ومعه هدية سنوية ليقره عاملا له على بلده ، فجازاه على هديته بقرد وهبه إليه (7) .

1 - انظر هذا البحث .. 69

2 - انظر هذا البحث .. 71

3 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 168

4 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 69 - 70 .

5 - شنتمرية: انظر : مدينة في الأندلس على معظم البحر الأعظم ، وهي مدينة متوسطة القدر ، بينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا الحميري . الروض المعطار . 347 .

6 - هو حسام الدولة اسمه يحيى بن عبد الملك بن هذيل بن خلف بن رزين البربري ، تقلد حكم شنتمرية بعد وفاة أبيه 396 هـ ،

وخلعه المرابطون بعد سنة واحدة من حكمه . انظر ترجمته : ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 310 .

7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 310 ، عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين . 26 .

وقد عبر ابن بسام عن هذه المأساة قائلاً: ((لم يزل التخاذل يتزايد ، والتدابير يتساند ، حتى حلت الفاقة ، وقضيت القضية ، وتعجلت البلية ، بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصارى)) (1) .

وقد عبر عن ذلك بصدق الشاعر ابن العسال(2) ، قائلاً (3) :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرفه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ويرى ليفي بروفنسال ((أن طليطلة من أهم أحداث التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى ، وذلك لأنه كان تتويجا للجهود المضنية التي بذلت في حركة الاسترداد في القرن الحادي عشر ، فقد كان له نفس الصدى الذي عند سقوط هذه المدينة ، يوم كانت عاصمة القوط الغربيين القديمة ، في أيدي المسلمين قبل ذلك)) (4) .

ومن هنا نجد الناس والشعراء يبكون طليطلة ، التي كانت واحدة من أكبر القواعد الإسلامية ، وسقطت في وقت مبكر في يد الفونس السادس ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه ، فاتخذ لقب الإمبراطور (5) . عندئذ أدرك ملوك الطوائف حقيقة موقفهم ، وخطورة تنازلهم وتنازلهم ، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصائرهم جميعا ، اتجهت أنظارهم إلى الاستنصار بإخوانهم المرابطين ، ولى أميرهم يوسف بن تاشفين(6) الدعوة ، وعبر إلى الأندلس بجيوشه مجاهدا في سبيل الله .

وكانت معركة الزلاقة(7) بعد عام من سقوط طليطلة ، قد قهر فيها الجيش الإسلامي النصارى ، وانسحب الفونسو السادس في فلوله القليلة مهيبا

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 249 .

2 - هو أبو محمد عبد الله بن فرج البحصي المعروف بابن العسال . انظر : المقر . نفع الطيب . 4 : 352 .

3 - ابن بسام ز الذخيرة . 1/2 : 250 .

4 - ليفي بروفنسال . الإسلام في المغرب والأندلس . 120 .

5 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف 398 .

6 - هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين من قبيلة لمتونة سيدة الحلف الصنهاجي . ولد سنة 400 هـ وطال عمره فبلغ المائة وتوفي سنة 500 هـ . انظر ترجمته : ابن خلكان . وفيات الأعيان . 7 : 112 - 130 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 4 : 21 - 28 ، أشباح ، يوسف . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين . 1 : 70 ، 78 ، 82 ، عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 313 .

7 - الزلاقة : بطحاء من إقليم بطليوس من غرب الأندلس ، فيها كانت الواقعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية الفونسو السادس . انظر : الحميري . الروض المعطار . 287 .

مغلوبا (1) . وقد تركت هذه المعركة آثارا أدبية ، فعن ذلك نجد المعتمد بن عباد يصف الانتصار العظيم ، ويمدح ابن تاشفين ، فيقول (2) :

ويوم العروبة ذُدت العدا نصرت الهدى وأبيت الفرارا
ولولاك يا يوسف المُتقى رأينا الجزيرة للكُفر دارا

بهذا الفوز العظيم ، تلقب يوسف بن تاشفين بأمرير المسلمين ، وعاد إلى المغرب بعد أن ثبت للمعتمد بن عباد سلطته ، وأوصى ملوك الطوائف بالاتحاد ضد عدوهم المشترك ، وقبل الجميع وصيته(3)

وما كادت تنقضي ثلاث سنوات حتى أعاد النصارى الكرة ، وطلب المعتمد النجدة ثانية من ابن تاشفين ، بعد أن عبر البحر بنفسه إلى المغرب ، وشرح للأمير ما يلقاه المسلمون من شنيع وغيث النصارى في شرق الأندلس ، فأجابه إلى ملتسمه . وكان ابن تاشفين قد تلقى كثيرا من الكتب من فقهاء الأندلس وأعيانها يرجونه الإنجاد والعون(4) .

وأوفى ابن تاشفين وعبر المضيق بجنده سنة 381 هـ ، إلى الجزيرة الخضراء ومنها استنفر الأندلسيين للجهاد ، فاستجابوا لطلبه ولبوا نداءه، فكون جيشا وقادهم إلى حصن لبيط (5) وحاصر النصارى فيه مدة أربعة أشهر بلا جدوى (6) ، إذ فشل المسلمون في اقتحامه وأدركهم الشتاء (7) ، وأثناء الحصار اشتغل الأندلسيون في مشاكلهم الشخصية — كما سنرى — فاضطر ابن تاشفين إلى رفع الحصار عن الحصن (8) ، وعاد إلى المغرب ، وأخذ يستعد لتصفية أمراء الطوائف بعد أن تغيرت نفسه عليهم (9). وذلك بعدما شاهد

1 - راجع تفاصيل أحداث معركة الزلاقة: الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 104. ابن بسام . الذخيرة . 1/2: 504 ، الحميري . الروض المعطار . 83 ، 98 ، المراكشي . المعجب . 194 ، القرني . نفع الطيب . 4: 354 .
2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 159 .
3 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 106 .
4 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 353 .
5 - حصن لبيط الواقع في منطقة مرسية على مقربة من لورقة فوق حرف عال متداخل في أراضي المسلمين بدر ، أحمد تاريخ الأندلس التنجز ، السيادة المغربية . 229 .
6 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 246 .
7 - روض القرطاس . 99 .
8 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 112 .
9 - ابن الخطيب . الحلل المشوية . 47 .

الخلاف والوقية بين هؤلاء الملوك ، فكان المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما بالآخر لدى أمير المسلمين ، ويتهمه بمختلف التهم (1) ، وحتى الإخوة كانوا مثل الضرائر المتنازعة ، فأبناء بلكين بن زيري عبد الله وتميم أظهرها ما تجيش به نفسيهما من حقد وكراهية لبعضهما فلما أظهرها ذلك للعدو ، وكأن الأمير ليس له من عمل سوى مشاكل الإخوة (2).

وأما السبب الآخر فقد أساء ملوك الطوائف الظن في يوسف بن تاشفين ، وبادر بعضهم بربط الصلة مع الفونسو السادس من جديد على أساس البيعة والحماية ، فهذا ابن رشيق صاحب مرسية قدم معونة للنصارى أثناء حصار لبيط من كورة تدمير (3) . وكذلك خرج كل من المعتمد وابن صمادح عن طاعة ابن تاشفين وجاهراه بالعصيان وطلبوا العون والمساعدة من الفونسو السادس وقدموا الهدايا (4).

وأما عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة فإنه يشير صراحة إلى اتصاله بالفونسو السادس ، وقد دفع له الجزية ، بقوله: ((لهذا الوقت يحتاج الإنسان ما ادخر ليصون به بلده وعرضه ، وأنا جدير بأن أعطي ذلك من بيت مالي ، بحيث يسلم البلد ، وبحيث تشكر الرعية بمدافعة عدوها دون تكليفها شيئا ، ولا تقع الشنعة .

ورأيت مع ذلك أن أجدد معه عقدا ألا يعترض لي بلدا ، ولا يغدرني بعدها ، خوفا أن يفتلب علي ، فأجاب إلى العقد)) (5) .

وبادر بتحسين قلعته وملئها بالمؤن والعتاد ، فكان هو وملوك الطوائف هدفا لشعر السمسير (6) ، يقول (7) :

1 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 325 .

2 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 107 .

3 - الأمير عبد الله . المصدر نفسه . 112 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 257 ، 246 .

4 - ابن خلكان . وفيات الأعيان . 5 : 44 ، 7 : 128 .

5 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 125 .

6 - هو خلف بن فرج الإلبيري السمسير ، من أعلام الشعراء في عهد ملوك الطوائف ، واشتهر بالهجاء . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 882 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 100 ، ابن دحية . المطرب . 93 ، المقيري . تفخ الطيب . 3 : 412227 ، 291 .

7 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 885 .

ناد الملوك وقل لهم ما الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم

ثم رأى الشعب المضطهد أن وطنه في خطر ، وجب إسقاط ملوكهم الذين خانوا الإسلام بتقاعسهم ، وخانوا الوطن بتناحرهم ، كما خانوا الشعب بجورهم وعسفهم ، قال السمسير (1) :

وليتم فما أحسنتم مذ وليتم ولا صنتم عمّن يصونكم عرضا
ومن هنا جاءت فتوى فقهاء الأندلس بوجوب خلع ملوك الطوائف تعبيرا دينيا
ورسميا عن هذه النقمة ، وابن تاشفين يستشيرهم في الأمور المهمة ، وكان على رأسهم
قاضي غرناطة ابن القليعي (2) الذي على علاقة وطيدة به ، وقد أفق بجلع ملوك الطوائف .
أكابر فقهاء المشرق ، ومنهم الإمام الغزالي ، وأبو بكر الطرطوشي نزيل مصر يومئذ (3) .
وأما السبب الآخر — كما يعتقد — فقد أدرك يوسف بن تاشفين أن سقوط
الأندلس بيد الفونسو السادس ، معناه سقوط خط الدفاع الشمالي للمغرب ، مما يؤدي إلى
تهديد السواحل المغربية من قبل الأعداء ، فلا بد من اتخاذ الإجراءات قبل حدوث الكارثة .
وهكذا كان ضم الأندلس للمرابطين استجابة لنداء الشعب ، وبفتاوى من الفقهاء
لإنقاذ الأندلس من السقوط المحتم بيد النصارى ، ودفاعا عن المغرب .

لقد اتسم القرن الخامس الهجري في الأندلس بسمة بارزة وهي : كثرة الحروب
والمنازعات بين الخلفاء الأمويين والحموديين والفتيان العامريين بسبب الخلافة ، وكذلك بين
ملوك الطوائف أنفسهم فيما بعد ، فكل واحد منهم يسعى للقضاء على جاره قصد التوسع
والشهرة والجاه العريض . ومن هنا اضطربت الأوضاع السياسية بكثرة الثائرين .

— سادت سياسة القسوة والبطش والضرب بقوة على يد الأعداء ، فالفتنة بدأت
بقتل عبد الرحمن شنجول الذي أشعل نارها ، وقتل سليمان المستعين من قبل الحموديين —

1 - المقري . نفع الطيب . 4 : 108 .

2 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 119 .

3 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 327 .

كما تقدم — ثم نجد المعتضد بن عباد ، في عهد الطوائف ، يسجل له التاريخ أخبارا كثيرة في هذا المجال ، فيذكر أنه كان يحتفظ بجماعم أعدائه في خزانه قصره (1) .
شدة أحقاد خلفاء عهد الفتنة وملوك الطوائف لبعضهم البعض ، مما جعل العدو يسخف بهم ويحتقرهم ، يقول المراكشي: ((فأما ملوك الأندلس ، فلم يكن منهم أحد إلا ويؤدي إليه — الفونسو السادس — الإتاوة ، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم))(2).

وكان من جراء ذلك بدء التنازل عن الحصون في عهد الفتنة ، وسقوط المدن في عهد الطوائف ، ومن أبرزها سقوط طليطلة كما تقدم .
وإزاء تفاقم الأحداث وتدهور الحالة السياسية وترديها ، نهض فقهاء الأندلس إلى الاستنجد ببيوسف بن تاشفين — كما تقدم — وأبجدهم في معركة الزلاقة ، وبعدها دخلت الأندلس في حكم المرابطين .

الحياة الاجتماعية :

بعد الإشارة لأبرز السمات المميزة للظروف السياسية ، خلال القرن الخامس الهجري ، التي سادت المجتمع الأندلسي ، وفي ضوء تلك الظروف تحددت شخصية المجتمع الأندلسي ، وقد أسهمت دراسات (3) كثيرة في رسم صورته وتحديد ملامحه .
تألف المجتمع الأندلسي ، خلال القرن الخامس الهجري ، من عناصر بشرية متنوعة في أصولها وعقائدها وثقافتها ، والتي عاشت متآخية ومتجانسة ، وكونت لنا الشخصية الأندلسية المتميزة .

العرب : دخل العرب الأندلس على شكل موجات بعد الفتح الإسلامي ، وأطلق عليها المؤرخون اسم الطوالع ، وأول الطوالع ، طالعة موسى بن نصير ، ويسمون (بالبلديين) (4) ، ثم تعاقبت أفواج العرب بعدئذ من أهل الشام ويطلق عليهم (الشاميون) (5).

1 - انظر هذا البحث . 62 .

2 - المراكشي . المعجب . 193 .

3 - مؤنس ، حسين . فجر الأندلس .

4 - ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس . 43 .

5 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 14 .

لقد دخل العرب الأندلس على شكل موجات ، وانتشروا في أقاليمها المختلفة ، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية ؛ العدنانية منها والقحطانية (1). وهكذا أخذت الأندلس تموج بمن دخلها من العرب ، يقول المقري: ((واعلم أنه لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ، فترل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعات أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان))(2). ورغم هذه الكثرة للعرب في الأندلس إلا أنهم حافظوا على نسبهم القبلي (3)، يدعمهم في ذلك استقرارهم في المناطق الخصبة التي تفيض بالخيرات ، وبهذا استطاعوا أن يكونوا نواة الأرستقراطية العربية التي ظلت غالبية على الأندلس (4)، إلى أن جاء المنصور بن أبي عامر وقطع التحامهم قصد إدماجهم في العناصر الأخرى ، ويشير المقري إلى ذلك بقوله: ((وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداھية الذي ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم في تعصبهم ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في الجند الواحد فرق من كل قبيل ، فانحسرت مادة الفتن بالأندلس إلا ما جاء على غير هذه الجهة))(5) .

يتضح — مما تقدم — أن عرب الأندلس كانوا ((يمتلكون اقطاعات كبيرة)) (6) ، هذه الاقطاعات تركوا أمر زراعتها إلى المولدين ((ضمن شروط حرة أو مقيدة)) (7) ، بينما يقيمون هم في ضيعاتهم بالقرب من المدن ، بل ((وكانوا يفضلون سكنى المدينة))(8) لذلك كان عرب الأندلس يتمتعون بحياة الترف والنعيم ، أي ((ملوك)) (9) في حياتهم وبخاصة في أيامهم الأولى ، لكن استقرارهم في حياة الترف والرخاء لم يبق كما كانوا عليه ،

1 - ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس . 20 . المقري . نفع الطيب . 1: 290 . ابن حزم . جمهرة أنساب العرب في كثير من فصولها .

2 - المقري . المصدر نفسه . 1: 290 .

3 - الركاوي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 36 .

4 - سالم ، عبد العزيز . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . 121 .

5 - المقري . نفع الطيب . 293 .

6 - سالم ، عبد العزيز . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . 122 .

7 - الركاوي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 37 .

8 - الركاوي ، جودت . المرجع نفسه . 37 .

9 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 43 .

بل قطع المنصور بن أبي عامر — كما سلف — التحامهم ذلك با عتماه على العنصر البربري — كما سنوضح — وظهر نفوذهم في إشبيلية — في عهد الطوائف — بقيادة بني عباد والذين ثل عرشهم المرابطون كما تقدم .

البربر: وهم سكان المغرب ، ومن قبائلهم زناتة وصنهاجة (1) . وأما ديانتهم فقد ثبت البحث أنهم كانوا يدينون بالوثنية كعبادة الكائنات والظواهر الطبيعية (2) ، يحدثنا التاريخ أنه ((كان لهم في القرن الأول قبل المسيح آلهة تحميمهم تسمى أفريكا رأسها مغطى بجلد فيل)) (3) ، ثم تلا بعد ذلك وجود اليهودية ولم يعتنقها البربر (4) رغم سبقها للمسيحية التي اعتنقها القلة منهم (5) ، لكن تدينهم هذا كان انتشاره ضعيفا بدليل أن العرب المسلمين لم يجدوا صعوبة في اجتذاب البربر إلى الإسلام ، حتى صاروا من أشد الناس تعصبا له ودفاعا عنه .

وبعد أن أسلم البربر قاموا بنشر الدين الإسلامي إلى جانب العرب ليعم المغرب كله، ثم بادروا بفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري ، بل ربما الفتح الأول كان متوقفا على البربر وحدهم كما تشير بعض الدراسات الحديثة (6)، إلا أن المصادر العربية تكاد تجمع على قلة العرب إلى جانب البربر الذين يرجع إليهم فضل السبق في فتح الأندلس (7). ومهما يكن من أمر فإن أعداد من اشترك من البربر في فتح الأندلس تزيد على أعداد العرب أضعافا ؛ منها من اشترك في الفتح ، ومنها من هاجر عقبه مباشرة ، وقد أشار المقري بقوله: ((وتسامع الناس من ير أهل العدو بالفتح على طارق ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا

-
- 1 - ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . 495 - 502 .
 - 2 - الجراري ، عباس . الأدب المغربي من ظواهره وقضاياها . 20 .
 - 3 - الجراري ، عباس . المرجع نفسه . 20 نقلا عن تاريخ إفريقيا الشمالية لصاحبه جوليان ، شارل أندريه . تعريب محمد مزالي . الدار التونسية للنشر . 78 .
 - 4 - الجراري ن عباس . المرجع نفسه . 37 .
 - 5 - الجراري ، عباس . المرجع نفسه . 36 ، سعدي ، عثمان . الأمازيغ (البربر) عرب عاربة . 57 .
 - 6 - سالم ، عبد العزيز . تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس . 122 .
 - 7 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 17 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 4: 320 ، المقري . نفع الطب . 1: 231 .

بطارق وارتفع أهل الأندلس ((1)).

حقا إن هجرة البربر إلى الأندلس — كما تقدم — تزيد أضعاف أعداد العرب ، وذلك راجع لحكم الجوار ، ويضيف صاحب فجر الأندلس عوامل أخرى تنحصر في أن البربر لم يتعصبوا للجنس ، وتحمسوا للإسلام لأنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته ، فأظهروا العصبية للإسلام ، واجتهدوا في نشره (2) .

يستفاد — مما تقدم — أن البربر أسلموا عن اقتناع ، وجاهدوا في سبيل نشر الدين الجديد إلى جانب العرب في المغرب ، وسبقوهم في فتح الأندلس ، وشكلوا عنصرا بشريا مهما فيه ، وعليهم اعتمد المنصور بن أبي عامر في تثبيت دولته ، وقهر الأعداء من النصارى ، إلى قيام الفتنة فلحقهم الأذى من قبل الأندلسيين (3) ، إلا أنهم صمدوا وقلدوا سليمان المستعين الخلافة (4) ، ثم استقروا في مدينة غرناطة إلى أن خلفهم عليها المرابطون كما تقدم .

المولدون : قبل التعريف بالمولدين علي أن أشير — بإيجاز — إلى سكان الأندلس الذين يعاصرون جيل البربر والعرب الفاتحين ، فالمؤرخون المسلمون القدامى يطلقون على سكان إسبانيا جميعا اسم ((العجم أو عجم الأندلس)) (5) ، وقد قسموهم أيضا إلى :

1 — العجم الذين احتفظوا بدينهم ، فيسموهم أهل الذمة كما سنرى .

2 — العجم الذين اعتنقوا الإسلام ، فأطلقوا عليهم اسم المسالمة ، وأطلقوا اسم

المولدين على نسلهم (6) ، فمن هم المولدون ؟

كان الفاتحون البربر والعرب قد دخلوا الأندلس في شكل جنود ، وبقوا في هذه البلاد الجديدة خلال السنين الأولى (7) تاركين نساءهم في بلادهم ، وأقبلوا على مصاهرة الإسبان ، أهل البلاد ومضوا على هذا النحو يتزوجون من الإسبانيات ما شاءوا ، وعاشروا أهل البلاد وجاوروهم ، وعن طريق العشرة والمجاورة والمصاهرة ، انتشر الإسلام في الأندلس

1 — المقري . المصدر السابق . 1 : 259 .

2 — مؤنس ، حسين . فجر الأندلس . 389 .

3 — انظر هذا البحث . 22 - 26 .

4 — انظر هذا البحث . 26 .

5 — ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس . 36 .

6 — الركابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 35 .

7 — الركابي ، جودت . المرجع نفسه . 34 .

انتشارا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، يقول حسين مؤنس: ((قد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد ، وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الإسلام بين أهل الجزيرة)) (1) .

هكذا عن طريق المجاورة والعشرة والمصاهرة امتزجت دماء الفاتحين من البربر والعرب بدماء أهل البلاد ، ونشأ من ذلك جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين — كما تقدم — ونشأوا على الإسلام . ولعل عبد العزيز بن موسى بن نصير أول من تزوج بإسبانية ؛ إذ تزوج بأرملة ((لذريق)) ويقال لها : ((أم عاصم)) (2)، وحذا حذوه كثير من المسلمين الفاتحين أمثال عيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المنذر بن غيطشة (3) ، وغيرهما كثير ، يقول جودت الركابي : ((كان المولدون يؤلفون القسم الأكبر من شعب الدولة الأموية . لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة ومن الصعب بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة)) (4) .

يستشف — مما تقدم — أن المولدين كانوا يؤلفون زمن الدولة الأموية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الأندلس ، وأهل البيوتات ، وكان فيهم من احتفظ باسمه الإسباني لأنه ابن إسبانية أو جدته إسبانية (5) ، إلى جانب جريان الدم الإسباني في عروق البربري والعربي ، أمثال الخليفة هشام المؤيد بالله ، وعبد الرحمن شنجول وغيرهما ، يقول جودت الركابي : ((لاشك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولدين على إثر الاختلاط والزواج ولم يبق بين أكثر العرب من لايجري في عروقه دم إسباني ، وهذا الاختلاط قد كثر زمن الدولة الأموية)) (6) ، ويوضح ذلك حسين مؤنس ، فيقول: ((فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعا لايمكن أن يكونوا عربا من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، وحتى البيت الأموي نفسه كان بيتا مولدا ، إنما كانوا عربا بالإحساس

1 - مؤنس ، حسين . فجر الأندلس . 27 - 28 .

2 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 27..

3 ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس . 32 ، 30 .

4 - الركابي ، جودت . في الأدب الندلسي . 35 .

5 - انظر : عبد البديع ، لطفى . الإسلام في إسبانيا . 24 .

6 - الركابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 36 .

والاتجاه واللغة إلى حد كبير)) (1) .

إذا فالمولدون يشكلون أبرز عناصر المجتمع الأندلسي ، وأهم مكوناته البشرية، وقد ظل اسم المولدين يطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت هذه التسمية بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز (2) .

أهل الذمة : وهم الإسبان الذين بقوا على مسيحياتهم ولم يدخلوا في الإسلام ، وهؤلاء يرون أن البربر والعرب دخلاء عليهم ، وأنهم أحق بملك بلادهم (3) ، وكان عددهم أكثر بكثير من عدد المسالمة والمولدين أول الأمر ، ثم لم يزل عدد هؤلاء الأخيرين يزداد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس (4) . وقد عومل أهل الذمة (5) منذ الفتح الإسلامي معاملة طيبة ، فتمتعوا بحرية كبيرة في إقامة شعائر دينهم في كنائسهم وإديرتهم (6) ، وكان لهم في كل مدينة رئيس يعرف بالقومس (7) يدير أمورهم في تلك الإديرة والكنائس التي يرق للشعراء ارتيادها ، فقد أورد ابن خاقان وصفا شعريا لإحدى الكنائس التي بات فيها أبو عامر ابن شهيد ، قال: ((وبات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس... وقرع النواقيس يُهيج سمعه وبرق الحميا يُسرج لمعه ، والقُسُّ برز في عبدة المسيح ، متوشّحا بالدنانير أبدع توشيح)) (8) .

يتضح من هذا الوصف أن المسلمين كانوا متسامحين مع أهل الذمة ، وتركوهم

1 - مؤنس ، حسين . فجر الأندلس . 376 .

2 - مؤنس ، حسين . المرجع نفسه . 425 .

3 - أمين ، أحمد . ظهر الإسلام . 3: 2 .

4 - مؤنس ، حسين . فجر الأندلس . 429 .

5 - أطلق المسلمون على أهل الأندلس جميعا اسم العجم أو عجم الأندلس — كما تقدم — ثم لما تمكن سلطاتهم أطلقوا عليهم أهل الذمة ، وهم النصارى الذين يعيشون بين مسلمي الأندلس وأصبحوا في ذمتهم ، فعلى المسلمين حمايتهم وتوفير الأمان لهم ، وسموا بالنصارى المعاهدين. انظر تفاصيل ذلك : فجر الأندلس لحسين مؤنس 424 ، ودول الطوائف ل محمد عبد الله عنان . 409 - 415 ، والعلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانية النصرانية في عصر بني أمية وملك الطوائف لرجب محمد عبد الحليم . 51، 69 ، والشعر الأندلسي في عصر الطوائف لهنري بيريس . 247 .

6 - مؤنس ، حسين . المرجع نفسه . 447 .

7 - كان أرتطباس بن غيطشة آخر ملوك القوط أول قمامسة الأندلس وله عبد الرحمن بن معاوية. انظر : ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس. 29 ، 58 .

8 - الفتح بن خاقان . مطمح الأنفس . 194 - 195 ، ابن شهيد الأندلسي . ديوانه ورسائله . 61 .

يمارسون شعائر دينهم في حرية تامة في كنائسهم التي يبهجها قرع النواقيس ، حتى نظم ابن حزم فيها ذكر لقرعها ، منها(1):

أتيتني وهلالُ الجو مُطَّلَعُ قبيلَ قرعِ النصرى للنواقيسِ

هكذا كان أهل الذمة يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين في أحياء خاصة بهم في المدن ، وإن كان ذلك لم يمنعهم من مخالطة السكان (2) ، بقيادة القسوس ، كما كان لهم قاض نصراني يفصل في منازعاتهم بمقتضى القانون القوطي (3) ، يعرف بقاضي العجم (4) . وأما ما يحدث بين مسلم وذمي من منازعات فالفيصل فيها للشريعة الإسلامية (5) .

بهذا التسامح الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة من نصرى الأندلس ، أسلم الكثير منهم (6) ، وأقبل على تعلم اللغة العربية التي مكنتهم من دراسة الشعر العربي ونثره ، بل ولهم دور كبير في ترجمة الكتب الإسبانية بحكم إجادتهم للغتين ، فكانوا على هذا النحو حلقة الاتصال بين الثقافة العربية والأوربية (7) .

لعل ما حظي به أهل الذمة من تسامح وطمأنينة ، جعل الكثير منهم يسلم عن طواعية ، فقل عددهم وأصبحوا موزعين على مدن الأندلس في ظل الدولة الإسلامية ، بل إن الناهجين منهم تمتع بعطف الخلفاء ، وثقتهم ، وتقديرهم ، وشغل الكثير منهم مناصب هامة في الإدارة وفي القصر وفي الجيش (8) ، ففي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 هـ — 272 هـ) ، استخدم ((القومس)) كاتباً مدة طويلة أثناء مرض الوزير عبد الله بن أمية (9) ، ولما مات هذا الوزير ، علم القومس أن الأمير محمد ، يقول : ((لو كان

1 - ابن حزم . طوق الحمامة . 193 .

2 - غبد البديع ، لطفي . الإسلام في إسبانيا . 28 .

3 - مؤنس ، حسين . فجر الندلس . 447 .

4 - ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس . 13 .

5 - النباهي . تاريخ قضاة الأندلس . 21 .

6 - الحجي ، عبد الرحمن علي . التاريخ الأندلسي . 143 ، عبد العظيم ، رجب محمد . العلاقات بين لأندلس الإسلامية وإسبانية النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف . 74 .

7 - سالم ، عبد العزيز . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . 132 .

8 - بيريس ، هنري . الشعر الأندلسي في عصر الطوائف . 247 ، عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 409 ، عبد العظيم ، رجب محمد . العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانية النصرانية . 71 ، 73 .

9 - عبد العظيم ، رجب محمد . نفس المرجع . 72 .

قومس من أهل ملتنا لاستحجبناه)) (1) ، فما كان منه إلا أن أسلم ، وبلغ المكانة التي كان يتطلع إليها ، وأخلص للدين الجديد ، حتى عده الناس رمز التقوى ، وأطلقوا عليه لقب ((حمامة المسجد)) (2) .

وقد قلد الخليفة الناصر يحيى بن إسحاق الوزارة ، وأبوه إسحاق هذا كان نصرانيا طبيبا مجربا (3) .

أما المسيحيون الذين لم يكونوا خاضعين للإسلام فقد اعتمد عليهم المسلمون حتى في قيادة الجيوش ضد نصارى الشمال كما هو الشأن مع عبد الرحمن شنجول وشنجة بن غرسية (4) ، وفي عهد الفتنة استعان بنصارى برشلونة وطرطوشة ضد المستعين بالله (5) وبعد الفتنة واهتیار الخلافة الأموية ، وقيام دول الطوائف ، لقي النصارى المعاهدين نفس المعاملة الكريمة من قبلهم ؛ فهذا أبو الوليد بن جهور ندب ابن زيدون الشاعر ((النظر على أهل الذمة في بعض الأمور المعترضة)) (6) .

ولم تقتصر هذه العناية بشؤون النصارى المعاهدين على قرطبة ، بل كان معظم دول الطوائف الأخرى لهم في بلاطهم مكانة وظهور ، ففي بني عباد منهم ابن المارغري (7) الإشبيلي الذي ظهر أيام المعتمد بن عباد وكان من المقربين إليه (8) .

أما في شرق الأندلس فإن النصارى المعاهدين تمتعوا بالرعاية والتسامح ، فقد كان الفتيان العامريون من أشد الناس تسامحا مع المعاهدين ، فهذا مجاهد العامري صاحب مملكة دانية ، اشتهر في بلاطه من النصارى أبو عامر بن غرسية (9) ، وكان شعوبيا يكره العرب

-
- 1 - دوزي ، زينهرت . المسلمون في إسبانيا . 1 : 120 .
 - 2 - الخشني . تاريخ فضاة قرطبة . 160 .
 - 3 - صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . 187 .
 - 4 - انظر هذا البحث . 19 .
 - 5 - انظر هذا البحث . 20 .
 - 6 - ابن الأبار . أعتاب الكتاب . 212 - 213 .
 - 7 - ويقول هنري بيريس : ورد المرعزي في نفع الطيب . 3 : 521 . وفي المغرب في حلى المغرب 2 : 264 ، المرهز ، وكلاهما تصحيف ، وصحة الاسم المارغري ، لأن أصله إسباني . الشعر الأندلسي في عصر الطوائف . 306 هامش 9 .
 - 8 - انظر : ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب 1 : 269 ، المقرئ . نفع الطيب . 3 : 521 .
 - 9 - هو أبو أحمد بن غرسية ، من أبناء البشكنس ، سبي صغيرا وعاش في كنف مجاهد العامري ، وكان من كبار أدباء عصره . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 704 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 406 .

ويتعصب للإسبان ، فقد كتب رسالة ذم فيها العرب ، وافنخر بقومه العجم ، لكن بعض كتاب عصره ردوا عليه وألجموه حتى أسكتوه (1) ، وكان المقتدر بن هود ، من أعظم ملوك سرقسطة من أشد أنصار هذا التسامح ، وكان من بين وزرائه المقربين وزير نصراني هو أبو عامر بن غند شلب ، وكان أديبا شاعرا (2) ،

كما اعتمد بنو هود على المرتزقة النصارى في جيوشهم بصفة مستمرة ، وكانوا أول من استخدم السيد القنبيطور(3) ، واعتمدوا على مخالفته زمانا (4) .

وهكذا باقي ملوك الطوائف ، كانوا يتبعون سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياهم النصارى . وعلى الرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح الذي حظي به النصارى المعاهدون في ظل الحكم الإسلامي ، وفي عهد الطوائف ، ((إلا أنهم لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة، بل لبثوا دائما على ضغنتهم وخصومتهم لها وتربصهم بما ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها))(5) ، وساعدهم على ذلك تحريض نصارى الشمال ((والروايات النصرانية لاتشير إلى هذا التحريض المتعمد إلا عرضا ، بينما تصمت عنه الروايات العربية ولا تشير إليه أدنى إشارة))(6).

لقد لعب النصارى المعاهدون دورا بارزا في معونة نصارى الشمال وبتحريض منهم في غزو الممالك الإسلامية ، تمهيدا للقضاء عليها وسقوطها في أيدي ملوك النصارى ، وتجلي ذلك في أثناء محاصرة طليطلية من قبل ألفونسو السادس ، الأمر الذي أدى إلى سقوطها،

1 - انظر رسالة ابن غرسية والرد عليها في : الذخيرة .2/3: 705 - 755 .

2 - المقرئ . نفع الطيب .1: 534 ، 3: 405 . عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 412 .

3 - تشير إليه المصادر التاريخية باسم القنبيطور أو الكنبيطور أو الكبيطور الكميديور، واسمه رودريجو ديات دي بيار ، فارس قشتالي ، ولد في مدينة برغش حوالى 435 هـ ، ورد اسمه أيضا لذريق أو رودريق . تربى في البيت الملكي ، وكان من جنود شانجة أخي الفونسو السادس ، وهذا الأخير نفاه سنة 474 هـ ، واتجه إلى مملكة سرقسطة ، ورحب به المقتدر بن هود ، والتحق بخدمته ، وأطلق عليه اسم ((السيد)) بمعنى مولاي ، وتمكن السيد القنبيطور من السيطرة على مملكة بلنسية عام 487 هـ ، وظلت تحت سيادته حتى وفاته عام 491 هـ . انظر ترجمته : ابن الأبار . الحلة السيرة .1: 125 هامش 1 ، بروفنسال ، ليفي . الإسلام في المغرب والأندلس . 175 - 183 ، عنان محمد عبد الله . دول الطوائف . 232 ، ملحة السيد ترجمة الطاهر أحمد مكى . 83 - 88 ، 128 - 135 ، الحجي ، عبد الرحمن علي . التاريخ الأندلسي . 369 ، مرسي صالح ، نادية . العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانية المسيحية . 61 هامش 1 ، لين بول . قصة العرب في إسبانية . 173 .

4 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 412 .

5 - عنان ، محمد عبد الله . نفس المرجع . 413 .

6 - عبد العظيم ، زجب محمد . العلاقات الإسلامية وإسبانية النصرانية . 81 .

كما تقدم ، وهذا ما يعبر عنه بيدال بقوله: ((إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة ، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصراني)) (1) .

وبعد توحيد بلاد الأندلس تحت إمرة المرابطين ، قرر أمير المسلمين وفقا لفتاوى الفقهاء (2) ، تغريب النصارى المعاهدين ، لأهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة ، وأبعدت منهم بناء على ذلك ألوف عديدة ، فرقت في أنحاء إفريقيا (3).

اليهود : لم يكن أهل الذمة من نصارى الأندلس وحدهم مع العناصر البشرية ، التي قطنت الأندلس ، بل هناك عنصر اليهود (4) ؛ هؤلاء كان عددهم كبيرا فيه قبل الفتح الإسلامي وقد قدر بعض المؤرخين عددهم بما يزيد عن مئة ألف (5) ، وقد عانوا كثيرا من اضطهاد القوط لهم ، ولقد حرموهم من إقامة شعائرهم الدينية ، وأرغموهم على التنصر ، وصادروا ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وتبعوهم بالطرده (6).

ويبدو أن هذا الاضطهاد حفز يهود إسبانيا من الاتصال بأبناء ملتهم في شمال إفريقيا بعد أن علموا بالحرية الدينية التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم الإسلامي ، وقد دفعهم ذلك إلى محاولة إسقاط الدولة القوطية والاستعانة بالفاتحين المسلمين (7) ، ولايستبعد اتصال اليهود بهم وتحريضهم إياهم على المسير إلى إسبانيا — على الرغم من قلة الأدلة التاريخية على ذلك — لأن القادة المسلمين عاملوهم أحسن معاملة عند دخولهم الأندلس ، ويعهدون إليهم بحراسة المدن المفتوحة مع طائفة من الفاتحين (8).

لقد تمتع اليهود بتسامح كبير من جانب الفاتحين المسلمين لمؤازرتهم لهم عند الفتح

1 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 413 . نقلا عن الأستاذ بيدال . الأصل الإسباني . 424 .

2 - ابن عبدون . رسالة في الحسبة . 55 ، 57 .

3 - ابن الخطيب . الحلل المشوية . 70 - 71 .

4 - سالم ، عبد العزيز . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . 132 .

5 - ماكيب جوزيف . مدينة العرب في الأندلس . 58 .

6 مؤنس ، حسين . فجر الأندلس . 522 .

7 - العبادي ، أحمد مختار . في تاريخ المغرب والأندلس . 50 .

8 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة . 22 ، 25 .

وبعده (1) . وكانت مدينة إلبيرة التي حل محلها مدينة غرناطة — كما سنرى — تزخر
بأكبر جالية يهودية حتى سميت ((بغرناطة اليهود)) (2)
نستخلص من قول ابن الخطيب والحميري أن اليهود كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من
سكان بعض المدن الأندلسية — كإلبيرة — وازداد عددهم في عهد الخلافة الأموية ، وبخاصة
قرطبة ؛ إذ كانوا يمتنون فيها تجارة العبيد ، وبيع أدوات الزينة (3).
وكان لليهود بيعهم ورجال دينهم ، يمارسون شعائرتهم ما أحبوا ، وقد تقلد بعضهم
في بعض مناصب الدولة ولاسيما في عهد الخلافة ، من أمثال حسداي بن شيروط الذي
كان وزيرا وسفيرا وطيبا للخليفة عبد الرحمن الناصر (4) ، وكذلك تمتع الوزير اليهودي
أبو الفضل بن حسداي (5) لدى ملوك بني هود قي سرقسطة (6) ، ولاشك أن مملكة
غرناطة كانت موقوفة على سكنى اليهود — كما تقدم — فهي المدينة المفضلة لديهم
في القرن الخامس الهجري ، وظل اثنان من الوزراء اليهود وهما: إسماعيل وابنه يوسف (7)
يوجهان سياسة بني زيري إلى أن قضى السكان على يوسف وجمع غفير من اليهود (8) .
كان اليهود مندمجين في الحياة اليومية مع كل طبقات المجتمع ؛ فانكبوا على التجارة
ومارسوا مختلف المهن وتقلدوا مناصب سامية في ظل الدولة الإسلامية وفي عهد ملوك
الطوائف إلى أن ((حفت صوتهم — شأنهم شأن النصارى — في عهدي المرابطين
والموحدين، وتحولوا آخر الأمر للعمل في الممالك المسيحية)) (9).

1 - ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة . 1: 17 .

2 - الحميري . الروض المعطار . 45 .

3 - الرطابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 41 .

4 - بيريس ، هنري . الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ز 239 - 240 .

5 - هو حسداي بن يوسف بن حسداي من بيت شرف اليهود بالأندلس . انظر ترجمته : صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . 205 . ابن

سعيد . المغرب في حلى المغرب . 2: 241 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/3: 457 ، ابن دحية . المطرب . 196 ، الفتح بن حاقان .

فلانند العقبيان . 209 - 210 ، المقرئ . نفع الطيب . 535 هامش 1 .

6 - بالنشيا ، آخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 122 .

7 - انظر هذا البحث ترجمتيهما . 66 هامش 2 ، 67 هامش 1 .

8 - انظر هذا البحث . 69 .

9 - النوش ، حسن أحمد . التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي . 50 .

الصقالبة : إلى جانب العناصر البشرية التي ذكرناها ، هناك طبقة اجتماعية متميزة أخذت تلعب دورا سياسيا واجتماعيا هاما ، ولاسيما في قرطبة ألا وهي طبقة الرقيق المنحدرين إلى الأندلس عن طريق التجارة والسي ، فمن تكون ؟ ومن أي أصل انحدر أفرادها ؟ ومتى شكلوا هذه الطبقة الاجتماعية ؟

أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون اسم ((الصقالبة)) (1) على الشعوب التي كانت تقطن الأراضي الممتدة بين الأستانة وبلاد المجر (2). على أن اسم صقالبة ، كان يطلق في الأصل على جميع الأسرى الذين كانت تأسرهم الجيوش الجرمانية في حملاتها ضد الأمم الصقلية ، ثم يبيعونهم إلى المسلمين في الأندلس (3) ، ثم توسع المسلمون في استعمال هذا ، فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية (4). وأما طريقهم إلى الأندلس فقد كان يخرق ألمانيا وإلى الموانئ البحرية بإيطاليا وفرنسا (5) .

أما تاريخ استعمال الصقالبة ، فإنه يعود إلى وقت مبكر ، يذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار الأندلس زمن الخليفة الحكم الثاني (6) ، يذكر أن الصقالبة في الأندلس لم ينحدروا من ساحل البحر الأسود فقط ، بل هم أيضا من جهة جليقية وبلاد الإفرنج وغيرهما من الجهات كالمغرب التي جلبت الكثير منهم (7) ، ويوضح جودت الركابي ذلك ، بقوله: ((فقد كان أكثرهم أسرى جلبهم رجال من القراصنة المغاربة والأندلسيين في أثناء غاراتهم على الشواطئ الأوربية للبحر الأبيض المتوسط)) (8).

بتضح — مما تقدم — أن الصقالبة كانوا يجلبون من بقاع أوربية عديدة ، وقد عمد

1 - ابن حوقل . صورة الأرض . 110 . وأطلق عليهم ابن بسام اسم ((الما جيب) . الذخيرة . 1/4 : 34 . وأطلق عليهم ابن عذارى ((العلوج)) . كما ترد تسميتهم ((بالخرس)) لعجمتهم . البيان المغرب . 3 : 162 . وأما المقرئ فإنه يطلق عليهم ((الماليك)) ، أو الصقالبة . نفع الطيب . 1 : 398 .

2 - العبادي ، أحمد مختار . الصقالبة في الأندلس . 8 . تشركوا ، كليليا سارنللي . مجاهد العامري . 2 .

3 - دوزي ، رينهورت . المسلمون في الأندلس . 2 : 37 .

4 - العبادي ، أحمد مختار . الصقالبة في الأندلس . 31 .

5 - متر ، آدم الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري . 1 : 270 .

6 - الزركلي . الأعلام . 6 : 344 .

7 - ابن حوقل . صورة الأرض . 110 .

8 - الركابي . جودت . في الأدب الأندلسي . 39 .

مسلمو الأندلس شراء هم لاستخدامهم ، وبخاصة في عهد الخلافة الأموية (1) كجنود حتى وصل البعض منهم إلى المراتب الرفيعة والشرطة والخدم (2) .

وقد كون الخلفاء ، في القرن الرابع الهجري ، من الصقالبة حرسا خاصا يعتمدون عليهم كل الاعتماد ، والخضيان منهم كانوا يهيئون لخدمة الحرم ، وقد اشتهروا بالخدمة المخلصة الأمانة (3) ، وعملية الخصاء — المجافية للإنسانية — كان يتولاها تجار مختصون من اليهود ، يذكر ابن حوقل ((أن الخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخضيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قريهم منها يخلصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود)) (4) ، وكانوا كثيرا ما يموتون بسبب الجراحة ، وثمانهم أعلى من العاديين (5) .

وعملية الخصاء هذه يقوم بها تجار اليهود — كما أشار ابن حوقل — فلهم صيادون ومعامل لخصائهم في جنوب فرنسا وفي مدينة ((فردان)) منها بخاصة (6) ، وكانوا على الأغلب صغار السن عند مجيئهم الأندلس ، ولكن سرعان ما يتعلمون العربية ، وفنون الفروسية ، ويتأدبون بأداب المجتمع الأندلسي (7).

وقد اقتنى منهم المسلمون — في القرن الرابع — عددا هائلا ، حتى ذكر أنه كان يوجد في بعض الأحيان أكثر من خمسة عشر ألفا في قرطبة منهم في مدينة الزهراء وحدهم أكثر من ثلاثة آلاف (8) ، لكن المنصور بن أبي عامر أدرك خطورتهم على سلطانه ، فعمل على استئصالهم وإخراجهم من القصر ، وولى صقالبة غيرهم ممن يرضاهم هو عرفوا باسم الفتيان أو المماليك العامرية (9) .

1- العبادي ، أحمد مختار . الصقالبة في الأندلس . 9 .

2- المقرئ . نفع الطيب . 1: 366 ، 386 ، 387 .

3- بيريس ن هنري ز الشعر الأندلسي في عهد الطوائف . 233 .

4- ابن حوقل . صورة الأرض . 110 .

5- تشركو ، كليليا سارنللي . مجاهد العامري . 4 .

6- بروفنسال ، ليفي . الحضارة العربية في إسبانية . 111 .

7- عبد البديع ، لطفي . الإسلام في إسبانية . 35 .

8- المقرئ . نفع الطيب . 1: 567 . ويذكر ابن الخطيب أن عددهم كان بالتحديد بمدينة الزهراء: ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين . أعمال الأعلام . 40 .

9- كان عدد الصقالبة خدام القصر الذين نكبهم المنصور ثمانمائة أو يزيدون وعلى رأسهم فائق وجوذر . انظر : المقرئ . نفع الطيب . 1: 396 ، 397 .

ولقد استطاع فريق أن يتحرر من العبودية ، ويشغل مكانا لا تقابله في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك أراضي وأصبح غنيا(1)، ونبغت طائفة منهم في العلم والأدب ؛ فكان منهم الشعراء والكتاب والمؤلفون ، وقد خصهم حبيب الصقلي بكتاب ذكر فيه مآثرهم ، سماه ((كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة))(2) ، وهو مع الأسف مفقود .

وقد لعب الصقالبة دورا أساسيا بوجه عام ، فشاركوا في المؤامرات في قرطبة وسائر الأندلس ، في عهد الفتنة (3)، وسرعان ما تمكنوا من الانفرد بالسلطة في شرق الأندلس، في القرن الخامس الهجري ، في المرية ودانية وبلنسية وجزائر البحر الأبيض المتوسط (4)، ولكن صوتهم خفت في عهد المرابطين والموحدين حتى لانكاد نسمع عليهم شيئا .

تلك لمحة عابرة تصور عناصر المجتمع الأندلسي ، وطبيعته والديانات التي يعتنقها ، الشيء الذي أدى إلى عدم وحدتها ، يقول شوقي ضيف: ((شاركت في التكوين البشري لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوي والإفريقي والأوروبي ، ولذلك أصبحت في دماؤها القارات الثلاث ، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها)) (5)

ولعل عدم قيام وحدة سياسية ، خلال القرن الخامس الهجري ، طعمها سيرة أمراء الطوائف السبعة تجاه الرعية بالاستئثار بخيرات البلاد لصالحهم ، وفرض الضرائب الباهضة على الرعية ، لتأمين أنفسهم وممالكهم من هجمات الأعداء الجيران — كما تقدم — ومن نصارى الشمال بدفع الأتاوة والهدايا للتقرب منهم ، ثم إقبالهم على حياة الترف والبذخ، وقد تجلّى ذلك واضحا في شرب الخمر(6) ، واقتناء الجوارى(7) ، وارتكاب المعاصي(8)

1 - الركابي ، حودت . في الدب الأندلسي . 39 .

2 - ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة . 1 : 238 .

3 - انظر هذا البحث . 220 ، 22 .

4 - انظر هذا البحث 71 - 75 .

5 - ضيف ، شوقي . عصر الدول والإمارات — الأندلس . 15 .

6 - أنظر : هذا البحث . 62 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 2 : 55 .

7 - انظر : ابن بسام . الذخيرة . 1/3 : 112 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 2 : 43 ، المقرئ . فتح الطيب . 4 : 170 ، 286 .

8 - أورد ابن الأبار عن كثرة حب المعتضد ان عباد للنساء ومخاطبتهن إلى أن ((افتض ثمانمائة بكر)) . الحلة السيرة . 2 : 43 .

وسماع الغناء (1) ، وبناء القصور (2) ، والإسراف والتبذير في إقامة الاحتفالات (3).
وفي تنافس أمراء الطوائف في بناء القصور ، أورد ابن بسام قول ابن حيان يصف ما
استحدثه مظفر ومبارك في بلنسية : ((وسلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبارة في إشادة
البناء والقصور ، والتناهي في عليات الأمور ، إلى أبعد الغايات ومنتهى النهايات ، بما أبقيا
شأنهما حديثا لمن بعدهما . واشتمل هذا الرأي أيضا على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من
وزرائهما وكتائبهما ، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء ، فهاموا منه في تراهات مُضلة ،
وتسكعوا في أشغال متصلة ، لاهين عما كان يومئذ فيه الأمة ... فنفق سوق المتاع ،
وبعقوتهم وبعثر عن ذخائر الأملاك لقصرهم ، وضرب تجارهما أوجه الركاب نحوهم ، حتى
بلغوا من ذلك البغية وفوق ملء فؤاد الأمانة ، فما شئت من طرف رائع ، ومركب ثقيل ،
وملبس رفيع جليل ، وخادم نبيل ، وآلات متشاكلة وأمور متقابلة ، تروق الناظرين ،
وتُغيظ الحاسدين)) (4) .

ولم يكن هذا الثراء خاصا بذوي القصور والأمراء ، بل كان يشمل طبقات أخرى
من الناس ، من أبرزهم التجار ، والمقربون من الحكام ، وطبقة الفقهاء (5).
وكانت طبقة الفلاحين التي تمثل الأغلبية من أبناء المجتمع الأندلسي ، أكثر الطبقات
الاجتماعية تأثرا بهذا الاضطراب الاجتماعي ، إلى جانب أنها أول ضحايا القحط والمجاعة ،
وكانت أكثر من يصاب بالاضطرابات والحروب الداخلية أو الخارجية من حرق للمزارع
وخراب للبيساتين (6) ، فلا غرابة إذا سمعنا ابن عذارى يتحدث عن حالة الفلاحين المحزنة

-
- 1 - انظر : ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 863 ، 1/2 : 385 ، المقرئ . نفع الطيب . 3 : 614 - 615 ، 4 : 94 - 96 .
 - 2 - أنظر : ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب . 1 : 381 ، 2 : 9 ، المقرئ . نفع الطيب . 1 : 534 ، ابن الأبار . الحلة السرياء . 2 : 69 ، سالم ، السيد عبد العزيز . في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس . 194 - 200 .
 - 3 - ذكر ابن بسام أن المامون بن ذي النون أقام حفلا بمناسبة ختان ابنه يحيى ، ((فحشد أمراء البلاد ، وجملة الوزراء والقواد ، فأقبلوا إليه كالقَطَا القارب أرسالا)) الذخيرة . 1/4 : 128 ، ويذكره المقرئ ، بقوله : ((واهم الإعدار المشهور الذي يقال له : أعدار الدُّثْنِي، وبه يضرب المثل عند أهل المغرب)) . نفع الطيب . 1 : 440 .
 - 4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/3 : 17 .
 - 5 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين . 42 .
 - 6 - خالص ، صلاح . إشبيلية في القرن الخامس الهجري . 32 .

ولاسيما فلاحو بلنسية حين كان يحكمها مظفر ومبارك ، فيقول عنهما إنهما : ((كانا يحثان بسوق الرعية المضطهدة بسلطانهما فلا يعبان بما آذاها من كلفهما ، يقلداتها شرارالعمال ، ويستزيدان عليها في الوظائف الثقال ، مع الأيام والليالي ، حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ويأكلون البقل والحشيش وفر أكثرهم عن قراهم))(1) ، وإذا حدثنا صاحب كتاب الذيل والتكملة عن حدوث مجاعة عام ثمانية وأربعين وأربعمائة في إشبيلية ، ويين أنها كانت مريعة لدرجة خطيرة اضطر الناس فيها إلى دفن كل ثلاثة أو أربعة أشخاص في قبر واحد ، وخلت المساجد من الناس (2).

يتضح — مما تقدم — أن ملوك الطوائف كانوا يلجأون إلى هذا السبيل لجمع ثرواتهم الطائلة وزيادة غناهم الفاحش ، على حساب العامة من فلاحين وغيرهم ، فكان الخطر الداخلي منهم أيضا ؛ فكما لعبوا دورا رئيسا في خلق ملوك الطوائف قاموا بنفس الدور في إزالتهم .

الحركة العلمية والأدبية:

ازدهرت الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس (3) ، برغم ما اتسم به هذا القرن من تفكك وانحلال سياسي شامل .

لقد آتت الحركة العلمية والأدبية التي شهدها الأندلس ، في القرن الرابع الهجري ، أكلها في هذا القرن ، رغم ما لحق العلماء والأدباء — زمن الفتنة — من قتل وتشريد ، وما تعرضت له المكتبات من حرق وسلب ، كما سيأتي .

ففي زمن الفتنة هزت قواعد الحركة العلمية والأدبية التي ازدهرت في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، والحاجب المنصور بن أبي عامر ؛ إذ قضت على كثير من العلماء

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 162 .

2 - فلاح القيسي ، فايز عبد البني . أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري . 32. نقلا عن عبد الملك المراكشي . الذيل والتكملة . 1/5: 33 .

3 - بالثيا ، آنخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 13 .

والأدباء ، منهم ابن الفرضي (1) ، ومنهم من راموا جانباً بالصحف والأقلام، وصاموا عن الكلام ((وأي شيء أفصح وأبلغ من إضرابهم عن كل قول في تلك الظروف القاسية)) (2) ، فهذا ابن حيان لم يواصل في كتابة تاريخه إلى أن مضى صدر من الفتنة ، ويعبر عن ذلك بقوله : ((فعطلتُ التاريخ إلى أن خلا صدر منها ، نفسُ الخناق ، وبلل الرماق ، فاستأنفتُ تقييد ما استقبلته من أحداثها)) (3) .

وأما من كتبت له الحياة ، فقد فر من قرطبة كابن حزم ، الذي اتجه إلى المرية سنة 404 هـ (4) ، وفيها واصل درسه وتحصيله الذي بدأه في قرطبة . لكن هذا الاهتزاز لم يلبث طويلاً ، بل سرعان ما استعاد الناس ثقتهم بأنفسهم ، وأقبلوا على الإنتاج (5) ، وربما من الضار النافع أن تكون الفتنة سبباً في بيع ما تبقى من مكتبة الحكم المستنصر بالله من الكتب (6) ، ((وفقدت بذلك قرطبة ميزتها بوصفها حاضرة ثقافية ، كما لم تعد قاعدة للملك طوال عصر ملوك الطوائف)) (7) ، إلا أنها لم تفقد ، فيما يبدو ، اهتمام أغنيائها بمكتباتهم الخاصة ، وفي ذلك يقول ابن رشد : ((إذا مات عالم في إشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب في قرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية)) (8) .

وبسقوط الخلافة يشهد القرن الخامس الهجري تعدد الممالك في أقاليم الأندلس ، ولعلت الحركة العلمية والأدبية فيها على حساب قرطبة التي فقدت علماءها وأدباءها وشعراءها الذين أسرعوا إلى الممالك المستجدة يختارون من بينها أقربها إلى نفوسهم ، وأحب

1 - هو أبو الوليد عبد الله يوسف بن نصر المعروف بابن الفرضي (351 هـ - 404 هـ) ، كان فقيهاً متفناً في علوم الحديث والرجال والأدب ، من مؤلفاته : تاريخ علماء الأندلس . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 254 ، ابن بشكوال . الصلة . 251 ، ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 614 ، الضبي . بغية الملتبس . 335 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 103 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1 : 305 - 306 ، ابن العماد . شذرات الذهب . 3 : 168 .

2 - بن محمد ، علي . النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس . 1 : 89 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 576 .

4 - مكي ، الطاهر أحمد . دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . 84 .

5 - عباس ، إحسان تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . 137 .

6 - بالثنيا ، أنخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 13 . صاعد الأندلسي . طبقات الأمم .

7 - بن محمد ، علي . النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري . 90 .

8 - المقري . نفع الطيب . 1 : 155 .

ملوكها إليهم، وهؤلاء الملوك كانوا يتنافسون في اجتذاب العلماء ورعاية العلم والأدب تنافسا حاميا (1)، إلى جانب روح التسامح النسبي الذي أباحوه، وخاصة فيما يتعلق بعلوم الأوائل كما سنرى .

وكان معظم ملوك الطوائف، في القرن الخامس، من كبار العلماء والأدباء والمؤلفين؛ فقربوا أهلهم ورفعوا مراتبهم وشجعوهم، وأغدقوا الصلوات بمثابة مجامع للعلوم والآداب والفنون يحج إليها كل طالب للعلم وراغب في الأدب (2).

فقد كان المعتصم بن صمادح صاحب المرية يجلس يوما في كل أسبوع للفقهاء والخواص، يتناظرون بين يديه في كتب الحديث والتفسير (3).

وكان للقاضي محمد بن عباد ((في العلم والأدب باع ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة، بسطا لهم، وإقامة لهممهم)) (4). أما المعتمد بن عباد فكان ملكا جليلا، وعالما ذكيا، مقتصرًا من العلوم على الأدب، وما يتعلق به وينضم إليه (5)، وكان يرأس العلامة اللغوي الأعلام الشنتمري (6)، ويناقشه مناقشة لغوية (7).

وكان المقتدر بن هود ملك سرقسطة من أكبر المعنيين بالعلوم والمشاركين فيها، وكان ابنه المؤمن رجلا عالما قد طالع الكتب (8)، واهتم بالفلسفة والرياضيات حتى بلغ شأوا كبيرا فيهما، وألف رسالة سماها ((الاستكمال)) (9)، وغدت سرقسطة في عهدهما

1 - بالنثيا، آخل. تاريخ الفكر الندلسي . 13 .

2 - عنان، محمد عبد الله . دول الطوائف . 423، تشركووا، كليليا سارنللي. مجاهد العامري . 44 .

3 - ابن الأبار . الحلة السيرة . 2: 82 .

4 - ابن بسا . الذخيرة . 1/2: 13 .

5 - المراكشي . المعجب . 158 .

6 - هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، من أهل شنتمريّة الغرب، وبها ولد سنة 410 هـ، ورحل إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية وأقام بها مدة، درس فيها، وكف بصره في آخر عمره، وتوفي سنة 476 هـ، ومن مؤلفاته: شرح الأشعار الستة الجاهليين . انظر ترجمته: ابن بشكوال . الصلة 2: 681، السيوطي . بغية الوعاة . 2: 356، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 7: 81 - 82، المقري . نفع الطيب . 4: 75 .

7 - المقري . نفع الطيب . 4: 75 .

8 - الأمير عبد الله . كتاب التبيان . 78 .

9 - المقري . نفع الطيب . 1: 441 .

مركزا للعلوم والرياضيات كما سيأتي .

وكان مجاهد العامري صاحب دانية من أكبر العلماء في عصره ، ولاسيما في علم العربية ((قصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب ، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم ، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير)) (1) .

لقد ازدهرت الدراسات العلمية المختلفة ، في هذا القرن ، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء ، ففي العلوم الدينية تبوأ علماء الأندلس مكانة رفيعة ، ونبغ كثيرون ، منهم : ابن الصيرفي (2) ، الذي كان من كبار المقرئين في عصره ، وابن حزم الذي كان فقيها مؤرخا فيلسوفا متبحرا في العلم والأدب والعقائد وأصول المذاهب والنحل وغيرها (3) ، ومنهم أبو عمر بن عبد البر (4) ، وكان إمام عصره وواحد دهره في الفقه (5) ، ومنهم أبو الوليد الباجي (6) ، قال عنه ابن حزم : ((لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب (7)

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 156 .

2 - هو أبو عمر بن عثمان بن سعيد الداني ، من اهل دانية ن ولد بها سنة 371 هـ ، ورحل إلى المشرق قبل الأربعمائة ، وطلب علم القراءات وقرأ وسمع الكثير بمصر والقيروان ، ثم عاد إلى الأندلس وتصدر القراءات ، وألف فيها تواليف معروفة ، ونظمها في أرحوزة مشهورة ، وتوفي سنة 444 هـ . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 305 ، ابن بشكوال . الصلة . 405 ، الضبي . بغية الملتبس . 411 - 412 ، المقرئ . نفع الطيب . 2: 135 .

3 - الحميدي . المصدر نفسه . 308 - 311 ، صاعد الأندلسي طبقات الأمم . 97 - 99 .

4 - هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي ، مالكي ومن كبار حفاظ الحديث ، ومؤرخ أديب مجاهد ، ولد بقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، ثم عاد إلى الأندلس وولي قضاء عدد من المدن منها لشبونة وشنترين ، وتوفي في شاطبة سنة 463 هـ ، ومن مؤلفاته ((البيان عن تلاوة القرآن)) ، ((الكافي في الفقه)) ، ((الانتقاء من فضائل الثلاثة الفقهاء)) . انظر ترجمته : ابن خاقان . مطمح الأنفس . 294 - الحميدي . جذوة المقتبس . 367 - 379 ، الضبي ، بغية الملتبس . 489 - 491 ، ابن بشكوال . الصلة . 677 - 779 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 407 - 408 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 7: 66 - 67 ، المقرئ . نفع الطيب . 4: 29 ، الزركلي . الأعلام . 9: 316 .

5 - ابن بشكوال . الصلة . 677 .

6 - هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد التحجبي المالكي الأندلسي ، من كبار أئمة المسلمين ولد بباجة سنة 403 هـ ، ورحل إلى المشرق وأقام بمكة ، رحل إلى بغداد ، ثم عاد إلى الأندلس وتولى القضاء في بعض أقطابها ، وتوفي بالمرية سنة 474 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 1/2: 94 ، النباهي . المرقبة العليا 95 ، الضبي . بغية الملتبس . 302 ، ابن خاقان . قلائد العقيان . 188 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 404 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان ، 2: 408 ، المقرئ . نفع الطيب . 2: 75 - 77 ، القاضي عياض . ترتيب المدارك . 4: 801 .

7 - هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي ، رحل من بغداد واستقر بمصر وحمل لواء المالكية فيها . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/4: 515 ، النباهي . المرقبة العليا . 40 ، القاضي عياض . ترتيب المدارك . 4: 691 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 3: 219 ،

مثل أبي الوليد)) (1) ، ومنهم ابن الطلاع (2) الذي كان مفتي الأندلس ومحدثها (3) .
وحظيت العلوم اللغوية ، في القرن الخامس الهجري ، بمكانة رفيعة ، وبرز عدد من كبار علماء اللغة والنحو في الأندلس ومنهم : ابن التَّيَّانِي (4) ، وابن سيده (5) ، والأعلم الشنتمري الذي كان إمام النحاة في زمنه (6) ، ومنهم ابن سراج النحوي (7) ، إمام اللغة بالأندلس ومحيي علم اللسان بها (8) ، ومنهم ابن السيد البطليوسي (9) الذي كان عالما بالعربية واللغة ومعاني الأشعار (10) ، ومنهم ابن الطراوة (11) نحوي المرية الذي لم يكن في علم العربية مثله (12) .

-
- 1 - القاضي عياض . ترتيب المدارك . 4: 803 .
 - 2 - هو أبو عبد الله محمد بن فرج القرطبي ولد سنة 404 هـ ، من الشيوخ الأكابر في وقته ، وتوفي سنة 497 هـ . انظر : ابن بشكوال . الصلة . 564 - 565 .
 - 3 - ابن بشكوال . المصدر نفسه . 564 .
 - 4 - هو أبو غالب تمام بن عمر المرسي . من أعلام اللغة المشهورين بالأندلس ، سكن مرسية ، وعرف بالديانة والورع والعفة ، صنف كتاب ((تلقيح العين)) توفي بالمرية سنة 336 هـ . الحميدي . جذوة المقتبس . 183 ، انظر ترجمته : الضبي . بغية الملتبس . 252 ، ابن بشطوال . الصلة . 120 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 166 ، السيوطي . بغية الوعاة . 1: 478 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1: 300 ، ياقوت الحموي . معجم الأديباء . 17: 35 .
 - 5 - هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ، العلامة اللغوي الأعمى المشهور ، وصاحب كتاب ((المخلص)) ، ولد بمرسية سنة 398 هـ ، ثم انتقل إلى دانية ، وولزم مجلس مجاهد العامري ، توفي سنة 458 هـ . انظر ترجمته : صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . 99 ، السيوطي . بغية الوعاة . 2: 143 ، الحميدي . جذوة المقتبس . 311 ، الضبي . بغية الملتبس . 418 ، ابن بشكوال . الصلة . 417 ، ابن خاقان . مطمح الأنفس . 291 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 259 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1: 431 .
 - 6 - السيوطي . المصدر نفسه . 2: 356 .
 - 7 - هو أبو مروان عبد الملك بن سراج ، وزير من بيت علم ووقار ، ولد بقرطبة سنة 400 هـ ، وكانت الرحلة في وقته إليه ، ومدار أصحاب اللغات والآداب عليه ، توفي سنة 489 هـ . انظر ترجمته : ابن بسان . الذخيرة . 2/1: 808 ، السيوطي المصدر نفسه . 2: 110 ، ابن خاقان . قلائد العقيان . 190 ، العماد الإصهاني . الخريدة . 2: 374 ، الضبي . بغية الملتبس . 380 ، ابن بشكوال . الصلة . 363 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 115 .
 - 8 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1: 808 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 115 .
 - 9 - هو أبو عبد الله محمد بن السيّد ، أصله من بطليوس ولد فيها سنة 444 هـ سكن بلنسية ولم يغادر الأندلس ، وقد رحل إليه كثيرون للأخذ عنه ، وتوفي سنة 521 هـ ، ومن مؤلفاته ((الإقتضاب في شرح أدب الكاتب)) ، و ((الانتصار ممن عدل عن الإستبصار)) . انظر ترجمته : ابن بشكوال . الصلة . 292 ، السيوطي . بغية الوعاة . 2: 55 .
 - 10 - السيوطي . المصدر نفسه . 2: 55 .
 - 11 - هو أبو الحسن سليمان بن محمد السبائي المالقي ابن الطراوة ، نحوي وأديب ، تنقل كثيرا في بلاد الأندلس معلما ، وأخذ عن عدد من أئمة العربية بالأندلس ، وله كتاب ((المقدمات على سيبويه)) ، وتوفي سنة 528 هـ . انظر ترجمته : السيوطي . بغية الوعاة . 1: 602 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 208 ، ابن الأبار . التكملة . 704 ، العماد الإصهاني . الخريدة .
 - 12 - ابن سعيد . المغرب . 2: 208 .

وازدهر في هذا القرن علم التاريخ ، واحتفل به لأنه كان يعتبر من أنبل العلوم عندهم (1) ، واهتم عدد كبير من العلماء في شتى فروع علم التاريخ ، وكأنهم أرادوا بذلك إظهار ما لهذا الصقع الناشئ من فضيلة ، يتميز بها بين بلاد العالم الإسلامي (2) . وقد ألف في تاريخ الأندلس العام أبو عامر بن مسلمة (3) كتابا وأهداه للمعتضد بن عباد ، وهو ((حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح)) (4) ، ويعد ابن حيان من أشهر مؤرخي الأندلس وعميدهم (5) .

وتتميز في تاريخ العلوم صاعد الأندلسي (6) ، وبرز الأمير عبد الله بن بلقين الذي في مذكراته ، تاريخ دولة بني زيري في غرناطة (7) ، ومن اشتهر في تاريخ المدن ابن علقمة (8) ، الذي وضع كتاب ((البيان الواضح في العلم الفادح)) (9) وهو في أمر بلنسية وحصارها ثم احتلالها من قبل القنيطور في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (10) ،

-
- 1 - السعيد ، محمد مجيد . الشعر في ظل بني عباد . 64 .
 - 2 - عبد البديع ، لطفي . الإسلام في إسبانيا . 66 .
 - 3 - هو محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة ، أبو عامر الوزير ، أديب عالم شاعر من بيت أدب ورياسة ، سكن إشبيلية ، ألف للمعتضد بن عباد كتابا سماه ((حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح)) ، له منظوم في . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 65 ، الضبي . بغية الملتمس . 90 ، ابن بسام . الذخيرة . 105 : 1/2 ، ابن خاقاب . مطمح الأنفس . 202 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 96 - 97 ، بالثيا ، أنخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 212 .
 - 4 - ابن بسام . الذخيرة . 106 : 1/2 .
 - 5 - مؤنس ، حسين . تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس . 101 .
 - 6 - هو أبو القاسم صاعد بن احمد بن محمد بن صاعد ، ولد بالمرية سنة 420 هـ ، وكان فقيها مشهورا وعالما كبيرا ، وقد تولى القضاء في طليطلة لبني ذي النون إلى أن توفي سنة 462 هـ ، ومن مؤلفاته المطبوعة ((طبقات الأمم)) ، وهو في تاريخ العلوم وتطورها عند الأمم المختلفة في العصور القديمة والقرون الوسطى . انظر ترجمته : ابن بشكوال . الصلة . 236 ، الضبي . بغية الملتمس . 323 ، صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . تحقيق بوعلوان ، حياة العيد ، وتحقق آخر لحسين مؤنس .
 - 7 - انظر هذا اللبحث . 70 هامش 3 .
 - 8 - هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدي ، من أهل بلنسية ، ومن عاصر حصارها من قبل السيد ، توفي ببلنسية سنة 509 هـ . انظر ترجمته : ابن الأبار . التكملة . 1 : 411 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 306 . الصفدي . الوافي بالوفيات . 3 : 45 .
 - 9 - ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا . واحتفظ عدد من المصادر بنقل منه ، انظر : ابن الأبار . المصدر نفسه . 1 : 23 ، 240 ، 486 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 354 .
 - 10 - ابن الأبار . المصدر نفسه . 1 : 412 .

واشتهر في تاريخ السير والتراجم الحميدي (1) صاحب كتاب ((جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس)).

وينبغي في الجغرافيا عدد من العلماء منهم ابن فياض (2)، الذي وضع كتابا عن الطرق والأهوار في الأندلس (3)، ومنهم ابن الدلاي (4) الذي ألف كتابا في الجغرافيا بعنوان ((نظام المرجان في الممالك والأمصار)) (5)، ومنهم أبو عبيد البكري (6) الذي ألف معجما في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب وهو ((معجم ما استعجم)) (7).

إذا كان هذا هو شأن ملوك الطوائف في الأندلس، في المجالات العلمية، والأدبية — كما تقدم وسنرى — فإن بعضهم انعكف على الأخذ بما يسمى بعلوم الأوائل، والمشاركة فيها بتأليف قيمة، ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه، ملوك سرقسطة: المقتدر بن هود وابنه المؤتمن؛ أما المقتدر فقد تعاطى الفلسفة والرياضيات والفلك، وأما المؤتمن فقد ألف كتاب ((الاستكمال في الفلك))، كما تقدم (8)، وقد نال هذا التأليف شهرة لدى

1 - هو أبو محمد عبد الله بن أبي نصر بن فتوح الحميدي، من أهل جزيرة ميورقة بالأندلس، رحل إلى المشرق سنة 448 هـ، فحج وسمع بمكة ودمشق وغيرهما، واستوطن بغداد، وكان فقيها محدثا متبحرا في الآداب والعربية، توفي سنة 488 هـ. انظر ترجمته: الضبي. بغية الملتبس. 123، ابن بشكوال. الصلة. 560، الصفدي. الوافي بالوفيات. 2: 52، ابن خلكان. وفيات الأعيان. 4: 282.

2 - هو أحمد بن سعيد، أصله من أستجة، سكن المرية، وله تأليف في الخير والتاريخ، توفي سنة 459 هـ. انظر: ابن بشكوال. الصلة. 60، المراكشي. المعجب. 431، 456، المقرئ. نفع الطيب. 3: 182.

3 - المراكشي. المصدر نفسه. 431. وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا.

4 - هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلاي، من أهل دلالية من أعمال المرية، ولد بسنة 393 هـ، وهو محدث وحافظ وجغرافي مشهور، توفي سنة 478 هـ. انظر ترجمته: الضبي. بغية الملتبس. 195، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب. 3: 357.

5 - ابن الدلاي، أبو العباس أحمد بن عمر. نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك. تحقيق الأخواني، عبد العزيز. مدريد. 1965.

6 - هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، عالم لغوي ومؤرخ جغرافي وشاعر سياسي، ولد في شلطيبي ثم انتقل إلى دانية ثم سار إلى المرية فاصطفاه أميرها المعتصم بن صمادح لى أن سقطت دول الطوائف في يد المرابطين فغادر المرية إلى قرطبة، وتوفي سنة 487 هـ، من كتبه ((المسالك والممالك)) و((فصل المقال)). انظر ترجمته: ابن بسلام. الذخيرة. 1/2: 232، ابن بشكوال. الصلة، ابن شعيب. المغرب. 1: 347، السيوطي. بغية الوعاة. 2: 49، ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. 505، الكتبي. فوات الوفيات. 1: 212، مؤنس، حسين. الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. 107 - 148.

7 - المعجم مطبوع ومنشور.

8 - انظر هذا البحث. 97.

العلماء ، فهذا موسى بن ميمون (1) وضع له شرحا ، ورأى أنه جدير بأن يدرس . ولم يتوقف الاشتغال بعلوم الأوائل عند الخاصة وإنما تعداه إلى الفئات الأخرى من طبقات المجتمع ، ونبغ فيها عدد من العلماء ، منهم سعيد بن فتحون السرقسطي (2) وابن البغونش (3) ، قال عنه صاعد الأندلسي : ((كان ذا كتب جلييلة في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة)) (4) ، وابن خلدون (5) ، هذا إلى من ذكرنا في مجالات أخرى كالسيد البطليوسي الذي له كتاب ((الحدائق)) ، فهو لايساعد جمهرة المتخصصين في الفلسفة وحسب ، بل يعد صورة صادقة للمعرفة الفلسفية في الأندلس (6) ، وابن حزم الذي عني بعلم المنطق وألف فيه كتابا سماه ((التقريب لحدود المنطق)) (7) .

لقد تعددت مظاهر نشاط الحركة العلمية في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، ومن هذه المظاهر وفرة الإنتاج العلمي وتنوعه ، وهو يشمل كل علم من علوم العصر . ومن أشهر مؤلفات هذا القرن — إضافة لما تقدم — ((جمهرة أنساب العرب)) لابن حزم ، ((التوابع والزوايع)) لابن شهيد الأندلسي ، و((المخصص)) لابن سيده ،

1 - هو موسى بن عبيد الله ميمون القرطبي ولد سنة 529 هـ ، درس في قرطبة مانشره المسلمون من فلسفة أرسطو وتوفي سنة 600 هـ ، وأشهر كتبه ((دلالة الحائرين)) كتب بالعربية ، وترجم الكتاب إلى العبرية ولغات أوروبية من بينها الإسبانية . أنظر أخباره : بالنشيا ، أنخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 502 .

2 - هو سعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالحمار السرقسطي ، كان متحققا بعلم الهندسة والمنطق والموسيقى ، متصرفا في علم الفلسفة ، وكان إماما في علم النحو واللغة . ، وله رسالة في المدخل إلى علم الفلسفة سماها (0شجرة الحكمة) سجن في عهد المنصور بن أبي عامر ، وبعد انطلاقه من السجن خرج إلى صقابة وبها توفي سنة 436 هـ . انظر ترجمته : صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . 90 ، الحميدي . جذوة المقتبس . 223 ، الضبي . بغية الملتبس . 311 ، السيوطي . بغية الوعاة . 1: 586 ، المقرئ . نفع الطيب . 3: 175 .

3 - هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ، من أهل طليطلة ، ولد سنة 369 هـ ، ورحل إلى قرطبة وطلب العلم بها ، ثم عاد إلى طليطلة واتصل بأمرها إسماعيل بن ذي النون ، وحظي عنده بمكانة رفيعة ، وكان أحد مدبري دولته ، وقد ترك آخر حياته قراءة العلوم ومال إلى الزهد ، توفي سنة 444 هـ . انظر ترجمته : صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . 105 ، ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء . 495 . 496 -

4 - صاعد الأندلسي . المصدر نفسه . 105 .

5 - هو أبو مسلم عمر بن أحمد الحضرمي المعروف بابن خلدون ، من أشرف أهل إشبيلية ، كان متصرفا وعلم الفلسفة والتجوم والهندسة والطب ، توفي سنة 449 هـ . انظر ترجمته : صاعد الأندلسي . المصدر نفسه . 93 ، ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء . 48 ، المقرئ . نفع الطيب . 3: 376 .

6 - بالنشيا ، أنخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 334 .

7 - صاعد الأندلسي . طبقات الأمم . 98 .

و((البديع في وصف الربيع)) للحميري (1) .

ومن هذه المظاهر انتشار المكتبات ، فقد شغف الأندلسيون في اقتناء الكتب حتى أصبح اقتناء الكتاب والسعي للحصول عليه مفخرة (2) ، فبعد انهيار الخلافة الأموية ، واحتياج قرطبة ، وزعت خزائن كتبها على ممالك الأندلس واندفع كثير من المثقفين والعلماء والملوك والوزراء والكتاب إلى اقتناء الكتب ، فانتشرت المكتبات الخاصة ، فكان من أصحاب المكتبات في قرطبة ، ابن الموصل (3) ، قال فيه ابن الأبار : ((كان جماعا لدفاتر العلم من لدن صباه منتقيا لكرائمها بصيرا بختيارها عارفا بخطوطها يحتكم إليه في ذلك ، مؤثرا لها على كل لذة ، حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعد الحكم الخليفة ... بيع هذا كله في تركته وأغلي فيها حتى لقومت الورقة في بعضها بربع مثقال)) (4) . وممن اشتهر بجمع الكتب ، أبو جعفر بن عباس ، الذي جمع من السدواوين العلمية ما لم يكن عند ملك (5) ، ومجاهد العامري الذي جمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة (6) ، وكان المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس جماعة للكتب ذا خزائن عظيمة (7) واعتمد عليها في تأليف كتابه ((المظفري)) في خمسين مجلدا ، تناول فيها الأدب والتاريخ (8) ، وكان لأبي محمد الأروشي (9) همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها ، وجمع من ذلك شيئا عظيما (10) ، وقد ساهمت هذه المكتبات في الحركة الفكرية وخلق وعي علمي شامل .

1 - هذه الكتب مطبوعة ومنشورة .

2 - المقرئ . نفع الطيب . 1: 462 .

3 - محمد بن يحيى الغافقي المعروف بابن الموصل ، توفي سنة 433 هـ .

4 - ابن الأبار . التكملة . 387 .

5 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 1: 259 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 156 ، تشركوا كليليا سارنللي . مجاهد العامري . 214 .

7 - المقرئ . نفع الطيب . 3: 380 . ابن حلكان . وفيات الأعيان . 6: 352 .

8 - ابن بسام . الذخيرة 2/2: 640 .

9 - هو أبو عبد الله بن حيان بن فرحون الأورشي فقيه محدث ، ولد سنة 409 هـ ، وسكن بلنسية ، وقد تعرضت مكتبته لنكبة ، ولا يعرف سبب ذلك ، وذكر المؤرخون أن المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، أخذ كتب الأورشي من داره وسبقت إلى قصره في مائة وثلاثة وأربعين عدلا من أعدال الحماليين ، وتوفي سنة 487 . انظر ترجمته : الضني . بغية الملتمس . 334 ، ابن بشكوال . الصلة . 288 .

10 - ابن بشكوال . المصدر السابق . 288 .

هذا وقد نشطت الحركة الأدبية، في القرن الخامس الهجري ، ولقيت تشجيعا من ملوك الطوائف ، فقد اصطنعوا الأدباء والشعراء وتنافسوا في اجتذابهم إلى بلاطهم للافتخار بمدائحهم لهم ، وليضفوا على شخصياتهم الشهرة (1) ، وأخذ الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً ، ينتجعون قصور الملوك للظفر بصلاتهم والفوز بأعطيائهم (2)، وصدق الشقندي حين قال ذلك في رسالته : ((فنفقوا سوق الكلام ، وتباروا في المثوبة على المنشور والمنظوم ، فما كان أعظم مباحاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني محتص بالملك الفلاني)) (3) .

ازدهر الشعر ، في القرن الخامس الهجري ، ازدهارا عظيما حتى عرفت فيه الأندلس أكبر إشراق شعري في تاريخها الأدبي (4) ، وظهر عدد كبير من الشعراء الذين صاغوا أحاسيسهم ومشاعرهم في قصائد رائعة ترددها الأجيال جيلا بعد جيل وأصبحت المدائح تجارة رابحة ، حتى أن أحدهم وهو إدريس بن اليماني (5)، لا يمدح أحدا بقصيدة إلا بمائة دينار (6) ، وقد سأله المعتضد بن عباد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود ، فقال له : ((إشارتي مفهومة ، وبنات صدري كريمة ، فمن أراد أن ينكح بكرها ، فقد عرف مَهْرها)) (7) .

لقد كان الشعر أمر مشتركاً بين ملوك الطوائف جميعاً (8) ، فازدهر في الممالك الأندلسية بصفة عامة ، ولكن امتازت ثلاثة من بين بلاطات ملوك الطوائف بصفة خاصة

-
- 1 - غومس ، إميليو غرسية . الشعر الأندلسي . 45 ، عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين . 71 - 77 ، الركابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 163 ، بن محمد ، علي . النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري . 1 : 101 .
 - 2 - غومس ، إميليو غرسية . 46 .
 - 3 - المقرئ . نفع الطيب . 3 : 190
 - 4 - بروفنسال ، ليفي . سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها . 14 .
 - 5 - هو أبو علي إدريس بن اليماني العبدي ، من أهل جزيرة يابسة ، مدح ملوك الطوائف ، ولم يكن بعد ابن دراج القسطلبي من يجري عندهم مجراه غير ابن اليماني . انظر ترجمته . ابن بسام . الذخيرة . 1/3 : 336 ، الحميدي . جذوة المقتبس . 170 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 400 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 75 .
 - 6 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/3 : 336 .
 - 7 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/3 : 336 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 75 .
 - 8 - غومس ، إميليو غرسية . 45 .

بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية ، وهي بلاط بني عباد ياشبيلية ، وبلاط بني الأفطس ببطليوس وبلاط بني صمادح بالمرية . فقد كان بنو عباد أعظم ملوك الطوائف ((هم وبنوهم ووزراؤهم صدروا في بلاغتي النظم والنثر)) (1) ، وصارت إشبيلية في عهد المعتمد ابن عباد رائدة الحركة العلمية والأدبية التي سادت ذلك العصر ((فلم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعر وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه)) (2) ، وغدت الدولة العبادية في ازدهارها العلمي والأدبي ((أشبه سبيئ بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل)) (3) ، ووصف الشقندي إياهم بأنها ((لم تزل بهم كأعياد ، وكأن لهم من الحنو على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان في حلب)) (4) .

وكان من شعراء بني عباد : ابن زيدون ، وابن عمار ، وابن وهبون (5) ، وابن اللبانة ، وابن حمديس (6) ، ومن كتبهم ابن عبد البر ، وابن القصيرة (7) . وكان بنو الأفطس ملوك بطليوس ((ملجأ لأهل الآداب ، خُلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم ، وأبقت على الدهر حميد ذكرهم)) (8) ، وكان رائدهم المظفر أديب ملوك عصره ، شغوفاً بالشعر والآداب ، ناقداً لها ، ومما يدل على بصره بالشعر أنه كان ينكر على قائله في زمانه ، ويقبل رأي من ارتسم في ديوانه ، ويقول : ((من لم يكن شعره

1 - المقرئ . نفع الطيب . 3 : 191 .

2 - ابن خلكان . وفيات الأعيان . 5 : 24 .

3 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 255 .

4 - المقرئ . المصدر نفسه . 3 : 191 .

5 - هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى ، شاعر مشهور ، كان حسن الشعر ، لطيف المأخذ ، حسن التوصل إلى دقسق المعاني ، وقد جمع ابن بسام شعره في كتاب سماه ((الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل)) . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 473 ، الإصفهاني . الخريدة . 2 : 95 ، المراكشي . المعجب . 159 ، المقرئ . نفع الطيب . 1 : 657 .

6 - هو عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي ، ولد بسرغوسة سنة 447 هـ ، هاجر إلى الأندلس ، ووفد على المعتمد بن عباد ، وأصبح من شعرائه إلى أن أسر سنة 484 هـ ، فغادر الشاعر الأندلس إلى المغرب ، وبقي متنقلاً بين ملوكها إلى أن توفي سنة 527 هـ ، وله ديوان شعري . انظر ترجمته : ابن بياض . الذخيرة . 1/3 : 320 ، العماد الإصفهاني . الخريدة . 2 : 194 ، ابن دحيه . المطرب . 54 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . 3 : 212 .

7 - هو ذو الوزارتين الفقيه الكاتب ابو بكر محمد بن سليمان بن القصيرة ، كان من أهل التفنن في العلوم كاتباً بارع الهط ، وكان سفير المعتمد بن عباد إلى ملوك الطوائف ، وولاه يوسف بن تاشفين ديوان الكتابة ، بعد خلع ملوك الطوائف ، وتوفي سنة 508 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 239 ، ابن الأبار . أعتاب الكتاب . 222 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 350 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 361 - 365 .

8 - المراكشي . المعجب . 128 .

مثل المتنبي والمعري ، فليسكت ولا يرضى بدون ذلك)) (1)، وكان ابنه المتوكل من أهل الرأي والحزم والمهارة في النظم والنثر(2)، وكان في بطليوس كالمعتمد في إشبيلية ، فشدت الرحال إليه (3)، وأصبحت المملكة في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم (4) ، وكان من شعرائهم: ابن البين (5) وابن عبدون (6)، ومن كتبهم ابن قزمان (7) وابن القبطرنة (8). وكان المعتصم بن صمادح بالمرية ، ممن عمل على استقطاب أهل الشعر والأدب ، فكان ((لأهل الشعر عنده سوق نافقة ، فقصدته جمع منهم))(9) ، وكانت ((دولته مشرعا للكرم، ومطلعا للهمم ونفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفت بحار الكلام)) (10) وأقر له ابن بسام بهذا الفضل حين وصفه بقوله : ((كان رحب الفناء جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعملت

1 - ابن بسام . الذخيرة . 2/2 : 641 .

2 ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 185 .

3 - ابن سعيد . المغرب . 1: 364 .

4 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 185 .

5 - هو أبو عبد الله محمد بن البين، أحد الشعراء المجيدين ، كان بحضرة بطليوس مستظرف الألفاظ والمعاني ، وكان إلى طريقة محمد بن هاني . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/2 : 799 ، ابن سعيد المغرب . 1: 370 ، ورايات المبرزين لنفس المؤلف . 60 ، المقري . نفع الطيب . 3: 453 .

6 - هو أبو محمد ، عبد المجيد بن عبدون الفهري ، أديب وشاعر ومترسل مشهور ، من أهل مدينة يابرة بالأندلس ، استوزره بنو الألفطس إلى انتهاء دولتهم ، ثم انتقل إلى خدمة المرابطين بعد خلع ملوك الطوائف ، وتوفي سنة 527 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/2 : 668 - 727 ، ابن خلكان . القلائد . 164 ، العماد الإصفيهاني . الخريدة 2 : 103 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 374 والرايات . 32 ، الضبي . بغية الملتمس . 539 ، ابن بشكوال . الصلة . 388 . لمن سماه عبد المجيد بن عبد الله بن عبد ربه الفهري ، وذكر أنه توفي سنة 527 هـ ، ابن دحية . المطرب . 180 ، ابن الأبار . التكملة . 1: 407 ، الكتيبي . فوات الوفيات . 2: 388 .

7 - هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان ، (عم ابن قزمان الزجاج ، من أهل اليبلاغة والبيان ، كان كاتباً للمتوكل بن الألفطس . وتوفي سنة 508 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 774 ، ابن بشكوال . الصلة . 570 ، ابن خاقان . القلائد . 213 ، ابن سعيد . المغرب . 1: 99 ، العماد الإصفيهاني ، المصدر نفسه . 3: 465 .

8 - هو أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي ، احد فرسان العلوم الكلام ، وحملة السيوف والأقلام ، كان كاتباً مترسلاً ، كتب للمتوكل بن الألفطس ثم ليوسف بن تاشفين من بعده ، توفي سنة 520 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 753 ، ابن خاقان . المصدر نفسه . 184 ، ابن دحية . المطرب . 186 ، ابن سعيد . المصدر نفسه . 1: 367 ، العماد الإصفيهانسي . المصدر نفسه . 3: 422 ، ابن الخطيب . الإحاطة . 1: 528 .

9 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 368 .

10 - ابن خاقان . القلائد . 53 .

في حضرته الرحال ، ولزمه جملة من الشعراء كأبي عبد الله بن الحداد (1)، وأبي الفضل بن شرف (2) ، وابن عبادة القزاز (3) ، وابن الشهيد (4) ، وغيرهم (((5) .
وقد تعددت مظاهر نشاط الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، أما مظاهر نشاط الحركة العلمية ، فهي تتمثل في انتشار المجالس العلمية ، وهي نوعان :

— مجالس تعقد حلقاتها في المساجد للتدريس ، وقد غصت بها المساجد ، وكانت تدرس فيها أكثر علوم العصر ، واستأثرت علوم اللغة والشريعة معظم نشاطاتها (6) . ومن أشهر العلماء الذين تصدروا هذه المجالس : المهدهد بن الصنّاع (7) الذي أقرأ آخر دهره بجامع

1 — هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الحداد ، ولد في وادي آش ، واستوطن المرية ، ولازم بلاط المعتصم بن صمادح ، وهو شاعر ذكر له ابن الأبار ديوانا مرتبا على حروف الهجاء ، وكتابا في العروض سماه ((المستنبت)) ، توفي سنة 480 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 691 ، ابن خاقان . مطمح الأنفس . 336 ، الكتبي . فوات الوفيات . 3 : 283 ، ابن الأبار . النكلمة . 1 : 398 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 143 ، والرايات . 106 ، الصفدي . الوافي بالوفيات . 2 : 86 ، السلفي . أخبار وتراجم أندلسية . 17 ، ابن الخطيب . الإحاطة . 2 : 333 ، العماد الإصفهاني . الخريدة . 2 : 177 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 48 ، ابن الحداد الأندلسي . مقدمة الديوان . 8 - 98 .

2 — هو أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله بن شرف^أ الجذامي القيرواني ، كان شاعر وقته غير مدافع ، اتصل بالمعتصم بن صمادح أمير المرية ومدحه ، ونال لديه مكانة رفيعة حسده عليها بعض أدباء عصره ، وتوفي سنة 534 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 867 ، ابن خاقان . القلائد . 290 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 230 ، العماد الإصفهاني . الخريدة . 2 : 171 ، المقرئ . نفع الطيب . 3 : 395 ، ابن شرف . ديوان . 19 - 32 ، الزركلي . الأعلام . 7 : 10 .

3 — هو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بالقزاز ، من مشاهير الأدباء الشعراء في المرية ، في القرن الخامس الهجري ، وأكثر ما اشتهر في الموشحات ، وتوفي في حدود 500 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1 : 801 ، ابن خاقان . القلائد . 14 ، الإصفهاني . الخريدة . 2 : 182 ، ابن سعيد . المصدر نفسه . 134 ، الصفدي . الوافي بالوفيات . 3 : 189 ، السلفي . أخبار وتراجم أندلسية . 76 ، المقرئ . أزهار الرياض 2 : 252 ، ونفع الطيب : 411 ، 493 ، 610 ، 4 : 13 ، 103 .

4 — هو الوزير الكاتب أبو حفص عمر بن الشهيد ، من أئمة أدباء المرية ، وفرسان الشعر والنثر فيها ، اشتهر بمدح المعتصم بن صمادح بقصائد رائعة ، ولقبه الحميدي سنة 440 هـ . انظر ترجمته : ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1 : 670 ، 690 ، الحميدي . جذوة المقتبس . 302 ، الضبي . بغية الملتبس . 407 ، المقرئ . المصدر نفسه . 3 : 413 .

5 — ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 732 - 733 .

6 — حسين ، كريم عجيل . الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية . 217 .

7 — هو أبو بكر محمد بن إبراهيم الصنّاع ، الملقب بمهدهد ، كان من كبار المقرئين في عصره ومن المشاركين في الأدب واللغة والحفظ للأشعار والأخبار ، توفي في بلنسية سنة 508 هـ . انظر ترجمته : ابن الأبار . النكلمة 1 : 411 .

بلنسية ، وأخذ عنه جماعة كبيرة (1) . وأبو علي الصديفي (2) الذي جلس في مرسية يحدث الناس بجامعها ، ورحل الناس إليه من مختلف البلدان (3) .
— ومجالس تعقد للمناقشات والمناظرات في المسائل العلمية والفكرية وخاصة في الفقه والمذاهب ، ومنها تلك المجالس التي شهدتها بلنسية في عهد مظفر العامري ، وكانت تدور فيها المناظرات حول مذهب الإمام مالك (4) ، ومنها أيضا تلك المجالس التي شهدتها مناظرات ابن حزم مع فقهاء المالكية بالأندلس ، وخاصة مع أبي الوليد الباجي (5) .
وأما مظاهر انتشار المجالس الأدبية فإن أكثرها يعقد في بلاطات الملوك والوزراء (6) ، وقد يعقدها نبهاء الأدباء والشعراء وسط الرياض والمنتزهات (7) ، وكانت هذه المجالس ميادين يجتمع فيها الأدباء والشعراء لمدارسة مسائل الأدب، وبحث نثره ونقد شعره (8) .

لقد كانت هذه المجالس تضم الصفوة الراقية من أساطين العلماء والأدباء والشعراء لعرض ثمرات أفكارهم ، وإلقاء ما تجود به قرائحهم فيها (9) ، فكانوا قدوة جمهور الأدباء، ولذلك برع أهل الأندلس في فنون الأدب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس ، وكانت مجالسهم لذيدة ومحاضرهم فكهة (((10) .

ومما نقلته الكتب من هذه المجالس ، مجلس المعتضد بن عباد الذي كان يعقده يوم

-
- 1 - ابن الأبار . المصدر السابق . 1: 411 .
 - 2 - هو أبو علي حسين بن محمد فيرة بن حيون ابن سُكْرَةَ الصديفي ، وهو من أهل سرقسطة ، سكن مرسية ، رحل إلى المشرق ثم عاد واستوطن مرسية ، كان فاضلا دينا عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، مات سنة 514 هـ . انظر ترجمته : ابن بشكوال . الصلة . 144 ، المقري . نفح الطيب . 2: 90 .
 - 3 - المقري . المصدر نفسه . 2: 90 .
 - 4 - الذهبي . سير النبلاء ، جزء خاص بترجمة الإمام ابن حزم الأندلسي . 29 .
 - 5 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2: 96 .
 - 6 - انظر ابن خاقان . القلائد . 44 ، 49 ، ابن دحية . المطرب . 36 ، المقري . نفح الطيب . 3: 243 ، 265 ، 4: 260 - 261 .
 - 7 - أنظر : ابن خاقان . المصدر نفسه . 150 ، المقري . المصدر نفسه . 1: 638 ، 657 - 659 ، 667 - 669 .
 - 8 - محمد عيسى ، عبد العزيز . تاريخ الأدب الأندلسي . 199 .
 - 9 - الكيلاني ، كامل . نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي . 319 .
 - 10 - ضيف ، أحمد . بلاغة العرب في الأندلس . 22 .

الإثنين من كل أسبوع (1) ، وللمعتصم بن صمادح مجلس بقصره كان يعقده كل يوم ((جمعة للفقهاء والخواص ، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث ، ولزم حضرته فحول من الشعراء)) (2) .

لم يتوقف عقد مثل هذه المجالس الأدبية في الأندلس على الرجال ، بل هناك من النساء من عقدتها ، فهذه ولادة (3) بنت المستكفي بالله ، التي ((فتحت أبواب قصرها للأدباء والشعراء ورجال الفكر فصار (صالونا) أدبيا)) (4) ، يقبل عليه الشعراء والكتاب ((فكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لحياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتْها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها)) (5) .

وفي نفع الطيب يورد المقرئ نصين لابن بشكوال وابن سعيد يتحدثان فيهما عن ولادة ، يقول ابن بشكوال : ((كانت أديبة ، شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء)) (6) .

وأما ابن سعيد ، فيقول : ((وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها)) (7) .

كانت هذه المجالس العلمية والأدبية سمة العصر لكثرتها ، ولم يسبق لها مثل — إضافة لما تقدم — لبقية ملوك الطوائف ، والمولعين بها كولاية ، فمارسوا هذا النشاط ، وسعى كل ملك إلى استقطاب أكبر عدد من العلماء والأدباء والشعراء .

1 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 243 - 244 .

2 - ابن الأبار . الحلة السيرة . 2 : 82 .

3 - هي ولادة بنت تامستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، شترة أديبة لها مجلس أدبي يغشاه الشعراء ومنهم الشاعر ابن زيدون . أنظر ترجمتها : ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 829 ، الضبي . بغية الملتبس . ابن بشكوال . الصلة . 696 ، ابن دحية . المطرب . 7 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 205 ، الكتيبي . فوات الوفيات . 4 : 532 ، والكتبي يجعل وفاة ولادة بعد الخمسمائة ، ويرجح رأي ابن بشكوال والضبي ، ويؤيد ذلك المقرئ أيضا ، بوفلاقة ، سعد . الشعر النسوي في الأندلس . 81 - 113 .

4 - بوفلاقة ، سعد . المرجع نفسه . 83 .

5 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 429 .

6 المقرئ . نفع الطيب . 4 : 207 .

7 - المقرئ . المصدر نفسه . 4 : 208 .

ومن هذه المظاهر أيضا انتشار الشعر على ألسنة كثير من أهل الأندلس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية ، حتى شمل الصانع الفلاحين والتجار والنساء والحواري ، ومما يدل على ذلك ما يرويه ياقوت الحموي عن أهل شلب : ((قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ، ولا يعاني أدبا ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأي معنى طلبت منه)) (1) .

ومن مظاهر نشاط الحركة الأدبية نبوغ أسر كاملة في الأدب والشعر ؛ فقد شاع الشعر والنثر بين عدد من أفراد الأسرة الواحدة كأسرة بني عباد (2) ، وأسرة بني صمادح (3) التي كانت ((بيت العلوم والفائقة والآداب الرائقة)) (4) . وكان بنو الطيبي (5) بين أدب وشعر (6) ، وكان بنو القبطرنة (7) عيوننا من عيون الأدب الأندلسي (8) .

-
- 1 - ياقوت الحموي . معجم البلدان . 3: 357 - 358 .
 - 2 - بنو عباد ممن اشتهر بقول الشعر محمد بن إسماعيل ، وعباد بن محمد المعتضد ، وابنه محمد بن عباد المعتمد ، وولده الراضي ، وشرف الدولة ، وابنته بثينة ، وزوجته إعتد . انظر : ابن خاقان . القلائد . 4 - 35 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 13 ، 23 ، 41 ، ابن الأبار . الحلة السرياء . 2: 34 - 76 ، المقرئ . نفع الطيب . 4: 211 ، 284 .
 - 3 - بنو صمادح منهم : المعتصم بالله ، وأبناؤه أبو مروان عز الدولة ، ورفيع الدولة ، وأم الكرام . انظر : ابن خاقان . المصدر نفسه . 53 - 57 ، ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1 : 729 - 737 ، ابن الأبار . الحلة السرياء . 2: 78 - 96 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 195 - 203 ، ابن دحية . المطرب . 34 .
 - 4 - ابن دحية . المطرب . 34 .
 - 5 - نسبة لطبنة ؛ وهي أعظم بلاد الزاب بينها وبين لمسيلة مرحلتان ، ومن لمسيلة إلى مَقْرَة ومن مَقْرَة إلى طبنة مرحلة ، وهي مما افتتح موسى بن نصير حين دخل بلاد إفريقية ، ولم يكن ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها ، وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير ، والتمر بما كثير وكذلك سائر الفواكه . انظر : الحميري . السروض المعطار . 387 ، الإدريسي . القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، (من كتاب نزهة المشتاق) . 164 .
 - 6 - بنو الطيبي أصلهم من طبنة ، قاعدة الزاب ، ومنهم : محمد بن يحيى بن أبي مضر الطيبي ، وصف بلأدب والشعر ، وكان ممن يجالس أبا الحزم بن جهور ، وابنة أبا الوليد . وأبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطيبي ، ولد سنة 396 هـ ، وهو من أهل الأدب والحديث وإمام اللغة ، وتوفي سنة 457 هـ . وأبو الحسن علي بن عبد العزيز أبي زيادة الله الطيبي ، وصف بأنه أشعر بني طبنة . انظر نزاجم الثلاثة : ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 535 - 548 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 92 - 93 .
 - 7 - بنو القبطرنة : ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطرنة ، وهم أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطلوسى - السابق الذكر - وأبو محمد طلحة بن سعيد البطلوسى ، الذي كان أحد الأدباء الأذكاء ، في القرن الخامس الهجري ، توفي قبل سنة 520 هـ . وأبو الحسن محمد ابن سعيد البطلوسى ، الذي كان كاتباً للمتوكل بن الأقطس . انظر نزاجم الثلاثة : ابن خاقان . القلائد . 148 ، ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 735 - 773 ، ابن سعيد . المصدر نفسه . 1: 367 ، ابن الخطيب . الإحاطة . 1: 528 .
 - 8 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 1: 528 .

ومن هذه المظاهر أيضا تميز الأندلسيون في فن الموشحات ، وإليهم يرجع اكتشافه ، كما أشار ابن بسام ، بقوله: ((وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها)) (1) ، هذا الاكتشاف للموشحات يرجع إلى أواخر القرن الثالث الهجري ، وشهدت إقبال الشعراء عليها في القرن الرابع الهجري (2) ، ونبع الأندلسيون فيها ، في هذا القرن ، ابن عبادة القزاز (3) ، شاعر المعتصم بن صمادح ، الذي يعد أول من برع في هذا الفن ، وزعموا أنه لم يسبقه وشاح من معاصريه الذين كانوا زمن ملوك الطوائف (4) .

ومن اشتهر من الوشاحين في هذا القرن: ابن اللبانة (5) ، وابن رافع رأسه (6) ، والكميت البطليوسي (7) ، والجزار السرقسطي (8) ، وابن الأبييض (9) .
إن الأدب ، في القرن الخامس الهجري ، كان انعكاسا للبيئة الأندلسية بكل أبعادها

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 469 .

2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1: 468 - 470 ، 2/1: 801 - 802 ، ابن خلدون . المقدمة . 593 - 594 .

3 - انظر موشحاته : ابن سناء الملك . دار الطراز في عمل الموشحات . 70 ، 81 ، 88 ، 93 ، 97 ، الصفدي . توشيح التوشيح .

113 ، ستيرن ، صمويل م . الموشح الأندلسي . 186 - 198 .

4 - ابن خلدون . المقدمة . 594 .

5 - انظر موشحاته : ابن سناء الملك . دار الطراز . 68 ، 73 ، 75 ، 76 ، وابن الخطيب . جيش التوشيح . 59 - 72 ، ستيرن ،

صمويل م . الموشح الأندلسي . 175 - 186 .

6 - ابو عبد الله بن محمد بن رافع رأسه ، ويقال ابن أرفع رأسه ، من أهل طليطلة ، اتصل بأمرها المأمون بن ذي النون ومدحه ،

وكانت له موشحات مشهورة يغني بها في بلاد المغرب . انظر ترجمته وموشحاته : ابن سعيد . المغرب . 2: 18 ، ابن خلدون . المقدمة .

594 ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه . جيش التوشيح . 83 - 85 ، الصفدي . توشيح التوشيح . 204 .

7 - هو أبو بكر محمد بن الحسن المشهور بالكميت البطليوسي ، شاعر أديب كان من شعراء عماد الولة أبي جعفر المستعين بن هود

بسرقسطة . انظر ترجمته وموشحاته : الحميدي . جذوة المقتبس . 334 ، الضبي . بغية الملتبس . 452 ، ابن سعيد . المصدر نفسه . 1:

370 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 86 ، الصفدي . توشيح التوشيح . 204 ، ستيرن ، صمويل م . المشح الأندلسي . 201 .

8 - هو أبو بكر يحيى الجزار السرقسطي ، كان في دكان يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه ، وله أشعار مدح بها ملوك بني

هود ووزرائهم ، ثم ترك الأدب والشعر واعتكف على القصابة ، وأمر المقتدر بن هود وزيره أن يوجه على ذلك . انظر ترجمته

وموشحاته : ابن بسام . الذخيرة . 2/3: 905 ، ابن سعيد . المصدر نفسه . 2: 444 - 445 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 147 ،

الصفدي . المصدر نفسه . 212 ، المقرئ . نفع الطيب . 3: 609 ، ستيرن ، صمويل م . الموشح الأندلسي . 201 .

9 - هو أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بابن الأبييض ، من فحول الأندلس ، أصله من هم1ان ، وتأدب بإشبيلية وقرطبة ،

وكان وشاحا مشهورا ، وتوفي بعد سنة 525 هـ . انظر ترجمته وموشحاته : صفوان بن إدريسي . زاد المسافر . 108 ، ابن دحية .

المطرب . 81 ، ابن سعيد . المصدر نفسه . 2: 127 - 128 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 48 - 58 ، ابن خلدون . المقدمة .

593 .

الطبيعية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، فقد أجاد الأندلسيون في فنون الطبيعة والغزل والموشحات إلى جانب فنون أخرى كان لقيام دول الطوائف والتنافس فيما بينها أثر كبير في ازدهارها ، ومنها المديح والاعتذار والفخر والهجاء السياسي ، وشعر السجن وما تبع ذلك من رثاء المدن ودول الطوائف والتفجع عليها بعدما نهارت وذهب ملوكها ، كذلك ما انعكس في الأدب من أحداث شهدها الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، تتمثل في اتقسام الأمة واختلاف كلمتها ، وسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى في يد النصارى ، فظهر أدب النكبات (1) — شعرا ونثرا — يبكي الأمة ومدنها المتساقطة ، ويدعو إلى استشارة المهتم للالتئام والوحدة ، وينبه على مواطن الخطر المحدقة بالأمة .
ويعد أدب النكبات أو ما يطلق عليه أدب المحنة في الأندلس (2) ، الذي يبكي فيه الشعراء سقوط بعض الممالك في يد النصارى والحث على الجهاد ، يعد من موضوعات الشعر السياسي كما سيأتي .

1 — انظر: عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والكرابطين . 178 — 188 ، ابن سلامة ، الربيعي . أدب المحنة في الأندلس .

2 انظر تفاصيل ذلك : ابن سلامة ، الربيعي . أدب المحنة الإسلامية في الأندلس . 1 — 16 .

الشعر السياسي

تمهيد

ما مفهوم الشعر السياسي ؟ وما مضامينه ؟ وما علاقته ببيئته السياسية ، وما دوره فيها ؟

لعل أقرب تعريف للسياسة هو أنها: فن التدبير أو الرياسة ، أو طريقة الحكم وأشكاله في قطر من الأقطار (1) .

وما من شك في أن الأدب يتأثر بالأحوال السياسية ، وينفعل بها ، لأنه صورة المجتمع ومرآة البيئة (2) ، والأديب صاحب موهبة فنية يدركها طبع مرهف ، واستعداد فطري ، وذكاء متقد ، ومن العبث محاولة تجريده وعزله عن التأثر بما يعيشه مجتمعه ، ذلك لأن الأديب في أصدق صفاته يمثل الإحساس الصادق للمجتمع في رضاه أو سخطه ، وفي استكانته ، أو ثورته من خلال الأحداث السياسية المختلفة(3).

ويحدد الدارسون نوع العلاقة بين الأدب والسياسة في تعريفات ، يقول أحمد الحوفي : الأدب السياسي ، أو أدب السياسة ، فن القول — شعرا أو كتابة وخطابة وحوارا — الذي يتعاطى شؤون الحكم تأييدا أو تفنيدا ، أو يتناول علاقة الأمة بغيرها في سلم أو حرب (3) .

وقد قدرت الحكومات الإسلامية في شتى العصور مدى سطوة الشعر على النفوس وخاصة ما للجانب المعارض فيه من أثر في إثارة الشعوب ، فحركها الخوف على امتيازاتها في أغلب الأحيان إلى الملاحقة والاعتقال . والقرن الخامس في الأندلس شاهد على أمثلة كثيرة مؤسسية ، لأن ملوك ذلك العصر نظروا له من واقع أخطائهم السياسية المتراكمة فعدوه هجاء ومجازة للحد ، وذلك في محاولة لإيجاد مبرر لاضطهاد الشعراء .

وهذا ما يشير إليه شوقي ضيف : ((وقد يمتد الهجاء إلى الخلفاء والحكام

1 - الشباب ، أحمد . تاريخ الشعر السياسي . إلى منتصف القرن الثاني . 1 ، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية مادة (ساس) .

2 - التونجي ، محمد . المعجم المفصل في الأدب . 48 .

3 - انظر : عبد النور . جبور . المعجم الأدبي . 10 - 11 .

3 - الحوفي ، أحمد . أدب السياسة في العصر الأموي . 8 .

والوزراء ، وهو حينئذ يريد أن يعدل بهم إلى السبيل القويم من الأخلاق الفردية والاجتماعية ومن سياسة الأمة سياسة رشيدة ، ففي الظاهر هجاء ، وفي الحقيقة إصلاح وتهذيب وتقويم لكل إعوجاج في المجتمع سواء اتصل بالفرد أو اتصل بالجماعة وهو لذلك في حاجة إلى أن يدرس كوثيقة اجتماعية وسياسية (((1) .

ويحدد (كارلونيانو) دور الشعر السياسي في فهم أحوال المجتمع الواقع تحت نير الأحداث السياسية الخطيرة ، في قوله : ((إن الشعر من هذا الصنف ، ذو شأن خطير سواء لقيمته الأدبية أم لما يستفيده منه من أراد البحث العميق المنصف ، لا يخفى عليكم أن القدماء الذين صنفوا الكتب في التاريخ والسير قلما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية والأغراض العاملة في الحوادث ، وإنما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلبات والوقائع والحروب ، ومن دون الإفادة عن أسبابها الباطنية الخفية مثل آراء طبقات الناس ، وأهوائهم وميوهم ومصالحهم)) (2)

فنحن بواسطة التاريخ لانملك إدراك عوامل التماسك أو الاختلال في بناء الدول ، ولكننا بالأدب وحده نستطيع القبض على انفعالات المجتمع وحركة حياته ، لأن الأدب يضيف للتاريخ أبعادا عميقة لفهم أحوال المجتمع ، وهذا ما قصده (لانسون وماييه) في قولهما : ((ولكن التاريخ يستطيع أن يفصل عنا حساسيتنا الفتية أو على الأقل يخضعها لحكم الصور نكوفها عن الماضي أي اننا نأخذ أنفسنا بأن نحس تاريخيا فنقيم سلم القيم لاتبعا لميولنا الخاصة ، بل وفقا لقوة ودقة ما أمكن التعبير عنه)) (3)، ويضيفان ((أما الأدب فيكمل هيئة الصورة الاجتماعية ، إذ يعبر عن كل ما لم يمكن تحقيقه من حسرة وقلق وآمال للرجال ، وهو بهذا لا يزال تعبيرا عن الهيئة الاجتماعية ، بل يمتد إلى ما لم يوجد بالفعل ، إلى الخفايا التي لاتفصح عنها الوقائع ولا وثائق التاريخ)) (4) .

فالفرق واضح بين التناولين التاريخي والإدبي للأحداث السياسية المضطربة ، فالتاريخ يتناولها بمنهج الذهني المقارن وبأسلوبه الثري ، ولكن الشعر يخالف التاريخ

1 - ضيف ، شوقي . فصول في الشعر والنقد . 20 .

2 - كارلونيانو . تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية . 228 .

4 - مندور ، محمد . النقد المنهجي عند العرب . 405 .

4 - مندور ، محمد . المرجع نفسه . 413 .

في المنهج والأسلوب ، فهو لايهتم بالمقارنة ، ولا بالانتظار ، بل يضع المشكلة تحت العين مباشرة ، وفوق فوهة بركان نائر بالعواطف المشبوبة فيهز المجتمع هذا عنيفا ، ويخرجه من خموله وحيرته . يقول أحمد أمين : ((وليست وظيفة الأدب أن يعلم الحقائق المعروفة وإنما وظيفته أن ينتفع بالحقائق المعروفة ويهيج بها عواطف الناس ويجعلهم يشعرون بها أكثر مما كانوا يشعرون)) (1) .

وينبغي أن نلاحظ أن تناول الشعر للسياسة يختلف عن تناول النثر لها ، فالشعر كفن من الفنون الإبداعية يتناول الأحوال السياسية بطريقته الفنية التصويرية التي لاتعتمد الجدل ولا تلتزم بالبراهين ، ولا تعنى بالفصيلات الدقيقة ، وإنما يلجا إلى الخيال الذي يرسم الصور الملائمة للإجلال أو الاحتقار ، وما إلى ذلك من موضوعات السياسة ، وقد يلجأ أحيانا إلى البراهين الخطابية المؤثرة ، وأما النثر السياسي فإنه يعتمد على البراهين المنطقية الصريحة والجدل الدقيق ذاهبا إلى ذلك مذهبا علميا (2).

ومهما يكن من شيء فإن الشعر السياسي يتناول موضوعاته في تoux للسهولة واليسر مستهدفا فهم الجماهير له ، وتأثرهم به ، وذيوعه بينهم ، فهو يعد في جملته شعر صادق العاطفة قريب المعني ، وسهل الأسلوب من شعر الفنون الأخرى بصفة عامة ، كما سيتضح فيما بعد .

والشعر السياسي قديم قدم الأدب العربي ، ففي الجاهلية كان مصطبغا بالصبغة القبلية، وقد كانت القبيلة أشبه بالدولة الصغيرة تربطها روابط الجنس واللغة والثقافة المشتركة ووحدة الإقليم ، ووحدة المصالح والأهداف والآمال والآلام والمشاعر ، وكان هناك بين القبائل علاقات الحلف والولاء والجوار ونحو ذلك من العلاقات السياسية ، وبذلك يمكن أن نعد الشعر الذي يعبر عن مصالح القبيلة والدفاع عنها ومواجهة خصومها شعرا سياسيا .

فلما جاء الإسلام كون مجتمعا متماسكا تربطه روابط الأخوة والدين ، إلى جانب الروابط السابقة ، فهو مجتمع لايقوم على نظام القبيلة ، وإنما هو مجتمع متماسك يقوم على

1 - أمين ، أحمد . النقد الأدبي . 48 .

2 - انظر : الشايب ، أحمد . الشعر السياسي . 5 .

الإخاء البشري ، فهو مجتمع سياسي يشكل دولة قوية تجمع المسلمين جميعا من شتى الألوان والأجناس .

ولقد اتسعت هذه الدولة شرقا وغربا ، ومارست كل شؤون السياسة ، من حكم و دفاع وقضاء وتعليم واقتصاد وغيرها من ممارسات الدول المتحضرة ، داخليا وخارجيا ، والإسلام دين وسياسة .

وفي العصر الأموي ظهرت الأحزاب السياسية المتصارعة ، التي كان من نتائجها ذلك الكم من الشعر السياسي الذي يمثل كل الاتجاهات ، ومبادئها وصراعتها .
هكذا واصل الشعر السياسي طريقه على مر العصور مواكبا ما جد من شؤون الحكم ، داخليا وخارجيا ، وتقلبات الدول في المشرق والأندلس .

تقدم الحديث في الأندلس عن الجانب السياسي المضطرب ، والاجتماعي المتعدد العناصر المتصارعة، والحركة العلمية والأدبية المزدهرة ، في القرن الخامس الهجري ، الذي انعكست فيه المواقف السياسية المخبطة للآمال والتي دفعت الشعراء إلى التعبير عنها في غضب ثائر وحنين بالغ واستعطاف ذليل أو رثاء حزين ، فمازالت تلك الاتجاهات الشعرية حتى يومنا هذا تدفع إلى النفوس شتى العواطف المحتدمة ، وتحرك في قرارة الوجدان منا أحزان الماضي ، وتدفع في ذواتنا تقلبات المصائر وقسوة المعاناة التي عاشوها ، لأن تجربة الشاعر في ثورته أو نكبته وفي رثائه أو استعطافه قد فجرها من نفسية ساخطة مكلومة ، وهذا ما يشير إليه علي أدهم في قوله : ((وتلزم الإشارة إلى مسألة لها أهميتها البالغة ، وهي الحالة النفسية التي تلم بالشاعر حينما ينظم القصيدة)) (1) .

أما الحياة الاجتماعية ، في هذا القرن، فلقد طبعت على العموم — كما تقدم — بطابع القلق المضني والضنك المتصل ، وذلك بفعل الحروب المستعرة ، في عهد الفتنة وبين ملوك تلك الممالك ، وأيضا لما كابدته الجماهير من غارات ملوك النصرارى الشرسة .

ويصور دور الأدب في ذلك العهد احمد مكي بقوله : ((كان أدب انعكاسا صادقا لحياة أهله بكل ما فيها من تناقضات ، الأبيقوريون يعبون ما تتيحه لهم الفرص ،

ثراء عاجلا ، و حياة صاحبة يشربون و يطربون و على الدنيا الصفاء ، و يعبرون عن أحاسيسهم في شعر فاجر و أدب داعر غزلا بالمذكر ، أو تجاهرا بالمعاصي أو دعوة إلى التحلل ، و الجادون في دروب الحياة يضيفون بما حولهم ، عميت عليهم المسالك و ضاقت بهم الحيلة ، يرون المدى البعيد مجتمعاً ينحدر نحو الهاوية لا يكاد يتبين النهاية ، اغشته الحياة فهو لا يبصر ما حوله ، و يعبرون عن ذلك في أدب ممرور تارة ، و تائر تارة أخرى ، و أحيانا تنفجر على شبة أعلامهم فلسفة تحاول أن ترن الحياة و تستخرج منها مكامن العظة و تقنن في تطورها عل في عملهم ما يوقظ غافلا و يهدي صالحا)) (1)

و يشمل كذلك رثاء الساسة و بكاء المدن و الممالك و ما إلى ذلك من كل ما ينجم عن الحياة السياسية اضطباها و تقلباتها .

كل هذه الموضوعات أبرز مظاهرها الشعر السياسي الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري ، و هذا ما سيتناول بالدراسة و التفصيل و التحليل في هذا البحث المتواضع .

1 - مكي ، الطاهر أحمد . دراسة في مصادر اللغة و الأدب . 75 .

الفصل الأول

الهجاء السياسي :

لعل موضوعات الهجاء البارزة ، في القرن الخامس الهجري ، وجود الهجاء السياسي والاجتماعي ، ولكننا سنركز على الهجاء السياسي ، اعتمادا على القصائد والمقطوعات التي عثرنا عليها في المصادر التاريخية والأدبية التي اهتمت بالشعر ونثره .

ويعرف فوزي عيسى الشعر السياسي بقوله : ((الهجاء السياسي هو كل ما يتصل بشؤون الحكم وأمور السياسة وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزن أو الدين)) (1) .

بهذا التعريف للهجاء واستقراء للقصائد والمقطوعات الشعرية التي تتصل بهذا الفن ، يتضح لنا أنه هو أكثر الاتجاهات رواجاً في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، وقد تباينت صورته إذ توزعت بين هجاء الخلفاء والحجاب والوزراء والقضاة والعناصر البشرية المكونة للمجتمع الأندلسي .

والملاحظ أن أغلب النصوص الشعرية لاتنسب إلى قائل بعينه ، وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام بصفة عامة .

ورغم تشدد الحكام تجاه شعراء الهجاء السياسي ، إلى أنه لم يؤدي إلى تكميم أفواههم أو إسكات ألسنتهم عن المجاهرة عن مساوئهم ومثالبهم ، فعبروا عن ضيقهم بهم ، وكسفوا عن أوجه الفساد في سياستهم ، وتشبهتهم بكرسي الحكم على حساب مصالح الرعية .

وفي القرن الخامس نجد بعض شعرائه قد هاجموا سياسة حكام الفتنة وملوك الطوائف وانتقدوا تصرفاتهم ، فكان الهجاء السياسي — كما سبق — من الموضوعات التي برزت في هذا القرن ، وكان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع وترديه ، كما تقدم في الحياة السياسية .

ووضع كهذا من شأنه أن يثير بعض الشعراء ، وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرم المتبرمين (2) ومن ذلك قول بعضهم فالخلفاء وملوك الطوائف كما سيأتي .

1 - عيسى ، فوزي سعد . الهجاء في الأدب الأندلسي . 37 .

2 - هيكل ، أحمد . الأدب الأندلسي . 280 .

هجاء الخلفاء وملوك الطوائف :

شاع هذا اللون من الهجاء في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، فمن ذلك ما وجهه الشعراء من نقد للخليفة المهدي (1) الذي أظهر من الخلاعة والفسق ما حدا بالشعراء إلى هجائه (2):

أمير الناس سخنة كل عين	بيت الليل بين محتشين
يجشم ذا ويلثم خد ذا	ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خِلافتهم سفيها	ضعيف العقل شينا غير زين

ويشير ابن عذارى إلى أن المهدي كان أكثر خلفاء بني أمية عرضة لهجاء الشعراء وانتقادا لتصرفاته ، فيقول: ((وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به)) (3) .

ومما قيل فيه أيضا (4) :

أشأم خلق على العباد	والناس من حاضر ومن باد
أبو الوليد الذي اقشعرت	لنحسه شعرة البلاد
كان على قومه جميعا	مزار عاد لقوم عاد

ويُرى أن اختلال الأوضاع السياسية كان من أكبر العوامل التي وجهت الشعراء إلى هجاء ملوك الطوائف ، فقد غضب الشعراء لما أصاب الأندلس من تفكك وانحلال — كما تقدم — فكان لهم الشعر بالمرصاد ، ((يفضح تصرفاتهم ويكشف زيفهم وخداعهم)) (5)، ومما يدل على شيوع الهجاء السياسي ، في عهد الطوائف ، أن أحدا من الحكام لم يسلم من هجاء الشعراء ، حتى بني عباد ملوك إشبيلية الذين شجعوا الشعراء والأدباء ، فقد قيل في نقدهم الشعر الكثير ، وإلى جانب الدوافع السياسية ، هناك جانب من هجاء الشعراء

1 انظر هذا البحث في شعر في هجائه . 21 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 80 .

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 80 .

4 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3: 80 .

5 - عيسى ، فوزي سعد . الهجاء في الأدب الأندلسي . 47 .

للحكام قبيل لدوافع ذاتية ، كقول أجعفر بن إبراهيم اللورقي (1) الذي ارتحل إلى اشبيلية للظفر بعطاء بني عباد ولكنه لم يظفر منهم بطائل فهجاهم بقوله (2) :

تَعَزَّ عن الدُّنيا ومعروف أهلها إذا عُدِمَ المعروف في آل عباد
حَلَلْتُ بهم ضيفا ثلاثة أشهر بغيرِ قَرى ثم ارتحلتُ بلا زاد

ومن هذا القبيل نجد الحصري (3) يعرض بهم عندما أرسل غلامه — لما كان مقيما

في طنجة — يبغى عطاء المعتمد صاحب إشبيلية ، واسمها في بلادهم حمص فلم يجبه (4) :

نَبَّهَ الركبَ المُجوعا ولم الدهرَ الفَجُوعا
حِمَصُ الجنَّةِ قالت لغلامي لا رُجوعا
رحم الله غلامي مات في الجنة جوعا

ويعرض ابن شرف القيرواني بالمعتضد بن عباد ، ويندد بما قيل عن بطشه بكثير من

وزرائه وندمائيه حتى لقد خاف أن يفد إليه لئلا يتعرض لما تعرض له غيره

من مصير مؤلم ، فيقول في أسلوب لاذع (5):

أَنَّ تصيَّدتَ غيري صيد طائرةٍ أوسعتَّها الحبَّ حتى ضمها القفصُ
حسبتي فرصةً أخرى ظفرتَ بها هيهات ما كلَّ حين تُمكنُ الفرصُ
لك الموائدُ للقُصَّاد مُترعةً تُروي وتُشبعُ لكنْ بعدها غصصُ
ولستُ أعجب من قوم بها انتشبا لكنما عجي من معشر خلَّصوا
ولم يطبَّ قطُّ لي مَنْ يلدُّ ولا سلوى إذا كان في عُقباهما مَعَص
ولم يقف الشعراء في هجائهم لبني عباد عند هذا الجانب من هجائهم بل اقتصروا من

1 - هو أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي أنظر : ابن خاقان . قلاند العقيان . 158 ، المقرئ . نفع الطيب . 4 : 226 ، ابن دحية . المطرب . 177 .

2 - المقرئ . المصدر نفسه . 4 : 226 .

3 - هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرب الحصري القيرواني الشاعر ، خرج من القيروان بعد خرابه في منتصف المئة الخامسة للهجرة ، وأقرأ الناس بسبته ، وله ديوان شعر . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 296 ، ابن بشكوال . الصلة . ابن خلكان . وفيات الأعيان . 3 : 331 - 334 .

4 - خلكان . وفيات الأعيان . 3 : 333 .

5 - ابن شرف القيرواني . ديوان . 68 - 69 . ابن بسام . المصدر نفسه . 1/4 : 182 .

نقد سياستهم ووصفهم بالجور الطغيان ، ويبدو أن المعتضد بن عباد كانت أكثر تعرضا لهجاء الشعراء ، فهذ ابن زيدون يعبر عن شماتته عندما نعاه الناعي ويصفه بالطاغية (1) :

لقد سرنا أن النعي موكل بطاغية قد حم منه حمام
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى ومر عليه البرق وهو جهام

لكن مثل هذا الهجاء بعيد عما يعرف عن الشاعر ، فابن زيدون لايهجو إنسانا ميتا ، لأن علاقته مع المعتضد بن عباد استمرت على طيبها ، وهو يعلم أن ابنه المعتمد متول الحكم بعده ، وأن منزلته ومركزه عند المعتمد قد يفوق ما كان يتمتع به من منزلة ومكانة لدي والده . قد يكون هذان البيتان من وضع حساد ابن زيدون وأعدائه ، في رأي محمد مجيد السعيد (2) .

ومما ينسب لابن رشيق القيرواني (3) في هجاء بني عباد وذلك في تمافتهم على ألقاب خلفاء بني العباس فكان منهم المعتضد والمعتمد ، قوله (4):

مما يزهدي في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
القباب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

وتعد قصيدة الهجاء المنسوبة إلى ابن عمار أطول ما وصلنا في هجاء بني عباد وأكثرها إقذاعا وإسفافا والذي يجعل محمد مجيد السعيد يشك في نسبتها إليه أمور كثيرة، منها ما تقدم الحديث عن ابن زيدون ، مع حساده وأعدائه ، ولا يستبعد صدور هذه القصيدة عنهم ونسبتها لابن عمار لأجل الإيقاع بين الملك ووزيره (5).

ثم إن ابن بسام حين ثبت القصيدة ، قال : ((نسب شعر كثير إلى ابن عمار ، فيه

1 - ابن زيدون . ديوان . 286 .

2 - السعيد ، محمد مجيد . الشعر في ظل بني عباد . 199 .

3 - هو أبو علي بن الحسن بن رشيق ، ولد بالمحمدية أو لمسيلة في سنة 390 هـ وانتقل إلى القيروان سنة 406 هـ ، وتلمذ هناك لأكابر العلماء في الفقه والأدب والبلاغة ، ثم رحل إلى المهدية ثم إلى صقلية وبها توفي سنة 463 هـ . لابن رشيق ديوان شعري حققه عبد الرحمن ياغسي . بيروت ، والعمدة . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/4 : 597 ، ابن العماد الإصفيهاني . الخريدة . 2 : 230 ، ياقوت الحمي ، معجم البلدان . 8 : 110 ، المقرئ . فتح الطيب . 1 : 413 .

4 - المقرئ . المصدر نفسه . 1 : 213 ، 4 : 255 ، ابن الخطيب . اعمال الأعلام . 144 . وهذا الأخير ذكر الأبيات دون نسبتها لشاعر ، ابن بسام . المصدر نفسه . 1/4 : 172 ، وهو يذكر الشطر الأول من البيت الأول : مما يغضني

5 - السعيد ، محمد مجيد . الشعر في ظل بني عباد . 199 .

قدح في المعتمد وآله وذويه وعياله (1) ، وفيها يقول (2) :

ألا حيّ بالغرب حيا جلالا أناحوا جمالا وحازوا جمالا
وعرّج بيومين أمّ القرى ونمّ فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم ترى للتدنار فيها اشتعالا
أيافارس الخيل يا زيدها حميت الحمى وأبجت العيالا
أراك تُورّي بحب النساء وقما عهدك تهوى الرجالا
تخيّرتها من بنات الجهان رُميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع لئيم التّجارين عما وخالا
بصُفر الوجوه كأن استّها رماهم فجاءوا حيارى كسالى
قصارُ القدود ولكنهم أقاموا عليها قرونا طوالا
أتذكر أيامنا في الصبا أنت إذا لحت كنت الهلالا
أعانقُ منك القضيّب الرطيبَ وأرشفُ من فيك ماء زلالا
وأقتعُ منك بدون الحرام فُتقسم جهدك أن لا حاللا
سأكشفُ عرضك شيئا فشيئا وأهتكُ سترك حالا فحالا

فالباحث يؤكّد عدم صحة نسبتها ، اعتمادا على رواية ابن بسام ، لابن عمار الذي كان له حساد ومنافسون كثيرون لا يستبعد صدورها عنهم ، ويرجح أن تكون هذه الأبيات ((نظمت بتحريض من ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود الذي هجاه قبل هذا)) (3) ، ويبيّن تشككه أيضا على ((أن الأفكار والمعاني التي تقوم عليها القصيدة من فحش بذيء وإفذاء مقزز ، وتشهير شنيع ، لاتسمح بنسبتها إليه ، مهما تصاعد الحقد والكراهية بينهما ، بالإضافة إلى عدم انسحامها مع أفكاره ومعانيه ، لكنه حتى في هجائه لابن عبد العزيز وهو من أشد أعدائه لم يقذع ، ولم يصل إلى ما وصل إليه

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 414 .

2 - ابن عمار ديوان . 88 - 89 .

3 - السعيد ، محمد مجيد . الشعر في ظل بني عباد . 199 .

في هجائه لصديقه الحميم المعتمد من إسفاف وانحطاط (((1) .

وهناك ما يؤكد نسبة هذه القصيدة إليه ، ذلك أنه لما استقل ابن عمار بمرسية ولم ييال بعتاب المعتمد ولومه له ، واكتفى بالمراوغة (2) ، فانزعج ابن عبد العزيز صاحب بلنسية من سلوك ابن عمار وتوقع منه شرا ، فحاول أن يزيد من تعميق الهوة بين الملك ووزيره ، باعتبار أن ذلك يعد أنجع طريقة للتخلص منه ، وقد تحصل ابن عبد العزيز على بعض أبيات من القصيد قالها ابن عمار في تهديده منها (3) :

كيف التفلت بالخديجة من يدي رجل الحقيقة من بني عمار

فأوصلها للمعتمد وغضب على وزيره لأن ابن عبد العزيز كان صديقا له ، واكتفى

بأن ذيل هذا البيت ساخرا من أصل ابن عمار الوضيع ومستهنئا من أمه ، بقوله (4):

تبكي عليهم شنبوس (5) بعبرة كأتيتها المتدافع التيار

باشمس (6) ذاك القصر كيف تخلصت فيه إليك طوارق الأقدار

ولما بلغت الأبيات إلى ابن عبد العزيز سر بها ، وأرسلها لابن عمار ((ودس

إلى مرسية نبلا من الشرق ، لابس ابن عمار حتى اطمأن إليه وأحله محل الرواية لأشعاره

في هجاء ابن عباد)) (7) ، في قوله يرد على هجاء المعتمد له ويهجو زوجته إعتقاد .

ويقول صاحب الخريدة إن هذه القصيدة في هجاء المعتمد وذكر فيها أم بنيه كانت

من أقوى الأسباب التي جعلت المعتمد بن عباد يقتل ابن عمار (8) .

ويؤكد إحسان عباس نسبة هذه القصيدة لابن عمار الذي عاش في هذا المجتمع الذي

يخضع للمصالح والأهواء ، يقول: ((وفي هذا الجو المتقلب المتموج ، برزت شخصية الرجل

1 - السعيد ، محمد محيد . المرجع نفسه . 200 .

2 - ورد في هذا العتاب بيتين من الشعر للمعتمد وجواب ابن عمار عنه . ابن عمار . شعره . 35 - 36 .

3 - ابن عمار الأندلسي . شعره . 74 .

4 - المعتمد . ديوان . 142 .

5 - شنبوس : قرية بمدينة شلب كانت مقرا لسلف ابن عمار . ابن الأبار . الحلة السرياء . 2 : 157 .

6 - شمس : اسم لأم ابن عمار . ابن الأبار . المصدر نفسه . 2 : 157 .

7 - ابن الأبار . المصدر نفسه . 2 : 157 .

8 - العماد الإصفهاني . الخريدة . 2 : 71 .

القلق المغامر الذي يتجول من بلد إلى بلد عارضا مهارته على من يقدرها حق قدرها ، يستوي في هذ مختلف ذوي المهارات المطلوبة من جندي وكاتب وشاعر ومعماري وصاحب أي حرفة أخرى ، ولم يكن اختلاف الدين حاجزا في هذه الأمور ، فكان السيد القنيطور يخدم المصلحة ، فتارة يجارب من أجل أمير مسلم ، وتارة من أجل أمير نصراي . ولما سقطت طليطلة في يد النصاري حلق الفقيه أبو القاسم بن الخياط وسط رأسه وشد الزنار وأخذ يعمل كاتبا عند الأذفونش (1) ، وأتمودج هذه الشخصية من الجانب الإسلامي ، في مقابل القنيطور ، شخصية الشاعر ابن عمار ، فقد نشأ فقيرا محرما ، ولكنه كان مشربا بالطموح ، إنتهازيا ، ميكيافيليا ، مستعدا لأن يركب إلى غايته كل واسطة ، مؤمنا بالصدافة بمقدار ما تبلغه أهدافه (((2) .

ويؤكد دارس آخر لابن عمار نسبة هذه القصيدة إليه ، فيقول باحث : ((كان ابن عمار وصوليا — إذا صح التعبير — مع أخلص أصدقائه ، فقد خان المعتمد صديقه وولي نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهر ، رغم ما بينهما من علاقات وثيقة ليوقع به ، كما لم يسلم من لسانه السليط ، أمير بلنسية عبد العزيز بن أبي عامر ، والمعتصم بن صمادح الذي تربطه بالشاعر أوثق الصلات غضب عليه واستنكر أعماله)) (3) .

ويؤكد فوزي سعد عيسى هذه النسبة للشاعر ، بقوله : ((تبدو نسبة هذه القصيدة إليه أمرا طبيعيا ، وحتى وإن كانت هذه القصيدة محل شك — وهو ما لا نميل إليه)) (4) . يستشف — مما تقدم — أن القصيدة لابن عمار ولا مجال لاستبعادها عنه كما يؤكد محمد مجيد السعد .

ومن الطريف أن الحكام أنفسهم يشاركون في الهجاء ، فثمة رواية تقول : إن مجاهدا العامري كتب إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر رقعة لم يضمنها غير بيت الخطيئة (1):

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

1 - ابن سعيد . المغرب . 2: 22 .

2 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندليبي ، عصر الطوفان والمرطين . 34 .

3 - ابن عمار الأندلسي شعره . 81 .

4 - عيسى ، فوزي سعد . الهجاء في الأدب الأندلسي . 52 .

5 - ابن سعيد . المغرب . 1: 332 .

فأخرجت المنصور وأقامته وأعدته ، ورد عليه برقعة جاء فيها (1) :

شمتت موالها عبيد نزار شيم العبيد شتيمة الأحرار

وهو بيت يلمح لعبودية مجاهد ، فهو مولى لبني عامر ، وهجاؤه بأحد منهم إنما تناول العبيد على ساداتهم .

ولعل أجمل ألوان الجهلاء هو ما يتجاوز فيه الشاعر رغباته ومصالحه الذاتية إلى أحاسيس الناس عامة ، فيصور مشاعر الغضب والسخط التي تختلج في نفوسهم إزاء حاكم خائن أو ملك ظالم مستبد ، وكلما مال الشاعر إلى التعمية والتعميم كان هجاؤه أوقع وأقرب إلى الخلود ، فمن ذلك هذه الأبيات لأحد الشعراء ينحي فيها باللائمة على أولئك الحكام الذين عميت أبصارهم ، وافتقدوا الحزم في تدبير أمورهم ، وتصاغروا أمام أعدائهم ، وقد نظمها صاحبها بعد خراب قرطبة ، وفيها يقول (2):

أضعتم الحزم في تدبير أموركم	ستعلمون معا عقي البوار غدا
فلورأيتم بعين الفكر حالكم	بكيتم بدم إن دتمم بددا
لكن سبل العمى أعمت بصائرکم	فألبيستكم ثيابا للبللى جُدا
يأمة هتكت مستور سوءها	ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
في سورة الحشر آيات مفصلة	في شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا
نعم وفي الكهف عشرين خاتمة	تقضي عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت	جميعكم محنة لا تنقضي أبدا

ويعد الشاعر السمييسر أحد الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه تمثيلا صادقا ، وهو من أبرز شعراء المهجاء في الأندلس عامة ، قال عنه ابن بسام : ((كان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره ، له طبع حسن ، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقدح . . وله مذهب أستفرغ فيه مجهود شعره ، من القدح في أهل عصره)) (3) ، ووصفه المقري بأنه ((كان كثير المهجاء ، وله كتاب سماه شفاء الأمراض في أخذ الأعراض)) (4).

1 - ابن سعيد . المصدر السابق . 1 : 332 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 110 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 882 - 883 .

4 - المقري . نفح الطيب . 4 : 108 .

وما يلاحظ في هجاء السميسر ، أنه ليس ذاتيا يستهدف تحقيق منفعة خاصة ، ولكنه هجاء ((تعميمي المتزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع))(1) ، فهو يوجه هجاءه للملوك الطوائف جميعا فيقول (2) :

تاد الملوك وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في	أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبي شققتم

هؤلاء الملوك خانوا دينهم وامانتهم ومواثيقهم ، فأسلموا الإسلام في يد النصارى ، وهم يدفعون لهم الجزية عن صغار ، ولو أدى بهم الأمر إلى شق عصا الطاعة للدين الإسلامي ونبيه ، ويتخذ السميسر من ذلك ذريعة للقيام عليهم ذون مظنة عصيان الله ورسوله وأولي الأمر ، لأنهم ليسوا من أولي الأمر الذين في عصيانهم غقاب أو مائة ، بل أن القيام عليهم حكمة الوجوب ، شقا لعصا طاعتهم ، وقد شقوا من قبل عصا طاعة الله ورسوله .

وفي أبيات أخرى نجد السميسر يتهم أولئك الملوك بالخيانة والهوان ، ويشير إلى ضعف مكانتهم ، واهتزاز صورهم وترديها في أعين كل الناس ، ويترهم متزلة قوم عاد ، فيقول (3) :

حنتم فهنتم وكم أهنتم	زما كنتم بلا عيون
فأنتم تحت كل تحت	وأنتم دون كل دون
سكتم يارياح عاد	وكل ريح إلى سكون

ولا يزال السميسر في مواجهة جديدة لهؤلاء الملوك تبرئ ذمته وذمة الأمة من مغبة ما ينتظرهم وينتظر أمة ضيعوها ، فيقول (4) :

رجوناكم فما انصفتمونا	وأملناكم فخذلتمونا
-----------------------	--------------------

1 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين . 141 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 885 .

3 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 108 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 885 .

سنصبر والزمان له انقلاب
وأنتم بالإشارة تفهمونا
ولكي يقطع السمييسر على ملوك الطوائف كل سبل الشفقة من قبل ضعفاء الرعية ،
فتأخذهم بهم شفقة ، نرله يفيقهم ، فيقول (1) :

يامُشفقا من حُمول قوم ليس لهم عندنا خلاق
ذُلوا وقد قد طالما أذُلوا دَعهم يذوقوا الذي أذاقوا

ففي اليتين هجاء سام يكشف للضعفاء من الرعية حقيقة ملوك الطوائف أمام مجموع
الناس ، ومنهم الشاعر ، ممن فقهوا فلسفة الثواب والعقاب ، حيث لا خلاق لهم عند عامة
الامة ، وهذه الصيغة التنكيرية لكلمة خلاق ، تشير إلى استلاب كل حظ ونصيب من
الأخلاق والشهامة والعفاف ، ويعمقه إحساسه بموقف ملوك الطوائف إذلالا وخسة
وخيانة.

وما يستخلص من هجاء السمييسر أنه غيور على وطنه الأندلسي ، فهو ((يصدر في
هجائه عن دافع وطني أصيل ، ويتعدى هجاؤه النظرة الذاتية أو الإقليمية ، إلى وجهات أعم
وأشمل)) (2) .

وقال السمييسر في هجاء الأمير عبد الله ابن بلقين صاحب غرناطة لما رآه مشغوبا
بتشييد قلعته التي يتحصن فيها عند نزول كارثة (3):

يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

ولما أكثر من هذا الهجاء المؤلم توعدده الأمير عبد الله بسفك دمه ، فر إلى المعتصم بن
صمادح صاحب المرية ، وأجاره إلى أن استولى المرابطون عليها (4).

لقد لفت السمييسر بمقطوعانه الهجائية اللاذعة أنظار بعض الباحثين فرأى أحدهم
أنه يعد أكثر شعراء ملوك الطوائف جرأة وجسارة ، وأنه عبر بحق عن ضمير الأمة ، وكان
صوته الغاصب هو صوت ضمير الشعب (((5).

ت

1 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/1 : 886 .

2 - عيسى ، فوزي سعد . الهجاء في الأدب الأندلسي . 58 .

3 - المقرئ . نفع الطيب . 3 : 412 .

4 - المقرئ . المصدر نفسه . 3 : 412 - 413 .

5 عيسى ، فوزي سعد الهجاء في الأدب الأندلسي . 59 .

ويوضح الطاعر مكّي موقف الشاعر الراض ، بقوله : ((وله من زمنه موقف رافض حين رأى اختلال القيم ، وزهوة الباطل ، وغلبة الصغار ، وعجزه عن التغير ، فأدار ظهره لكل مما حوله ، وجاء شعره رافضا بكل ما تعنيه الكلمة في عصرنا الحديث ، سخر مما يعظم الناس ، وهجا من يمدحون واحتقر من يكبرون ، وجاء هجوه لهم مفحشا ، ونقده قاسيا ، فأهمله المؤرخون خوفا ممن هجاهم ... كان داعية ثورة حين استطاب الناس المتع واللذة ، وخلدوا إلى الدعة الراحة وآثروا الأمن والسلامة)) (1) .

وإلى جانب هجاء السميصر للملوك الطوائف ، هناك شعراء آخرون شاركوه ثورته على هؤلاء الملوك المتخاذلين ، فانطلقوا يتوعدون ويلوحون بتخاذلهم وخيانتهم للمسلمين ولاسيما بعد سقوط طليطلة بسبب مصانعة أولئك لملوك النصارى واتفاقهم فيما بينهم وعلى التخاذل وإيثار العقود ، وتواطئهم على خطة مشينة عجلت بسقوط طليطلة ، عاصمة القوط قبل الفتح ، وإلى ذلك يشير أحد الشعراء بقوله (2) :

وقيل تجمعوا لفراق شمل	طليطلة تملكها الكفور
فقل في خطة فيها صغار	يشيب لكرها الطفل الصغير
لقد صمّ السميع فلم يعول	على نبيا كما عمي البصير

و حين سقط ملوك الطوائف تشفى فيهم الشعراء ، وتعالّت أصواتهم معبرة عن أحاسيس الشماتة إزاء أولئك الملوك الذين طالما استمرأوا الفساد ، وروحوا عن أنفسهم بالقصف واللهو والغناء عن الجهاد ، ولم يبالوا فيما ينتظرهم من مفعجة وأليمة ، ويعبر أبو الحسين بن الجدد (3) عن هذه الحياة اللاهية ، مصورا ملوك الطوائف تصويرا مزريا ، فيقول (4):

في كل يوم غريب فيه معبر	نلقاه أو يتلقانا به خبير
ارى الملوك أصابتهم بأندلس	دروائر السوء لا تُبقي ولا تذر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر	هوى بانجمهم حسفاً وما شعروا

1 - مكّي ، الطاهر أحمد . دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة . 74 .

2 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 485 .

3 - هو أبو الحسين يوسف بن محمد بن الجدد انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/2 : 556 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 340 .

4 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 242 .

وكيف يشعر من في كفه قدح
صمّت مسامعه من غير نغمته
يحدو به مُلهياه الناي والوتر
فما تمر به الآيات والصور
تلقاه كالفحل معبودا .مجلسه
له حوار ولكن حشوه خور
من حوله كلُّ مغترّ وما علموا
أنّ الذي زخرفتُ دنياهم غرر

يمكن أن نعتبر هذا النوع من الهجاء والانتقاد أرقى وأعمق ، لأنه يتصل بصميم السلوك السياسي للخلفاء ، في عهد الفتنة ، وما يتعرضون له من عزل وموت ، كما هو شأن الخليفة هشام المؤيد ، وعزل وقتل للخلفاء الآخرين ، وكذلك ملوك الطوائف ، الذين أثبتوا ضعفهم وخضوعهم للنصارى بدفع الجزية أو التنازل على الحصون أو التآمر ضد بعضهم البعض ، فكانت هذه المواقف المزرية محل هجاء الشعراء لهم وتعريتهم وأصبحوا محل سخيرية من الأمة الإسلامية في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، إلى أن هوى سلطانهم في يد المرابطين ، ونالهم التشفي كما تقدم .

هجاء الوزراء:

إذا كان منصب الخلافة ، وهو أعلى منصب في الدولة ، بلغ هذه الدرجة من الذل والمهانة ، فليس غريبا أن تصبح بقية المناصب العليا في الدولة مناصب جوفاء ، فالوزارة مثلا أصبحت منصبا شكليا ، وحضور الوزير أو غيابه لا يغير من الأمر شيئا قال حسان بن مالك ابن أبي عبدة الوزير (1) يخاطب الخليفة المستظهر (2) :

إذا غبتُ لم أحضرُ وإن جئتُ لم أسلُ فسيان مني مشهدٌ ومغيب
فأصبحتُ تيمياً وما كنت قبلها لتيماً ولكن الشبيه نسيب

وهذا المناصب أصبحت اسما بدون مسمى فهي ((زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتي وضعت على غير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل لم يخلوا منها بطائل ولا قبضوا منها مرتبا ولانالوا بها مرتفقا)) (3) .

وبهذا أصبح منصب الوزارة كمنصب الخلافة وملوك الطوائف محل هجاء الشعراء

1 - هو حسان بن مالك بن أبي عبدة ، وزير من العلماء باللغة والأدب في الأندلس ، توفي سنة 316 هـ . انظر ابن شهيد . ديوان تحقيق يعقوب زكي . 44 .

2 - المقرئ . نفع الطيب . 7 : 436 .

3- ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 137 .

فقد قال أبو الربيع (1) في حكم بن سعيد الحائك وزير هشام المعتد الأموي (2) :

هَبْكَ كما تدعي وزيراً وزير من أنت ياوزير ؟
والله ما للأمير معنى فكيف من وزر الأمير

غير أن أغلب هذا الهجاء ، كان يخفي وراءه بواعث ذاتية ، إذ كان منصب الوزارة مطمحاً للكثيرين ، فكان هجاء الوزراء في معظمه ناجماً عن حقد وضغينة للمكانة التي يتبوأها هذا أو ذاك (((3) ، كابن شهيد له بعض القصائد(4) في هجاء الوزراء ، صدر فيها عن دوافع ذاتية ، لاداعي لذكرها ، مادمنّا نحن بصدد هجاء صدر فيه أصحابه عن دوافع سياسية ، كما هو الشأن في هجاء الوزراء اليهود ، في عهد ملوك الطوائف ، بعد تسلطهم في غرناطة وتمكنهم من منصب الوزارة ، وهو منصب يمكن صاحبه في ذلك الوقت من السيطرة المطلقة في الدولة ، وسبب ذلك يكمن في أن ملوك غرناطة ((لم يلتمسوا العون لدعم حكومتهم عند بربر قبيلتهم ، ولا من العرب أو الأندلسيين لعدم الثقة فيهم ، ولما يضمروه لهم هؤلاء من البغض (5) .

ولم يمض غير يسير من الوقت حتى أصبح اليهود في غرناطة ، يشكلون قوة إقتصادية وسياسية ، فأثار ذلك غضب بعض العناصر المسلمة من بربر وغيرهم .

وقد أخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود ، وزعيمهم يوسف بن النغريلة ، ومنهم السمييسر وأبو الحسين بن الحد ، القائل في سخط وغضب (6) :

تحكمت اليهود على الفروج وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأنذال فينا وصار الحكم فينا للعلاج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج

فالشاعر يشكو وحرارة من تحكم اليهود الأنذال وما يتمتعون به من مظاهر البذخ

1 - لم نعثر على ترجمة له .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب .3: 147 .

3 - عيسى ، فوزي سعد . الهجاء في الأدب الأندلسي . 122 .

4 - ابن شهيد . ديوان . تحقيق يعقوب زكي . 8 ، 138 ، 164 .

5 - غرسية إميليو غومس . مع شعراء الأندلس والنتي . 83 .

6 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2: 562 .

والترف كالخيول المطهمة ، ونحو ذلك مما حرم منه المسلمون ، ويأسى لهذه الدولة التي يحكمها هؤلاء العوج ، ويرى أن ذلك من أكبر علامات الساعة ولذلك يدعو المسيح الدجال إلى الخروج لأن هذا زمانه .

وقد عبر أبو إسحاق الإلبيري ، عما كان يحدث في نفوس هؤلاء من يوسف بن النغرة واليهود ، بقصيدة كان لها صداها في مختلف أوساط الغرناطين ، فيقول (1) :

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بُدورِ الندى وأُسْد العرين
لقد زلّ سيدكم زلة	تقرُّ بها أعين الشامتين
تخيّر كاتبه كافرا	ولو شاء كان من المسلمين
فعرّ اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى	فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت	لأرذلٍ قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم	ولكن منا يقوم المعين
فهلاً اقتدى فيهم بالألي	من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستاهلون	وردهم أسفل السافلين
أباديس أنت امرؤ حاذق	تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم	وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا	وهم بَعْضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى	إذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق	وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله في وحيه	يحذّر عن صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادما	وذّرهم إلى لعنة اللاعنين

فقد ضجّت الأرض من فسقهم

وكادت تَمِيد بنا أجمعين

تأمّل بعينيك أقطارها

تجدهم بها كلابا خاسئين

وإني احتللتُ بغرناطة
وقد قسموها وأعمالها
وهم يقبضون جباياتها
وهم يلبسون رفيع الكسا
وهم أمناؤكم على سركم
ويأكل غيرهم درهما
وهم يذبحون بأسواقها
ورخّم قردهم داره
فصارت حوائجنا عنده
ويضحك منا ومن دينا
ولو قلتض في ماله إنه
فبادر إلى ذبحه قربة
ولا ترفع الضغط عن رهطه
وفرّق عداهم وخذ ما لهم
ولا تحسبن قتلهم غدره
وقد نكثوا عهدنا عندهم
وكيف تكون لهم ذمة
وراقب إلهك في حربه

فكنتُ أراهم بها عابثين
فمنهم بكل مكان لعين
وهم يخضمون وهم يقبضون
وأنتم لأوضعها لابسون
وكيف يكون خؤون امين؟
فئقصي ، ويُدنون إذ يأكلون
وأنتم لأطرافها آكلون
وأجرى إليها نَمير العيون
ونحن على بابهم قائمون
فإننا إلى ربنا راجعون
كمالك كنتَ من الصادقين
وضحّ به فهو كبش سمين
فقد كنزوا كل علق ثمين
فأنت أحق بما يجمعون
بل الغدر في تركهم يعثون
فكيف تلام على الناكثين
ونحن خُمول وهم ظاهرون
فحزب الإله هم الغالبون

لم يجزأ الشاعر على هجاء باديس بن حبوس وتوجيه النقد إليه مباشرة ، أثر توجيه قصيدته هذه إلى عامة الغرناطين يستثيرهم ويستفزهم ، ويصف لهم ما آل إليه حال البلاد والعباد في ظل هذا الملك البربري ، ((هل يستطيع هؤلاء البربر أن يفهموا الشعر العربي؟ ربما كان محتملا أنهم لا يستطيعون التقاط معاني كل الكلمات تفصيلا ، لكنهم على الأقل يفهمون الفكرة العامة التي يريد أن يعبر عنها الشاعر)) (1) ، فقد لجأ الشاعر إلى اختيار العبارات السهلة والمعاني العامة التي يفهمها أي مسلم حفظ القرآن أو درسه ، كما اختار

أبياتا قصيرة ذات إيقاع سهل ، وحتى المعاني التي عبر عنها بسيطة وواضحة لاغموض فيها ، واختار لها الألفاظ الصلبة القاسية التي يمكن أن تقع في أذهان الغرناطين فيدركونها في يسر وسهولة ، ومع ذلك فإن القصيدة لا تخلو من بعض الصور والمعاني الدقيقة .

فالشاعر يوجه النصيحة إلى الصنهاجيين وهي نصيحة مشفق عليهم محب لهم ، يرى النصيحة قربة لله ودينه يدين به ، فينبههم إلى خطأ الملك باديس في اختيار وزير يهودي ، من غير المسلمين ، مما جعل اليهود يتطاولون عليهم ويعتزون بعدما كانوا أذلة ، وحققوا كل أمانيتهم في الظفر بالجاه والمال والسلطان ، فكم من مسلم ذل أمام قرد من هؤلاء القردة اليهود .

لقد كان الأجدد باديس أن يقتدي بالأولين في إعزاز المسلمين ، وإنزال هؤلاء اليهود منازلهم التي يستحقونها والتي كانوا فيها أذلة صاغرين تطوف بنا أفواجهم في ذلة وصغار ، ولكنه جعلهم يستخفون بأعلامنا ويستصغرون شأننا ويستهنئون بديننا . ثم توجه الشاعر إلى الأمير باديس يلومه ويعاتبه وينبهه إلى هؤلاء اليهود الذين قربهم ، ويمكن لهم من شؤون المسلمين .

ويعجب من أمر هذا الملك ، وهو الحاذق الذكي اللبق إذ ركن إلى هؤلاء اليهود وأحبهم ، وهم فراخ الزنا واستنم إلى زعيمهم الفاسق وركن إليه ووثق به مع أن الله سبحانه وتعالى حذر من صحبة الفاسقين واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين ، ثم يطالب ببندهم ، فقد ضجت الأرض من رجسهم وكادت تميّت من شرهم ، ثم يعجب من إثارة لهم ، وتقريبه لهم ، وهم المبعدون في الأرض والمنبذون من الخلق .

لقد اقتسموا غرناطة واستأثروا بخيراتها وجباياتها وحكمها ، ويلبسون أفخر الثياب بينما المسلمون يرتدون أحقره وأوضعها ، وهم الأمناء على أسراركم مع أنهم خائنون لا يؤمنون على سر .

ومن العجيب لا يسألون عما ينهبون ، ولا يحاسبون على ما يلبسون بينما يقصى من غيرهم من يجمع درهما ، وهم يذبحون ويستأثرون بأشهى المطاعم ، بينما المسلمون لا يحصلون على أدناه ، وهذا وزيرهم اليهودي يعيش عيشة مترفة في قصر فاخر محلي بالرخام مزين بالنقوش ، والمسلمون يتسولون على بابه ويلتمسون في ذلة حوائجهم عنده ، وهو

يسخر من ديننا فيألى الله المشتكى منه ، وأما ثروته فإن عادلته بثروتك ياملك لكانت مثلها .
ثم يطلب من الملك باديس المبادرة بذبح هذا الوزير فإنه كبش سمين يصلح
للتضحية ، كما يطلب إليه أن يأخذ بالشدة قومه من اليهود ، وأن يمزق شملهم ويصادر
أموالهم ، فإن المسلمين أحق بها . ويرر للملك هذا الإنتقام ، حيث أنه ليس نكثا ولا غدرا
بميثاق ، فإنه لا عهد لهم ، ولا ميثاق ، فكم نكثوا من عهد ونقضوا من ميثاق ، إن الغدر
في تركهم يعيئون ويعبثون .

كيف تكون لنا همة وينهض لنا كيان ، ويكون لنا شأن وهم الظاهرون ونحن
الخاملون المتقاعسون ؟

ثم يحمل الملك باديس مسؤولية تركهم على هذا الحال وعدم أخذهم بالشدة ،
ويذكره بأن الله رقيب عليه يحاسبه على ما إئتمنه عليه من تولى شؤون المسلمين .
وقد كانت هذه القصيدة السياسية سببا في شهرة الشاعر عند الأوربيين ، وذلك
لدورها الخطير لعبته في إثارة مسلمي غرناطة ضد اليهود ، يقول غومس : ((والحق أن
القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتا من
الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم ، فكهربت
العزائم ، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل ،
كالدور الذي لعبته هذه القصيدة)) (1) ، ويضيف قائلا : ((الشعر الأندلسي لم يعرف أبدا
البساطة عارية كما عرفها في هذه القصيدة ، وفي الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها ، يلفها
مثل هذا الإعصار من المشاعر لقد اجتاحت أنغامها ، حية متوهجة ، أعماق المدينة ، مع
زفير النيران وحشجة الموتى)) (2) .

وهكذا عبر أبو إسحاق الإلبيري في هذه القصيدة المناهضة لليهود عما كان يجيش
في نفوس أوساط المجتمع الغرناطي ، فوقع الهجوم على اليهود بالمدينة وقتل منهم عدد كبير
وفي مقدمتهم يوسف بن النغرلة كما تقدم (3) .

1 - غومس ، إميليو عرسية . مع شعراء لأندلس والمنتبي . 97 .

2 - غومس ، إميليو عرسية . المرجع نفسه . 98 .

3 - انظر هذا البحث . 66 ، 67 .

ويرد كامل الكيلاني قدرة تأثير الشاعر في المجتمع الغرناطي إلى معرفته كيف يوالي في قصيدته ((اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة عجيبة في التعبير عن أغراضه وحوالجه بكلام فخم يتطير حماسا ويتأجج نارا ، وشعر صارخ . وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود فرض لامناص من أدائه .. وكذلك لم يترك وسيلة من الوسائل التي تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها ولا نعمة من نعمات التعصب للعقيدة إلا ضرب على وتيرتها)) (1) .

وأما فوزي سعد عيسى فإنه ، يقول : ((ولم يتكلف الإلبيري ، ولم يغرب في صوره ومعانيه وألفاظه ، بل اختار هذا الأسلوب السهل المباشر الذي يقترب من أسلوبالنثر إلى حد بعيد ، لأنه أدرك بحاسته الفنية الدقيقة أن حظ أولئك البربر من الثقافة العربية ضئيل، وأن نصيبهم من تذوق الشعر والوقوف على أسراره محدود)) (2) .

لقد كان لهذه القصيدة صدى كبيرا عند كثير من الشعراء ، إلى جانب ذلك الأثر السياسي الذي رأيناه ، فقد اخذ كثير من الشعراء يعتمدون هذا الأسلوب ، ويحملون على اليهود حملة شرسة ، وينددون بمن مكن لهم من هذا السلطان والنفوذ ، وكذلك منصب الوزير ، في أي مملكة كان ، فهو محل هجاء ونقد سواء أكان في تطرفه في نفوذه أو في إهماله من دوره كوزير .

هـجاء العمال (الوالة) :

لم يكتف الشعراء بهجاء الخلفاء وملوك الطوائف وانتقاد تصرفاتهم وفضح اساليبهم ، والتجريح بهم إلى حد الفحش أحيانا ، ولم نورد مثل هذا الهجاء الفاحش والمقذع لأن الذوق ينأى عن إثباته كشعر السميسر (3) ، ولم يسلم أحد ممن شغل مناصب رسمية من ألسنتهم كالوزراء ، فقد نال بعضهم شيئا من الانتقاد لسبب أو لآخر — كما تقدم — كذلك طائفة أخرى من رجال السياسة ، وهم وعمال الكور، نالوا نصيبهم من الهجاء لأنهم يمثلون السلطة بشكل أو بآخر، ولأنهم ينفذون سياسة الحاكم أيا كان لوها ،

1 - الكيلاني ، كامل . مختارات في التاريخ والأدب . 244 .

2 - عيسى ، فوزي سعد . الهجاء في الأدب الأندلسي . 88 .

3 - السلفي . أخبار وتراجم أندلسية . 84 .

وكان عليهم أن يديروا أعمالهم على أسس من العدالة والتزاهة ، ولكن كثيرا منهم انحرف عن مهمته الموكلة إليه ، فانتهجوا أساليب القسوة والغلظة في معاملة الرعية ، ولم يتورعوا عن ارتكاب الجرائم والموبقات ، وانصرفوا إلى الإثراء الفاحش بالطرق غير المشروعة ، فتصدى الشعراء لهؤلاء لفضح أساليبهم ، وكشف عن فسادهم ومن ذلك قول حبلان الرندي (1) في هجاء أحد الولاة (2) :

لاتفرحن بولاية سوغتها فالثور يعلف أشهرها كي يذبجا

وهذا الأصيلي أبو عامر محمد (3) له غير مقطوعة شعرية في هجاء عمال بني ذي النون ورؤساء حصونه ، يقول (4) :

قل لابن ذي النون الرئيس الذي	ليس له شيء من البخت
يا مالكا يجعل قواده	قوما غدوا عليه باللفت
جاءوا إلى الشرق جياعا فما	فما يشبعهم شيء من السحب
من كل حراث له لحية	تدهن بالشحم وبالزيت
إن صر في حصن رأى أنه	قد أدخل العالم في تحت
يجسد فرعون على قوله	((وهذه الأنهار من تحتي))
ما هذه الأشباح تبا لها	قد ملئت بالسفه البحت
هيئات لآحر ولا حرة	في باب إقليش إلى البنت

أما المقطوعات الأخرى في هجاء رؤساء جزيرة شقر وهجاء رئيس حصن بلنسية (5) ، ومثل هذا الهجاء الذي فيه كثير من الإقذاع ، قد يكون منطلقه ذاتيا وله علاقة بالحاجة المادية .

1 - حبلان الرندي كان شاعرا برندة ، لما حل المرابطون بالأندلس مدح أحد رؤسائهم . انظر أخباره : المقرئ . نفع الطيب . 4 :

133 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 336 .

2 - المقرئ . المصدر نفسه . 4 : 133 .

3 - هو أبو عامر محمد بن الأصيلي ، كان جوابة الآفاق ، ومن كبار فحول الشعراء والكتاب في القرن الخامس الهجري . انظر ترجمته :

ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 875 ، العماد الإصفهاني . الخريدة . 2 : 308 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 444 .

4 - العماد الإصفهاني . المصدر نفسه . 2 : 309 .

5 - العماد الإصفهاني . المصدر نفسه . 2 : 309 - 310 .

لقد كان المهجاء السياسي الذي وصل فيه الشعراء إلى درجة الإنتقاد العنيف والمهجاء المقذع للحلفاء والحكام ، في القرن الخامس الهجري ، كات سببا في مواجهة هؤلاء الشعراء وملاحقتهم وترصدهم للإيقاع بهم الأذى من قتل ونفي وسجن .
وقد أتاح السجن لبعض هؤلاء مجالات أخرى للقول والتعبير عن وضعهم الجديد نتيجة لمواقفهم السابقة ، وبذلك يعتبر شعر السجن مرتبطا بالمهجاء السياسي أعمق الإرتباط.

الفصل الثاني

شعر السجن

يعد شعر السجن شديد الصلة بشعر المهجاء السياسي ، فهو نتيجة له في معظم الأحيان ، إذ كثيرا ما يؤدي الموقف الأول بصاحبه إلى السجن عقابا له ، وقد يكون السجن لأسباب أخرى لاداعي للخوض فيها .

ومع أننا سنقتصر في هذا المجال على شعر السجن المرتبط بالسياسة وأحداثها ، فإن دواعي السجن السياسي وظروفها تختلف من سجين لآخر ، وستتعرف على ذلك أثناء دراستنا للنصوص الشعرية التي عبرت عن هذا الاتجاه في الشعر الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري .

أما الذين توافرت لنا نصوص من شعرهم في السجن ، فهم في الغالب من الذين اتخذوا مواقف لم ترض الحكام ، أو اقترفوا ما استوجب سجنهم في نظرهم ، أو حتى قتلهم ، وهم أحيانا من كبار رجال السياسة انفسهم ، ومن أشهرهم : أبو عامر أحمد ابن عبد الملك بن شهيد (1) ، وابن حزم (2) ، عبد الملك وابن غصن الحجاري (3) ،

5 - كان ابن شهيد ينعم بظلال والعامريين ، لكن الفتنة سلبته هذا العز وهذا الرفه ، فلحقته سعايات وشايات ، ووقعه سوء حظه مع الحموديين ، فسعى به إلى المعتلي يحيى بن حمود أثناء خلافته بقرطبة زمن الفتنة فنكبه وسجنه ، وفي السجن وصف السجن وأشجار إلى الحساد والواشين ، وتحدث عما يعانیه إلى أن أطلق سراحه . انظر تفاصيل ذلك : ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 203 ، بلا ، شارل . ابن شهيد الأندلسي ، حياته وآثاره . 43 ، عبد العزيز ، أحمد . قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . 46 .

3 - كان ابو محمد علي بن حزم في عصر الفتنة وزيرا لعبد الرحمن المستظهر بالله ، ثم لهشام المعتد بالله ، وقد سجنه يحيى بن علي بن حمدون لاهامه بالميل إلى المويين قبل ذلك . انظر تفاصيل ذلك : ابن حزم . ديوان . 14 ، ابن بسام . الذخيرة 1/1 : 169 .

1 - هو أبو عبد الملك بن غصن ، نكبه المأمون بن ذي النون ، واعتقله مع جماعة من النبلاء بويذة من أعمال طليطلة ، فكتب إليه رسالة ((في صفة السجن والمسجون والحزن والخزون)) دلت على مكانه من العلم والأدب والحفظ ، وأودعها ألف بيت من شعره في الاستعطاف ، وسبب نقمة المأمون عليه صحبته لرئيس بلده ابن عبيدة ، وبلغ المأمون أنه يقع فيه كثيرا ، فنكبه شر نكبة وحبسه . ، وتوفي سنة 454 هـ . وقد خلط الرواة بينه وبين عبد الملك بن حصن الذي نكبه المأمون بن ذي النون ، فيما يرى شوقي ضيف ، ورد عليه إحسان عباس مرجحا أنه عبد الملك بن غصن . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 1/3 : 332 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 30 العماد الإصفياني . الخريدة 2 : 166 ، ابن الأبار إعتاب الكتاب . 218 - 220 ، والمقري . نفع الطيب . 3 : 263 ، 264 .

وابن زيدون (1)، وابن عمار (2)، والمعتمد بن عباد، وغير هؤلاء .
وبالنظر إلى شعرهم اذي عبروا به عن نكباتهم ، نلاحظ تشابها في المواقف حيناً ،
وتمايزاً حيناً لآخر ، ومع أنهم حاولوا الاعتماد على الكلمة لإثارة الشفقة ونيل رضا وعطف
الحكام ، فقد أجيب بعضهم ، ولم يجب البعض الآخر ، على أن هذا الشعر لم يكتف بمجرد
تسجيل النكبات ، بل تعدى ذلك إلى تناول عدة قضايا يمكن عدّها من العناصر الرئيسية في
شعر السجن .

وهكذا اتخذ هؤلاء الشعراء السجناء الشعر وسيلة للاستعطاف الاعتذار ووصف
الهموم النفسية التي ، وتصوير السجن وما ينتاب السجين من مشاعر ويعرض له من هواجس
في هذه التجربة القلسية والمرّة التي يفقد فيها السجين حريته .

وصف السجن:

لقد وصف شعراء القرن الخامس الهجري في شعرهم السجون التي سجنوا فيها
بصور مختلفة ، فهذا عبد الملك بن غصن الحجاري يصور السجن بالقبر الذي دفن به حيا ،
ويلتمس رحمة المأمون بن هود حتى يفارقه ، فينشر مرة أخرى ، يقول (3):
فديتُك هل لي منك رُحْمى لعلني أفارق قبراً في الحياة فأنشُرُ
ويكرر ابن حزم صورو الحجاري ، فهو حي يسكن قبراً ، فكيف تكون حالته ؟
إنه ينظر بعين أسير قل رجاؤه وعز مطعمه ، فقد طال محبسه في هاويات السجن، وتفرق

1 - يعد ابن زيدون من الشعراء المقدمين لدى ابي الحزم بن جهور ، فإنه وقع فريسة المؤامرات التي حيكّت حوله ، وأوقعت عليه اتهامات
بمحاولة القيام على دولة بني جهور ، ((وأن غشيانه مجالس ولادة غشيان مريب ، قد يخفي خلفه مؤامرات سياسية مع أقاربها الأمويين
المغلوعين)) ، وما كان من ابن جهور أن لفق له تهمة وسجنه ، وفر بعدئذ منه إلى إشبيلية عند المعتضد بن عباد . انظر هذه الخبر : ابن
زيدون . ديوانه وريائله . تحقيق على عبد العظيم . 40 ، الركابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 175 ، عبد العزيز ، أحمد . قضية
السجن والحرية في الشعر الأندلسي . 40

2 - كان ابن عمار وزيراً للمعتمد بالله وسيره إلى مرسية ، فاستخلصها من بني طاهر ، ثم استأثر بها لنفسه وأنزل اسم الملك المعتمد من
منابرها ، ولكن سرعان ما وقع في يد المعتمد وقتله بيده بعد سجنه لمدة . انظر تفاصيل ذلك : ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 268 ،
403 ، 422 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 159 - 161 ، المراكشي . المعجب . 125 ، 129 ، ابن عمار . شعره تحقيق صلاح
خالص . 152 ، وتحقيق مصطفى الغديري . 14 .

3 - المفري . نفع الطيب . 3 : 424 .

شملة ، يقول (1) :

أم كيف حالة حيّ ساكن جَدثًا يرنو بعين أسير عزّ مطمعه
قد طال في هاويات السجن محبسه وانشتّ من شملة ما كان يجمعه
ثم نجد عبد الملك الحجاري ، قد ضاق سنه وضافت حليته حتى صار كعش الحية
الصغيرة ، وهو يتجنب ذكر خله في سجنه إكراما له ويحجل حتى من طيف الخيال الذي يلم
به مسلما ، فيقول ((2)) :

على أنني من صيق سجنني وحليتي بليتُ كما حُدثتُ عن حِفش أيم(3)
أُجانبُ فيه ذكرى خَلِي كرامة وأحجلُ من طيف الخيال المسلّم
ونجد عبد الملك الحجاري يصف حالته في سجن أرضي ، ليس له في وطء الأرض
حظ ، وليس له نصيب في نشق الهواء ، وإن سجنه في ضيقه كأنه ظلّف شاة ولا يسمع فيه
دبيب لذي ديب ، فيقول (4) :

مالنا في وطء البسيطة حظ لا ولا في نشق الهواء نصيب
في محلِّ كأنه ظلّف شاة ليس فيه لذي ديب ديب

وهذا السجن الضيق في الأرض الشبيه بالقبر المتصف بالسكون والوحشة ، قد يكون
أيضا في السجن العالي المنقطع عن العالم ، الذي يزيد وحشة السجن وحشة فوق وحشة
التي هو فيها ، فكأنه ملاذ الجن والنسور ، وهو مكان موحش لا يعرف فيه الإنسان أخاه
الإنسان ، وهو قصر شيد بين النجوم وأوكار النسور ، يقول ابن عمار في وصف سجنه
(5) :

عال كأن الجن إذا مردتُ جعلته مرقاة إلى النسر
وحش نتاكرت الوجوه به حتى استربتُ بصفحة البدر

1 - ابن حزم . ديوان . 70 .

2 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

3 - الحفش . البيت الصغير . لسان العرب مادة (حفش) .

4 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

5 - ابن عمار . شعره تحقيق مصطفى الغديري . 71 .

قَصْرٌ تَهْضدُ بَيْنَ خَافِقَتِي نَسْرِينِ (1) مِنْ فَلَكَ وَمِنْ وَكْرٍ
مَتَحِيرٍ سَالِ الْوَقَارِ عَلَيَّ عَطْفِيهِ مِنْ كَبْرٍ وَمِنْ كَبْرٍ
مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ رَاحَتُهُ فَجِيادُهَا مِنْ تَحْتِهِ تَجْرِي

أما ابن شهيد فإنه يصف السجن وصفا تفصيليا مؤثرا ، فقد ابتلي بخمس مصائب ، هي فراق أحبته وسجنه والشوق إلى خلانه والذل في سجنه ، وسجان جبار عتيد ، ويلتمس من يبلغ إخوانه أنه مقيم بدار الطغاة طريد ، وهذه الدار ، ينال ساكنيها من الذي ما يجعلهم يقومون ويقعدون على جمر الموت ، ويسمع للجن في أرجائها صوت كرجع الصدى ونشيد ، وإذا اهتز باب السجن تفترت قلوب السجناء ، وتقطعت أكبادهم خشية الموت لما ينالهم من العذاب (2) :

فَراقٌ وَسَجْنٌ وَاشْتِياقٌ وَذِلَّةٌ وَجَبَّارٌ حُفَاطٌ عَلَيَّ عَتِيدٌ
فَمَنْ مُبَلِّغُ الْفَتِيانِ أَنِّي بَعْدَهُمْ مَقِيمٌ بَدَارِ الظَّالِمِينَ طَرِيدٌ
وَيُسْمَعُ لِلجِنِّانِ فِي جَنبائِها بَسِيطٌ كَتَرَجِيعِ الصَّدى وَنَشِيدٌ
وَمَا اهْتَزَّ بابُ السَّجْنِ إِلَّا تَفَطَّرَتْ قُلُوبٌ عَلَيَّ جَمْرِ الحِمَامِ قُعودٌ

وقد أخذ ابن شهيد يطارح الحمام ، ويتباكيان جاهدين ونار الشوق تتقد بين الضلوع حتى بكت جدران السجن من طول حزنهما وبكائهما ، وأجهش بالبكاء باب السجن الحديدي ، يقول (3) :

وَمَا زال يُبْكِينِي وَأُبْكِيهِ جَاهِداً وَلِلشُّوقِ مِنْ دُونَ الضُّلُوعِ وَقُودٌ
إِلَى أَنْ بَكَى الجَدْرانُ مِنْ دُونَ شَجْوِها وَأَجْهَشُ بابُ جَانِبِها حَديدٌ

ومثل ذلك نجد المعتمد بن عباد في سجنه بأغمات ، حيث يقول عند حديث لسرب قطا مررن بسجنه (2) :

هَنيئًا لَها أَنْ لَمْ يَفْرقَ جَميعَها وَلا ذاقَ فِيها البَعدَ مِنْ أَهلِها أَهلٌ

1 - النسران: كوكبان معروفان على التشبيه بالنسور الطائرة . انظر شعر ابن عمار تحقيق محمد لغديري . 71 هامش 6 .
2 - ابن شهيد . الديوان . 100 .
3 - ابن شهيد ز المصدر نفسه . 101 .
4 - المعتمد بن عباد . ديوان . 187 .

وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
ومع السجن والجدران والأبواب الحديدية نجد بعض الشعراء ، قد صوروا قيودهم
وكبولهم بصفة خاصة ، فهذا عبد الملك الحجاري يصف الكبل الثقيل في ساقه حين يرن
كأنه خطيب للمصائب ، يقول (1) :

وكان الكبل الثقيل إذا ما رنَّ في الساق للخطوب خطيب
وابن حزم يشكو إلى قيده ما يلقاه من ألم فيئن له القيد لدى شكواه وإن هذا الكبل
ليعوقه عن الراحة والنوم ، فكيف يهجع وهو مكبل ، يقول (2) :

يشكو إلى القيد ما يلقاه من ألم فبالأنين لدى شكواه يرجعه
يا هاجعا والرزايا لا تورقه قل كيف يهجع من في الكبل مهجعه
ويصور المعتمد بن عباد مكثه في قيده مبينا أنه يعوقه عن قضاء وطره من أهله
ومداواة علة جوارحه ، فإنه رهين القيد الحديدي المبهم ولاسييل إلى نجاته ، يقول (1) :

قضى وطرا من أهله كل نازح وكُرِّض يداوي علة في الجوارح
سواي فإني رهن أدهم مبهم سييل نجاتي آخذ بالمبارح
وقد ألم القيد المعتمد في أسره فراح يتضدكر ماضيه وكيف انه تبدل من عز ظل
البنود ، بذل الحديد وثقل القيود ، وكان حديده رحما نافذا وسيفا رقيقا مصقول الحديد ،

فتحول كلاهما إلى قيد حديدي يعض بساقيه عض الأسود ، فيقول (3) :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سنانا ذليقا وعَضْبًا رقيقا صقيلا الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهما يعضُّ برجلي عض الأسود

ويصور المعتمد أيضا قيوده الحديدية التي التفت حوله والتوت عليه في شكلها
وخلفتها بالنعابين التي تتلوى ، وفي قوتها وبطشها ، وهذه القيود لم يحن فكها ، وذلك
لما رأى من أفرج عنهم من السجناء من أهل أغمات الذين رافقوه في سجنه مدة ، يقول

1- ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

2- ابن حزم . ديوان . 70 .

3- المعتمد بن عباد . ديوان . 170 .

مخاطبا (1) :

تخلصتم من سجن أغماتَ والتوت علي قيودٌ لم يحن فكُّها بعد
من الدهمَ أمّا خلَّقها فأساويد تلوَّى وأما الأيدُ والبطشُ فالأسدُ
وإن قيود المعتمد الحديدية لتنشده بصوتها المفرع نشيدا ثقيلًا ، فتبكي عينه لذلك
النشيد الحزين ، فيقول (2) :

فلو عدتما لاخرتما العود في الثرى إذا أنتما أبصرتما نير في الأسر
يعيد على سَمعي نشيده ثقيلًا فتبكي العينُ بالجلسِ والنَّقر
والشاعر السجين يستخدم هنا مصطلحات الغناء كالنشيد والثقيل والجلس
والنقر ، ونراه يصف الكبل بأنه يتعطف ويتلوَّى على ساقيه تعطف الثعبان الذي يساورها
عضا بأنياب كأنياب الأسد ، ويجذر قيده ، فلو كان صانعوه يشعرون أنه سيفعل ذلك
بالمعتمد لانقطعت أكفهم ومعاصمهم مهابة له ، وهو الذي كان الرجال بعطائه في جنة
ومن سيفه في جهنم ، يقول (3):

تعطفَ في ساقِي تعطف أرقم يساورها عَضًا بأنياب ضيغم
إليك فلو كانت قيودك أشعرت تضرم منها كلُّ كف ومِعصم
مهابة من كان الرجال بسببه ومن سيفه في جنة وجهنم
ويكر المعتمد صورة القيد كالثعبان الذي يتمدد بجذاه متعطفًا متلونًا لايرحمه وهو
السير ، وكان رمح من قبل في الوغى كالثعبان الذي ينهش رؤوس أعدائه ، فيقول (4):

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى فغدا عليك القيدُ كالثعبان
متمدداً بِجِذَاك كلُّ تمُد مُتعطفًا لارحمة للعاني
وعندما يدخل على المعتمد ابنه الصغير ويرى الطفل أباه في السلاسل ، تتحرك

1 - المعتمد بن عباد . المصدر السابق . 185 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 163 .

3 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 182 .

4 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 183 .

مشاعر الأب نحو أبنائه الذين يرون معاناته ، فيقول (1):

أبيتَ أن تشفق أو ترحما	قيدي أما تعلمي مسلما ؟
أكلته لا تهشم الأضعا	دمي شراب لك ، واللحم قد
فيثني القلبُ وقد هُشِّما	يُبصرني فيك أبو هاشم
لم يخشى أن يأتيك مسترحما	ارحم طفلا طائشا لبُّه
جرعتهن السُّم والعلقما	وارحم أخيات له مثله
خفنا عليه للبكاء العمى	منهن من يفهم شيئا فقد
يفتح إلا لرضاع فما	والغير لا يفهم شيئا فما

فالمعتمد يخاطب القيد في رقة يطلب منه ، لماذا لا يشفق عليه أو يرحمه ؟ أما يعلم أنه مسلم ؟ فقد شرب دمه وأكل لحمه ، ويناشده بألا يهشم عظامه ، وإن ابنه أبا هاشم حين أبصره في قيده ارتد قلبه كسيرا مهشما فيناشد القيد أن يرحمه ، فهو طفل صغير طائش اللب ، لم يخش أن يأتيه مسترحما ، وليرحم أخياته فهن قد مثله تجرعن السم والعلقما ، ومنهن يفهم شيئا فهي تبكي بكاء مرا حتى إن المعتمد الشاعر السجين ليخاف عليها العمى ، والباقي لا يفهم شيئا لصغر سنه فهو لا يفتح فمه إلا للرضاع .

لقد صور الشعراء السجن بأنه مكان موحش ضيق يؤذي النفس ويجعل للحياة لونا قائما يناقض لون الحرية ، أما مكانه فتحت الأرض أو في الأماكن العالية رغبة في قطع السجين عن العالم ، وهم مقيدون بأنواع من القيود الملتوية كالثعابين ، وأبواب السجون الحديدية إذا اهتزت انفطرت النفس مخافة الموت ، ثم وجود كائنات حية تزيد في رهبة السجن وقسوته وكأنها تصير لازمة من لوازمه ، ويحدثنا المعتمد عن غربان السجن وأقاربه ، ويمكن لنا أن نتخيل ما يمكن أن يكون هناك أيضا من هذه المخلوقات المخيفة .

ويدعو لغربان أغمات التي نعبت فسمع بعدها خبر قدوم بعض نسائه عليه فأسره ذلك ، ولكنه يدعو على عقاربها التي ما زالت تحيفه وترهبه ، فيقول (2) :

1 - المعتمد بن عباد . المصدر السابق . 181 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 189 .

غريبان أغمات لاتعدّ من طيّبة
من الليالي وأفنانا من الشجر
كما نعبئن بالفأل يُعجبني
مُخبرّات به عن أطيب الخبر
ويا عقاربها لا تعدمي أبدا
شجّ وعقرا ولا نوعا من الضرر
كما ملائتن قلبي مذ حللتُ بها
مخافةً أسلمتُ عيني إلى السهر

وقد وصف لنا الشعراء السجناء طول مدة سجنهم ، فهذه ابن زيدون يعبر عنه ،
مصورا نفسه بالسيف في قرابه ، فقال (1) :

إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ
قد يودعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذِّكرِ
وعبر كذلك عن نفاذ صبره لطول سجنه ، فقال (2) :

وبقاء الحسام في الجفن يثني
منه بعد المضاء والتصميم
أفصبر مئين خمسا من الأيب
ام ناهيك من عذاب أليم

وصور سوء حاله في السجن الذي تطاول أمده بالروضة التي طاولها القحط ، فصوح
زهرها ، فقال (3) :

وطال سوء الحال نفسي فأذكرتُ
مئى الروضة الغنّاء طاولها القحطُ
مئين من الأيام خمسٌ قطعنها
أسيراً وإن لم يبدُ شدُّ ولا قحط

ويصور عبد الملك بن غصن سوء حالته الذي بلغ مدى لايوصف حتى إن الردى
ليتلظى لأيسر من حالته ، كما تبكي الخطوب في سجنه الأرضي — كما تقدم — ، ويرسم
صورة طريفة لرنين كبله الثقيل في ساقه ، ويشبهه في رنينه بالخطيب ، ولكن أي خطيب ؟
إنه خطيب للمصائب ، وإن يد الخطوب قد رمته بقوس ، وكم طاشت فلم تصبه قبل ذلك
، يقول (4) :

نحن في حالة ليسر منها
يتلظى الردى وتبكي الخطوب
وكان الكبل الثقيل إذا ما
رنّ في الساق للخطوب خطيب

1 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

2 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 123 .

3 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 84 .

4 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

إن رمتنا يدُ الخطوب بقوس طالما كان سهمها لا يصيب
ويصور عبد الملك بن غصن حاله كذلك بالجنين في بطن الثرى ، والثرى حامل به
، وإن شفاعة ابن هود التي يرحوها لتيسر مولده ، أي إخراجها من سجنه ، يقول (1):
وها أنا في بطن الثرى وهو حاملٌ فيسرّ على رُقي الشفاعة مولدي
ويصور ابن زيدون حاله في سجنه ، والتي أصبحت ظاهرة للعيان ، لانتخفي على أحد
من الناس ، فمن يسأل عن حاله ، فشاهدها محض العيان الذي يغني عن الخبر ، فقد اعتلى
برق المشب عارضه ، ولما يزل شابا لم يخلع برد الشباب ، فسنة دون الثلاثين ، قريب عهد
بالصبا ، وهو في معية الشباب ، فغصن شبابه لم يزل غضا فينانا لم يهتصر بعد ، وقد
أصابته لوعة قدحت نار الأسي في صدره ، وشيبت رأسه إذ طار الشرر إليها فاشتعلت شيئا
، وللرزايا ، فقد شافه منهلها عمرا فغمرته وجرعته من غصصها أقداحا كبارا ، وقد دهمته
أحوادث دون ارتقاب ونالته فحطمته ، وهو في غفلات الدهر آمن قرير، فيقول (2) :

من يسأل الناسَ عن حالي فشاهدُها محضُ العيان الذي يُغني عن الخبر
لم تطوي بُردَ شبابي كَبْرَةً وأرى برق المشيب اعتلى في عارضِ الشَّعر
قبلَ الثلاثينَ إذ عهدُ الصِّبا كَثَبُ وللشبيبة غصن غير مُهتَصِر
ها إنما لوعةٌ في الصدرِ قادحةٌ نار الأسي ومشيبي طائرُ الشَّرر
يا للرزَايا ! لقد شافَهتُ منهلها غَمْرًا ، فما أشربُ المكروه بالعمُر
حوادثُ استعرضتني ما نُذِرْتُ بها غَرارةٌ ثم نالَتني على غَرر
ويصف ابن عمار بؤسه في شقورة (3) بأنه يربي على كل بؤس ، فيقول (4):

بؤسى شقورة عندي أربي على كل بوسى

1 - المقري . نفع الطيب . 3: 363 .

2 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

3 - مدينة شقورة من أعمال جيان بالأندلس . انظر : الحميدي . الروض المعطار 349 .

4 - ابن عمار . شعره . 122 .

فقدت هارون (1) فيها فَظَلْتُ أَطْلُبُ مُوسَى

أما المعتمد بن عباد فقد أفاض في تصوير حاله في سجنه ، وما أصابه من فقر وهم وكمد وقيود مقارنة ذلك بماضيه ، فيصف حاله حيث اتصل به زعانفة الشعر وملحفو أهل الكدية في طنجة أثناء رحلته إلى أغمات ، فسأله العطاء ، فيرى أنهم إربوا فيما ذهبوا إليه إذ سأله عسيرا وهو الأسير الفقير الذي لا يملك شيئا، وإنه أحق منهم بالسؤال، ولولا حياؤه وعزته التي ورثها عن أسرته والتي تملأ عليه أقطار نفسه ، لحاكمهم في الطلب فسأل الناس مثلهم ، وهو الذي كان يجزل العطاء إن سئل الندى ، ويركب فور سماع نداء الصريخ للحرب ، ويبدو في هذه الأبيات تحسر المعتمد على ماضيه الذي فجره في نفسه سؤال الشعراء ، يقول (2) :

شعراء طنجة كلهم والمغرب	ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه	بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة لخميمة	طي الحشا لحاكمهم في المطلب
قد كان إذا سئل الندى يجزل وإن	نادى الصريخ ببابه: اركب يركب

ويصور المعتمد بن عباد ذله وفقره في رده على رجل يعرف بابن الزنجاري سأله أن يزوده من شعره فيقرر أن لو يستطيع لزوده بالذب بدلا من الشعر ، ولكن النوائب التي أصابته منعتة من ذلك ، فقد أصبحت يده صفرا خالية مما تجود به ، وذلك من أعجب العجب الذي قدر عليه وهو في شهر رجب ، فقد آل أمره إلى ذل وفقر أزال عنه عزته وغناه ، وذلك شان الليالي فنعمهاها قريبة من بلواها ، إذ سرعان ما تتقلب البلوى إلى نعمة ، يمثل ذلك بنفسه ، فقد شجاعا يسلب أرواح الجبابرة في المعارك ، ويحيي قتلى الفقر بتلبية مطالبهم ، وكان ذا ملك تحرسه جنود شجعان من العجم والعرب ، وحين شاء الله نزع ملكه منه ، لم ينفعه دفاعه عن ملكه ولم يغي عنه شيئا ، يقول (3) :

لو أستطيع على التزيود بالذهب فعلت ، لكن عداني طارق الثوب

1 - يعني هارون أبا يوازره، متضمنا الآية الكريمة : (0) واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي)) سورة طه : 28 .

2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 154 .

3 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 190 - 191 .

يا سائل الشَّعر يجتابُ الفلاةَ به
زادُ من الريح لارِيٌّ ولا شَبِعُ
أصبحتُ صفرا يدي مما تجود به
ذُلٌّ وفقرٌ أزالا عِزَّةً وغيً
قد كان يستلبُ الجبَّارُ مُهجته
والمَلِكُ يخرُسُه في ظلِّ واهبه
فحين شاء الذي أتاه ينزَعُه
فهاكها قطعةٌ يطوى لها حَسدا

تزويدك الشَّعر لا يُغني عن السَّغب
غدا له مؤثِّراً ذو اللَّبِّ والأدب
ما أعجبَ الحادثِ المقدور في رجب
نُعمى الليالي منت البلوى على كُتب
بَطْشي ، ويجيا قَتيلُ الفقر في طلي
غَلْبُ من العُجم أو شَمُّ من العرب
لم يُجد شيئا قِراع السُّمر والقُضْب
السيفُ أصدقُ إنباء من الكتب

ومعظم شعر المعتمد بن عباد في أسره يسير على هذا النحو من الحنين إلى الماضي والمقارنة بينه وبين حاضره المؤلم ، حيث يعاني الضيم والفقر والذل ، وقد كان شعره في غاية الرقة والصدق العاطفي ، مما يعطف القلوب نحوه ، نظر لصدق التجربة والمعاناة فضل عن شاعريته الرقيقة التي زادتها الحنة رقة وصدقا (1).

ويصور عز الدولة بن صمادح (2) عظم همهم وكمدته ، فيرى أنه إذا سلم الناس من الهم والكمد ، فغنه قد جمعها حتى إنه لم يبق منهما لغيره ما يحاذره ، فلا يقصدان أحدا في الخلق غيره ، يقول (3) :

إن يسلم الناس من همٍّ ومن كمدٍ
لم أبقني منه لغيري ما يحاذره
فإنني قد جمعتُ الهمَّ والكمدًا
فليسَ يقصدُ دوني في الورى أحداً

ولاشك أن الشاعر السجين ، يكون له حاسدون وشامتون ، يفرحون لسجنه وما يلحقه من أذى ، وقد صور الشعراء هؤلاء الحساد والشامتين ، وتجلدوا أمامهم درءا لشماتتهم ، ومن هؤلاء الشعراء ابن زيدون ، كان قد أكثر من الحديث عن الوشين به

1 - انظر على سبيل المثال إضافة لما تقدم ، ديوانه . 155 ، 187 .
2 - هو أبو مروان عبيد الله عز الدلة بن المعتصم بن صمادح ، كان أبوه قد أرسله في آخر دولته رسولا إلى يوسف بن تاشفين ليهنئه بالاستلاء على غرناطة ، فاعتقله ، ومكث هناك إلى أن خلاصه أبوه وبقي بالمرية إلى ان انقراض أمدته . أنظر ترجمته : ابن خاقان . مطمح الأنفس . 403 ، 404 ، ابن الأبار . الحلة السبراء : 2 : 88 - 92 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 201 - 202 ، المقرئ . نفع الطيب . 7 : 40 - 42 ، ابن خاقان . وفيات الأعيان . 5 : 39 - 45 ، هذا البحث . 68 هامش . 1 .
3 - ابن سعيد . المغرب . 2 : 202 .

عند ابن جهور ، ويخاطب هذا الأخير داحضا أكاذيب الوشاة ، فيقول له : ما بالك أيها الأمير تصغي لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان فتقصر في شد أزمري ، وتلتمس الأعدار في التخلي عني ، يقول (1) :

إن زعم الواشون ما ليس مزعما تُعذّرُ في نصري وتُعدّشر في خذلي
ويرسل ابن زيدون لصديقه ابي حفص بن برد يصف أخلاق رجال البلاط والحاشية
وغدرهم ونكثهم بالعهد حيث ابتعدوا عنه وكأنه السلمري الذي يعدي من يقترب منه
بالحمى ، ويصورهم بالذئاب التي هامت بلحمه فأخذت تنهشه بأضراسها وتمزقه بأسنانها ،
وإنهم ليسألون عن حاله ، ولكنه سؤال الذئب الذي يحاول افتراسه فيتسلل ليجد فرصة
لالتهامه وافتراسه في الظلام ، يقول (2) :

ما ترى في معشر حا	لوا عن العهد وخاسوا
ورأوي سامريّا	يُتَّقِي منه المساس
أذؤبٌ حامت بلحمي	فانتهاشٌ وانتهاس
كلهم يسأل عن حا	لي وللذئبِ اعتساس

ويصور ابن زيدون موقف أعدائه وحقدهم عليه وكراهيتهم له ، عاتبا على ابن جهور أنه أصم سمعه عن عتابه ، وأصغى إلى وشايات أعدائه الذين يمزقون سمعته كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، لأنه بلغ الغاية وهم مقصرون فامتألت قلوبهم حقدا عليه ، فصارت كالحية الرقطاء ، وهي من أخبث الحيات ، وقد أولاه هؤلاء الحاسدون جانب البغض ، ولا عجب فإن حياتهم قائمة على الحقد والحسد ، فقد نعتوه بالخيانة وليس لها أهلا ، وليس من شأن أمثاله أن يرموا بهذا الخلق الذميم ، ويعلل فراره بأنه كان مضطرا إلى ذلك ، فإن جعلوا فراره مثبتا الشك في أمره ، فقد وهموا ، لأن سدنا موسى فر من مصر خوفا من فتك الأقباط ، يقول (3) :

عدا سمعَه عني وأصغى إلى عدّا لهم في أدبمي كلما استمكنوا عَطُّ

1 - ابن زيدون . ديوان . 159 .

2 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 81 .

3 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 84 .

بلغت المدى إذ قصرّوا فقلوبهم
يولونني عرض الكراهة والقلبي
وقد وسموني بالتي لست أهلها
فررتُ فإن قالوا : الفرارُ إرابة
مكامنُ اضغانٍ أساودُها رُقْطُ
وما دهرهم إلا النفاسةُ والعَمَطُ
ولم يُمن أمثالي بأمثالها قَطُّ
فقد فرّض موسى حين همَّ به القِبطُ

وقد يصور السجين خصومه إلى سجانهِ ويدعوه إلى ترك أقوال الوشاة الحاسدين الذين يزيدون في سوء مصيره ، فابن عمار يستعطف المعتمد بن عباد في قصيدته الحائية ، ويقول معرضا بالوشاة (1) :

ولاتلفت رأي الوشاة وقولهم
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى
وما ذاك إلا ما علمتَ فإنني
تخيلتُهم لا درّ لله درّهم
وقالوا: سيجزيه فلان بذنبه
ألا إن بطشا للمؤيد يرمي
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا
نعم لي ذنب غير أن لجليه

فكلُّ إناء بالذي فيه يرشحُ
برأي بني عبد العزيز مُوشحُ (2)
إذا بُتُّ لا أنفكُ آسو وأجرح
أشاروا تجاهي بالشمات وصرّحوا
فقلتُ: وقد يعفو فلان ويصفح
ولكنَّ حلمًا للمؤيد يرجح
سوى أن ذنبي ثابت مُتصحح
صفة يزلُّ الذنبُ عنها فيسْفَحُ

فالشاعر هنا خاضع في استعطافه ، ويقال : ((آخر ما أرسل إليه من استعطاف)) ، وهو يوضح مواقف خصومه الذين يزيدون النار اشتعالا ، وهو يحاول بكل ما استطاع ، أن يقتنعهم بأن مساعيهم ستبوء بالخسران مقابل رجائه وأمله بحلم المعتمد وصفحته عنه .

وأحيانا نجد هؤلاء السجناء في وصفهم للوشاة من الحساد والخصوم يأخذ شكل تحذير وتلويح لهم بأن المصير الذي لاقوه سوف يلاقونه هم أيضا ، وأن للأيام يدا طولى تنال الجميع ، فهذا ابن غصن الحجاري يسوق تحذيره للشامتين في شكل حكمة (1) :

1 - ابن عمار . شعره . 38 - 39 ، ابن بسا . الذخيرة . 1/2 : 421 .
2 - ويعني هؤلاء أصحاب بلنسية ، منهم الوزير أبو بكر بن أحمد بن عبد العزيز خاصة ، وهو الذي كان خصم ابن عمار . انظر تفاصيل ذلك : ابن بسام . المصدر نفسه . 1/3 : 40 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 2 : 155 .
1 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 218 - 219 .

أزاح الدهر حلو الماء عني على ظمأ وأسقاني زُعاقه
ورُبَّما استحال السعدُ نَحْسًا فذاق المعتدي مما أذقه
إذا صار الهلال إلى كَمال وتم بهاؤه فارقُب محاقه
وإنَّ عُبوس هذا الدهر يأتي على أثر البشاشة والطلاقه

إذ يعترف الحجاري بمصيره وبقلب الزمان الذي الذي اصابه ، ويؤكد لخصومه أن
السعد ينقلب نحسا وأن حال البشاشة لا بد له من نهاية عابسة دائما .

بهذا نرى الشعراء في السجن وصفوا الشامتين بهم خارج السجن ، وحذروهم مما
سيلحقهم ، فلم يفرحوا لأنهم سيلاقون نفس المصير .

الاستعطاف والاعتذار :

طرق الشعراء السجناء هذا الموضوع لأنه كان يمثل لديهم أمل الخلاص من
السجن ، والانطلاق إلى علم الحرية من جديد ، فكانت جل اشعارهم تدور حول
الاستعطاف والعتاب والاعتذار والتماس شفاعاة الشافعين ممن يمتون بصلة إلى الحكام .
وكانت اشعار الاستعطاف أحيانا تغلفها مسحة من التذلل والخضوع للحاكم مع
الاعتراف بالذنب ، لتكون أبلغ تأثيرا في سبيل غايته ، أو قد يختلط هذا الاستعطاف بالمدح
ليأخذ مأخذه في سبيل الحاكم فيعضو ويصفح ، وقد يتجه الشاعر باستعطاف عن طريق
شفيع يشفع له ، ويتوسل له للوصول إلى ما يتمنى .

ومن الشعراء الذين دارت أشعارهم في السجن حول الاستعطاف والعتاب ، في
القرن الخامس الهجر ، عبد الملك بن غصن الحجاري الذي يستعطف المأمون بن ذي النون
مع جماعة من النبهاء ، وذلك في رسالته في صفة ((السجن والسجان والحزن والحزون)) ،
يحاول فيها أن يرفق قلبه ، فقد أزاح الدهر حلو الماء وهو ظمآن وسقاه الملح الأجاج الذي
لا يروي عطشا ولا يبذل اواما ، وإن رجاءه في الظفر برضى المأمون ، فهو إن ظفر برضاه
حلاله مذاق الماء ، وساغ طعم الحياة ، ولعله يرمز بالماء إلى الحياة ، ولم لا ؟ أليس الله قد
جعل من الماء كل شئ حي ؟ يقول (1):

أزاح الدهرُ حُلُوضَ ماء عني على ظمأٍ وأسقاني زُعاقه
وبالمَرْجُوِّ أن أظفِرَ به من رضا المأمون يُحلي لي مذاقه

ثم يصف حاله وعلاقته بمن قبض عليهم معه ، محاولا التنصل منهم ومن علاقته بهم ،
فما جمعه بهم إلا شقاوة ، وما هم منهم إلا في العير ولا في النفير ، وليس له ناقة ولا حمل في
أمرهم ، يقول الحجاري (1):

وناسٌ لَفَنِي بِهْمُ شَقَاءٌ المّضُ فَرَمَ فِي سَاقِي سَبَاقَهُ
ولم يك لي بذاك العير عيره ولا بقطيع ذاك الدّود ناقة

ونجد الحجاري في مقطوعة أخرى يقول مستعظفا ومعاتبا ومقرا بذنبه (2) :

وليس عقاب المذنبين بمنكر ولكن دوام السُّخَطِ والعَتَبِ ينكر
ومن عجب قول العداة مُثَقِّلٌ ومثلي في إلحاحه الدهر يُعذِر

فهو يقر بذنبه وبالخطأ الذي ارتكبه في قح المأمزن بن ذي النون لما بلغه أنه يقع فيه ،
لكنه يلح في طلب العفو تحت تأثير النفسي الشديد الواقع عليه في هذه المسألة .

أما أحمد ابن شهيد فكان مواليا للأمويين لكنه لم يحظ مع الحموديين بعلاقة حسنة في
قرطبة — كما تقدم — فسجن ، ووجه إلى المعتلي من سجنه قصيدة طويلة ، يصور فيها
حالهم وأسأتهم في السجن ويمدحه في سياق استعطافه واعتذاره عليه ، فيقول (3) :

قريبٌ بمحتلّ الهوان بعيدُ يجود ويشكو حُزنه فيُجيد
نعى ضرّه عند الإمام فيا له عدوٌّ لأبناء الكرام حسود

وفي آخرها يقول (4) :

وراضت صِعبا سَطْوَةً علويةً لها بارقٌ نحوض الندى ورعود
تقول التي من بيتها خف مركبي أقرُبُك دان أم نوكَ بعيد ؟
فقلتُ لها: امري من سَمِضتْ به إلى المجد آباء له وجُدود

1 - ابن الأبار . المصدر نفسه . 218 .

2 - المقرئ . نفع الطيب ز 3: 424 .

3 - ابن شهيد . ديوان . 99 .

4 - ابن شهيد . المصدر نفسه . 101 - 102 .

أما ابن حزم فإنه يستشفع عند الخليفة بمن يدعو الحاجب المرتضى السامي أرومته ،
متمنيا على الله ، وقد حط الدهر منزلته ، أن يلطف به ، فلا شيء يعجزه ، وأن يحنو على
شمله فيجمعه بهذا الحاجب الذي أرسى قواعد المجد في بواكير شبابه ، بحيث لاتضععه نوب
الدنيا ومصائبها ، مادحا أياه بالشجاعة في ساحات القتال حيث تشتجر الرماح ويتحكم
السيف في الرقاب ، كما يمدحه بالارتفاع إلى أسمى غايات المجد ، حيث نال غاية ما كان
يتمناه فحضعت الرقاب لعزه ، وصار موضعه في سماء المجد ، فهو يرتاح لبذل المعروف
وإجابة سؤال ذوي الحاجات فغص ناديه بالوفود الآمال ، وهو نعم الشفيع لمن ضاقت
مذاهبه وأسمى من يشفع لدى الخليفة ، ثم يغريه بفعل الخير ، فكل زارع خير عند مضطهد ،
سوف يحصد ما كان يزرعه ، داعيا له أن يعيش عزيزا محتكما على الأيام مادام حيا ، يقول
(1) :

أقولُ والدهر قد غالتْ غوائلهُ	وحط مني مكانا كان يرفعهُ
عسي لطائفُ من لا شيء يعجزه	تَحنو على شَمَلنا يوما فتجمعه
تُثبتني المجد مذ حُلَّتْ تَمائمُه	بحيث لا تُوبُ الدنيا تضعضه
بحيث يَشْتَجِرِ الخَطِيُّ في صَفدِ	ويَظلم السيفُ ذا بأسٍ ويُرضه
بالحاجب المرتضى السامي أرومته	إلى هلال الذي بالسعد مَطلعه
سما إلى غاية في المجد سامية	فنال غاية ما قد كان يُزمعه
فأصبحتُ قُلل السامين خاضعةً	لِعزه و سماءُ المجد مَوضعه
وارتاح للُعرف و الحاجات يسألها	فغصَّ بالوفد و الآمال مَصنعه
نعم الشفيعُ لمن ضاقت مذاهبه	لدى الخليفة أسمى من يُشفعه
و كل زارعٍ خير عند مُضطهد	فسوف يحصد ما كان يزرعه
فعرش عزيزا على الأيام مُحْتَكِما	ما هزَّ ذيل الصِّبَا غُصنا يُزعزعه

وابن زيدون فإنه قد ضرب بسهم وافر في الاستعطاف والاعتذار والاستشفاع ،

ففي قصيدته التي يصف فيها مرارة الاعتقال ، يقول (1) :

يا بهجة الدهر حياً وهو - إن فنيت
لي في اعتمادك بالتأمل سابقة
ففيهم غصت همومي من علا هممي؟
هل من سبيل فماء العتب لي أسن
نذرتُ شكرك لا أنسى - الوفاء به
لا تله عني فلم أسألك مُعتسفا
و استوفر الحظ من نُصح وصاغية
هيني جهلتُ فكان العلق سيئة
إن السيادة بالإغضاء لابسة
لك الشفاعة لا تُثنى أعنتها
فاشفع أكن مثل ممطور ببلدته
و ألبس من النعمة الخضراء أيكنتها
نعيم جنة دنيا ، إن هي انصرمت

حياته - زينة الآثار والسير
وهجرة في الهوى أولى من الهجر
وحاص بي مطلبني عن وجهة الظفر؟
إلى العذوبة من عُنباك والخصر؟
إن أسفرت لي عنها أوجه البشر
ردّ الصبا بعد إيفاء على الكبر
كلاهما العلق لم يوهب ولم يُعر
لا عُذر منها سوى أي من البشر
بهاءها ، وبهاء الحسن في الخفر
دون القبول بمقبول من العُذر
جدلان بالوطن المألوف والوטר
ظلا حراما على الإرماض والخدر
نعمت بالخلد في الجنات والنهر

استهل ابن زيدون قصيدته في مدح ابن جهور بالغزل المرتبط بموضوع القصيدة ارتباطاً عضوياً ، حيث يتعرض للذكريات الجميلة التي أعقبها ألم الفراق ، ثم يصور حاله في السجن ، ويرد على الشامتين به ، ثم ينتقل إلى مدح ابن جهور ، ويصور حرمانه من الأمير وشقائه في ظله ، على حين سعد به جميع الناس وتلك كبرى العبر ، حيث كان يحسب نفسه في أوج العلا في ظل الأمير ، فإذا به يصبح ملتصقا بالتراب ، ثم يفتخر ابن زيدون بأدبه ، في مزج المدح بالاستعطاف ، فالأمير بهجة الدهر في حياته ، وإذا مات فهو زينة الآثار والسير ، ويناشده أن يحقق آماله فيه ، فقد هاجر قلبه إليه وتعلق به ، وهجرة القلوب أحق وأولى بالرعاية من هجرة الأجسام . فما للهموم تغض من همم ابن زيدون

العالية ؟ وما لآماله العريضة تنحرف به عن الظفر ؟ ويتساءل ابن زيون ويلح في السؤال عن سبيل ، أي سبيل إلى تذوق رضا ابن جهور العذب السائغ ، بعد أن تكدر الصفو بالعتاب . ثم يندر لله أن يقوم بشكر الأمير والثناء عليه إن جاءه البشير بصفحه عنه وإقباله عليه ، ندرا واجب الوفاء ، ويحاول أن يعطفه عليه منبها أياه إلى عدم التشاغل عنه ن فإنه لا يطلب مستحيلا مثل رد الشباب بعد الاشراف على الكبر ، ويغريه بأن يبادر بالصفح والمغفرة ليستكثر من نصحه له وميله إليه ، فالنصح الخاص والود المتين كلاهما كالشيء الثمين لا يوهب ولا يعار ، ويعتذر إليه مفترضا أنه أخطأ ، فإن عذره في جهالته أنه من البشر ، ويغريه بالعمو عنه ، فإن السيادة تزدان بالإغضاء والصفح والغفران ، كما يزدان الحسن بالحياء ، والأمير له الشفاعة المطلقة التي لا يقف في سبيلها أي عذر من الأعذار ، فليشفع له ، فإن شفاعته ستجلب له الأمان ، فيكون مثل من يأتيه الخصب والنماء في وطنه دون اغتراب ، فيسعد بإقامته في وطنه وقضاء حوائجه فيه ، ويدعو ابن زيدون للأمير في ختام قصيدته بأن يتمتع بظلال النعيم ، آمنا من لفحات الحر ولذعات البرد ، متمنيا له النعيم في الدنيا حتى إذا رحل عنها بالخلد في الجنات والنهر .

ونلاحظ على استعطاف ابن زيدون واعتذاره ، أنه لا يخضع ولا يذل بل يضع نفسه على قدم المساواة مع ابن جهور ، بل إنه في بعض الأحيان بل في كثير منه ، يفتخر بنفسه ورأيه وأدبه ومؤهلاته التي يفتقدها حاسدوه ، وهذا مال نراه في استعطاف ابن عمار حينما عرضه صاحب شقورة للبيع ، في مدة اعتقاله ، كتب إلى صاحب المرية ، يقول (1):

نفسى تحن إلى فداء
تفديك نفسى من
شراء

فاسبق بنفسك وعدهم
ثم امض فيّ على احتيا
و الله ما أدري إذا
ما أقتل الحاليين لي
مسترخصا لي بالغلاء
رك من فناء أو بقاء
قالوا : غدا يوم اللقاء
إن كان خوفي أو حيائي

فابن عمار يستعطف صاحب المرية في هذه الأبيات وويستحثه على شرائه ليخدمه ما بقي من حياته ، مقسما أنه لن يجور نقده من يشتره بغالي الثمن ويضمه لخدمته ، بل سيكون راجحا في سففته ضاربا المثل في البر .

ويستعطف ابن عمار في سجنه بإشبيلية المعتمد بن عباد في قصيدة كتبها إلى الرشيد بن المعتمد يطلب شفاعته لدى أبيه ، فيقول (1) :

قل لبرق الغمام ظاهر بريدي	قاصدا بالسلام قصر الرشيد
فتقلب في جوّه كفؤادي	وتناثر في صحنه كالفريد
وانتحب صلاصل الرعد تحكي	ضحتي في سلاسل وقيودي
فإذ ما اجتلاك أو قال ماذا	قلت: إني رسول بعض العبيد
بعض من أبعده عنك الليالي	فاجتني طاعة المحبّ البعيد

ففي مطلعها يخاطب برق الغمام أن يظهر بريده في إبلاغ السلام إلى قصر الرشيد ، فيتقلب جوه كفؤاد ابن عمار ، وأن يتناثر في صحنه كالفريد ، وأن ينتحب في صلاصل الرعد محاكيا ضجة ابن عمار وسلاسله وقيوده ، حتى إذا ما لفت نظر الرشيد فسأل عنه ، قال إنه رسول عبده أو بعض عبيده ، الذي أبعده عنه الليالي فطاعته طاعة المحب البعيد ، ثم يمدح الرشيد ووالده المعتمد مشيدا بمزله لدى والده ، ويختم قصيدته مسائلا نفسه ، بقوله (2) :

فعلام السرى بصبح رضاه	مع سنا وجهك الأغرّ السعيد
وإلى أين في الشفيح إذا ما	لم ألد منك عنده بالرشيد
بفتى نازح المكان مطلّ	غائب الشخص ذي اعناء عتيد
مُشفق يستجيب لي من قريب	وأنا استغيثه من بعيد
لو أطلت عليّ رحمة عيني	ه أجلتُ شدي وذاب حديدي

فعلام يسرى ويتخبط ليصل إلى صبح رضاه مع وجود ضوجه الرشيد الأغر

1 - ابن عمار . شعره ز تحقيق مصطفى الغديري . 55 .

2 - ابن عمار المصدر نفسه . 56 .

السعيد ، وليس له من شفيح إذا لم يلد عند المعتمد بالرشيد ، ذلك الفتى البعيد المكان القريب بعطفه ، الغائب الحاضر بعنايته الشديدة وإشفاقه على ابن عمار ، حيث يستجيب له من قريب ويستغيثه من بعيد ولو أطلت على ابن عمار رحمة عينيه ، لانكشفت مصيبتة وذابت قيوده وتخلص مما هو فيه من شدة .

ونجد ابن عمار قد نظم قصيدة في سجنه ياشبيلية ، جعل من نفسه فيها عبدا للمعتمد بن عباد ، متعجبا من شرائه له مرة أخرى وافتدائه بالمال متشككا في ذلك الأمر مستريا منه حين يقول في مطلع هذه القصيدة (1) :

يقول قوم: إن المؤيد قد أحال في فديتي على نُقْدِهِ
ياقومُ ماذا الشراء ثانيةً ترى لمعنى يريب من عنده؟!
أوحشني ، السماحُ عادتهُ سماحُه للغلاء في عبده

ويمضي ابن عمار على هذا النحو من استعطاف المعتمد والاعتذار إليه ، متمسكا منه أن يقيله بما بينهما من رضى له باب مفتوح إلى رحمة الله ، وأن يغضى عن جرمه ، ويعفى على آثاره بنفحة رحمة تمحوه ، وألا يلتفت إلى رأي الوشة فيه وقولهم عنه ، لأنهم ممتلئون حقدا عليه ينضح على ألسنتهم ، كما تقدم (2) .

وقد ذهب كل هذا الاعتذار والخضوع والتذلل والا استعطاف أدراج الرياح ، حيث كاد المعتمد بن عباد يرق له لولا أن زوجه ذكرته بما كان من هجاء ابن عمار لها — كما تقدم — وأوغرت صدره عليه ، فقتله بيده وندم فيما بعد على فعلته .

و شاء القدر أن يجري على المعتمد ما جرى على شاعره من أسر و ذل ، و لكن المعتمد لم يستعطف أحدا ، و لم يعتذر لأحد ، فقد كان معتزا بنفسه ، و لم ينس يوما أنه كان ملكا ، و لكن ذلك لم يمنعه من الاعتذار لشاعره ابن حمديس حين مضى لزيارته بأغامت فصرفه بعض خدمه ، فلما علم المعتمد عز عليه ذلك و عنف خدمه ، و كتب إليه بالغداة قصيدة يعتذر إليه مطلعها (3) :

1 - ابن عمار . ديوان . تحقيق مصطفى الغديري . 59 .

2 - انظر هذا البحث . 150 .

-158-

حجبت ، فلا و الله ما ذاك عن أمري

فاصغ فدتك النفس سمعا إلى عذري!

هكذا نجد موضوع الاستعطاف و الاعتذار كان من أهم ما قاله الشعراء السجناء ، لأنه كان يمثل لهم في كثير من الأحيان أمل الخلاص و استعادة الحرية من جديد، و وجدنا في استعطافهم هذا تفاوتاً بين متذلل للسجان و بين معتر بنفسه و من دون ذلك ، و في كل ذلك يمزجون بين المدح و الاستعطاف أو بين الاعتذار والاستعطاف و منهم من يتوسل في استعطافه بشفيح له منزلته عند السجان يجعله يعفو عن المذنب و يسامح المسيء.

الحديث عن الذكريات :

في غيابات هذا السجن المظلم يرى السجين أمله و بارقة الضوء في أيامه الماضية الجميلة ، أيام الحرية و الذكريات الحلوة ، فنراه يسكن إلى تلك الذكريات يقبس منها جذوة تنير له حاضره ، و قوة تعينه على تحمل ما وصل إليه في مأساته فالشاعر السجين في لجوءه إلى ذكرياته يقارن بين ماض جميل سعيد و حاضر قاتل تعس و في خضم كل ذلك يفقد وطنه و أهله و أحبته ، و لذلك نراه ييئس أشواقه و حنينه المتأجج ، لأنهم أيضاً جزءاً لا يتجزأ من ذلك الماضي الذي يتحسر عليه و يتمنى عودته، ففي هذه الدراسة نفضل الحديث في هذا الموضوع المقارنة بين الماضي و الحاضر ، و الحنين إلى الأهل و الأحبة.

أما المقارنة بين الماضي و الحاضر فإن شعراء السجن يتحدثون عن حاضرم التعس المؤلم و مصيرهم غير الحمود ، نجدهم يلتفتون إلى الماضي فتتداعى صورهم أمامهم زاهية مشرقة ، صور اللعب و اللهو و صور الراحة و السرور.

فالمعتمد بن عباد في سجنه يتحسر بألم جديد على ماضيه العزيز الذي سلبه الزمان إياه ، و أودعه حياة ذليلة في سجنه بأغمات ، فنجد أشعاره جميعاً قد غلفها الأسى و الإنكسار ، لكن ذلك لم يزد إلا عزة و أنفة أمام سجنه . و قد احتلت الذكريات حيزاً لا بأس به من أشعاره في السجن لأن حياته السابقة الحافلة المليئة قد توارت خلف قضبان

سجنه ، فلم يبق معه منها غير ذكرى جميلة تعاوده بين حين و حين ، تشير في نفسه الشجن و الأحزان ، ففي جواب له على قصيدة من ابنه الرشيد يصف فيها حاضره و يقارنه بماضيه السعيد قائلا (1):

كنت حلف الندى و رب السماح و حبيب النفوس و الأرواح
إذ يميني للبذل يوم العطـاء و لقبض الأرواح يوم الكفاح
و أنا اليوم رهن أسر و فقر مستباح الحمى مهيض الجناح
عاد بشري الذي عهدت عبوسا شغلتي الأشجان عن أفراحي

فماضيه يزخر بحياة مفعمة بالكرم و البذل و الشجاعة و الفروسية يوم الكفاح ، أمل حاضره فيتصف بالفقر و ذل الأسر ، إذ عبس الزمان بوجهه بعد أن كان طلقا بشوشا فقد كان المعتمد في ماضيه الملك الأمر الناهي و أصبح الآن عبدا ذليلا في أسره .
و نجده يتذكر في سجنه أيامه الهائلة في قصوره الفخمة التي يبكيها في محنته (2):

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على أثر غزلان و آساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغالي
بكى الوحيد ، بكى الزاهر و قبه و النهر ، و التاج ، كل ذله باد

فأبياته تلك التي تقطر دموعا و لوعة يتضح فيها الحزن و الذل و الإنكسار الذي لحق كل شيء يتعلق بالمعتمد و يرتبط به ، فبكت قصوره على فارسها المقدام و رثت له في محنته .

و قصور المعتمد بالله و أمة الملك ليست وحدها ما يتعلق به ، فأهله و أبنائه أكثر لصوقا به ، كما سيأتي .

و أما الحديث عن الحنين إلى الأهل والأحبة والديار والوطن فهو جزء من معالم الماضي الجميل ، وقد كانت المرأة أما أو زوجة أو حبيبة حاضرة في أشعار السجناء ، والحديث إليها في أشعارهم كان يبعث في نفوسهم الراحة والأمل فهذا ابن زيدون يحاول

1 - المعتمد بن عباد . ديوان .. 157 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 161 .

أن يخفف عن أمه مصابها به ، ممثلاً حالتها بحالة أم موسى عليه السلام إذ رمت بطفلها في
اليم ن ويوكل أمرها بابنها إلى الله أحكم الحاكمين ، وأنه لا بد لهذه المحنة من نهاية ،
فيخاطبها من سجنه (1) :

أمقتولة الأجان مالك وماها ؟ ألم تُرك الأيام نجما هوى قبلي ؟
أقلي بكاء لست أول حرة طوت بالأسى كشحا على مضمض الثكل
وفي أم موسى عبرة إذ رمت به إلى اليم في التابوت ، فاعتبري واسلي
ولله فينا علم غيب ، وحسبنا به — عند جور الدهر — من حكم عدل
والشوق شديد جدا في نفس السجين لهله وأصحابه لأنه انتزع انتزاعا ، وألقي به في
حياة الوحدة الموحشة ، ونجد هذا في قول ابن حزم يتشوق لأهله وزوجته (2) :

يا راحلا عند حيّ عنده رمقي أقر السلام على من لم أودّعه
وسله بالله عن عهدي أيحفظه فهده. مكان لا أضيّعه
وكيف عني وعن أنسي يُصيرُه أم كيف بعد بعادي عنه أربعه
وأطول شوقاه ما جدّ البعاد بهم إليهم مذ سعوا للبين أقمعه
لئن تباعد جثماني فلم أرهم فعندهم — وأبيك — أجمعه
يبلغهم شوقه الشديد فهو قد ترك قلبه وروحه وسبب حياته عند أهله ، وهو يسأل
عنهم وعن عهودهم معه ، وكأنه على الرغم من بعاد جسده عنهم لا يزال قلبه المليء
بالأشواق لديهم .

ونجد ابن حزم يتذكر أطفاله الذين تركهم خلفه ، فتثير الذكرى في نفسه الشجون
على البعاد عنهم وطول السهر بعدهم ، يقول (3) :

ذكرى لفراخه في كل ناحية توحى إلى القلب أسراراً تُقطّشعه
كم قد تحمّل من أعباء تأيهم نضوا نبا بلذيد النوم مضجعه

1 - ابن زيدون . ديوان . 159 .

2 - ابن حزم . ديوان . 71 ، عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . 386 .

3 - ابن حزم . ديوان . 69 .

إن انقطاع الشاعر عن أبنائه يشعره بعظم المصيبة الواقعة عليهم والنتائج المترتبة على هذا البعد، فهو يعي أهمية دور الأب ومكانته بين أبنائه وعلى رأس أسرته .
ومثلما لقي ابن حزم في سجنه هم فراق الأبناء ، فإن مصيبة المعتمد قد فاقد سابقه لأنه لم يفجع بفراق أبنائه وحسب بل فجع في سجنه بنباً مقتل ابنه الراضي والمأمون فرثاهما بأشعار تدمي الفؤاد، فقال (1):

يقولون صبوا ، لاسبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
مدى الدهر فليكي الغمام مُصابه بصنويهِ يُعذّر في البكاء مدى الدهر
هوى الكوكبان: الفتح ثم شقيقه يزيدُ فهل بعد الكواكب من صبر
ففقدان ابنه وهو في السجن ، قد زاد في المصيبة التي ألمت به بعد خلعه عن عرشه ، وأفقدته كل صبر .

وأما الوطن والديار فهي حاضر في وجدان الشعراء في سجنهم ، والوطن صورة زاهية مفعمة بالحرية والأمل ، على نفيض الواقع الذي يعيشونه ، فيشتد الشوق والحنين إلى الوطن والديار ، وهو في حقيقته شوق وحنين إلى الحرية خارج جدران السجن الضيق.

ونجد عبد الملك بن غصن لاتفارقه دياره في سجنه ، يقول (2) :

وخلُّ يسليني على بُعد داره ويكشف من قُرب الحبيب المتيم
وداري موقوفٌ عليه وختلي وفكري مشغول به وتوهمي
فالعلاقة القوية التي تربطه باهله وأصدقائه تسليه في محتته ، ولاتغيب عن ذهنه ، على الرغم من المسافة الفاصلة بينه وبينهم ، وهذا الاحساس الذي يغمر الشاعر في تطلعه وتلفهه إليهم خارج السجن ، يعكس تلفههم إلى عالم الحرية .

وهذا عبيد الله بن المعتصم يحن إلى المرية وماضيه فيها حيث الرفعة والمعالي وركوب الخيل والحرية والعزة، ويقابل ذلك بما آل إليه أمره من خمول وكبول وأسر وذل،

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 162 .

2 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 219 .

وحقه أن يكرم ، وفي ختام مقطوعته يحن إلى المرية الكريمة عليه ، معلنا لهفه للوصول إليها ، فيقول (1):

أبعد السنّا والمعالي حُمول	وبعد ركوب المذاكي كبول؟
ومن بعد ما كنتُ حرا عزيزا	أنا اليوم عبداً أسير ذليل
حللتُ رسولا بغرناطة	فحلّ بها بي خَطْبٌ جليل
وَتَقَفْتُ إذ جفتها مُرسلا	وقد كان يُكرّم قبلي الرسول
فقدتُ المرية أكرمَ بها	فما للوصول إليها سبيل

وهكذا ففي الحديث عن الذكريات عند الشعراء السجناء يدور حول المقارنة بين الماضي والحاضر لما بينهما من تناقض ، وهم يتشوقون إلى الماضي الحر ليزيل عنهم هذه القيود وهذا العذاب ، كما نجد الحنين إلى الأهل والأحباب والوطن جزء لا يتجزأ من صور الماضي المشرقة بالحرية ، ولذلك فالشوق إليهم كبير على بُعد الديار .

الأمّل واليأس والاستسلام :

لقد كشف لنا الشعر الذي كتب في أعماق السجون عن مواقف الشعراء السجناء المتباينة والمتمثلة في مواقف متباينة منها : موقف الأمل الذي ظل السجناء متشبثين به ، وعبروا به باعتذارهم واستعطافهم وعتابهم لنيل رضا وعتفو رضي وعتفو السجناء عنهم — كما سبق — لكن هناك من أدركوا غايتهم ، فكانوا يخففون من مصابهم ، ويعزّون أنفسهم بالأمّل الذي يتشبثون به بكل ما يملكون من قوة، وهذا عبد الملك بن غصن الذي ظل يستعطف المأمون بن ذي النون في أشعاره ويرجو العفو عن طريق بعث قصص الأنبياء السابقين في حلية ذكية لطيفة ، يقول (2):

إن رمتنا يدُ الخطوب بقوس	طالما كان سهمها لا يصيبُ
أو يكن عتْر الزمان فمرجُو	لإنعاشنا القريب الحبيب
قد أحاب الإله دعوة نوح	حين نادى بأنه مغلوب

1 - ابن خاقان . مطمح الأنفس . 404 .

2 - ابن الأبار 220

وشفى ذو الجلال علة أيوب
بَ وقد شارف الردى أيوبُ
وانقضى سجن يوسف وقد استي—
أس، وارتدَّ مُبصرًا يعقوب
فهذا التوظيف المناسب لقصص الأنبياء السابقين أبرز لنا قسماة الأمل والبشر تعلق
وجهه ، وقد تخلص من الشاعر فيما بعد من سجنه وأصح حرا طليقا .

وعلى نقيض الأمل الذي يتشبث به بعض السجناء ، فإن آخرين غيرهم ملوا
الاستعطاف وحضوا لليأس والاستسلام كما بن زيدون مع ابن جهور ، الذي انقلب من مدح
إلى هجاء سجانة ابن جهور ، يقول (1) :

بني جهور! أحرقتم بجفائكم
حناني ، ولكنَّ المدائح تعبقُ
تعدوني كالغدير الورد ، إنما
تطيب لكم أنفاسه حين يُحرق!

وأما المعتمد بن عباد فإنه لم يستعطف ابن تاشفين — كما تقدم — وإنما استسلامه
كان غاية اليأس التي وصلت إليها نفسه ، والذي دار الزمان عليه وبدله من ((عز البنود إلى
ثقل القيود)) ، فهذا هو يخاطب الوزير الطبيب ابن زهر (2) ، يقول (3) :

دعا لي بالبقاء ، وكيف يهوى
أسيرٌ أن يطول به البقاء؟
أليس الموت أروحَ من حياةٍ
يطول على الشقيِّ بها الشقاء؟
فمن يك من هواه لقاء حبٍ
فإنَّ هواي من حنفي اللقاء!

فشدة اليأس التي وصل إليها المعتمد بن عباد جعلته يرى الحياة في السجن لا قيمة لها
، ولذلك يفضل الموت عليها ليتخلص من بؤسه وشقائه .

ونجده في هذه الأبيات يقنط وينقلب من موقف الأمل والصبر الذي كان عليه إلى
موقف اليأس والاستسلام لقضاء الله وقدره ، فيقول (4) :

ماذا رمتك به الأيام يا كبدي
من نُبلهن و لارامٍ سوى القدرِ

1 - ابن زيدون . ديوان . 255 .

2 - هو أبو مروان عبد الملك بن زهر ، نشأ بشرق الأندلس ، ورحل إلى قرطبة وتعلم فيها ، ودرس الطب وأخذ وأخذ عن أبيه ، وكان
إلى مهارته في الطب مقديما في الأدب .، توفي بقرطبة سنة 525 هـ . انظر ترجمته ابت الأبار . التكملة . 334 ، صاعد الأندلسي .
طبقات الأمم . 106 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 176 .

-164-

أَسْرُ وَعُسْرٌ وَلَا يُسْرٌ أَوْمَلَّهُ اسْتَغْفِرُ اللَّهُ كَمِ اللَّهِ مِنْ نَظْرِ

وبهذا يتبين لنا أن الشعراء السجناء ، وقفوا في سجنهم موقفين موقف الأمل وموقف اليأس ، وكان الأمل يشيع في قلوب بعضهم ، فيدعون الله ويتأملون فرجه ، وبعضهم تشفع بالنبي الكريم ، وأما الذين وقفوا موقف اليأس ، فكانوا من الذين عانوا السجن طويلا مستسلمين لقضاء الله وقدره .

يتضح — مما تقدم — من أمثلة ، أن شعر السجن نظمته شعراء في غياهب السجون ، في شكل قصائد ومقطوعات شعرية ، تعبر عن مأساتهم سواء في وصفهم للسجن والسجان أم في استعطافهم واعتذارهم وعتابهم ، أم في ما أثاره وضعهم ومحتهم من حنين إلى الماضي وإلى الأهل والأحباب والوطن وإلى عالم الحرية ، وتتجلى في كل ذلك عواطفهم الصادقة ، كما يتجلى صدقها أيضا في وصف ما أصابهم من يأس في الخلاص أو في تعبير بعضهم عن لحظة الفرح عقب العفو عنه أو الفرار من السجن ، في القرن الخامس الهجري ، الذي يتسم بالصراع الداخلي على الخلافة في عهد الفتنة وفي عهد ملوك الطوائف بغية التوسع على حساب غيرهم ، ولو أدى ذلك بالاستنجد بالنصارى الذين سهلت عليهم مهمة استرداد هذه الممالك ، كما سيأتي الحديث في رثائها ، وكانت معركة الزلاقة بداية النهاية لعهد ملوك الطوائف .

الفصل الثاني شعر السجن

يعد شعر السجن شديد الصلة بشعر المهجاء السياسي ، فهو نتيجة له في معظم الأحيان ، إذ كثيرا ما يؤدي الموقف الأول بصاحبه إلى السجن عقابا له ، وقد يكون السجن لأسباب أخرى لاداعي للخوض فيها .
ومع أننا سنقتصر في هذا المجال على شعر السجن المرتبط بالسياسة وأحداثها ، فإن دواعي السجن السياسي وظروفها تختلف من سجين لآخر ، وسنتعرف على ذلك أثناء دراستنا للنصوص الشعرية التي عبرت عن هذا الاتجاه في الشعر الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري .

أما الذين توافرت لنا نصوص من شعرهم في السجن ، فهم في الغالب من الذين اتخذوا مواقف لم ترض الحكام ، أو اقترفوا ما استوجب سجنهم في نظرهم ، أو حتى قتلهم ، وهم أحيانا من كبار رجال السياسة انفسهم ، ومن أشهرهم : أبو عامر أحمد ابن عبد الملك بن شهيد (1) ، وابن حزم (2) ، عبد الملك وابن غصن الحجاري (3) ،

1 - كان ابن شهيد ينعم بظلال والعامرين ، لكن الفتنة سلبته هذا العز وهذا الرفه ، فلحقته سعيات ووشايات ، وواقعه سوء حظ مع الحموديين ، فسعي به إلى المعتلي يحيى بن حمود أثناء خلافته بقرطبة زمن الفتنة فنكبه وسجنه ، وفي السجن وصف السجن وأشار إلى الحساد والواشين ، وتحدث عما يعانیه إلى أن أطلق سراحه . انظر تفاصيل ذلك : ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 203 ، بلا ، شارل . ابن شهيد الأندلسي ، حياته وآثاره . 43 ، عبد العزيز ، أحمد . قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . 46 .
2 - كان أبو محمد علي بن حزم في عصر الفتنة وزيرا لعبد الرحمن المستظهر بالله ، ثم لهشام المعتد بالله ، وقد سجنه يحيى بن علي بن حمدون لاثامه بالميل إلى المويين قبل ذلك . انظر تفاصيل ذلك : ابن حزم . ديوان . 14 ، ابن بسام . الذخيرة 1/1 : 169 .
3 - هو أبو عبد الملك بن غصن ، نكبه المأمون بن ذي النون ، واعتقله مع جماعة من النبلاء بويذة من أعمال طليطلة ، فكتب إليه رسالة ((في صفة السجن والمسجون والحزن والخزون)) دلت على مكانه من العلم والأدب والحفظ ، وأودعها ألف بيت من شعره في الاستعطاف ، وسبب نقمة المأمون عليه صحبته لرئيس بلده ابن عبيدة ، وبلغ المأمون أنه يقع فيه كثيرا ، فنكبه شر نكبة وحبسسه ، وتوفي سنة 454 هـ . وقد خلط الرواة بينه وبين عبد الملك بن حصن الذي نكبه المأمون بن ذي النون ، فيما يرى شوقي ضيف ، ورد عليه إحسان عباس مرجحا أنه عبد الملك بن غصن . أنظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 1/3 : 332 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 30 العماد الإصفهاني . الخريدة 2 : 166 ، ابن الأبار إعتاب الكتاب . 218 - 220 ، والمقري . نفع الطيب . 3 : 263 ، 264 .

وابن زيدون (1)، وابن عمار (2)، والمعتمد بن عباد، وغير هؤلاء .
وبالنظر إلى شعرهم الذي عبروا به عن نكباتهم ، نلاحظ تشابها في المواقف حيناً ،
وتمايزاً حيناً لآخر ، ومع أنهم حاولوا الاعتماد على الكلمة لإثارة الشفقة ونيل رضا
وعطف الحكام ، فقد أجيب بعضهم ، ولم يجب البعض الآخر ، على أن هذا الشعر لم
يكتف بمجرد تسجيل النكبات ، بل تعدى ذلك إلى تناول عدة قضايا يمكن عدّها من
العناصر الرئيسية في شعر السجن .

وهكذا اتخذ هؤلاء الشعراء السجناء الشعر وسيلة للاستعطاف والاعتذار ووصف
الهموم النفسية التي تصور السجن وما ينتاب السجين من مشاعر ويعرض له من هواجس
في هذه التجربة القاسية والمرة التي يفقد فيها السجين حريته .

وصف السجن:

لقد وصف شعراء القرن الخامس الهجري في شعرهم السجون التي سجنوا فيها
بصور مختلفة ، فهذا عبد الملك بن غصن الحجاري يصور السجن بالقبر الذي دفن به حياً ،
ويلتمس رحمة المأمون بن هود حتى يفارقه ، فينشر مرة أخرى ، يقول (3):
فديتُك هل لي منك رُحْمى لعلني
أفارق قبراً في الحياة فأنشرُ
ويكرر ابن حزم صورة الحجاري ، فهو حي يسكن قبراً ، فكيف تكون حالته ؟
إنه ينظر بعين أسير قل رجاؤه وعز مطمعه ، فقد طال محبسه في هاويات السجن، وتفرق

1 - يعد ابن زيدون من الشعراء المقدمين لدى أبي الحزم بن جمهور ، فإنه وقع فريسة المؤامرات التي حيكت حوله ، وأوقعت عليه
اتهامات بمحاولة القيام على دولة بني جمهور ، ((وأن غشيانه مجالس ولادة غشيان مريب ، قد يخفي خلفه مؤامرات سياسية مع أقاربها
الأمويين المخلوعين)) ، وما كان من ابن جمهور أن لفق له تهمة وسجنه ، وفر بعدئذ منه إلى إشبيلية عند المعتضد بن عباد . انظر هذه
الخبار : ابن زيدون . ديوانه ورسائله . تحقيق على عبد العظيم . 40 ، الركاوي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 175 ، عبد العزيز ،
أحمد . قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . 40

2 - كان ابن عمار وزيراً للمعتمد بالله وسيره إلى مرسية ، فاستخلصها من بني طاهر ، ثم استأثر بها لنفسه وأنزل اسم الملك المعتمد
من منابرها ، ولكن سرعان ما وقع في يد المعتمد وقتله بيده بعد سجنه لمدة . انظر تفاصيل ذلك : ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 268 ،
403 ، 422 ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 159 - 161 ، المراكشي . المعجب . 125 ، 129 ، ابن عمار . شعره تحقيق
صلاح خالص . 152 ، وتحقيق مصطفى الغديري . 14 .

3 - المفري . نفع الطيب . 3 : 424 .

شمله ، يقول (1) :

أم كيف حالة حيّ ساكن جَدثًا يرنو بعين أسير عزّ مطمعه
قد طال في هاويات السجن محبسه وانشتّ من شمله ما كان يجمعه
ثم نجد عبد الملك الحجاري ، قد ضاق سنه وضافت حليته حتى صار كعش الحية
الصغيرة ، وهو يتجنب ذكر خله في سجنه إكراما له ويخجل حتى من طيف الخيال الذي
يلم به مسلما ، فيقول ((2) :

على أنني من ضيق سجنِي وحليتي بليتُ كما حُدثتَ عن حفش أيم(3)
أُجانبُ فيه ذكرى خَلِيّ كرامة وأحجلُ من طيف الخيال المسلّم
ونجد عبد الملك الحجاري يصف حالته في سجن أرضي ، ليس له في وطء الأرض
حظ ، وليس له نصيب في نشق الهواء ، وإن سجنه في ضيقه كأنه ظلّ شاة ولا يسمع فيه
ديب لذي ديب ، فيقول (4) :

مالنا في وطء البسيطة حظ لا ولا في نشق الهواء نصيب
في محلّ كأنه ظلّ شاة ليس فيه لذي ديب ديب
وهذا السجن الضيق في الأرض الشبيه بالقبر المتصف بالسكون والوحشة ، قد
يكون أيضا في السجن العالي المنقطع عن العالم ، الذي يزيد وحشة السجين وحشة فوق
الوحشة التي هو فيها ، فكأنه ملاذ الجن والنسور ، وهو مكان موحش لا يعرف فيه
الإنسان أحياه الإنسان ، وهو قصر شيد بين النجوم وأوكار النسور ، يقول ابن عمار
في وصف سجنه (5) :

عال كأن الجن إذا مردتُ جعلته مَرَقاة إلى النسر
وحش تتاكرت الوجوه به حتى استربتُ بصفحة البدر

1 - ابن حزم . ديوان . 70 .

2 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

3 - الحفش . البيت الصغير . لسان العرب مادة (حفش) .

4 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

5 - ابن عمار . شعره تحقيق مصطفى الغديري . 71 .

قَصْرٌ تَمَهَّدَ بَيْنَ خَافِقَتَيْ
نَسْرَيْنِ (1) مِنْ فَلَكَ وَمِنْ وَكْرٍ
مَتَحِيرٍ سَالَ الْوَقَارَ عَلَيَّ
عَطْفِيهِ مِنْ كَبْرٍ وَمِنْ كَبْرٍ
مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ رَاحَتُهُ
فَجِيَاذُهَا مِنْ تَحْتِهِ تَجْرِي

أما ابن شهيد فإنه يصف السجن وصفا تفصيليا مؤثرا ، فقد ابتلي بخمس مصائب ، هي فراق أحبته وسجنه والشوق إلى خلانه والذل في سجنه ، وسجان جبار عتيد ، ويلتمس من يبلغ إخوانه أنه مقيم بدار الطغاة طريد ، وهذه الدار ، ينال ساكنيها من الذي ما يجعلهم يقومون ويقعدون على جمر الموت ، ويسمع للجن في أرجائها صوت كرجع الصدى ونشيد ، وإذا اهتز باب السجن تفترت قلوب السجناء ، وتقطعت أكبادهم خشية الموت لما ينالهم من العذاب (2) :

فِرَاقٌ وَسَجْنٌ وَاشْتِيَاقٌ وَذَلَّةٌ
وَجَبَّارٌ حُفَّازٌ عَلَيَّ عَتِيدٌ
فَمَنْ مُبَلِّغُ الْفَتْيَانِ أَنِّي بَعْدَهُمْ
مَقِيمٌ بَدَارِ الظَّالِمِينَ طَرِيدٌ
وَيُسْمَعُ لِلجِنِّانِ فِي جَنَابِهَا
بَسِيطٌ كَتَرَجِيعِ الصَّدَى وَنَشِيدٌ
وَمَا اهْتَزَّ بَابُ السَّجْنِ إِلَّا تَفَطَّرَتْ
قُلُوبٌ عَلَيَّ جَمْرِ الحِمَامِ قُعُودٌ

وقد أخذ ابن شهيد يطرح الحمام ، ويتباكيان جاهدين ونار الشوق تتقد بين الضلوع حتى بكت جدران السجن من طول حزنهما وبكائهما ، وأجهش بالبكاء باب السجن الحديدي ، يقول (3) :

وَمَا زَالَ يُبْكِينِي وَأُبْكِيهِ جَاهِدَا
وَلِلشُّوقِ مِنْ دُونِ الضُّلُوعِ وَقُودٌ
إِلَى أَنْ بَكَى الجِدْرَانُ مِنْ دُونِ شَجْوِهَا
وَأَجْهَشَ بَابُ جَانِبَاهِ حَدِيدٌ
وَمِثْلُ ذَلِكَ نَجِدُهُ المَعْتَمِدَ بَنِي عِبَادِ فِي سَجْنِهِ بِأَغْمَاتٍ ، حَيْثُ يَقُولُ عِنْدَ حَدِيثِهِ
لِسَرِّبِ قَطَا مَرْرِنِ بِسَجْنِهِ (4) :

هَنِيئًا لَهَا أَنْ لَمْ يَفْرَقْ جَمِيعَهَا
وَلَا ذَاقَ فِيهَا البَعْدَ مِنْ أَهْلِهَا أَهْلٌ

1 - النسران: كوكبان معروفان على التشبيه بالنسور الطائرة . انظر شعر ابن عمار تحقيق محمد لغديري . 71 هامش 6 .
2 - ابن شهيد . الديوان . 100 .
3 - ابن شهيد ز المصدر نفسه . 101 .
4 - المعتمد بن عباد . ديوان . 187 .

وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
ومع السجن والجدران والأبواب الحديدية نجد بعض الشعراء ، قد صوروا قيودهم
وكبولهم بصفة خاصة ، فهذا عبد الملك الحجاري يصف الكبل الثقيل في ساقه حين يرن
كأنه خطيب للمصائب ، يقول (1) :

و كأن الكبل الثقيل إذا ما رنَّ في الساقى للخطوب خطيب
وابن حزم يشكو إلى قيده ما يلقاه من ألم فيئن له القيد لدى شكواه وإن هذا
الكبل ليعوقه عن الراحة والنوم ، فكيف يهجع وهو مكبل ، يقول (2) :

يشكو إلى القيد ما يلقاه من ألم فبالأئين لدى شكواه يرجعه
يا هاجعا والرزايا لا تورقه قل كيف يهجع من في الكبل مهجعه
ويصور المعتمد بن عباد مكثه في قيده مبينا أنه يعوقه عن قضاء وطره من أهله
ومداواة علة جوارحه ، فإنه رهين القيد الحديدي المبهم ولاسييل إلى نجاته ، يقول (3) :

قضى وطرا من أهله كل نازح وكُرَّ يداوي علة في الجوارح
سواي فإني رهن أدهم مبهم سبيل نجاتي آخذ بالمبارح
وقد ألم القيد المعتمد في أسره فراح يتذكر ماضيه وكيف أنه تبدل من عز ظل
البنود ، بذل الحديد وثقل القيود ، وكان حديده رحما نافذا وسيفا رقيقا مصقول الحديد ،
فتحول كلاهما إلى قيد حديدي يعض بساقيه عض الأسود ، فيقول (4) :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود
و كان حديدي سنانا ذليقا وعَضْبًا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهما يعضُ برجليَّ عض الأسود

ويصور المعتمد أيضا قيوده الحديدية التي التفت حوله والتوت عليه في شكلها
وخلقتها بالثعابين التي تتلوى ، وفي قوتها وبطشها ، وهذه القيود لم يحن فكها ، وذلك

1 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

2 - ابن حزم . ديوان . 70 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 170 .

4 - المعتمد بن عباد . ديوان . 170 .

لما رأى من أفرج عنهم من السجناء من أهل أغمات الذين رافقوه في سجنه مدة ، يقول
مخاطبا (1) :

تخلصتم من سجن أغمات والتوت عليّ قيودٌ لم يحن فكُّها بعد
من الدهم أماً خلقتها فأساويد تلوى وأما الأيدُّ والبطشُ فالأسدُ
وإن قيود المعتمد الحديدية لتنشده بصوتها المفرع نشيدا ثقيلًا ، فتبكي عينه لذلك
النشيد الحزين ، فيقول (2) :

فلو عدتما لاخرتما العود في الثرى إذا أنتما أبصرتما في الأسر
يعيد على سَمعي نشيده ثقيلًا فتبكي العينُ بالجلسِ والتَّقِر
والشاعر السجين يستخدم هنا مصطلحات الغناء كالنشيد والثقيل والجلس
والنقر ، ونراه يصف الكبل بأنه يتعطف ويتلوى على ساقيه تعطف الثعبان الذي يساورها
عضا بأنياب كأنياب الأسد ، ويحذر قيده ، فلو كان صانعوه يشعرون أنه سيفعل ذلك
بالمعتمد لانقطعت أكفهم ومعاصمهم مهابة له ، وهو الذي كان الرجال يعطائه في جنة
ومن سيفه في جهنم ، يقول (3):

تعطف في ساقى تعطف أرقم يساورها عَصًا بأنياب ضيغم
إليك فلو كانت قيودك أشعرت تضرم منها كلُّ كف ومِعصم
مهابة من كان الرجال بسبيه ومن سيفه في جنة وجهنم
ويكرر المعتمد صورة القيد كالثعبان الذي يتمدد بجذاه متعطفًا متلونا لايرحمه وهو
الأسير ، وكان رمحه من قبل في الوغى كالثعبان الذي ينهش رؤوس أعدائه ، فيقول (4):

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى فغدا عليك القيْدُ كالثعبان
متمدداً بِجِذَاك كلُّ تمُد مُتعطفًا لارحمة للعاني
وعندما يدخل على المعتمد ابنه الصغير ويرى الطفل أباه في السلاسل ، تتحرك

1 - المعتمد بن عباد . المصدر السابق . 185 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 163 .

3 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 182 .

4 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 183 .

مشاعر الأب نحو أبنائه الذين يرون معاناته ، فيقول (1):

قيدي أما تعلمني مسلما ؟	أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك ، واللحم قد	أكلته لا تهشم الأضعا
يُصِرُّني فيك أبو هاشم	فينثني القلبُ وقد هُشِّمًا
ارحم طُفُلا طائشا لُبُّه	لم يخشى أن يأتيك مسترحما
وارحم أحيات له مثله	جرعتهن السُّم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد	خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئا فما	يفتح إلا لرضاع فما

فالمعتمد يخاطب القيد في رقة يطلب منه ، لماذا لا يشفق عليه أو يرحمه ؟ أما يعلم أنه مسلم ؟ فقد شرب دمه وأكل لحمه ، ويناشده بالألا يهشم عظامه ، وإن ابنه أبا هاشم حين أبصره في قيده ارتد قلبه كسيرا مهشما فيناشد القيد أن يرحمه ، فهو طفل صغير طائش اللب ، لم يخش أن يأتيه مسترحما ، وليرحم أحياته فهن قد مثله تجرعن السم والعلقما ، ومنهن يفهم شيئا فهي تبكي بكاء مرا حتى إن المعتمد الشاعر السجين ليخاف عليها العمى ، والباقي لا يفهم شيئا لصغر سنه فهو لا يفتح فمه إلا للرضاع .

لقد صور الشعراء السجن بأنه مكان موحش ضيق يؤذي النفس ويجعل للحياة لونا قائما يناقض لون الحرية ، أما مكانه فتحت الأرض أو في الأماكن العالية رغبة في قطع السجين عن العالم ، وهم مقيدون بأنواع من القيود الملتوية كالثعابين ، وأبواب السجون الحديدية إذا اهتزت انفطرت النفس مخافة الموت ، ثم وجود كائنات حية تزيد في رهبة السجن وقسوته وكأنها تصير لازمة من لوازمه ، ويحدثنا المعتمد عن غربان السجن وأقاربه ، ويمكن لنا أن نتخيل ما يمكن أن يكون هناك أيضا من هذه المخلوقات المخيفة . ويدعو لغربان أعجمات التي نعبت فسمع بعدها خبر قدوم بعض نسائه عليه فأسره ذلك ، ولكنه يدعو على عقاربها التي ما زالت تخيفه وترهبه ، فيقول (2) :

1 - المعتمد بن عباد . المصدر السابق . 181 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 189 .

غربان أغمات لاتعدّ منّ طيّبة من الليالي وأفنانا من الشجر
كما نعيّتنّ بالفأل يُعجبي مُخبرّات به عن أطيّب الخبر
ويا عقاربها لا تعدمي أبدا شجّ وعقرّا ولا نوعا من الضرر
كما ملائنّ قلبي مذ حللتُ بها مخافةً أسلمتُ عيني إلى السهر

وقد وصف لنا الشعراء السجناء طول مدة سجنهم ، فهذا ابن زيدون يعبر عنه ،
مصورا نفسه بالسيف في قرابه ، فقال (1) :

إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ قد يودعُ الجفنَ حدّ الصارم الذّكرِ
وعبر كذلك عن نفاذ صبره لطول سجنه ، فقال (2) :

وبقاء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتصميم
أفصير مئین خمساً من الأيب ام ناهيك من عذاب أليم

وصور سوء حاله في السجن الذي تطاول أمده بالروضة التي طاولها القحط ،
فصوح زهرها ، فقال (3) :

وطال سوء الحال نفسي فأذكرتُ من الروضة العنّاء طاولها القحطُ
مئون من الأيام خمسٌ قطعَتْها أسيراً وإن لم يبدُ شدُّ ولا قحط

ويصور عبد الملك بن غصن سوء حالته الذي بلغ مدى لا يوصف حتى إن الردى
ليتلظى لأيسر من حالته ، كما تبكي الخطوب في سجنه الأرضي — كما تقدم — ،
ويرسم صورة طريفة لرنين كبلة الثقيل في ساقه ، ويشبهه في رنينه بالخطيب ، ولكن أي
خطيب ؟ إنه خطيب للمصائب ، وإن يد الخطوب قد رمته بقوس ، وكم طاشت فلم
تصبه قبل ذلك ، يقول (4) :

نحن في حالة ليسر منها يتلظى الردى وتبكي الخطوب
وكان الكبل الثقيل إذا ما رنّ في الساق للخطوب خطيب

1 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

2 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 123 .

3 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 86 .

4 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

إن رمتنا يدُ الخطوب بقوس طالما كان سهمها لا يصيب
ويصور عبد الملك بن غصن حاله كذلك بالجنين في بطن الثرى ، والثرى حامل
به ، وإن شفاعة ابن هود التي يرجوها لتيسر مولده ، أي إخراجها من سجنه ، يقول (1):
وها أنا في بطن الثرى وهو حاملٌ فيسرّ على رُقى الشفاعة مولدي
ويصور ابن زيدون حاله في سجنه ، والتي أصبحت ظاهرة للعيان ، لا تخفى على
أحد من الناس ، فمن يسأل عن حاله ، فشاهدها محض العيان الذي يغني عن الخبر ، فقد
اعتلى برق المشب عارضه ، ولما يزل شابا لم يخلع برد الشباب ، فسنة دون الثلاثين ،
قريب عهد بالصبا ، وهو في معية الشباب ، فغصن شبابه لم يزل غضا فينانا لم يهتصر
بعد ، وقد أصابته لوعة قدحت نار الأسي في صدره ، وشيبت رأسه إذ طار الشرر إليها
فاشتعلت شيبا ، وللرزايا ، فقد شافه منهلها غمرا فغمرته وجرعته من غصصها أقداحا
كبارا ، وقد دهمته أحوادث دون ارتقاب ونالته فحطمته ، وهو في غفلات الدهر آمن
قريب ، فيقول (2) :

من يسأل الناس عن حالي فشاهدها محض العيان الذي يُغني عن الخبر
لم تطوي بُردَ شبابي كَبْرَةً وأرى برق المشيب اعتلى في عارض الشعَر
قبل الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ وللشبيبة غصن غير مُهتَصِر
ها إنما لوعةٌ في الصدر قادحة نار الأسي ومشبي طائرُ الشرر
يا للرِّزايا ! لقد شافَهتُ منهلها غَمْرًا ، فما أَشْرَبُ المكروه بالعُمر
حوادثُ استعرضتني ما نُذرتُ بها غَرارةٌ ثم نالني على غَرر
ويصف ابن عمار بؤسه في شقورة (3) بأنه يربى على كل بؤس ، فيقول (4):
بؤسى شَقورة عندي أربى على كل بوسى

1 - المقرئ . نفع الطيب . 3: 363 .

2 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

3 - مدينة شقورة من أعمال حيان بالأندلس . انظر : الحميدي . الروض المطار 349 .

4 - ابن عمار . شعره . 122 .

فقدت هارون (1) فيها فَظَلْتُ أَطْلُبُ مُوسَى

أما المعتمد بن عباد فقد أفاض في تصوير حاله في سجنه ، وما أصابه من فقر وهم
وكمد وقيود مقارنة ذلك بماضيه ، فيصف حاله حيث اتصل به زعانفة الشعر وملحفو
أهل الكدية في طنجة أثناء رحلته إلى أغمات ، فسألوه العطاء ، فيرى أنهم إغربوا فيما
ذهبوا إليه إذ سألوه عسيرا وهو الأسير الفقير الذي لا يملك شيئا ، وإنه أحق منهم
بالسؤال ، ولولا حياة وعزته التي ورثها عن أسرته والتي تملأ عليه أقطار نفسه ، لحاكمهم
في الطلب فسأل الناس مثلهم ، وهو الذي كان يجزل العطاء إن سئل الندى ، ويركب
فور سماع نداء الصريخ للحرب ، ويبدو في هذه الأبيات تحسر المعتمد على ماضيه الذي
فجره في نفسه سؤال الشعراء ، يقول (2) :

شعراء طنجة كلهم والمغرب	ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه	بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة لخميمة	طَيَّ الحشا لحاكمهم في المطلب
قد كان إذا سئل الندى يجزل وإن	نادى الصريخ ببابه: اركب يركب

ويصور المعتمد بن عباد ذله وفقره في رده على رجل يعرف بابن الزنجاري سأله أن
يزوده من شعره فيقرر أن لو يستطيع لزوده بالذهب بدلا من الشعر ، ولكن النوائب التي
أصابته منعتة من ذلك ، فقد أصبحت يده صفرا خالية مما تجود به ، وذلك من أعجب
العجب الذي قدر عليه وهو في شهر رجب ، فقد آل أمره إلى ذل وفقر أزال عنه عزته
وغناه ، وذلك شأن الليالي فنعماها قريبة من بلواها ، إذ سرعان ما تنقلب البلوى إلى
نعمى ، يمثل ذلك بنفسه ، فقد كان شجاعا يسلب أرواح الجبابرة في المعارك ، ويحیی
قتلى الفقر بتلبية مطالبهم ، وكان ذا ملك تحرسه جنود شجعان من العجم والعرب ،
وحين شاء الله نزع ملكه منه ، لم ينفعه دفاعه عن ملكه ولم يغن عنه شيئا ، يقول (3) :

لو أستطيع على الترويد بالذهب فعلت ، لكن عداني طارق النوب

1 - يعني بهارون أبا يوازره، متضمنا الآية الكريمة: ﴿ واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي ﴾ سورة طه : 28 .

2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 154 .

3 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 190 - 191 .

يا سائلَ الشَّعرِ يجتابُ الفلاةَ به
زويدك الشَّعرَ لا يُغني عن السَّعبِ
زادُ من الرِّيحِ لارِيٍّ ولا شيبَعُ
غدا له مؤثِّراً ذو اللَّبِّ والأدبِ
أصبحتُ صفراً يدي مما تجود به
ما أعجبَ الحادثِ المقدورِ في رجبِ
ذُلٌّ وفقرٌ أزالا عِزَّةً وغبني
نُعمى الليالي من البلوى على كتبِ
قد كان يستلبُ الجبَّارُ مُهجته
بَطْشِي ، ويحيا قتيلاً الفقيرِ في طلبِي
والمُلْكُ يُجرُّسُهُ في ظلِّ واهبِهِ
عُلبٌ من العُجمِ أو شَمٌّ من العربِ
فحين شاء الذي أتاه ينزَعُهُ
فهاكها قطعةٌ يطوى لها حَسداً
لم يُجد شيئاً قِراعِ السُّمرِ والقُضْبِ
السيفُ أصدقُ أنباءِ من الكتبِ

ومعظم شعر المعتمد بن عباد في أسره يسير على هذا النحو من الحنين إلى الماضي والمقارنة بينه وبين حاضره المؤلم ، حيث يعاني الضيم والفقر والذل ، وقد كان شعره في غاية الرقة والصدق العاطفي ، مما يعطف القلوب نحوه ، نظراً لصدق التجربة والمعاناة فضل عن شاعريته الرقيقة التي زادتها الحنة رقة وصدقا (1).

ويصور عز الدولة بن صمادح (2) عظم همه وكمده ، فيرى أنه إذا سلم الناس من الهم والكمد ، فإنه قد جمعها حتى إنه لم يبق منهما لغيره ما يحاذره ، فلا يقصدان أحدا في الخلق غيره ، يقول (3) :

إن يسلم الناس من همٍّ ومن كمدٍ
فإنني قد جمعتُ الهمَّ والكمدًا
لم أبق منه لغيري ما يحاذره
فليس يقصدُ دوني في الورى أحداً

ولاشك أن الشاعر السجين ، يكون له حاسدون وشامتون ، يفرحون لسجنه وما يلحقه من أذى ، وقد صور الشعراء هؤلاء الحساد والشامتين ، وتجلدوا أمامهم درءاً لشماتتهم ، ومن هؤلاء الشعراء ابن زيدون ، كان قد أكثر من الحديث عن الوشين به

1 - انظر على سبيل المثال إضافة لما تقدم ، ديوانه . 155 ، 187 .

2 - هو أبو مروان عبید الله عز الدلة بن المعتصم بن صمادح ، كان أبوه قد أرسله في آخر دولته رسولا إلى يوسف بن تاشفين ليهنئه بالاستلاء على غرناطة ، فاعتقله ، ومكث هناك إلى أن خلصه أبوه وبقي بالمرية إلى ان انقرض أمده . أنظر ترجمته : ابن خاقان . مطمح الأنفس . 403 ، 404 ، ابن الأبار . الحلة السيرة 2: 88 - 92 ، ابن سعيد . المغرب . 2: 201 - 202 ، المقرئ . نفح الطيب . 7: 40 - 42 ، ابن خاكان . وفيات الأعيان . 5: 39 - 45 ، هذا البحث . 68 هامش . 1 .

3 - ابن سعيد . المغرب . 2: 202 .

عند ابن جهور ، ويخاطب هذا الأخير داحضا أكاذيب الوشاة ، فيقول له : ما بالك أيها الأمير تصغي لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان فتقصر في شد أزري ، وتلتمس الأعذار في التخلي عني ، يقول (1) :

أأن زعم الواشون ما ليس مزعما تُعذّرُ في نصري وتُعذرُ شر في خذلي ؟
ويرسل ابن زيدون لصديقه أبي حفص بن برد يصف أخلاق رجال البلاط
والحاشية وغدرهم ونكثهم بالعهد حيث ابتعدوا عنه وكأنه السامري الذي يعدي من
يقترّب منه بالحمى ، ويصورهم بالذئاب التي هامت بلحمه فأخذت تنهشه بأضراسها
وتمزقه بأسنانها ، وإهم ليسألون عن حاله ، ولكنه سؤال الذئب الذي يحاول افتراسه
فيتسلل ليجد فرصة لانتهامه وافتراسه في الظلام ، يقول (2) :

ما ترى في معشر حا	لوا عن العهد وخاسوا
ورأوني سامرياً	يُتقى منه المساس
أذؤبٌ حامت بلحمي	فانتهاشٌ وانتهاس
كلهم يسأل عن حا	لي وللذئب اعتساس

ويصور ابن زيدون موقف أعدائه وحقدهم عليه وكرهيتهم له ، عاتبا على ابن جهور أنه أصم سمعه عن عتابه ، وأصغى إلى وشايات أعدائه الذين يمزقون سمعته كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، لأنه بلغ الغاية وهم مقصرون فامتألت قلوبهم حقدا عليه ، فصارت كالحية الرقطاء ، وهي من أخبث الحيات ، وقد أولاه هؤلاء الحاسدون جانب البغض ، ولا عجب فإن حياتهم قائمة على الحقد والحسد ، فقد نعتوه بالخيانة وليس لها أهلا ، وليس من شأن أمثاله أن يرموا بهذا الخلق الذميم ، ويعلل فراره بأنه كان مضطرا إلى ذلك ، فإن جعلوا فراره مثبتا الشك في أمره ، فقد وهموا ، لأن سدنا موسى فر من مصر خوفا من فتك الأقباط ، يقول (3) :

عدا سمعه عني وأصغى إلى عدأ لهم في أدبمي كلما استمكنوا عَطُ

1 - ابن زيدون . ديوان . 159 .

2 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 81 .

3 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 84 .

بلغتُ المدى إذ قصرُوا فقلوبهم مكامِنُ أضغانٍ أساودُها رُقُطُ
يُولونني عُرُض الكراهة والقلي وما دهرهم إلا النفاسةُ والعَمُطُ
وقد وسموني بالتي لستُ أهلها ولم يُمن أمثالي بأمثالها قُطُ
فررتُ فإن قالوا : الفرارُ إرابة فقد فرَّ موسى حين همَّ به القِبَطُ

وقد يصور السجين خصومه إلى سجانه ويدعوه إلى ترك أقوال الوشاة الحاسدين الذين يزيدون في سوء مصيره ، فابن عمار يستعطف المعتمد بن عباد في قصيدته الحائية ، ويقول معرضا بالوشاة (1) :

ولاتلتفت رأي الوشاة وقولهم فكلُّ إناء بالذي فيه يرشحُ
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى برأي بني عبد العزيز مُوشحُ (2)
وما ذاك إلا ما علمتَ فإنني إذا تُبْتُ لا أنفكُ آسو وأجرح
تخيلتُهُم لا درَّ لله درهم أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
وقالوا: سيجزيه فلان بذنبه فقلتُ: وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشا للمؤيد يرتمي ولكنَّ حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبي ثابت مُتصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه صفاة يزلُّ الذنبُ عنها فيسْفَح
فالشاعر هنا خاضع في استعطافه ، ويقال : ((آخر ما أرسل إليه من استعطاف)) ،

وهو يوضح مواقف خصومه الذين يزيدون النار اشتعالا ، وهو يحاول بكل ما استطاع ، أن يقنعهم بأن مساعيهم ستبوء بالخسران مقابل رجائه وأمله بحلم المعتمد وصفحته عنه .
وأحيانا نجد هؤلاء السجناء في وصفهم للوشاة من الحساد والخصوم يأخذ شكل تحذير وتلويح لهم بأن المصير الذي لاقوه سوف يلاقونه هم أيضا ، وأن للأيام يدا طولى تنال الجميع ، فهذا ابن غصن الحجاري يسوق تحذيره للشامتين في شكل حكمة (3) :

1- ابن عمار . شعره . 38 - 39 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 421 .
2- ويعني هؤلاء أصحاب بلنسية ، منهم الوزير أبوبكر بن أحمد بن عبد العزيز خاصة ، وهو الذي كان خصم ابن عمار . انظر تفاصيل ذلك : ابن بسام . المصدر نفسه . 1/3 : 40 ، ابن الأبار . الحلة السيرة . 2 : 155
3- ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 218 - 219 .

أزاح الدهر حلو الماء عني على ظمأ وأسقاني زُعاقه
وربّما استحال السعدُ نَحْسًا فذاق المعتدي مما أذقه
إذا صار الهلال إلى كمال وتم بماؤه فارقُب محاقه
وإنَّ عُبوس هذا الدهر يأتي على أثر البشاشة والطلاقة

إذ يعترف الحجاري بمصيره وبقلب الزمان الذي أصابه ، ويؤكد لخصومه أن السعد ينقلب نحسا وأن حال البشاشة لا بد له من نهاية عابسة دائما .

بهذا نرى الشعراء في السجن وصفوا الشامتين بهم خارج السجن ، وحذروهم مما سيلحقهم ، فلم يفرحوا لأنهم سيلاقون نفس المصير .

الاستعطاف والاعتذار :

طرق الشعراء السجناء هذا الموضوع لأنه كان يمثل لديهم أمل الخلاص من السجن ، والانطلاق إلى عالم الحرية من جديد ، فكانت جل أشعارهم تدور حول الاستعطاف والعتاب والاعتذار والتماس شفاعاة الشافعين ممن يمتون بصلة إلى الحكام . وكانت أشعار الاستعطاف أحيانا تغلفها مسحة من التذلل والخضوع للحاكم مع الاعتراف بالذنب ، لتكون أبلغ تأثيرا في سبيل غايته ، أو قد يختلط هذا الاستعطاف بالمدح ليأخذ مأخذه في سبيل الحاكم فيعفو ويصفح ، وقد يتجه الشاعر باستعطاف عن طريق شفيع يشفع له ، ويتوسل له للوصول إلى ما يتمنى .

ومن الشعراء الذين دارت أشعارهم في السجن حول الاستعطاف والعتاب ، في القرن الخامس الهجر ، عبد الملك بن غصن الحجاري الذي يستعطف المأمون بن ذي النون مع جماعة من النبهاء ، وذلك في رسالته في صفة ((السجن والسجان والحزن والمخزون)) ، يحاول فيها أن يرفق قلبه ، فقد أزاح الدهر حلو الماء وهو ظمآن وسقاه الملح الأجاج الذي لا يروي عطشا ولا يبذل أواما ، وإن رجاءه في الظفر برضى المأمون ، فهو إن ظفر برضاه حلاله مذاق الماء ، وساغ طعم الحياة ، ولعله يرمز بالماء إلى الحياة ، ولم لا ؟ أليس الله قد جعل من الماء كل شئى حي ؟ يقول (1):

أزاح الدهرُ حُلُو ماء عني على ظمأٍ وأسقاني زُعاقه
وبالمَرْجُوَّ أن أظفَرَ به من رضا المأمون يُحلي لي مذاقه

ثم يصف حاله وعلاقته بمن قبض عليهم معه ، محاولا التنصل منهم ومن علاقته بهم ، فما جمعه بهم إلا شقاوة ، وما هو منهم إلا في العير ولا في النفير ، وليس له ناقة ولا جهل في أمرهم ، يقول الحجاري (1):

وناسٌ لَفَّني بهم شقاءٌ ألم فرمَّ في ساقِي سباقه
ولم يك لي بذاك العير عَيْرٌ ولا بقطيع ذاك الذود ناقه

ونجد الحجاري في مقطوعة أخرى يقول مستعظفا ومعابها ومقرا بذنبه (2) :

وليس عقاب المذنبين بمنكر ولكن دوام السُّخط والعَتبِ ينكر
ومن عجب قول العِداة مُثَقَّلٌ ومثلي في إلحاحه الدهر يُعذِر

فهو يقر بذنبه وبالخطأ الذي ارتكبه في حق المأمون بن ذي النون لما بلغه أنه يقع فيه ، لكنه يلح في طلب العفو تحت تأثير النفسي الشديد الواقع عليه في هذه المسألة .

أما أحمد ابن شهيد فكان مواليا للأُمويين لكنه لم يحظ مع الحموديين بعلاقة حسنة في قرطبة — كما تقدم — فسجن ، ووجه إلى المعتلي من سجنه قصيدة طويلة ، يصور فيها حاله ومأساته في السجن ويمدحه في سياق استعطافه واعتذاره عليه ، فيقول (3) :

قريبٌ بمحتلِّ الهوان بعيدُ يجود ويشكو حُزنه فيُجيد
نعى ضرَّه عند الإمام فيا له عدوُّ لأبناء الكرام حُسود
وفي آخرها يقول (4) :

وراضت صِعباي سَطوَةً علويَّةً لها بارقٌ نحوض الندى ورُعُود
تقول التي من بيتها خف مركبي أقرُّبك دان أم نوكَ بعيد؟
فقلتُ لها: أمري من سَمَت به إلى المجد آباء له وجُدود

1 - ابن الأبار . المصدر السابق . 218 .

2 - المقرئ . نفع الطيب . 3 : 424 .

3 - ابن شهيد . ديوان . 99 .

4 - ابن شهيد . المصدر نفسه . 101 - 102 .

أما ابن حزم فإنه يستشفع عند الخليفة بمن يدعوه الحاجب المرتجى السامي أرومته ، متمنيا على الله ، وقد حط الدهر منزلته ، أن يلطف به ، فلا شيء يعجزه ، وأن يحنو على شمله فيجمعه بهذا الحاجب الذي أرسى قواعد المجد في بواكير شبابه ، بحيث لاتضععه نوب الدنيا ومصائبها ، مادحا أياه بالشجاعة في ساحات القتال حيث تشتجر الرياح ويتحكم السيف في الرقاب ، كما يمدحه بالارتفاع إلى أسمى غايات المجد ، حيث نال غاية ما كان يتمناه فخضعت الرقاب لعزه ، وصار موضعه في سماء المجد ، فهو يرتاح لبذل المعروف وإجابة سؤال ذوي الحاجات فغص نأديه بالوفود الآمال ، وهو نعم الشفيح لمن ضاقت مذاهبه وأسمى من يشفع لدى الخليفة ، ثم يغريه بفعل الخير ، فكل زارع خير عند مضطهد ، سوف يحصد ما كان يزرعه ، داعيا له أن يعيش عزيزا محتكما على الأيام مادام حيا ، يقول (1) :

أقولُ والدهر قد غالتْ غوائلهُ	وحط مني مكانا كان يرفعهُ
عسي لطائفُ من لا شيء يُعجزه	تُحنو على شَمَلنا يوما فتجمعه
مُبتني المجد مذ حُلَّتْ تئاتمه	بحيث لا تُوب الدنيا تضعضه
بحيث يشتجر الخَطِيُّ في صَفد	ويَظم السيف ذا بأس ويُرضه
بالحاجب المرتجى السامي أرومته	إلى هلال الذي بالسعد مَطلعه
سما إلى غاية في المجد سامية	فنال غاية ما قد كان يُزمعه
فأصبحتُ قُلل السامين خاضعةً	لعزه و سماء المجد مَوضعه
وارتاح للُعرف و الحاجات يُسألها	فغصَّ بالوفد و الآمال مَصنعه
نعم الشفيحُ لمن ضاقت مذاهبه	لدى الخليفة أسمى من يُشفعهُ
و كل زارع خير عند مُضطهد	فسوف يحصد ما كان يزرعه
فعرش عزيزا على الأيام مُحتكما	ما هزَّ ذيل الصبَا غُصنا يُزرعه

وابن زيدون فإنه قد ضرب بسهم وافر في الاستعطاف والاعتذار والاستشفاع ،

ففي قصيدته التي يصف فيها مرارة الاعتقال ، يقول (1) :

يا بهجةَ الدهر حياً وهو- إن فنيت
لي في اعتمادك بالتأمل سابقة
فقيم غصت همومي من علا هممي؟
هل من سبيل فماء العتب لي أسن
نذرتُ شكرك لا أنسى- الوفاء به
لا تله عني فلم أسألك مُعتسفا
و استوفر الحظ من نُصح وصاغية
هيني جهلتُ فكان العلق سيئة
إن السيادة بالإغضاء لابس
لك الشفاعة لا تُثنى أعتتها
لك الشفاعة لا تُثنى أعتتها
و ألبس من النعمة الخضراء أيكنتها
نعيم جنة دنيا ، إن هي انصرفت

حياته-زينة الآثار والسير
وهجرة في الهوى أولى من الهجر
وحاص بي مَطلبي عن وجهة الظفر؟
إلى العذوبة من عتباك والخصر؟
إن أسفرت لي عنها أوجه البشر
ردّ الصبا بعد إيفاء على الكبر
كلاهما العلق لم يوهب ولم يُعر
لا عُذرمنها سوى أي من البشر
بهاءها، و بهاء الحسن في الحفر
دون القبول بمقبول من العذر
جدلان بالوطن المألوف و الوطر
ظلا حراما على الآفات والغير
نعمت بالخلد في الجنات و النهار

استهل ابن زيدون قصيدته في مدح ابن جهور بالغزل المرتبط بموضوع القصيدة ارتباطاً عضوياً ، حيث يتعرض للذكريات الجميلة التي أعقبها ألم الفراق ، ثم يصور حاله في السجن ، ويرد على الشامتين به ، ثم ينتقل إلى مدح ابن جهور ، ويصور حرمانه من الأمير وشقائه في ظله ، على حين سعد به جميع الناس وتلك كبرى العبر ، حيث كان يحسب نفسه في أوج العلا في ظل الأمير ، فإذا به يصبح ملتصقا بالتراب ، ثم يفتخر ابن زيدون بأدبه ، في مزج المدح بالاستعطاف ، فالأمير بهجة الدهر في حياته ، وإذا مات فهو زينة الآثار والسير ، ويناشده أن يحقق آماله فيه ، فقد هاجر قلبه إليه وتعلق به ، وهجرة القلوب أحق وأولى بالرعاية من هجرة الأجسام . فما للهموم تغض من همم ابن زيدون

العالية ؟ وما لآماله العريضة تنحرف به عن الظفر ؟ ويتساءل ابن زيدون ويلح في السؤال عن سبيل ، أي سبيل إلى تذوق رضا ابن جهور العذب السائغ ، بعد أن تكدر الصفو بالعتاب . ثم ينذر لله أن يقوم بشكر الأمير والثناء عليه إن جاءه البشير بصفحه عنه وإقباله عليه ، نذرا واجب الوفاء ، ويحاول أن يعطفه عليه منبها أياه إلى عدم التشاغل عنه ، فإنه لا يطلب مستحيلا مثل رد الشباب بعد الإشراف على الكبير ، ويغريه بأن يبادر بالصفح والمغفرة ليستكثر من نصحه له وميله إليه ، فالنصح الخاص والود المتين كلاهما كالشيء الثمين لا يوهب ولا يعار ، ويعتذر إليه مفترضا أنه أخطأ ، فإن عذره في جهالته أنه من البشر ، ويغريه بالعفو عنه ، فإن السيادة تزدان بالإغضاء والصفح والغفران ، كما يزدان الحسن بالحياء ، والأمير له الشفاعة المطلقة التي لا يقف في سبيلها أي عذر من الأعذار ، فليشفع له ، فإن شفاعته ستجلب له الأمان ، فيكون مثل من يأتيه الخصب والنماء في وطنه دون اغتراب ، فيسعد بإقامته في وطنه وقضاء حوائجه فيه ، ويدعو ابن زيدون للأمير في ختام قصيدته بأن يتمتع بظلال النعيم ، آمنا من لفحات الحر ولدعات البرد ، متمنيا له النعيم في الدنيا حتى إذا رحل عنها بالخلد في الجنات والنهر .

ونلاحظ على استعطاف ابن زيدون واعتذاره ، أنه لا يخضع ولا يذل بل يضع نفسه على قدم المساواة مع ابن جهور ، بل إنه في بعض الأحيان بل في كثير منه ، يفخر بنفسه ورأيه وأدبه ومؤهلاته التي يفتقدها حاسدوه ، وهذا مال نراه في استعطاف ابن عمار حينما عرضه صاحب شقورة للبيع ، في مدة اعتقاله ، كتب إلى صاحب المرية ، يقول (1):

تفديك نفسي من

نفسى تحن إلى فداء

شراء

مسترخصا لي بالغلاء

فاسبق بنفسك وعدهم

رك من فناء أو بقاء

ثم أمض في على احتيا

قالوا : غدا يوم اللقاء

و الله ما أدري إذا

إن كان خوفي أو حيائي

ما أقل الحالين لي

-156-

فابن عمار يستعطف صاحب المرية في هذه الأبيات و يستحثه على شرائه ليخدمه ما بقي من حياته ، مقسما أنه لن يجور نقده من يشتره بغالي الثمن ويضمه لخدمته ، بل سيكون راجحا في صفقته ضاربا المثل في البر .

ويستعطف ابن عمار في سجنه بإشبيلية المعتمد بن عباد في قصيدة كتبها إلى الرشيد بن المعتمد يطلب شفاعته لدى أبيه ، فيقول (1) :

قل لبرق الغمام ظاهر بريدي	قاصدا بالسلام قصر الرشيد
فتقلب في جوّه كفؤادي	وتناثر في صحنه كالفريد
وانتحب صلاصل الرعد تحكي	ضحتي في سلاسل وقيودي
فإذ ما اجتلاك أو قال ماذا	قلت: إني رسول بعض العبيد
بعض من أبعده عنك الليالي	فاجتني طاعة المحبّ البعيد

ففي مطلعها يخاطب برق الغمام أن يظاهر بريده في إبلاغ السلام إلى قصر الرشيد ، فيتقلب جوه كفؤاد ابن عمار ، وأن يتناثر في صحنه كالفريد ، وأن ينتحب في صلاصل الرعد محاكيا ضجة ابن عمار وسلاسله وقيوده ، حتى إذا ما لفت نظر الرشيد فسأل عنه ، قال إنه رسول عبده أو بعض عبيده ، الذي أبعده عنه الليالي فطاعته طاعة المحب البعيد ، ثم يمدح الرشيد ووالده المعتمد مشيدا بمتزلته لدى والده ، ويختم قصيدته مسائلا نفسه ، بقوله (2) :

فعلام السرى بصبح رضاه	مع سنا وجهك الأغرّ السعيد
وإلى أين في الشفيح إذا ما	لم ألد منك عنده بالرشيد
بفتى نازح المكان مطلّ	غائب الشخص ذي اعتناء عتيد
مُشفق يستجيب لي من قريب	وأنا استغيثه من بعيد
لو أطلت عليّ رحمة عينيّ	ه انجلت شديتي وذاب حديدي

فعلام يسرى ويتخبط ليصل إلى صبح رضاه مع وجود ضوء وجه الرشيد الأغر

1 - ابن عمار . شعره ز تحقيق مصطفى الغديري . 55 .

2 - ابن عمار المصدر نفسه . 56 .

السعيد ، وليس له من شفيح إذا لم يلد عند المعتمد بالرشيد ، ذلك الفتى البعيد المكان القريب بعطفه ، الغائب الحاضر بعنايته الشديدة وإشفاقه على ابن عمار ، حيث يستجيب له من قريب ويستغيثه من بعيد ، ولو أطلت على ابن عمار رحمة عينيه ، لانكشفت مصيبتة وذابت قيوده وتخلص مما هو فيه من شدة .

ونجد ابن عمار قد نظم قصيدة في سجنه ياشبيلية ، جعل من نفسه فيها عبدا للمعتمد بن عباد ، متعجبا من شرائه له مرة أخرى وافتدائه بالمال متشككا في ذلك الأمر مستريا منه حين يقول في مطلع هذه القصيدة (1) :

يقول قوم: إن المؤيد قد أحال في فديتي على نَقْدِهِ
ياقومُ ماذا الشراء ثانية ترى لمعنى يريبُ من عنده؟!
أوحشني ، السماحُ عادتهُ سماحُه للغلاء في عبده

ويعضي ابن عمار على هذا النحو من استعطاف المعتمد والاعتذار إليه ، متلمسا منه أن يقيله بما بينهما من رضى له باب مفتوح إلى رحمة الله ، وأن يغضي عن جرمه ، ويعفي على أثاره بنفحة رحمة تمحوه ، وألا يلتفت إلى رأي الوشاة فيه وقولهم عنه ، لأنهم ممتلئون حقدا عليه ينضح على ألسنتهم ، كما تقدم (2) .

وقد ذهب كل هذا الاعتذار والخضوع والتذلل والاستعطاف أدراج الرياح ، حيث كاد المعتمد بن عباد يرق له لولا أن زوجه ذكرته بما كان من هجاء ابن عمار لها — كما تقدم — وأوغرت صدره عليه ، فقتله بيده وندم فيما بعد على فعلته .

و شاء القدر أن يجري على المعتمد ما جرى على شاعره من أسر و ذل ، و لكن المعتمد لم يستعطف أحدا ، و لم يعتذر لأحد ، فقد كان معتزا بنفسه ، و لم ينس يوما أنه كان ملكا ، و لكن ذلك لم يمنعه من الاعتذار لشاعره ابن حمديس حين مضى لزيارته بأغامت فصرفه بعض خدمه ، فلما علم المعتمد عز عليه ذلك و عنف خدمه ، و كتب إليه بالغداة قصيدة يعتذر فيها إليه ، مطلعها (3):

ت

1 - ابن عمار . ديوان . تحقيق مصطفى الغديري . 59 .

2 - انظر هذا البحث . 150 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 173 .

حجبت ، فلا والله ما ذاك عن أمري

فاصغ فدتك النفس سمعا إلى عذري!

هكذا نجد موضوع الاستعطاف و الاعتذار كان من أهم ما قاله الشعراء السجناء ، لأنه كان يمثل لهم في كثير من الأحيان أمل الخلاص و استعادة الحرية من جديد ، و وجدنا في استعطافهم هذا تفاوتاً بين متذلل للسجان و بين معتر بنفسه و من دون ذلك ، و في كل ذلك يمزجون بين المدح و الاستعطاف أو بين الاعتذار و الاستعطاف و منهم من يتوسل في استعطافه بشفيح له منزلته عند السجان يجعله يعفو عن المذنب و يسامح المسيء.

الحديث عن الذكريات :

في غيابات هذا السجن المظلم يرى السجين أمله و بارقة الضوء في أيامه الماضية الجميلة ، أيام الحرية و الذكريات الحلوة ، فنراه يسكن إلى تلك الذكريات يقبس منها جذوة تنير له حاضره ، و قوة تعينه على تحمل ما وصل إليه في مأساته فالشاعر السجين في لجوئه إلى ذكرياته يقارن بين ماض جميل سعيد و حاضر قاتل تعس و في خضم كل ذلك يفقد وطنه و أهله و أحبته ، و لذلك نراه يبثهم أشواقه و حنينه المتأجج ، لأنهم أيضا جزء لا يتجزأ من ذلك الماضي الذي يتحسر عليه و يتمنى عودته، ففي هذه الدراسة نفضل الحديث في هذا الموضوع المقارنة بين الماضي و الحاضر ، و الحنين إلى الأهل و الأحبة.

أما المقارنة بين الماضي و الحاضر فإن شعراء السجون يتحدثون عن حاضرمهم التعس المؤلم و مصيرهم غير الحمود ، نجدهم يلتفتون إلى الماضي فتتداعى صورهم أمامهم زاهية مشرقة ، صور اللعب و اللهو و صور الراحة و السرور.

فالمعتمد بن عباد في سجنه يتحسر بألم جديد على ماضيه العزيز الذي سلبه الزمان إياه ، و أودعه حياة ذليلة في سجنه بأغمات ، فنجد أشعاره جميعا قد غلفها الأسى والانكسار ، لكن ذلك لم يزد إلا عزة و أنفة أمام سجانه . و قد احتلت الذكريات حيزا لا بأس به من أشعاره في السجن لأن حياته السابقة الحافلة المليئة قد توارت خلف قضبان

سجنه ، فلم يبق معه منها غير ذكرى جميلة تعاوده بين حين و حين ، تشير في نفسه الشجن و الأحزان ، ففي جواب له على قصيدة من ابنه الرشيد يصف فيها حاضره و يقارنه بماضيه السعيد قائلا (1):

كنت حلف الندى و رب السماح و حبيب النفوس و الأرواح
إذ يميني للبذل يوم العطـاء و لقبض الأرواح يوم الكفاح
و أنا اليوم رهن أسر و فقـر مستباح الحمى مهيض الجناح
عاد بشري الذي عهدت عبوسا شغلتي الأشجان عن أفراحي

فماضيه يزخر بحياة مفعمة بالكرم و البذل و الشجاعة و الفروسية يوم الكفاح ، أما حاضره فيتصف بالفقر و ذل الأسر ، إذ عبس الزمان بوجهه بعد أن كان طلقا بشوشا فقد كان المعتمد في ماضيه الملك الأمر الناهي و أصبح الآن عبدا ذليلا في أسره .
و نجده يتذكر في سجنه أيامه الهائلة في قصوره الفخمة التي يبكيها في محنته(2):

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على أثر غزلان و آساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغالي
بكى الوحيد ، بكى الزاهر و قبه و النهر ، و التاج ، كل ذله باد

فأبياته تلك التي تقطر دموعا و لوعة يتضح فيها الحزن و الذل و الإنكسار الذي لحق كل شيء يتعلق بالمعتمد و يرتبط به ، فبكت قصوره على فارسها المقدام و رثت له في محنته .

و قصور المعتمد بالله و أئمة الملك ليست وحدها ما يتعلق به ، فأهله و أبنائه أكثر لصوقا به ، كما سيأتي .

و أما الحديث عن الحنين إلى الأهل والأحبة والديار والوطن فهو جزء من معالم الماضي الجميل ، وقد كانت المرأة أما أو زوجة أو حبيبة حاضرة في أشعار السجناء ، والحديث إليها في أشعارهم كان يبعث في نفوسهم الراحة والأمل فهذا ابن زيدون يحاول

1 - المعتمد بن عباد . ديوان .. 157 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 161 .

أن يخفف عن أمه مصابها به ، ممثلاً حالتها بحالة أم موسى عليه السلام إذ رمت بطفلها في اليم ، ويوكل أمرها بابنها إلى الله أحكم الحاكمين ، وأنه لا بد لهذه المحنة من نهاية ، فيخاطبها من سجنه (1) :

أمقتولة الأجنان مالك وما لها ؟ ألم تُرك الأيام نجما هوى قبلي ؟
أقلي بكاء لست أول حرة طوت بالأسى كشحا على مضض الثكل
وفي أم موسى عبرة إذ رمت به إلى اليم في التابوت ، فاعتبري واسلي
ولله فينا علم غيب ، وحسبنا به — عند جور الدهر — من حكم عدل
والشوق شديد جدا في نفس السجين لأهله وأصحابه لأنه انتزع انتزاعا ، وألقي به في حياة الوحدة الموحشة ، ونجد هذا في قول ابن حزم يتشوق لأهله وزوجته (2) :

يا راحلا عند حيّ عنده رمقي أقر السلام على من لم أودّعه
وسله بالله عن عهدي أيحفظه فعهدُه بمكان لا أضيّعه
وكيف عني وعن أنسي يُصبره أم كيف بعد بعادي عنه أربعه
واطول شوقاه ما جدّ البعاد بهم إليهم مذ سعوا للبين أفضعه
لئن تباعد جثماني فلم أرهم فعندهم — وأبيك — أجمعه
يبلغهم شوقه الشديد فهو قد ترك قلبه وروحه وسبب حياته عند أهله ، وهو يسأل عنهم وعن عهودهم معه ، وكأنه على الرغم من بعاد جسده عنهم لا يزال قلبه المليء بالأشواق لديهم .

ونجد ابن حزم يتذكر أطفاله الذين تركهم خلفه ، فتثير الذكرى في نفسه الشجون على البعاد عنهم وطول السهر بعدهم ، يقول (3) :

ذكرى لفراخه في كل ناحية توحى إلى القلب أسرارا تُقطّعه
كم قد تحمّل من أعباء تأيهم نضّوا نبا بلذيد النوم مضجعه

1 - ابن زيدون . ديوان . 160 .

2 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . 386 .

3 - عباس ، إحسان . المرجع نفسه . 386 .

إن انقطاع الشاعر عن أبنائه يشعره بعظم المصيبة الواقعة عليهم والنتائج المترتبة على هذا البعد ، فهو يعي أهمية دور الأب ومكانته بين أبنائه وعلى رأس أسرته .
ومثلما لقي ابن حزم في سجنه هم فراق الأبناء ، فإن مصيبة المعتمد قد فاقد سابقه لأنه لم يفجع بفراق أبنائه وحسب بل فجع في سجنه بنأ مقتل ابنه الراضي والمأمون فرثاهما بأشعار تدمي الفؤاد ، فقال (1):

يقولون صبيرا ، لاسبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
مدى الدهر فليبكي الغمام مُصابه بصنّويه يُعذّر في البكاء مدى الدهر
هوى الكوكبان: الفتح ثم شقيقه يزيدُ فهل بعد الكواكب من صبر
ففقدان ابنه وهو في السجن ، قد زاد في المصيبة التي ألمت به بعد خلعه عن عرشه ، وأفقدته كل صبر .

وأما الوطن والديار فهي حاضر في وجدان الشعراء في سجنهم ، والوطن صورة زاهية مفعمة بالحرية والأمل ، على نقيض الواقع الذي يعيشونه ، فيشتد الشوق والحنين إلى الوطن والديار ، وهو في حقيقته شوق وحنين إلى الحرية خارج جدران السجن الضيق .

ونجد عبد الملك بن غصن لاتفارقه دياره في سجنه ، يقول (2) :
وخلُّ يُسليني على بُعد داره ويكشف من قُرب الحبيب المقيم
وداري موقوفٌ عليه وخليتي وفكري مشغول به وتوهُّمي
فالعلاقة القوية التي تربطه بأهله وأصدقائه تسليه في محنته ، ولاتغيب عن ذهنه ، على الرغم من المسافة الفاصلة بينه وبينهم ، وهذا الإحساس الذي يغمّر الشاعر في تطلعه وتلهفه إليهم خارج السجن ، يعكس تلهفهم إلى عالم الحرية .

وهذا عبيد الله بن المعتصم يحن إلى المرية وماضيه فيها حيث الرفعة والمعالي وركوب الخيل والحرية والعزة، ويقابل ذلك بما آل إليه أمره من خمول وكبول وأسر وذل،

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 162 .

2 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 219 .

وحقه أن يكرم ، وفي ختام مقطوعته يحن إلى المرية الكريمة عليه ، معلنا لهفه للوصول إليها ، فيقول (1):

أبعد السنّ والمعالي حُمول	وبعد ركوب المذاكي كبول؟
ومن بعد ما كنتُ حرا عزيزا	أنا اليوم عبدٌ أسير ذليل
حللتُ رسولا بغرناطة	فحلّ بها بي خطبٌ جليل
وثققتُ إذ جثتها مُرسلا	وقد كان يُكرمُ قبلي الرسول
فقدتُ المرية أكرمَ بها	فما للوصول إليها سبيل

وهكذا ففي الحديث عن الذكريات عند الشعراء السجناء يدور حول المقارنة بين الماضي والحاضر لما بينهما من تناقض ، وهم يتشوقون إلى الماضي الحر ليزيل عنهم هذه القيود وهذا العذاب ، كما نجد الحنين إلى الأهل والأحباب والوطن جزء لا يتجزأ من صور الماضي المشرقة بالحرية ، ولذلك فالشوق إليهم كبير على بُعد الديار .

الأمّل واليأس والاستسلام :

لقد كشف لنا الشعر الذي كتب في أعماق السجون عن مواقف الشعراء السجناء المتباينة والمتماثلة في مواقف متباينة منها : موقف الأمل الذي ظل السجناء متشبثين به ، وعبروا به باعتذارهم واستعطافهم وعتابهم لنيل رضا وعفو رضي وعفو السجان عنهم — كما سبق — لكن هناك من أدركوا غايتهم ، فكانوا يخففون من مصابهم ، ويعزّون أنفسهم بالأمل الذي يتشبثون به بكل ما يملكون من قوة ، وهذا عبد الملك بن غصن الذي ظل يستعطف المأمون بن ذي النون في أشعاره ويرجو العفو عن طريق بعث قصص الأنبياء السابقين في حلية ذكية لطيفة ، يقول (2):

إن رمتنا يدُ الخطوب بقوس	طالما كان سهمها لا يصيبُ
أو يكن عتْر الزمان فمرجوُّ	لإنعاشنا القريب المجيب
قد أحاب الإله دعوة نوح	حين نادى بأنه مغلوب

1 - ابن خاقان . مطمح الأنفس . 404 .

2 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

وشفى ذو الجلال علة أيوب
بَ وقد شارف الردى أيوبُ
وانقضى سجن يوسف وقد استيب—
أس، وارتدَّ مُبصرًا يعقوب
فهذا التوظيف المناسب لقصص الأنبياء أبرز لنا قسّمات الأمل والبشر تعلو
وجهه ، وقد تخلص من الشاعر فيما بعد من سجنه وأصح حرا طليقا .

وعلى نقيض الأمل الذي يتشبهت به بعض السجناء ، فإن آخرين غيرهم ملوا
الاستعطاف وخضعوا لليأس والاستسلام كابن زيدون مع ابن جهور ، الذي انقلب من
مدح إلى هجاء سجانة ابن جهور ، يقول (1) :

بني جهور! أحرقتم بجفائكم
جَناني ، ولكنَّ المدائح تعبقُ
تعدوني كالعنبرِ الورد ، إنّما
تطيب لكم أنفاسه حين يُحرق!

وأما المعتمد بن عباد فإنه لم يستعطف ابن تاشفين — كما تقدم — وإنما استسلامه
كان غاية اليأس التي وصلت إليها نفسه ، والذي دار الزمان عليه وبدله من ((عز البنود
إلى ثقل القيود)) ، فها هو يخاطب الوزير الطبيب ابن زهر (2) ، يقول (3) :

دعا لي بالبقاء ، وكيف يهوى
أسيرٌ أن يطول به البقاء؟
أليس الموت أروحَ من حياةٍ
يطول على الشقيِّ بها الشقاء؟
فمن يك من هواه لقاء حبٍ
فإنَّ هواي من حتفي اللقاء!

فشدة اليأس التي وصل إليها المعتمد بن عباد جعلته يرى الحياة في السجن لا قيمة
لها ، ولذلك يفضل الموت عليها ليتخلص من بؤسه وشقائه .

ونجده في هذه الأبيات يقنط وينقلب من موقف الأمل والصبر الذي كان عليه
إلى موقف اليأس والاستسلام لقضاء الله وقدره ، فيقول (4) :

ماذا رمتك به الأيام ياكبدي
من نُبلهن و لارامِ سوى القدرِ

1 - ابن زيدون . ديوان . 255 .

2 - هو أبو مروان عبد الملك بن زهر ، نشأ بشرق الأندلس ، ورحل إلى قرطبة وتعلم فيها ، ودرس الطب وأخذ وأخذ عن أبيه ،
وكان إلى مهارته في الطب مقدا في الأدب . ، توفي بقرطبة سنة 525 هـ . انظر ترجمته ابـت الأبار . التكملة . 334 ، صاعد
الأندلسي . طبقات الأمم . 106 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 176 .

4 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 189 - 190 .

أَسْرُ وَعُسْرٌ وَلَا يُسْرٌ أَوْ مَلَّةٌ اسْتَغْفِرُ اللَّهُ كَمَا اللَّهُ مِنْ نَظَرٍ

وبهذا يتبين لنا أن الشعراء السجناء ، وقفوا في سجنهم موقفين موقف الأمل وموقف اليأس ، وكان الأمل يشيع في قلوب بعضهم ، فيدعون الله ويتأملون فرجه ، وبعضهم تشفع بالنبي الكريم ، وأما الذين وقفوا موقف اليأس ، فكانوا من الذين عانوا السجن طويلا مستسلمين لقضاء الله وقدره .

يتضح — مما تقدم — من أمثلة ، أن شعر السجن نظمته شعراء في غياهب السجون ، في شكل قصائد ومقطوعات شعرية ، تعبر عن مأساتهم سواء في وصفهم للسجن والسجان أم في استعطافهم واعتذارهم وعتابهم ، أم في ما أثاره وضعهم ومحتهم من حنين إلى الماضي وإلى الأهل والأحباب والوطن وإلى عالم الحرية ، وتتجلى في كل ذلك عواطفهم الصادقة ، كما يتجلى صدقها أيضا في وصف ما أصابهم من يأس في الخلاص أو في تعبير بعضهم عن لحظة الفرح عقب العفو عنه أو الفرار من السجن ، في القرن الخامس الهجري ، الذي يتسم بالصراع الداخلي على الخلافة في عهد الفتنة وفي عهد ملوك الطوائف بغية التوسع على حساب غيرهم ، ولو أدى ذلك بالاستنجد بالنصارى الذين سهلت عليهم مهمة استرداد هذه الممالك ، كما سيأتي الحديث في رثائها ، وكانت معركة الزلاقة بداية النهاية لعهد ملوك الطوائف .

الفصل الثالث

شعر الحرب

لقد شهدت الأندلس غزوات عديدة ومستمرة لاتكاد تنقطع في عهد الخلافة الأموية ، وفي ظل الدولة العامرية ، سواء تلك التي تجهز في قرطبة ، وتنطلق للجهاد في أطراف البلاد وثورها ، اعتمادا على الاستنفار والتعبئة العامة ، أو تلك التي تخوضها الجيوش المرابطة في الثغور باسم الجهاد في قيامها بالرد على غارات الممالك النصرانية . ونظرا لاتصال هذه الغزوات بحياة المسلمين اتصالا مباشرا ، باعتبارها صراعا مع قوات أجنبية تهدد وجودهم ومقدساتهم ، وتستنفدهم على الدوام ، ولكون الجيوش المحاربة تمثل فلذات أكباد المسلمين فإن قلوبهم ومشاعرهم كانت تتعلق بتلك الغزوات وتواكبها باهتمام كبير ، فلا غرو أن تنطق الشعراء وتشيرهم ، لأنهم يمثلون الجانب الرسمي من خلال وضعيتهم في القصر ، ودورهم في الإشادة بمآثر الدولة من جهة لكونهم يمثلون المسلمين ولسانها المعبر من جهة أخرى ، فضلا عن كونهم شهود عيان حضر معظمهم كثيرا من تلك المعارك أو وشارك فيها ، فعبروا عن ذلك في شعرهم وشاركوا في صنع تاريخ بلادهم.

ومن أهم المظاهر التي تجلت فيها مواكبة الشعر للحروب الخارجية : الحث على الجهاد ، وبث الحماس في النفوس ، ووصف المعارك وأدائها والإشادة بالجيوش الإسلامي ، والثناء على الحكام وما حققوه من فتوح وانتصارات ، والشعراء في كل ذلك يحرصون على إثارة حماس المحاربين والرفع من معنوياتهم في أشعارهم .

وبالوقوف على حال المسلمين في عهد الفتنة فإننا نجدهم يستعينون بمؤلاء النصارى ضد بعضهم البعض (1) من أجل البقاء على كرسي الخلافة ، والنصارى عملوا على تأجيج نار الفتنة بين المتنازعين بمد يد المساعدة لمن يطلبها منهم مقابل التنازل على الحصون (2) .

1- انظر هذا البحث . 29، 33 .

2- انظر هذا البحث . 33 .

و لاشك أن مشاركة النصارى مع بعض الأطراف المتنازعة في الفتنة العظمى كشف لهم النقاب — و قد احتكوا بالأندلسيين احتكاكا مباشرا — عن حقائق أذهلتهم . فالخوف والهلع الذي قذفه المنصور بن أبي عامر في قلوبهم إثر غزواته الموفقة طيلة ربع قرن على أراضيهم جعلتهم يعتقدون أن الجيش الأندلسي هو جيش لا يقهر (1) ، فلما شاركوا في معارك هذه الفتنة تبين لهم أنهم واهمون وأن الأندلسيين ، وقد أعوزتهم القيادة ، أضحوا عديمي العقل والشجاعة والدين (2) .

يتضح — مما تقدم — أن فترة الفتنة العظمى لم تكن هناك غزوات للمسلمين ضد النصارى ، بسبب كثرة الأحداث الداخلية والفتن المحلية بين المسلمين أنفسهم ، فكانت لهم الفرصة لمعرفة حال المسلمين عن قرب ، ولما تفتت الوحدة الأندلسية ، وتمخضت الفتنة عن دويلات متناحرة (3) ، شعر هؤلاء النصارى أن زمن المنصور بقوته الضاربة قد ولى وانقضى ، ولم يعد من يواجههم في حربهم مع المسلمين إلا دويلات ضعيفة ومتصارعة ، انصرف كل مليك إلى شؤون مملكته على حساب جيرانه حتى ولو أدى ذلك للاستعانة بالنصارى أو دفع الجزية لهم مقابل مهادنتهم — كما تقدم — ولكن ما يهمنا في هذه الفترة هو حدث خارجي هام كان له أثره الكبير في الحياة السياسية والأدبية ، ألا وهو معركة الزلاقة .

معركة الزلاقة :

قبل الخوض في وصف معركة الزلاقة يجدر بنا الحديث عن أسبابها ، فبعد سقوط طليطلة في يد الفونسو السادس ، ازدادت سياسته التعسفية تجاه ملوك الطوائف بالأندلس ، والغاية منها استنزاف مواردهم المالية على المدى القريب ، وإضعافهم حربيا على المدى البعيد . فضعف قوة ملوك الطوائف الحربية يفرض عليهم الاستجابة لمطالب الفونسو السادس ، ويضطرون إلى إرهاب رعاياهم بضرائب باهضة ، فتكون لها دون شك آثار

1 — انظر تفاصيل ذلك : بن سلامة ، الربيعي . شعر الحرب في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة ، فورار أحمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العمارية . 168 — 207 .
2 — ابن عذارى . البيان المغرب . 89 .
3 — انظر هذا البحث . 67 .

سلبية في قلة الأرزاق ونضوب الموارد، مما يحول دون الاستعداد للحرب واستنفار الجيوش من نفقات وتجهيزات .

ويبدو أن ملوك الطوائف ، أو بعضهم على الأقل ، لم يفكروا في إيجاد مخرج مما يحدث لهم من قبل النصارى ، بل بالعكس عمدوا إلى لسان بعض شعرائهم المعبرين عن تبرير موقفهم الشائن الدال على خنوعهم ، فهذا حسان بن المصيبي (1) ، يقول (2) :

و لم تطو دون المسلمين ذخيرةً تُهين كرام المنفسات لتكرماً
يُجِيلُوا فِي فَكِّ الْأَسَارَى وَإِنَّمَا تُعَاقِدُ كُفَّارًا لَتُطَلَّقَ مُسَلِّمًا
وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ شَحَّ بِالْمَالِ وَالْقَنَا فَتَكُنَّزَ دِينَارًا وَتَرَكُزَ لَهْذَمًا
فَتُرْسِلُهُ لِلصُّفْرِ أَصْفَرَ عَسَجَدًا وَإِنْ خَالَفُوا أَرْسَلْتَ أبيضَ مِخْذَمًا

ومن الصعب أن نخفي على المعتمد قيامه ، أحياناً ، بدفع الإتاوات في سبيل إطلاق سراح بعض الأسرى ، لكن أغلب الأموال التي كان يدفعها للنصارى كانت بمثابة جزية يؤديها الضعيف للقوي .

أما ابن اللبانة فيرى أن سياسة المعتمد في دفع الجزية هي سياسة حكيمة غايتها حماية الدين ونصرتة . ولئن عبرت الرعية عن استنكارها لسياسة ملكهم هذه ، فهي لاشك مخطئة ، والملك أدري بمصالحهم ببعده نظره وحصافة رأيه ، قال (3) :

فِي نُصْرَةِ الدِّينِ لَا أُعَدِمَتْ نُصْرَتَهُ تَلْقَى النِّصَارَى بِمَا تَلْقَى فَتَنْخَدِعُ
تُنِيلُهُمْ نَعْمًا فِي طَيْهَا نَقَمٌ سَيَسْتَضِرُّ بِهَا مَنْ كَانَ يَنْتَفِعُ
وَقَلَّمَا تَسَلَّمُ الْأَجْسَامُ مِنْ عَرَضٍ إِذَا تَوَالَى عَلَيْهَا الرَّيُّ وَالشَّبَعُ
لَا يَخْبِطُ النَّاسُ عَشَوْا عِنْدَ مُشْكَلَةٍ فَأَنْتَ أَدْرَى بِمَا تَاتِي وَمَا تَدَعُ

و لم يخف هذا التبرير بما فيه من تملق عن صاحب الذخيرة ، فعلق على هذه

1 - هو الوزير الكاتب أبو الوليد حسان بن المصيبي من شلب ، أصبح من كبار الشعراء في بلاط المعتمد بن عباد ، ولما استولى المعتمد على قرطبة ، تولى أبو الوليد كتابة سرّ الفتح بن المعتمد . انظر ترجمته : ابن بسام . الذخيرة . 2/1: 433 ، ابن سعيد المغرب . 1: 385 ، العماد الإصفيهاني . الخريدة . 2: 191 ، 3: 588 ، المقرئ . نفع الطيب . 4: 307 .
2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2: 248 .
3 - ابن اللبانة الداني . ديوان . 63 .

الأبيات ، بقوله : ((وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، ومَلَقَ مُعْتَفٍ سائل ، وخديعة طالب نائل ، وهيهات !)) (1) .

و لم يكن لهذا الشعر دور بالغ في نفوس الرعايا إذ سرعان ما صدموا بالواقع بكثرة الضرائب . وعندئذ تيقن ملوك الطوائف بمعية بعض الفقهاء (2) أن أطماع الفونسو السادس في أموالهم وأراضيهم لا حد لها وإذا لم يفكروا في وضعهم الحرج لإيجاد حل له فإن مصير ممالكهم سيكون كمصير طليطلة .

ومن هنا جاءت فكرة الاستنجد بيوسف بن تاشفين على اختلاف في الرأي بين ملوك الطوائف بين رافض وراغب (3) ، ونجد الشعراء قد صمتوا عن وصف هذا الاستنجد لأنهم يلتزمون بمواقف ملوكهم الرسمية — كما تقدم — رغم تحمس الأندلسيين لمثل هذا الاستنجد ، وبدليل وصول بعض الوفود إلى يوسف بن تاشفين قبل سقوط طليطلة طالبة النجدة (4) .

وكان من الممكن أن نجد بعض المقطوعات الشعرية ، بعد أن اتضح موقف ملوك الطوائف ، ووصلت بعثاتهم الرسمية المشتركة إلى ابن تاشفين تستنهض هممه (5) . إننا لانجد إلا بعض الرسائل الرسمية لبعض الكتاب وإن كانت نثرا فهي على درجة كبيرة من التصوير الرائع للحالة التي أصبح عليها المسلمون في الأندلس ، في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري .

وقد صدرت هذه الرسائل عن ابن طاهر (6) الذي رأى أن المسلمين ((بالجزيرة على طرف ، وفي سبيل تمام وتلف)) (7) ، بين ((نكد فاضح ، وتلف فادح)) (8) .

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 249 .

2 - عنان ، محمد عبدالله . دول الطوائف . 306 .

3 - الحميري . الروض المعطار . 85 .

4 - ابن الخطيب . الخلل الموشية . 20 .

5 - عنان محمد عبدالله . دول الطوائف . 317 .

6 - اخذت هذه الأمثلة من ترسل ابن طاهر بعد عزله من الحكم . انذر : ابن بسان . الذخيرة . 1/3 : 24 .

7 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 86 .

8 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 254 .

كما صدرت رسالة على لسان المتوكل بن الألفطس (1) إلى يوسف بن تاشفين كتبها أبو عبد الله بن أيمن (2) استهلها ، بقوله : ((لما نور الهدى ، أي يدك الله ، دليلك ، و سبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معالمكم ، ووقفت على الجهاد عزائمك و صح العلم بأنك بدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وحب أن تستدعي لما أعضل من الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء)) (3). ولمزيد التحريض و إثارة الحساسية الدينية يضيف ابن أيمن ((أيسطو هكذا بالحق الإفك ، ويغلب التوحيدَ الشرك ، و يظهر على الإيمان الكفر ، و لا يكتنف هذه الملة النصر ؟)) (4) .

وهكذا نرى أن الشعر فسح المجال — ولو إلى حين للنثر يجل محله ، و ليس ذلك بدعا ، فالشاعر اعتاد أن يربط ما هان وتفه ، أو جل وعظم بشخص يكون مركز الثقل ، يستقطب إحساسه فيدير حوله شعره . والمنجد المرابطي بعيد وغير معروف ، ولا صلة تربطه بالشاعر الأندلسي فكيف نأمل أن يجذب إليه انتباه الشاعر المداح ؟ و خير دليل على ذلك أن المعتمد قرر العبور بنفسه إلى ابن تاشفين ليحثه على نجدة الأندلس (5) عند ذلك انطلقت ألسن الشعراء من عقالها ، ووجد الشعر المعبر عن هذا الحدث ، و لقد أشار المعتمد نفسه إلى عبوره و إن كان ذلك متأخرا (6) ، فقال (7):

تُراهم نَسُوا حينَ جُزَّتِ القِفَارَ	حَينَئِذا إليهم و حُضَّتِ البِحَارا
بعهدٍ لَزُومٍ لِسبيلِ الوَفَا	إذا حاد من حاد عنها و جارا
وقلبي نُزوعٌ إلى يُوسُفٍ	فلولا الضُّلوع عليه لطارا

1 - ابن الخطيب . اللؤلؤ الموشية . 20 .

2 - انظر ترجمته : ابن بسام المصدر السابق . 2/2 : 652 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 366 .

3 - ابن بسام . المصدر نفسه 2/2 : 654 .

4 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 654 - 655 .

5 - أشباخ يوسف . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين 1 : 70 .

6 - قال هذه الأبيات وهو في طريقه إلى غمارة منغيا يخاطب المرابطين ويذكرهم بوفائهم لهم ، و كأنه يطالبهم ، وقد فات الأوان أن يعاملوه بما هو جدير به .

-170-

ونجد ابن وهبون قد مدح المعتمد بن عباد بهذا الجواز الذي أرخ له ابن الخطيب بسنة 478 هـ (1) ، أي أن هذا العبور تم قبل معركة الزلاقة ، والأبيات لا تتنافى مع ما ذهب إليه ابن الخطيب من تحديد زمني ، فحسب الشاعر ، يجب أن يكون المرء في مثل حزم المعتمد وحكمته ليتجرأ ويقوم بهذه المغامرة المجهولة العواقب ، فقال (2) :

عَزَمَ تَجَدَّدَ فِيهِ النَّصْرُ وَ الطَّفَرُ
وَفِكْرَةَ حَمَدَتِ مِنْ دُونِهَا الْفِكْرُ
عَسَاكَ حَلَّتْ حَبَابَ الْمَاءِ مِنْ زَرَدٍ
تَعَوَّدَ الْخَوْضَ فِيهِ طِرَافُكَ الْأَشْرُ
أَوْقَلْتَ فِي الْمَوْجِ خُرْصَانَ مُفْرَقَةً
تُحَارِبُ الْجَيْشَ أَوْ مَصْقُولَةً بَتْرُ

ومع هذا الإطراء للمعتمد ، لا يخفي الشاعر قلقه من هذا الجواز ، فنراه ينصح الممدوح بالحيلة والحذر لأن حياته لم تعد ملكا له ، فهو أمل هذه الجموع الغفيرة التي جاءت تودعه ، وهو أمل بالنسبة إليها في دينها وديناها ، قال (3) :

هِيَ الْبَسَالَةُ إِلَّا أَنَّمَا شَرَفُ
تَنْفِي الْحَذَارِ ، وَمِمَّا يُؤَثِّرُ الْحَذْرُ
لَا تَحْمِلُ الدِّينَ وَالْدُنْيَا عَلَى خَطَرٍ
وَلَيْسَ يُحْمَدُ فِي أَمْثَالِكَ الْغَرُّ
إِنْ كَانَ ثَوْبُكَ مُخْتَصَا بِالْأَبْسِهِ
فَقَدْ تَعَلَّقَ مِنْ أَذْيَالِكَ الْبَشْرُ
هَلَّا رَحِمْتَ نُفُوسًا حَامَ حَائِمَهَا
عَلَيْكَ وَاسْتَوْلَتِ الْأَشْوَاقُ وَالذُّكْرُ

إن المعتمد غير قادم على حرب ، فما الذي يبرر خوف الشاعر على سيده من هذا الجواز ؟ إنه الشك في نوايا هذا المنجد الغريب الذي سيراه المعتمد لأول مرة ، وهي الريبة في هذا المغيث الجهول الذي علق عليه الممدوح ، قبل أن يجتبره ، آمال واسعة ، وهذا من شأنه يجعل النفوس غير مطمئنة ، قال ابن وهبون (4) :

لَا نُحْسِنُ الظَّنَّ إِشْفَاقًا وَقَدْ ضَمِنْتَ
لَنَا مَسَاعِيكَ أَنْ يَعْنِ لَكَ الْقَدْرُ
وَلَمْ يَخِيبِ ابْنَ تَاشِفِينَ ظَنَ الْمَعْتَمِدِ ، وَلَا ظَنَ الْأَنْدَلِيسِيِّنَ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَمَلًا
عَلَى تَشْجِيعِ الْمَعْتَمِدِ بْنِ عَبَادٍ بِالتَّخْلِیِّ عَنِ الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ بِمَا فِيهَا لِلْمَرَابِطِيِّنَ ،

1 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 246 .

2 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 246 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 504 .

-171-

وعند ذلك اجتاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 479 هـ (1) ، وبعد أن انضمت إليه القوات الأندلسية بمشاركة أغلب دويلاتها ، قصد غربي الأندلس ، وكان ملكه ابن الأفطس أول من راسل ابن تاشفين يستنجد به لما حاصره النصارى ، وسقطت بأيديهم بعض حصونه الشمالية ، وما أن سمع الفونسو السادس بتحرك الجيوش الإسلامية حتى قطع حصاره لسرقسطة ، وارتد إلى طليطلة لحشد الجيش ، ثم زحف بجيشه الجرار نحو بطليوس ونزل على بعد منها بمكان يعرف بالزلاقة (2) .

وقد فصل المؤرخون (3) القول في هذه المعركة ، وتتبعوا جميع تفاصيلها بدقة ، وقام بعض الكتاب في تلك الفترة بكتابة رسائل على لسان ملوكهم في وصف الظفر المبين الذي حققته الجيوش الإسلامية على القوات النصرانية (4) .

وأما الشعراء فإنهم قالوا في يوم الجمعة - أي يوم الزلاقة - أشعارا سارت بالمغرب والمشرق على حد قول ابن بسام (5) ، وأورد المقرئ أنه ((لما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس إلى الناس ، وهنىء بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه)) (6)

ويبدو أن الشعراء الذين أشادوا بهذا الانتصار كانوا كثيرا ، ولكن شعرهم لم يصل إلينا منه إلا القليل ، فهناك بعض المقطوعات لم يصل منها إلا المطلع أو بيت فريد ، واتفقت كلها على تسمية معركة الزلاقة بيوم العروبة تعظيما له وتنويها بشأنه ، قال ابن جهور أحد أدباء إشبيلية (7) :

لم تعلم العُجم إذ جاءت مُصممةً
يوم العروبة أن اليوم للعرب

1 - انظر هذا البحث . 71 .

2 - عنان ، محمد عبدالله . دول الطوائف . 311 .

3 - ابن الخطيب . الحلل المشوية . 42 - 42 .

4 - انظر رسالة ابن القصيرة في انتصار الزلاقن . ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 240 ، وهناك رسالة أرسلها ابن تاشفين إلى تميم بن المعز بالمهدية يخبره فيها بهذا الفتح . عنان ، محمد عبد الله . المرجع نفسه . 424 .

5 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 244 .

6 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 370 .

7 - ابن الأبار . الحلة السراء . 2 : 101 .

وقال ابن اللبانة (1) :

يوم العروبة كان ذلك الموقفُ
أنتى شهدتَ فأين من يستوصفُ؟

وقال ابن وهبون (2) :

وما يوم العروبة يوم ســــرٌّ
لقد نطق الزمانُ به فقالا

ويوم العروبة لغة هو يوم الجمعة . قال أبو طالب عبد الجبار في أرجوزته (3) :

لله دُرٌّ مثليها من وقــــعة
قامتُ بنصر الدين يوم الجمعة

و هذه الأبيات لاتبرز أحداث المعركة كثيرا بقدر ما تكشف عن تغني شعراء تلك الفترة بانتصار الزلاقة ، فكيف بدت لنا هذه المعركة الحاسمة من ما بقي لنا من أشعارهم ؟

إن أول ما يبدو من خلال هذه النصوص الشعرية ، هو تحميلها النصارى مسؤولية ما وقع بالزلاقة ، فهم السبب الرئيسي في اندلاعها ، وهي بذلك تحمل طبيعة هذه المعركة بالنسبة للمسلمين ، فهي معركة دفاعية أجبر عليها المسلمون بعد أن روّعوا في ديارهم وأهينوا في مقدساتهم ، قال ابن حمديس بعد الانتصار في الزلاقة ، وهو يميظ اللثام عن الحالة التي كانت عليها الأندلس قبلها (4):

الآن أفرخَ روعُ كلِّ مُهيِّدٍ
وأُعزَّ دينُ محمدٍ بمحمدٍ

لقد انتهج النصارى سياسة توسعية لاحد لها ، فلم تكتف باستنزاف الأموال ، بل تعدتها إلى الحصول على ثغور المسلمين في الشمال ، ثم اكتسحت أراضيهم في الجنوب ، ونسي هؤلاء أنهم بأطماعهم تلك وتعديهم هذا ، قد عملوا على إثارة الشر من مكمته وإيقاظ النوائب من سباتها ، قال ابن وهبون (5) :

لم يهشموا الشجر إذ عاثتْ أكْفُهُمُ
لو يعقلون ولكن تلكمُ الثُّعْرُ

1 - ابن اللبانة الداني . شعره ، 67 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 510 : 1/2 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 944 : 2/1 ، وهذا البيت لم يأت منفردا .

4 - ابن حمديس . ديوان . 172 .

5 - ابن بسام . الذخيرة . 255 : 1/2 .

وليس ما غيروا إلا لأنفسهم
كأنما نبهوا إذ نامت الغير
والغرور حمل هؤلاء النصارى على تناسي من يواجههم من الأعداء ، فساقهم
طيشهم إلى مافيه حتفهم وهلاكهم ، فقال (1) :

أَتُنَكِّرُ الْعُجْمَ أَنْ الْعُرْبُ سَادَتْهَا وتشهد البيض والخطيئة السمرُ
لما تعارض دون الشُّكْر كُفْرَهُمْ عادت بوادِرَ فيهم تلکمُ البدرُ
والشاعر في إلقائه هذه التبعة على عاتق النصارى ، يبدو متحصرا في أعماقه على
ضياع فرصة ذهبية ، لو أدرك العدو في تعايش سلمي بين المسلمين والنصارى .
والنصارى هم السبب في هذه المعركة وكانوا هم الضحية فيها ، فقد ألحق بهم
المسلمون هزيمة نكراء ، ووصفهم الشعراء قبل الهزيمة وبعدها .

لقد لفت انتباه الشعراء قبل المعركة ما كان عليه جنود العدو من ضخامة في
الجسم مع خفة في الحركة : فهم علوج شياطين ، قال ابن حمديس (2) :

غداة أتى بصلبانٍ أضلَّتْ عُلوْجا أبرموا كيد البريم
كأنهم شياطينٌ و لكن رميتهم بمحرقة النجوم
ولفت انتباههم ما تعود عليه النصارى في حروبهم من تغطية أجسامهم بأكملها
بالحديد ، وهو ما لم يكن يفعله المسلمون ، قال ابن حمديس (3) :

عُلُوجُ قُمْصُ حَرْبِهِمْ حديدُ يُعبر عنهم سهكُ التَّسِيمِ
وهم يفعلون ذلك حذرا واحتياطا ، قال ابن حمديس (4) :

أفاضوا من المذيِّ ماءً عليهمُ ليُطْفِئَ عنهم من لظى الحرب جاحِمَا
وكما حشوا أجسامهم داخل الحديد اتقاء للطعنات ، حشوا قلوبهم غيظا وظهر
ذلك في أعينهم المتقدة حقا ، قال ابن حمديس (5) :

1 - ابن بسام . المصدر السابق . 1/2 : 255 .

2 - ابن حمديس . ديوان . 437 .

3 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 438 .

4 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 427 .

5 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 427 .

علوج حشوا في الكفر بالغیظ أعینا و قد مَلَأُوا منها قُلُوبًا سَخَائِمًا
و أشار ابن وهبون إلى عادة نصرانية لازالت إلى اليوم ، وهي رفع كأس الخمرة
عند الاتفاق على أمر خطير أو الإقدام على حدث جسيم ، وقد فعل هذا الجنود
النصارى، فدارت الخمرة بينهم قبل بدء المعركة وقت السحر ، وهم يشربونها على نخب
ما يؤملونه من انتصار حتى يزدادوا عزمًا وثباتًا عند مواجهة العدو ، فقال (1) :

مَضُوا فِي أَمْرِهِمْ سَحْرًا وَدَارَتْ
بِمَا عَقَدُوا مِنَ الْحَلِيفِ الْمُدَامِ

ومع هذا الاستعداد الكامل اعتمد النصارى طريقة المكر والخداع ، فقد اقترح
الفونسو السادس تجنب الحرب يوم الجمعة والسبت والأحد ، احتراماً لقدسية هذه الأيام
في الأديان السماوية الثلاثة (2) ، وأن يكون اللقاء يوم الإثنين ، وتفطن المعتمد لهذه الحيلة
وأعلم المرابطين بذلك حتى يجتاطوا ويستعدوا ، وأشار ابن حمديس إلى ذلك (3) :

نَوَى خِدْعَةً فِي الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ خِدْعَةٌ
فَأَدْبَرَ مَهْزُومًا وَقَدْ كَانَ هَازِمًا

ولكن لا الاستعداد نفع ، ولا الحيلة انطلت ولحقت بالفونسو الهزيمة النكراء .

ويؤكد الشعر ما أكدته التاريخ من كثرة القتلى في صفوف النصارى ، فقد أطبق
عليهم الجيش الإسلامي من أمامهم ومن خلفهم : من الأمام برجوع القوات الأندلسية إلى
أرض الميدان بعدما ظهر عليها من التقهقر في بداية المعركة ومن الخلف بتزول الجيش
المرابطي من أعلى الربوة التي كان فيها واقتحامه لمحلة الجيش النصراني ، فوقع جنوده بين
قوات أندلسية رجع لها أمل الانتصار ، وقوات مرابطية في أوج حماسها واندفاعها . فكثرت
القتل في صفوف العدو مقبلين ومدبرين ، وتغيرت الأرض غير الأرض فارتفع ما كان
منخفضاً منها وانبسط ما كان مرتفعاً ، فقال ابن وهبون (4) :

فَهَيْلَ بِهِ كَثِيبُ الْكُفْرِ هَيْلًا
وَ كُلُّ رُفِيعَةٍ مِنْهُ رُكَامٌ

وَ صَارُوا فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَرْضًا
كَأَنَّ وَهَادَهَا مِنْهُمْ إِكَامٌ

1 - ابن دحية . المطرب . 120 .

2 - عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف . 312 .

3 - ابن حمديس . ديوان . 427 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 246 .

عَدِيدٌ لَا يُشَارِفُهُ حَسَابٌ وَ لَا يَجُوي جَمَاعَتَهُ زِمَامٌ
وَيَحْمِلُ ابْنُ حَمْدِيسٍ مَسْئُولِيَةَ مَا وَقَعَ لِهَؤُلَاءِ الْجُنُودِ مِنْ تَقْتِيلِ ، قَائِدِهِمُ الَّذِي غَرَّهُمْ
فَسَاقَهُمُ السَّوَائِمَ إِلَى مَرْعَى الْهَلَاكِ وَأُورِدَهُمْ حِيَاضَ الْمَوْتِ . فَكَانُوا فِي سَقُوطِهِمْ صَرَعى
عَلَى أَرْضِ الْمِيدَانِ كَقَوْمِ عَادَ ، وَقَدْ حَلَّتْ بِهِمْ نَقْمَةُ السَّمَاءِ ، قَالَ (1) :

يَقُودُهُمْ لِحَيْثُ يَنْهَمُ ظُلُومٌ لِأَنْفُسِهِمْ، فَوَيْلٌ لِلظُّلُومِ
رَعَى نَبْتَ الْوَشْيِجِ بِهِمْ فَمَادُوا وَتَلَّكَ عَوَاقِبُ الْمَرْعَى الْوَحِيمِ
وَأُورِدَهُمْ حِيَاضًا فِي الْمَوَاضِي بِنَاءِ الْمَوْتِ سَاقٍ مِنْ جَمُومِ
وَ لَمَّا أَنْ أَتَاكَ بِقَوْمِ عَادٍ أَتَيْتَ بِصَرَّصِرِ الرِّيحِ الْعَقِيمِ
وَهُمْ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ كَالْحَطْبِ الَّذِي جَمَعَ وَأَلْقَى بِهِ فِي النَّارِ ، قَالَ نَفْسِ
الشَّاعِرِ (2):

كَأَنَّمَا احْتَطَبَ الْعُلُوجَ وَسَاقَهُمْ بِجَرِيْقٍ ضَرَبَ بِالصَّوَارِمِ مُوقِدَ
وَ كَانَ مِنْ نَتِيجَةِ هَذِهِ الْمَقْتَلَةِ الْجَمَاعِيَةِ أَنْ تَنَاطَرَتِ الرَّؤُوسُ عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ،
فَتَرَاءتْ لَابْنِ حَمْدِيسٍ كَكْرَةِ الصُّوْبِ الْجَانِ ، قَالَ (3):

كَأَنَّ كُرَاتٍ وَهِيَ هَامُهُمْ غَدَتْ صَوَا الْجُهَا بِيضًا تُحْزُ الْعَلَاصِمَا
وَ فِي لَوْنِهَا وَقَدْ اسْتَتَرَفَ دَمُهَا ، كَالْبَيْضِ ، قَالَ (4) :

وَ الْحَرْبُ مِنْ بِيضِ الذُّكُورِ كَأَنَّمَا بَاضَتْ مِنْ رَقَائِدُ فِي الْفَدْفِدِ
وَ فِي رَائِحَتِهَا كَالْبَصْلِ الْبَرِيِّ ، فَقَالَ (5) :

وَ تَحْسِبُهَا فِي كُلِّ بِيْدَاءٍ عُنْصُلًا تَرَى نَاثِرًا فِيهَا لَهْنًا وَ نَاظِمًا
أَمَّا الْجَثَثُ وَقَدْ حَزَتْ مِنْهَا الرَّؤُوسُ فَهِيَ فِي نَظْرِ الشَّاعِرِ أَجْسَامٌ لِنَشَاوَى أَنَا مَلَهُمْ
مَرَقْدٌ مَخْدَرٌ ، قَالَ (6) :

-
- 1 - ابن حمديس . ديوان . 438 .
 - 2 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 172 .
 - 3 - ابن حمديش . المصدر نفسه . 427 .
 - 4 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 173 .
 - 5 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 427 .
 - 6 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 172 .

يَعْدُو الْجَوَادُ بِهِ عَلَى فُرْسَانِهِ صرعى كأنهم نَشَاوَى مُرْقَد
من كل ذي سُكْرَيْنِ من خَمْرٍ ومن حَدِّ لَذِي فَتْنِكَ عَلَيْهِ مُعْرِيد
ويسخر الشاعر من الفونسو السادس وقد فرّ من ميدان المعركة على فرس يدوس
بجوافره جثث من صرع من جنوده فيسأله متشفيا ويجيبه مستهزئا ، قال ابن وهبون (1):
أنام رجالك الأشقون ؟ كلاً ! وهل يحلّو بلا رأس منام؟
ويكشف الشعر من أن المسلمين جمعوا رؤوس القتلى على شكل صومعة ،
و صعد من أذن عليها وكبر. قال ابن حمديس (2):

وأيد بنت في القفر منها صوامعا وكانت لها بالمرهفات هودما
علاهن للتأذين كلُّ مكبر تكاد له كفُّ تُمسُ الغمائم
و كأن القدر أراد أن ينتقم من جند العدو . فها هي الصوامع التي كثيرا ما اعتدوا
عليها هدمًا وتدنيسا تبني برؤوسهم ، قال ابن حمديس (3):

تُبْنِي الصَّوَامِعَ مِنْ رُؤُوسِهِمْ بِمَا كانت على هدم الصوامع تُعْتَدِي
و ذكرت المصادر أن لمة من فرسان الفونسو السادس قائد النصارى في معركة
الزلاقة حملته وفرت به (4) ، وأكد الشعر بأنه قد استطاع أن ينجو فارا وهو جريح بعد
أن أسدل الظلام ستاره خوفا وفزعا ، قال ابن حمديس (5) :

ومُعْتَرِكٍ تَلَقَّى الْفُنُوشُ فِيهِ غَرِيماً مُهْلِكَا نَفْسِ الْغَرِيمِ
تَسْتَرُّ بِالظُّلَامِ وَفَرًّا خَوْفَا بِرُؤُوعٍ شَقَّ سَامِعَتَيْ ظَلِيمِ
وأشار ابن وهبون بأنه نزع كل ما كان عليه من دروع حتى يسهل عليه الفرار
ويتمكن من النجاة ، وفي ذلك الموقف ما فيه من هوان وذل ، وخاصة بالنسبة إلى قائد
الجيوش وفارسه، ويعن الشاعر في استهزائه بهذا القائد المهزوم الذي — كما يرى الشاعر —

1 - ابن بسام ز الذخيرة . 1/2 : 247 .

2 - ابن حمديس . ديوان . 427 .

3 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 173 .

4 - ابن الخطيب . الجلل الموشية . 43 .

5 ابن حمديس . ديوان . 437 .

سيغير منذ ذلك اليوم دينه ، وسيعبد الظلمة لما أسدته له من يد بيضاء بإخفائه عن عيون أعدائه ، فقال (1) :

نَصًا أَدْرَاعُهُ وَاجْتَابَ لَيْلًا يَوَدُّ لَوْ أَنَّ طَوَلَ اللَّيْلَ عَامٌ
سَيَعْبُدُ بَعْدَهَا الظُّلْمَاءَ لَمَّا أَتِيحَ لَهُ بِجَانِبِهَا اكْتِيَامٌ
ثم يعن الشاعر في تشفيه من ملك قشتالة ، فيشبهه بأحقر الطيور وينعته بأرذل
النعوت دينيا وأخلاقيا (2) :

وَلَا يَنْفَكُ كَالْخُفَّاشِ يُغْضِي إِذَا لَمْ يُبَاشِرْهُ الظُّلَامُ
فَإِنْ يَنْجُ اللَّعِينُ فَلَا كَـحُرٌّ وَلَكِنْ مِثْلَمَا يَنْجُو اللَّئِيمُ
ويرى ابن حمديس كابن وهبون ، أن ظلام الليل هو الذي مكن الفونسو السادس
من النجاة حيا ، فكان فرسه يعدو به كالبرق على هام جنوده وجثثهم (3) :

صَدَعَتْ كِتَابُهُ الضُّبِّي حَتَّى إِذَا هَمَّتْ بِهِ أَعْطَى قَدَالَ مُعْرِدٌ
فِي لَيْلَةٍ لَبَسْتُ لِتَسْتُرُ شَخْصَه عَنَّا فَلَمْ تَلْحِظْهُ عَيْنُ الْفَرَقْدِ
أَمْسَى يُكْذِبُ مَائِنَا فِي ظُلْمَةٍ خَفَرْتُهُ فَهِيَ لَدَيْهِ بِيضَاءُ الْيَدِ
وَلَّى يُحَاكِي الْبَرْقَ لَمَعُ مُجْرَدٍ وَ الرَّعْدَ فِي حَذَرٍ تَحْمَحُمُ أَجْرَدِ
يَعْدُو الْجَوَادُ بِهِ عَلَى فُرْسَانِهِ صَرَعى كَأَنَّهُمْ نَشَاوَى مُرْقِدِ

والشاعر بخياله يتبع الفونسو السادس ، وقد وصل إلى أبواب طليطلة حزين القلب
مكسور الجناح ، فخرجت النساء إليه يسألنه عن أزواجهن وآبائهن وإخوتهن ، وفي
سؤالهن تأكيد له تحمله مسؤولية ما وقع لهم ، ألم يجمعهم ورمى بهم في أتون الحرب
فهلكوا ؟ ولكن بماذا سيخبرهن الفونسو السادس ، فالحال أفصح من اللسان ، وهو
يتحمل هذه المسؤولية الجسيمة بمفرده ، فقد حملته نفسه بعجبها وغرورها إلى تلك
الكارثة ، وهذا يدل على أن تجربة الفونسو الطويلة في الحياة والحكم لم تمنعه من أن يكون
كالغلام طيشا ونزقا، وما أحرى هذا الغلام الشيخ أن يترك القيادة لمن جمع مع تقدم السن

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 247 .

2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 246 .

3 - ابن حمديس . ديوان . 172 .

اتزان النفس وحكمة العقل ، قال ابن وهبون (1) :

فيا أنفونشُ يا مغرورُ هلاًّ تجنبتَ المشيخةَ يا غلامُ؟
ستسألكِ النساءُ ولا رجالُ فتُخبرِ ما وراءك يا عصام

ومما لاشك فيه أن لهذا النصر المظفر الخالد أسبابا ، أشار الشعراء إلى حسن الاستعداد ، وذكروا حكمة القيادة ، ونوهوا بوحدة الصفوف .

أما من حيث الاستعداد فقد عمل يوسف بن تاشفين على استنفار أكبر عدد من الجنود والمتطوعة حتى يضمن النصر ، فاستجاب الناس إلى هذا الاستنفار ، يقول ابن بسام : ((ووفد عليه عوضا من آلاف الدنانير الأموال ، ضعفهم من الفرسان الأبطال)) (2) ، وفي ذلك قال ابن وهبون (3) :

وهبَّ عن كلِّ دينار لهم بطلُ كخالص التَّبرِ مسبوكٌ و مُختَبَرُ
فليقبَلوها أُلُوفاً من أُسودِ و غي تزكو على السَّبكِ لاجِبُنٌ ولا خور
وليرقبُوا من أمير المسلمين ومن مُؤَيِّد الدين ليلا ما له سحر

أما من حيث القيادة ، فقد برهنت بما أظهرته من رباطة جأش ورائع بطولتها ، ومهارة تخطيطها ، إنها جديرة بالنصر، والمصادر التاريخية اعتبرت أن بطل معركة الزلاقة هو يوسف بن تاشفين ، إلا أن الشعراء جعلوا بطلها المعتمد بن عباد لأسباب متعددة ، وكأن القدر أراد أن ينتصف لابن تاشفين ، وقد نجس حقه ، فجعل المعتمد نفسه يقر بأن بطل المعركة هو يوسف بن تاشفين ، قال (4) :

ويومَ العروبة ذدت العدا نصرتَ الهدى وأبيت الفرارا
ثبتَ هناك وإن القلو بَ بين الضلوع لتأبى القَرا
ولولاك يا يوسفُ المتقى رأينا الجزيرة للكفر دارا

وبقطع النظر عن الأشخاص فإن أهم سمة امتاز بها بطل الزلاقة هو قدرته على

1 - ابن خاقان . قلائد العقيان . 15 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 255 .

3 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 255 .

امتلاك زمام نفسه في الأوقات الحرجة ، نجد أبي بحر بن عبد الصمد (1) يقول (2):

لو زُلَّتْ زال الدينُ و انتهبَ الهدى و نبا اليقينُ و أذعن التوحيدُ
لكنْ وقفتَ و ملءُ درعك للعدا درعٌ يَهْدُ الرّاسياتِ شديد
و الوجهَ لامتعيّرٍ و الرّأيي لا مُتَبَلِّدٌ و العزم لا مَرْدُود

ويبدو القائد البطل قطب رحى المعركة فكل الأنظار متجهة إليه يستمدون من رباطة جأشه ، وقد حفت به الأخطار من كل صوب ، العزم والثبات في موقفهم ، قال ابن القزاز (3) :

وقفتَ و موقفُ الهيجاء ضنكُ وفيه لباعك الرّحْبِ انفساحُ
وألسنّةُ الأسنّةِ قائلاتُ إذا ظهر المؤيّد لا براح

لقد ثبت فعلا المعتمد على رأس القوات الأندلسية إثر هجوم النصارى العنيف في بداية المعركة ، ولم يفت في عضده تصدع الصفوف من حوله وتراجعهم بل استمات في الدفاع ، وقد ولي كثير من جند الأندلس الأدبار والنصارى من ورائهم يعملون السيف فيهم ، قال ابن وهبون (4) :

وقفتَ بحيث تلحظك العوالي و هنّ إلى مواردها هيامُ
و لم يثبت من الأشياع إلا شقيقك وهو صارمك الحسام
يمانٍ في يدي ماضٍ يمانٍ فلا ناي الغرار ولا كهام
و لم يحملك طرْفك بل فؤادُ تَعوّد أن يُخاض به الحمام
ثبتَّ به ثبات القطب لما أدارَ رحاهُ خَطْبٌ لا يُرام

وإذا كانت الوجوه عابسة فإن المعتمد تعلوه الابتسامة ، لما رآه الفونس السادس ،

لأنه متأكد من النصر ، قال ابن حمديس (5) :

1 - هو أبو بحر يوسف بن أبي القاسم بت أحمد بن خلف بن عبد الصمد وهو من شعراء المعتمد بن عباد . انظر ترجمته : ابن بسام . المصدر السابق . 2/3 : 809 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 302 ، المقرئ . نفع الطيب . 3 : 534 ، 4 : 259 .
2 - ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 815 - 816 .
3 - ابن سعيد . المغرب . 2 : 135 .
4 - ابن دحية . المطرب . 120 .
5 - ابن حمديس . ديوان ز 437 .

رَأَكَ وَأَنْتَ مَبْتَسِمٌ كَضَارٍ تَثَاءَبَ عَنْ نَوَاجِذِهِ شَتِيمِ

ومع أن القائد البطل تميز بهذه الخصال عن غيره ، فهو يبقى دائما البطل الإنسان بعواطفه ومشاعره ، فالمعتمد وهو يخوض غمار المعركة ولا يدري ما يجنئه له القدر من مصير ، تذكر ابنا له صغيرا عليلا بإشبيلية ، ولاشك أن فكرة الفرار راودت نفسه في تلك اللحظة فاندلع صراع عميق في أعماقه بين عاطفة الأبوة والواجب المقدس ، لكن المعتمد شأنه شأن البطل الجلد والقائد المسؤول يتغلب فيه دائما صوت الضمير والواجب على نداءات العاطفة والمشاعر ، فقال (1) :

أَبَا هَاشِمٍ هَسْتَمْتَنِي الشَّفَارُ فَلله صَبْرِي لَذَاكَ الْأَوَارُ
ذَكَرْتُ شَخِيصَكَ مَا بَيْنَهَا فَلَمْ يَدْعُنِي حُبُهُ لِلْفَرَارِ

ويتعرض كما هو متوقع القائد بمواقفه الجريئة إلى كل ما من شأنه أن يتعرض له الجندي الباسل على أرض المعركة فيشجّ وجهه ، قال ابن حمديس (2) :

كَمْ شَجَّةٌ فِي حُرٍّ وَجْهَكَ لَمْ يَزَلْ لَكَ الْحُسْنُ مِنْهَا بِالشَّجَاعَةِ وَاسْمَا

ومرة أخرى تجرح يده ، وهذه اليد كما تسيل جودا وكرما على الأقرباء ، فهي تفيض بأسا ونقمة على الأعداء ، فقال ابن القزاز (3) :

وَقَالُوا : كَفَّهُ جُرْحَتٌ فَقَلْنَا : أَعَادِيهِ تُوَأَفِعُهَا الْجِرَاحُ
وَمَا أَثْرُ الْجِرَاحَةِ مَا رَأَيْتُمْ فَتَرَهَبُهَا الْمَنَاصِلُ وَالرَّمَاحُ
وَلَكِنْ فَاضَ سَيْلُ الْبَاسِ مِنْهَا فَفِيهَا مِنْ مَجَارِيهِ انْسِيَا ح

وكما وصف الشعراء القائد الجريح وصفوا البطل الشهيد فرثوه ، ونوهوا بعظيم دوره في المعركة مبرزين فداحة فقدته ، بخاصة إذا كان القتييل ممن جمع في مهامه بين السيف والقلم ، وفي مجده بين الطريد والتلبد ، وهذا ابن وهبون يرثي واحدا من وزراء المعتمد ، وقد سقط شهيدا في معركة الزلاقة ، وهو أبو محمد بن خلدون ، يقول (4) :

مَلَكْتُ فَاسْجَحُ لَا أَبَالِكَ يَا دَهْرُ أَفِي كُلِّ عَامٍ فِي الْعُلَا فَتَكَّةُ بَكْرُ

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 106 ، ابن الخطيب . الحلل الموشية . 42 .

2 - ابن حمديس . ديوان . 425 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 245 . 4 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 719 - 720 .

رثته فقلنا : إهما لثماضرُ
مضى لم يرث عنه الرئاسة وارثُ
وما كان إلا الغيثَ أقلعَ حُملةً
فيا ليتني بين العوالي وبينه
لأطبق منه بالعشاَ حَدَقَ القناَ
وإن ابن خلدون لمفقودها صخرُ
ولولا المساعي الزهرُ لانقطع الذكرُ
فلم يك منه لا غديرُ ولا زهرُ
وقد ملكتني من أعنتها فهرُ
ضيرابي وإن كانت لها الأعين الخزرُ

وفي هذه المعركة نجد أبا يعقوب يوسف قد اعترف لأهل الأندلس في شخص ابن عباد بقوة تضحياتهم ، وفائق بطولاتهم ، وخص ملك إشبيلية بوافر إعجابه وتقديره ، فقال ابن القزاز (1) :

رأى منه أبو يعقوب فيها
فقال له : لك القِدْحُ المَعْلَى
عُقابا لا يُهاضُ لها جَنَاحُ
إذا ضُربتْ بمشهدك القِدَاحُ
وبالمثل كان المعتمد ، فقد اعترف هو الآخر بدور أمير المسلمين — كما وصفه الشاعر — في المعركة ، فلولا ما أبداه من حنكة في التخطيط وثبات في الوقت الحرج ، ما كان ليتم النصر للمسلمين في النهاية ، فقال (2):

فَلِلَّهْ دَرْكٌ فِي هَوْلِهِ
تَزِيدُ اجْتِرَاءً إِذَا مَا الرِّمَاءُ
لقد زَادَ بِأَسْكَ فِيهِ اشْتِهَارَا
ح عِنْدَ التَّنَاجُزِ زِدَنَ اشْتِجَارَا
أما من حيث الاتحاد والانسجام ، فإن ما رأيناه من تقدير متبادل بين بطلي الزلاقة لدليل قاطع على خالص الرجلين فيما عقدا عليه من عزم لمواجهة العدو ، وقد تجسم هذا التقدير ، في العلاقة التي أصبحت تربط ابن عباد بابن تاشفين ، فالأول للثاني في حبه وإخلاصه كبنيامين لأخيه يوسف الصديق ، وتجسم بين جنود جيشهما ، وليس ذلك بغريب فكلهم إخوة ، كما يجمعهم المصير المشترك في هذه المعركة تجمعهم أصول عربية من حمير و لحم ، قال ابن وهيون (3):

فتار إلى الطعان حليفُ صدقٍ
تثورُ به الحَفِيظَةُ و الذَّمَامُ

1 - ابن بسام . المصدر السابق . 1/2 : 245 .

2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 244 .

3 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 244 .

نُمي في حَمِيرٍ وَنَمَتَكَ لَحْمٌ وتلك وشائجٌ فيها التَحَامُ
فِيُوسُفُ يُوسُفُ إِذْ أَنْتَ مِنْهُ كِيَامُنَ لَا وَهَى لَكُمْ نِظَامُ

وإذا تحقق النصر بثبات القائدين ، فقد تحقق باستمالة الجيشين : العرب بسيوفهم

نزالا ، قال ابن حمديس (1) :

وَمُعْتَادَةٌ أَكَلِ الْكُمَاةِ ، جِيُوشِهَا أَعَارِبُ تَدْعُو لِلنَّزَالِ أَعَاجِمًا
إِذَا اخْتَصَمُوا فِي اللَّهِ كَانَتْ قُضَاتِهِمْ قَوَاضِبَ تَقْضِي بَيْنَهُمْ وَلَهَاذِمًا
والملثمون طعنا ، وأكمل القول (2) :

وَأَذْنَتْ عُمَارَ الْقِفَارِ بِحَرْبِهِمْ فَيَا قُرْبَ مَا شَقُوا إِلَيْكَ الْخِضَارِمَا
بَنُو الْحَرْبِ غَذَّهْمَ لِبَانِ تُدْيِيهَا وَلَمْ يَسْتَطِيبُوا مِنْهُ بِالْقُلُوبِ الْعَلَاقِمَا
إِذَا طَعَنُوا بِالسَّمْهَرِيَّةِ خِلْتَهُمْ ضِرَاغِمَ تُغْرِي بِالْقُلُوبِ أَرَاقِمَا

وكانت النتيجة واحدة وهي سحق العدو ، وقال الشاعر منوها بطريقة العرب

في الحرب (3) :

أَدَارَتْ رِحَاهَا دَوْرَةَ عَرَبِيَّةً تَرَكْتُ عِظَامَ الرُّومِ فِيهَا هَشَائِمَا

ويذكر المؤرخون سببا آخر لهذا الانتصار الذي حققه المسلمون في الزلاقة ، ويتمثل في استخدام عنصرين جديدين على أرض المعركة لم يكونا معهودين في الحرب إلى ذلك الوقت بالأندلس ، وخاصة عند النصارى ، وهما الطبل والجمل : أما الطبول فقد ذكر ابن خلكان أنه وقع ضربها ((فاهترت الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجع الروم)) (4) ، وقدامتألت قلوبهم خوفا وفزعا ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في وصفه لمعركة الزلاقة ((وهي أول غزوة غزاها المرابطون بالأندلس وكان الناس يرحلون برحيل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويتزلون بتزوله تقدبما له ورعبا لمكانه من السر وعظيم الملك ووفور العدد وجودة الرأي وكمال العقل ، فسمعنا طبوله تضرب وقيل أمير

1 - ابن حمديس . ديوان . 427 .

2 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 426 .

3 - ابن حمديس . المصدر نفسه . 427 .

4 - ابن خلكان . وفيات الأعيان . 7 : 118 .

المؤمنين يتقدم إلى العدو)) (1) ، ولكن الشعراء لم يشيروا إلى ذلك من قريب أو بعيد .
وأما الجمال فقد عبر منها إلى الأندلس مع ابن تاشفين عدد لا بأس به ، ولم
يكن الأندلسيون رأوا جمالا قط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال
ومن رُغائها (2) ، وقد أشار ابن حمديس إلى استعمال المرابطين للجمال في جيشهم ،
فقال (3) :

يُحْتُونُ لِلْهَيْجَاءِ جُرْدًا سَلَاهِبًا وَيُنْضُونَ فِي الْبِيدَاءِ بُزْلًا صَلَادِمًا
وأشار ابن عبد الصمد إلى دور الجمال في ترويع الخيل ونكوصها على أعقابها ،
فقال (4) :

والخيلُ قد نكصتُ على أعقابها والروم زرعُ والرؤوس حصاد
الأندلسيون و معركة الزلاقة:

كشفت لنا الأشعار التي قيلت في هذه المعركة الكبرى عن بعض عادات
الأندلسيين ، يمكن أن نستخلص من خلالها جوانب من عقلية الأندلسيين ونفسياتهم
وأخلاقهم ، ومن هذه العادات ما كان يقوم به المنجمون لبعض ملوكهم عند الإقدام على
عمل خطير أو حدث جليل من قراءة طوالعهم (5) ، وهذا ما فعله المعتمد قبل أن يسير
على رأس جيشه مع المرابطين إلى معركة الزلاقة ، فأخبره منجمه الخاص أبو بكر بن يحيى
الخولاني بحسن طالعه في تلك الفترة ، فتفاءل المعتمد ، وقال (6) :

لا بد من فرج قريب يأتيك بالعُجْب العَجيب
غزو عليك مُبَارَك في طيِّه بالفتح القريب
لله سيفك إنه سُحْطٌ على دين الصليب

-
- 1 - ابن الخطيب . الحلل الموشية . 39 .
 - 2 - ابن حلكان . وفيات الأعيان . 7 : 116 .
 - 3 - ابن حمديس . ديوان . 426 .
 - 4 - ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 809 .
 - 5 - ابن الخطيب . الحلل الموشية . 40 .
 - 6 - المعتمد بن عباد . ديوان . 127 ، ابن الخطيب أورد الأبيات من 2 - 4 في الحلل الموشية . 40 ،

لابد من يوم يكو ن ، له أخ يوم القليب.(1)

ومن هذه العادات ما يكشف مزاج خاص لنفسية الأندلسيين ، فهي لا تتجاوز نطاق تفكيرها اللحظة التي هي فيها ، ولا تأخذها بالحزم في مواقف الجد ، فهذا أبو الحسن بن اليسع (2) لا ينسيه ما هو مقدم عليه من لقاء مصيري للعدو شهواته ، فنراه يرسل إلى أبي بكر بن القبطورنه وهو ببطليوس ، يستهديه شرابا خمريا معتقدا أن الخمر قبل المعركة مسوغ شربها ما دام أنه سيخوضها ، وخوض المعركة في حد ذاته يخفر الذنوب والآثام ، فيقول (3):

عطشتُ أبا بكرٍ وكفك ديمةً وذبتُ اشتياقاً والمزارُ قريبُ
فَحَفَّفَ ولو بعض الذي أنا واجدٌ فليس بحق أن يُضاع قريب
ووفرُّ لنا من تلك حظًّا تُرى به نشاوى وبعد الغزو سوف تُتوب

فبعث إليه ابن القبطورنه ما يبتغي وأجابه ، بقوله (4) :

أبا حسنٍ مثلي بمثلك عالمٌ ومثلك بعد الغزو ليس يتوب
فخذها على محض الصفاء كأنها سنَى ما لها بعد الحساب تُؤوب

والمعتمد لا يهدأ من ترديد الشعر أثناء المعركة ، و لم يكن أبو هاشم هو الذي تذكره المعتمد و نظم فيه الشعر فحسب ، بل إن هناك غلاما آخر ، حسن الوجه ، جميل الصورة ، رآه المعتمد وهو يقارع الأبطال و يسفك الدماء ، و كأنه الأسد في وسط الميدان ، فتغزل فيه و قال عنه (5):

أبصرتُ طرفك عند مُشْتَجِرِ القنا فبدأ لطرُفي أنه فلكُ
أو ليس وجهُك فوقه قَمَرا يُجلى بنير نُوره الحلك؟

وتبدو شدة تعلقه به في قوله يصفه وقد دخل المعركة مغفرا ، قال (6) :

1 - ويوم القليب هو يوم معركة بدر الذي انتصر فيه المسلمون على المشركين ،

2 - انظر ترجمته : ابن الأبار . الحلة السراء . 2 : 172 ، ابن سعيد . المغرب . 2 : 87 .

3 - ابن الأبار . المصدر نفسه . 2 : 174 .

4 - ابن الأبار . المصدر نفسه . 2 : 174 .

5 - المعتمد بن عباد . ديوان . 60 .

6 - المعتمد بن عباد . ديوان . 61 ، المقري في نفع الطيب ((أورد ولما اقتحمت (...)). 4 : 282

و لما اقتحمتَ الوغى دارِعا
و قنَّعتَ وجهك بالمِغْفِرِ
حسبنا مُحَيَّاك شمس الضُّحى
عليها سحاب من العنبر

وهكذا كانت الزلاقة المعركة الكبرى الأولى في عصر الطوائف بإنجاد المرابطين لهم ضد النصارى ، ودفعت كثيرا من الشعراء إلى التغيي بنصرها ، وبالتعبير عما يجدون في نفوسهم تجاه هذا النصر و تمجيد العروبة و الإسلام ، وكذا المؤرخين إلى رصد تفاصيلها، ولكن هذا الظفر المبين لم يحسن استغلاله لاسترجاع طليطلة من أيدي النصارى من قبل ملوك الطوائف الذين عادوا لسيرتهم الأولى ، وما كان من يوسف بن تاشفين إلا أن جاز إليهم وأزالهم عن ممالكهم — كما تقدم — وكان لسان الشعراء حالهم في الرثاء السياسي كما سيأتي .

الفصل الرابع

الرياء السياسي

و هو أكثر فنون الشعر قولاً و صدقاً و أصالة ، حيث توجد الدوافع النفسية وراء إنشاده ، وكذلك وفرة التجارب و الأحداث المتلاحقة على أرض الأندلس ، و المؤثرات الداخلية و الخارجية التي أثرت في عواطف الشعراء ، وهذا الفن خاص بالأندلس ، رغم أن له جذوراً في المشرق (1) ، ولكنها لم تأت في روعة وجودة الشعر الأندلس .

و الرياء السياسي يتفرع إلى فرعين ، فرع يتجه نحو رياء المدن ، وفرع آخر يرثي الممالك الزائلة ، وكلا الفرعين يتسم بالصدق الفني والعاطفة القوية و العبارات الحزينة والألفاظ الباكية و الصور الشجية ، ومن ثم فقد كان هذا الفن على درجة كبيرة من الشهرة والذيع يقول غرسية غومس : ((وقد أدركت طائفة من المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الأندلسي وقد قيلت هذه المراثي في مناسبات زوال الدول مثل رائية ابن عبدون في زوال ملك بني الأفطس أصحاب بطليوس ، أو بمناسبة ضياع بلد كبير من بلاد المسلمين)) (2) .

أما رياء المدن فيمكن تقسيمه إلى ثلاثة اتجاهات ، اتجاه يرثي مدينة خربها المسلمون بأيديهم ، فتهدمت قصورها و امحت رسومها بسبب الفتن التي توالى عليها ، و اتجاه آخر يرثي مدينة استولى عليها النصارى و خربوها ثم استردت منهم ، واتجاه ثالث يرثي مملكة سقطت في يد النصارى إلى الأبد .

فالالاتجاه الأول و يمثله مدينة قرطبة ، ذات البهاء و العظمة و القصور والمتزهات و الحدائق و المساجد ، مدينة مثل هذه تغنى الشعراء بجمالها ، و فتنوا بمتزهاها ، يجيء عليها يوم مشعوم من أيام الفتنة العمياء ، فتتحول إلى خراب و أنقاض ونهب و تدمير و حرائق ، و تتحول الزهراء الجميلة و الزاهرة البديعة إلى كومي رماد ، ويموت الناس جوعاً ، و تشهد العاصمة الجلييلة ألواناً من الذل و المهانة . و هنا يتأثر

1 - مكي ، الطاهر أحمد .دراسات أندلسية . 201 .

2 - غومس ، إميليو غرسية . الشعر الأندلسي . 106 - 107 .

الشعراء بما ألم بعاصمة الخلافة فيعبرون عن شعورهم بأبيات من الرثاء ، تصور عظم المصيبة و فداحة الخطب لما حل بالمدينة و أهلها .

و يكون لهول الكارثة وقع شديد على أبنائها من الشعراء ، الذين عاشوا على أرضها ، و تفيأوا ظلها ، و أكلوا من ثمارها ، و شربوا من أنهارها ، فقاموا بكونها بكاء شديدا ، و منهم ابن حزم و ابن شهيد .

أما ابن حزم فقال في مدينته نثرا و شعرا ، يهمننا الشعر الذي بدأه ، بقوله (1) :
سلامٌ على دار رَحَلْنَا و غُودرت خلاءٌ من الأهلين مُوحشةً قَفرا
تراها كأن لم تُغن بالأمس بَلقعا و لا عُمّرت من أهلها قبلنا دهرا
فهو يشير إلى المصيبة التي حلت بمدينته ، و التي أضحت بسببها خرابا بلقعا ،
حالية من الأهل و الولد ، و كأنها لم تعمر من قبل ، و يجب أن نشير إلى أن ابن حزم
كان قد ترك قرطبة ، و استقر في المرية لما ألت بها تلك الحنة ، و لذا يناديها قائلا (2) :

فيا دارُ لم يُفِرِك مِنَّا اختيارُنا و لو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
و لكن أقداراً من الله أنْفَذتْ تُدمرنا طوعا لما حلّ أو قهرا
و يا خير دارٍ قد تُرِكَت حميدة سقتك الغواصي ما أجلّ و ما أسرا
و يأخذ الشاعر في نداء مدينته متمنيا أن تكون له قبرا ، لأنه تركها بحكم القدر ،
الذي لا مفر منه ، و يطلب من الدهر أن يحمل تحيته و يبلغها إلى أهل قرطبة في كل مكان ،
داعيا إياهم إلى الصبر حتى و لو كان مرا ، قال (3) :

و يا دهرُ بلغ ساكنيها تَحِيَّتِي و لو سَكِنوا المروين أو جاوزوا النَّهرا
فصبرا لسَطوِ الدهر فيهم و حُكمه و إن كان طعمُ الصبر مستقيلا مُرا
ثم يخاطب قرطبة مرة أخرى واصفا حالها بالقفر ، و كأنها لم يسكنها أحد من
قبل ، مطالباً أهلها بالصبر طاعة لله ، لعل الصبر يجعل من بعد العسر يسرا ، قال (4) :

1 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 107 - 108 .

2 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 108 .

3 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 108 .

4 - ابن الخطيب . المصدر نفسه . 108 .

و أَيْتَهَا الدَّارُ الحَبِيبَةَ لَا يَـرْمُ رِبُوعِكِ جَوْنَ المَزْنِ يَهْمِي بِهَا القَطْرَا
كَأَنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ غَيْدٌ أَوْانِسُ وَ صَيْدِ رِجَالٍ أَشْبَهُوا الأَبْجَمَ الزُّهْرَا
سَنَصْبِرُ بَعْدَ اليُسْرِ لِلْعُسْرِ طَاعَةً لَعَلَّ جَمِيلَ الصَّبْرِ يُعَقِّبُنَا يُسْرَا
وَيَتَمَنَّى أَنْ تَعُودَ قَرْطَبَةَ إِلَى عَهْدِهَا الذَّهَبِي طَالِبَا مِنَ الدَّهْرِ تَحْقِيقَ هَذِهِ الأَمْنِيَّةِ ،
فَقَالَ (1) :

وَ إِنِّي وَ لَوْ عَادَتْ وَ عُدْنَا لَعَهْدَهَا فَكَيْفَ بِنِ مَنْ مِنْ أَهْلِهَا سَكَنَ القَبْرَا
وَ يَا دَهْرَنَا فِيهَا مَتَى أَنْتَ عَائِدٌ فَنَحْمَدُ مِنْكَ العَوْدَ أَنْ عُدْتَ وَ الكَرَّا
ثُمَّ يَتَذَكَّرُ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافِ النَّهَارِ فِي رِبُوعِ قَرْطَبَةَ مِنْ لَهْوٍ وَ لَعِبٍ ،
وَ مَا حَلَّ بِهِ الآنَ مِنَ سَقَمِ الجِسْمِ وَ عِزَاءِ القَلْبِ وَ ثَكَلِ النَفْسِ وَ حَرَقِ الكَبِدِ ، يَقُولُ (2) :
فِيَا رَبَّ يَوْمٍ فِي دَارِهَا وَ لَيْلَةٍ وَ صَلْنَا هُنَاكَ الشَّمْسَ بِاللَّهُوِ وَ البَدْرَا
فَوَا جِسْمِي المُضْنَى وَ وَاقْلِي المَعزَى وَ وَانْفَسِي التَّكْلَى وَ وَاكْبِدِي الحَرَّا
وَ أَحْخِرَا يَخْتَمُ آيَاتِهِ طَالِبَا مِنَ الدَّهْرِ أَلَّا يَبْعُدَ ، وَ مِنَ العَهْدِ أَلَّا يَحُولَ ، وَ مِنَ
الدَّمْعِ أَلَّا يَجْمَدَ ، وَ مِنَ السَّقَمِ أَلَّا يَشْفَى ، طَالَمَا أَنَّ قَرْطَبَةَ بِهَذِهِ الحَالِ فَهوَ — دَائِمًا —
سَيَنْدُهَا وَ يَبْكِيهَا لِأَنَّهُ تَرَبَّى عَلَى أَرْضِهَا وَ شَرِبَ مِنْ مَائِهَا .
وَ أَمَّا ابْنُ شَهِيدٍ فَقَدْ بَكَى قَرْطَبَةَ هُوَ الأَخْرَى فِي قَصِيدَةٍ ، وَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ
أَطْلَالًا ، بَكَاهَا عَنْ كَتَبٍ ، وَ شَهِدَ مَأسَائِهَا عَنْ قَرَبٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَفَارِقْهَا كَابِنِ حَزْمٍ ، فَهوَ
يُنَادِي الطُّلُولَ وَ لَكِنِهَا لَا تَجِيبُهُ ، فَيَسْأَلُ الفِرَاقَ وَ يَتَأَلَّمُ لِجُورِ الزَّمَانِ عَلَى هَذَا البَلَدِ ، لِأَنَّهُ
جَعَلَهُمْ يَتَفَرَّقُونَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، عِلَاوَةَ عَلَى قَتْلِ الكَثِيرِينَ وَ هَلَاكِهِمْ ، يَقُولُ (3) :

مَا فِي الطُّلُولِ مِنَ الأَحْبَةِ مُخْبِرٍ فَمَنْ الذِّي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ ؟
لَا تَسْأَلَنَّ سِوَى الفِرَاقِ فَإِنَّهُ يُنَبِّئُكَ عَنْهُمْ أَنْجِدُوا أَمْ أَغْوَرُوا
جَارَ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ فَتَفَرَّقُوا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَ بَادَ الأَكْثَرُ

1 - ابن الخطيب . المصدر السابق . 108 .

2 - ابن الخطيب ا. المصدر نفسه . 108 .

3 - ابن شهيد . ديوان . 109 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 105 .

جرت الحُطوبُ على محل ديارهم و عليهم فتَغَيَّرت و تَغَيَّرُوا
فدع الزمانَ يَصُوغُ في عَرصاتهم نُورًا تكاد له القلوب تُنورُ
ثم يتجه إلى قرطبة مشيرا إلى أن الإنسان مهما ذرفت عيناه من الدموع فهو قليل
إذا قيس بفداحة الخطب ، داعيا الله أن يقلل عثرتها ، ثم يبكي أهلها الذين تبرروا و تغربوا
و تمصروا ، و ذهب كل فريق إلى ناحية ، فقال (1) :

فلمثلِ قرطبةٍ يَقلُّ بكاءُ مَنْ يبكي بعينِ دمُعها مُتفجِّر
دارُ ، أقالَ اللهُ عثرةَ أهلِها فتبرروا و تغربوا و تمصروا
في كل ناحيةٍ فريقٌ منهم مُتفطرٌ لفراقِها مُتحيِّر

ثم يتذكر ما كانت عليه المدينة من لم الشمل و اخضرار العيش و رياحها الطيبة
وجمالها البارع و كمال رواقها و قصورها و خدورها و بدورها ، و الزاهرية و العامرية
و الجامع الأعلى و أسواقها ، حتى يقول في رثائها (2) :

يا جنةً عصفتُ بها و بأهلِها ریحُ النوى فتدمرت و تدمروا!
آسى عليكِ من الممات و حُق لي إذا لم نزل بكِ في حياتك نَفخر
يا منزلا نزلتُ به و بأهلِها طيرُ النوى فتغَيَّرُوا و تنكَّروا!
جاد الفراتُ بساحتِكِ و دجلةٌ والنيلُ جادُ بها و جاد الكوثر

فالشاعر يشير إلى جنة قرطبة التي حولها الغادرون إلى خراب بلقع ، فتدمرت
وتدمر أهلها، ثم يأسى عليها و على أهلها ، و يدعو لها بأن يتزل الغيث بساحتها ، ويجيي
رياضها ، و أن يجود الفرات و دجلة و النيل بساحتها ، ثم يجزن و يأسى على ربوعها
وظبائها و سرواتها و حماتها و يتحسر على علمائها و أدبائها ، فقال (3) :

أسقى على دارِ عهدتُ ربوعَها و ظباؤها بفنائها تتبخترُ
أيامَ كانتُ كَفُّ كلِّ سَلامَةٍ تسمو إليها بالسلام و تبدر

1 - ابن شهيد . المصدر السابق . 109 - 110 ، ابن الخطيب . المصدر السابق . 105 .
2 - ابن شهيد . المصدر نفسه . 110 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 105 - 106 .
3 - ابن شهيد . المصدر نفسه . 110 - 111 ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . 106 .

حُزني على سَرواتها و رُواتها و ثِقاتها و حُماتها يَتَكَرَّر
نَفسي على آلائِها و صَفائِها و بَهائِها و سَنائِها تَتَحَسَّر
كَبدي على علمائِها حُلمائِها أدبائِها ظرفائِها تَتَفطَّر

و إذا ألقينا نظرة على القصيدتين نلاحظ أن قصيدة ابن شهيد أكثر من قصيدة ابن حزم صدقا و أحر منها عاطفة لأن الأول بكى مدينته و هو بعيد عنها و رد ما حدث لها إلى القدر ، و أما الثاني و هو ابن شهيد فقد رثى مدينته و بكأها عن كذب لأنه شهد مأساتها بنفسه و رد ما حدث لها إلى جور الزمان ، و في عرض الموازنة بين الشعاعين و القصيدتين يقول الطاهر أحمد مكي : ((و بعامة كان ابن شهيد ، و هو شاعر أصلا ، أرق موسيقا ، و أسلس لفظا ، و أوضح عفوية ، و كان في شعر ابن حزم ، و هو بعض مواهبه ، شيئا من البطء و الرتابة ... و كثرت في قصيدة ابن حزم المحسنات اللفظية من جناس و طباق ، و هو أمر قل أن يجيء عفوا ، و لكن الحق أن كليهما كان يصدر عن عاطفة صادقة و قلب كلیم)) (1) .

ثم يورد لنا صاحب البيان المغرب مقطعتين في رثاء قرطبة لشاعرين مجهولين ، المقطعة الأولى يبكي فيها صاحبها قرطبة لما أصابها من نظرة العين ، و أن الدهر قد أقرضها ثم استرد قرضه منها ، و يقارن بين حسنها بالأمس و تعاستها اليوم ، و أخيرا يطلب من ساكنيها أن يرحلوا و يودعوها سالمين ، قال (2) :

ابك على قرطبة الزين فقد دَهِتْها نَظْرَةُ العَيْنِ
أَنظَرها الدهرُ بأسلافه ثم تَقاضَى جَمَلَةُ الدَّيْنِ
كانت على الغاية من حُسْنِها و عيشِها المُستَعذَب اللِّينِ
فانعكس الأمرُ فما أن ترى بِها سُورِرا بين أَثْنينِ
فاغْدُ وودِّعها و سِر سالما إن كنتَ أزمعت على البينِ

و أما المقطعة الثانية فيلقي فيها قائلها اللوم على سكان قرطبة و انصرفهم عن

1 - مكي ، الطاهر أحمد . دراسات أندلسية . 242 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 110 .

تدبير أمورهم ، و ينذرهم بسوء عاقبتهم ، و يتأثر ببعض سور القرآن الكريم فيذكرها،
و هذا يدل على أن قائلها فقيه من الفقهاء ، قال: (1)

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ستعلمون معا عُقبى البوار غدا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم بكيتم بدم أن دُتمم بـددا
لكن سُبُلَ العمى أعمت بصائركم فألبستكم ثيابا للبلَى جُددا
يا أمةً هتكت مستورَ سوءِتها ما كلُّ من ذُلِّ أعطى بالصَّغارِ يدا
في سورة الحشر آيات مفصلة في شأنكم أنزلت لم تعدكم أحدا
نعم و في الكهف في العشرين خاتمةً تقضي عليكم بالأا تُفْلِحوا أبدا
فاستشعروا سوءَ عقباكم فقد شملت جميعكم محنةً لا تقضي أبدا
و المقطعتان ، قيلتا في رثاء قرطبة ، تقل فيهما حرارة العاطفة ، و تمنان عن
أن قائلهما فقيهان و ليس بشاعرين ، لدرجة أن قافية البيتين الأخيرين جاءتا كلمة واحد.
و قد ذكر ابن خاقان أن أبا الحزم جهور ، قد ((وقف على قصور الأمويين وقد
تقوضت أبنيتها ، و عوضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها :

قُلْتُ يوماً لدار قوم تفأنوا : أين سكَانك العِزَّازُ عَلَيْنَا؟
فَأَجَابَتْ: هُنَا أَقَامُوا قَلِيلاً ثُمَّ سَارُوا، وَ لَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا)) (2)

ورثى السميسر مدينة الزهراء التي طمست معالمها من جراء ما أصابها من خراب
على أيدي مدبري الفتنة ، فقال من شعر غلب عليه البكاء على المجد الضائع ، و التفجع
على ما آلت إليه المدينة (3) :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِراً مُعْتَبِراً أَنْدُبُ أَشْتَاتَا
فَقُلْتُ: يَا زَهْرَا، أَلَا فَارُجِعِي قَالَتْ: وَ هَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا؟
فَلَمْ أزل أبكي و أبكي بها هيهات يُغني الدمعُ هيهاتَا
كأما آثارُ من قد مضى نوادبُ يندبن أمواتَا

1 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 110 - 110 .

2 - ابن خاقان . مطمح الأنفس . 186 .

3 - المقري . نفع الطيب . 1 : 527 - 528 .

و هكذا بكى شعراء الأندلس حاضرة قرطبة العظيمة ، و المدن المزدان بها وهما:
الزهراء والزاهرة ، و لكن إذا تأملنا بكاءهم نجد بكاء سلبيا ، تتمثل خيوطه باليأس
وذرف الدموع على الأطلال ، و الحنين إلى الربوع ، و الشكوى من الدهر ، دون أن
يستنهضوا الهمم للقضاء على العدو ، أو الإشارة إلى مدبري الفتنة ، أو إلقاء اللوم على
أحد ، و كنا نتمنى من ابن حزم و ابن شهيد أن يشيرا إلى ذلك لأنهما أبناء المدينة أولا ،
وشهدا المأساة ثانيا .

و أما الاتجاه الثاني الذي يرثي المدن التي استولى عليها النصارى ثم استردت منهم
فيمثله مدينة برشتر ، تلك المدينة التي كانت من أمهات مدن الثغر والحصينة الممتنعة ،
ولكن النورمانيين حاصروها سنة 456هـ لمدة أربعين يوما — كما تقدم — ، و منعوا
عنها القوت و الماء ، و لم يحاول يوسف المظفر إنقاذها و لا المقتدر أخوه ، و لذا طلب
المسلمون من العدو الأمان لأنفسهم ، على أن يخرجوا من المدينة دون مال ، فوافق
النورمانيون و لكنهم ما لبثوا أن خانوا المواثيق ، و نكثوا العهود ، فقتلوا عامة رجالها ،
وسبوا فيها من ذرار المسلمين و نسائهم ما لا يحصى (1).

بيد أن هذا العمل المهين لم يهز ملوك الطوائف ، و لم يحركهم نحو إنجاد المدينة ،
ولكنهم تخاذلوا . أما الشعراء فقد ألّبهم سقوط المدينة ، و كان أشدهم تأثرا بهذه النكبة
الأديب الشاعر أبو حفص عمر بن الحسين الهوزني الذي أرسل و هو في مرسية
إلى المعتضد ابن عباد بإشيلية رسالة يحضه فيها على الجهاد ، و ينبهه للأمر الداهم ، تحلل
هذه الرسالة أبيات من الشعر ، تصور المعتضد شجاعا في ميدان التزال ، ثم يضيف عليه من
الفضائل أرفعها ليستميله لنجدة المدينة ، فيقول (2) :

أَعْبَادُ كَلَّا قَدْ عَلَوْتَ فَضَائِلًا تَقَاصَرَ عَنْهَا كُلُّ أَرْوَاعٍ مَا جَدِ

ثم أخذ يمدح المعتضد و يستنهضه و يحثه إلى أن استضرحه بقوله (3) :

فَقَدْ جَدَّ أَمْرٌ هَدَّ شَرْعَ مُحَمَّدٍ وَ مَا مُخْبِرٌ عَنْ حَالَةٍ مِثْلِ شَاهِدِ

1 - البكري . جغرافية الأندلس . 94 ، ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 225 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 87 .

3 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2 : 88 .

لكلَّ يَبِينُ الرَّأْيُ عِنْدَ وَفَاتِهِ وَ هَلْ مِنْ دَوَاءٍ بَعْدَ نَهْشِ الْأَسَاوِدِ
أَضَاعُوا وَجُوهَ الْحَزْمِ يَوْمًا فَعَزَّهْمُ عَلَى أَمْرِهِمْ مِنْ لَيْسَ عَنْهُ بِمَاجِدِ
غَيْرَ أَنَّ الرِّسَالَةَ لَمْ تَنْمُرْ ، بَلْ كَانَ جِزَاءَ الْهُوزِيِّ الْقَتْلَ عَلَى يَدِ الْمُعْتَصِدِ ، فَقَامَ
الْكَاتِبُ أَبُو عَمْرِ بْنِ عَبْدِ النَّمْرِيِّ يَنْبَهُ مَلُوكَ الطَّوَائِفِ عَنْ هَذَا الْخَطَرِ مِنْ خِلَالِ رِسَالَةٍ
أُخْرَى ، وَ لَمْ تَمُضْ أَشْهُرٌ قَلِيلٌ حَتَّى هَبَّ الْأَنْدَلُسِيُّونَ بِقِيَادَةِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُوْدٍ وَ سَارُوا إِلَى
الثَّغْرِ يَدْفَعُهُمُ الْحَمَاسُ الدِّينِيَّ حَتَّى وَصَلَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيَّ بِرَبِشْتَرِ سَنَةِ 457 هـ ،
وَ حَاصَرُوا النُّورْمَانِيِّينَ وَ اسْتَرَدُّوا الْمَدِينَةَ (1).

وَ كَانَ لِسُقُوطِ رَبِشْتَرِ قَبْلَ اسْتَرْدَادِهَا أَثْرٌ عَمِيقٌ فِي نَفُوسِ الشُّعْرَاءِ ، وَ مِنْهُمْ ابْنُ
العَسَالِ ، الْفَقِيهَ الزَّاهِدَ ، الَّذِي صَوَّرَ مَا لَاقَاهُ سَكَانُ الْمَدِينَةِ مِنْ عَنَتِ النُّورْمَانِيِّينَ وَ ضَلَالِهِمْ
مِمَّا تَشَبَّهَ لَهُ الْوَلْدَانُ (2) :

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمَشْرِكُونَ بِأَسْهُمٍ لَمْ تُخْطُ لَكِنْ شَأْنُهَا الْإِصْمَاءُ
هَتَكُوا بِجَيْلِهِمْ قِصُورَ حَرِيمِهَا لَمْ يَبِيقُ لَا جَبْلٌ وَلَا بَطْحَاءُ
جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شَعْبَاءُ
بَاتَتْ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ بِرُعْبِهِمْ فَحَمَاتُنَا فِي حَرْبِهِمْ جُبْنَاءُ

إِنَّ الشَّاعِرَ فِي بَيْتِهِ الْأَخِيرِ قَدْ حَدَدَ مَوْطِنَ الدَّاءِ وَهُوَ يَكْمُنُ فِي جَبْنِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ
نَصْرَةِ إِخْوَانِهِمْ ، ثُمَّ يَصُورُ أَثْرَ الْهَزِيمَةِ الْقَاسِيَةِ ، وَ الْفِرَارَ الْمُرِيبَ ، وَ الذَّلَّ وَ الْعَارَ ، لِيَلْهَبَ
حَمَاسَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِبُوا لِاسْتِرْجَاعِ مَا ضَيَعُوهُ ، وَ اسْتِرْدَادِ مَا فَقَدُوهُ ، وَ لَا يَنْسَى الشَّاعِرُ فِي
أَبْيَاتِهِ أَنَّ يَصُورَ الْغَدْرَ وَ الْخِيَانَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمَسِيحِيُّونَ ، ثُمَّ يَصُورُ مَا فَعَلُوهُ فِي الْأَطْفَالِ
وَ الشَّبَابِ وَ النِّسَاءِ . إِنَّهُمْ بِذَلِكَ قَدْ أَحْلَوْا بِأَبْسِطِ قَوَاعِدِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، يَقُولُ (3) :

كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِهِ طِفْلٌ وَ لَا شَيْخٌ وَ لَا عَذْرَاءُ
وَ لَكَمْ رَضِيَعٍ فَرَّقُوا مِنْ أُمَّه فَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَ بُغَاءُ
وَ لِرُبِّ مَوْلُودٍ أَبُوهُ مُجَدَّلٌ فَوْقَ التُّرَابِ وَ فُرْشَةِ الْبَيْدَاءِ

1 - ابن عذاري . البيان المغرب . 3 : 227 .

2 - الحميري . صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار . 40 - 41 .

3 - الحميري . المصدر نفسه . 40 - 41 .

و مَصُونَةٍ فِي خِدْرِهَا مَحْجُوبَةٌ قَدْ أَبْرَزُوهَا مَا لَهَا اسْتِخْفَاءُ
و عَزِيزِ قَوْمٍ صَارَ فِي أَيْدِيهِمْ فَعَلِيهِ بَعْدَ الْعِزَّةِ اسْتِخْدَاءُ
و فِي خَتَامِ آيَاتِهِ يَلْقَى اللُّومَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّهُمْ بَتَّخَاذِهِمْ وَ تَوَاطُفِهِمْ قَدْ تَرَكَوْا
الْفُرْصَةَ لِلنَّصَارَى حَتَّى يَفْعَلُوا مَا فَعَلُوا (1) :

لَوْلَا ذُنُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَ أَنَّهُمْ رَكَبُوا الْكِبَائِرَ مَا لَهَنَّ خَفَاءُ
مَا كَانَ يُنْصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسٌ أَبْدَأَ عَلَيْهِمْ فَالذُّنُوبَ الْبَدَاءُ
فَشَرَّاهُمْ لَا يَخْتَفُونَ بِشَرِّهِمْ وَ صِلَاحُ مُنْتَحَلِي الصَّلَاحِ رِيَاءُ
وَ كَانَ لِهَذِهِ الْآيَاتِ وَقْعُهَا الْمُؤَثِّرُ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فَهَبُوا يَدَافِعُونَ عَنِ الْمَدِينَةِ حَتَّى
اسْتَرَدُّوْهَا مِنْ أَيْدِي النُّورْمَانِ بَعْدَ مَضِيِّ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ اِحْتِلَالِهَا ، وَ اسْتِطَاعَ الْمُسْلِمُونَ
أَنْ يَقْتُلُوا مِنَ النَّصَارَى الْكَثِيرَ وَ يَأْسُرُوا الْكَثِيرَ ، وَ يَسْبُوا نِسَاءَهُمْ وَ ذُرَارِيَهُمْ ، وَ ذَلِكَ
بِفَضْلِ تَعَاوُنِهِمْ وَ حِمَاسِهِمُ الدِّينِي (2) .

وَ أَمَّا **الْإِتْجَاهُ الثَّلَاثُ** الَّذِي يَرِثِي الْمَدْنَ وَالْمَمَالِكَ الَّتِي اِحْتَلَهَا النَّصَارَى وَ خَرَجَتْ
عَنْ دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ إِلَى الْأَبَدِ ، وَ كَانَ لِلشَّعْرِ السِّيَاسِيِّ دَوْرَ بَارِزٍ فِي رِثَائِهَا ، فَهِيَ طَلِيْطَلَةٌ ،
عَاصِمَةُ الْقُوْطِ الْقَدِيْمَةِ ، وَ قَدْ كَانَتْ مَدِيْنَةَ الثُّوْرَاتِ خِلَالِ الْعُهُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِيهَا
وَ ذَلِكَ لِبَعْدِهَا عَنِ قَرْطَبَةَ ، وَ قَدْ أَعْدَّ الْفُونْسُو السَّادِسُ جَيْشَهُ لِمَهَاجِمَتِهَا نَتِيْجَةَ خَدْعَتِهِ
الْمَاكِرَةِ عِنْدَمَا قَالَ لِأَهْلِ طَلِيْطَلَةَ : ((فَإِنَّمَا نَطْلُبُ بِلَادِنَا الَّتِي غَلِبْتُمُونَا عَلَيْهَا قَدِيْمًا فِي أَوَّلِ
أَمْرِكُمْ ، فَقَدْ سَكَنْتُمُوهَا مَا قَضَى لَكُمْ ، وَ قَدْ نَصَرْنَا الْآنَ عَلَيْكُمْ بِرِدَائِكُمْ فَارْحَلُوا إِلَى
عَدُوَّتِكُمْ وَاتْرَكُوا لَنَا بِلَادِنَا ، فَلَا خَيْرَ لَكُمْ فِي سَكْنَاكُمْ مَعَنَا بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَ لَنْ نَرْجِعَ عَنْكُمْ
أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ)) (3) . وَ فَعَلًا سَقَطَتْ طَلِيْطَلَةُ — كَمَا تَقَدَّمَ — بَعْدَ اسْتِسْلَامِ
مُهَيْنٍ لِلْقَادِرِ يَحْيَى بْنِ ذِي النُّونِ ، وَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ أَيُّ عَوْنِ خَارِجِيٍّ مِنْ أَمْرَاءِ
الطُّوَّائِفِ مَاعِدَا الْمُتَوَكَّلِ بْنِ الْأَفْطُسِ الَّذِي انْتَدَبَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي بِأَنْ يَطُوفَ
بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، صَائِحًا وَ مَحْذِرًا وَ مُسْتَجِيرًا ، وَ يَحْتَمُّهُمْ عَلَى الْوَحْدَةِ وَ نَبْذِ الْخِلَافَاتِ ،

1 - الحميري . المصدر السابق . 41 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 226 .

3 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 282 .

و لكنه لم يجد آذانا صاغية ، فلم يستجيبوا لنصحه بل كانوا يستبدون نزعته (1).
و هكذا سقطت إحدى حواضر الأندلس الكبرى ، و خرجت من قبضة الإسلام،
بعد أن عاشت في ظلاله ثلاثمئة و سبعين عاما (2) .

و كان لسقوط مملكة طليطلة أثر كبير في نفوس ملوك الطوائف و في نفوس الشعراء ، فأما ملوك الطوائف أخذوا يفكرون في لم الشمل و توحيد الصفوف أمام خطر النصارى ، و أما الشعراء فأخذوا في تصوير هذه النكبة ، و كان ابن العسال خير شاعر أحس بهول النكبة لأنه قاسى مرارتها شخصيا حين أخرج من المدينة مع من أخرج ، فأندر المسلمين في أبياته و حثهم على ترك المدينة لأنه في نظره خير من السي ، و خدمة النصارى ، فقال (3) :

يا أهلَ أندلسٍ حُثُوا مطيُكُم فما المُقامُ بها إلا من العَلَطِ
الثوبُ يُنسلُ من أطرافه و أرى ثوبَ الجزيرة مَنسولا من الوسطِ
و نحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياةُ مع الحياتِ في سَفَطِ

و كان للأحداث التي حلت بطليطلة بعد دخولها في حوزة النصارى أثر كبير في نفوس الشعراء و خاصة بعد أن حولوا مسجدها إلى كنيسة ، و ضيقوا على المسلمين في أداء شعائرهم حتى يجبروهم على التنصر ، و هنا بكى طليطلة المنكوبة شاعر من شعراء الأندلس مصورا ما حل بالمسلمين من ذل و هوان في قصيدة طويلة ، استهلها بالسؤال التالي: هل هناك من يتسم و قد ضاعت طليطلة ؟ و هذا البدء يدل على عمق التجربة وصدقها ، و شدة المعاناة ، التي هزت وجدان الشاعر ، فكيف تعيش مدن الأندلس في سرور بعد هذه الكارثة ؟ يقول (4) :

لُثُكِلِكِ كيف تبتسمُ الثُّغور سُوروا بعدما سُيِّتِ ثُغور

1 - ابن الأبار . الحلة السراء . 2 : 98 .

2 - محمد عبد الله عنان . دول الطوائف . ط 1 . 111 - 115 .

3 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 352 .

4 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 483 .

فهذه الكارثة قد هدت كيان المسلمين و قصمت ظهورهم رعبا و خوفا ، و ذلك بعد سقوط المدينة ، و امتلاك ألفونسو السادس لزمام الأمور ، و توالي الخن ، و انعدام السرور ، قال (1) :

أما و أبي مصاب هُدد منه تَبِيرُ الدين فَاتَّصَلَ الثُّبُورُ
لقد قُصِمَتْ ظُهُورُ حين قالوا أميرُ الكافرين له ظُهُورُ
تُرى في الدهر مَسرُورا بعِيش مضى عنا لِطَيِّبَتِهِ السُّرُورُ

ثم يتساءل الشاعر في غمرة الأحداث و المأساة : أليس في الأندلس أبي النفس، شهيم ، ينقذ طليطلة ، و يجررها من الكفر ؟ (2):

أليس بها أبيُّ النَّفسِ شَهْمٌ يُديرُ الدَّوائرَ إذ تُدورُ

و كانت صيحته هباءً باستثناء المتوكل بن الأفظس الذي أشار على القاضي أبي الوليد الباجي أن يطوف في الأندلس — كما تقدم — منذرا و محذرا ، و لكن ملوك الطوائف في ذلك الوقت قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة ، و رضوا بالذل و الهوان ، و تسامحوا في الحرمات فقال (3) :

لقد خضعتُ رقابٌ كَنَّ غُلْبًا و زال عُنُوتُها و مضى الثُّفُورُ
و هان على عزيزِ القومِ ذُلٌّ و سامحَ في الحريمِ فتى غَيُورُ

ثم يعرض الشاعر ما جرى في طليطلة ، و كيف كانت معقلا صعبا ؟ يفوق بضخامته و منعته إيوان كسرى و الخورنق و السدير ، لقد أخرج أهلها و شردوا عن ديارهم و حولت مساجد المدينة إلى كنائس يسمع فيها دق النواقيس بدلا من صوت الآذان ، فأبي قلب يقر على هذا و لا يجزع؟! (4) :

طليطلةَ أباحَ الكُفْرُ منها حِماها ، إنَّ ذا نَبأٌ كَبِيرُ
فليس مثالها إيوانُ كِسرى و لا منها الخورنقُ و السِّدِيرُ
مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بعِيدٌ تناوُلُها و مَطْلُبُها عَسِيرُ

1 - المقري . المصدر السابق . 4 : 483 .

2 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 483 .

3 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 483 .

4 - المقري . نفع الطيب . المصدر نفسه . 4 : 483

ألم تك مَعْقِلًا لِلدِّينِ صَعْبًا فذَلَّلَهُ كَمَا شَاءَ القَدِيرُ
وَأُخْرِجَ أَهْلَهَا مِنْهَا جَمِيعًا فصَارُوا حَيْثُ شَاءَ بِهِم مَصِيرُ
وَكَانَتْ دَارَ إِيمَانٍ وَ عِلْمٍ مَعَالِمَهَا الَّتِي طَمِسَتْ تُبَيِّرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاةً قَدْ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِهَا الْأُمُورُ
مَسَاحِدُهَا كِنَائِسٌ ، أَيُّ قَلْبٍ عَلَى هَذَا يَقْرَأُ وَلَا يَطِيرُ؟

يقول صاحب النسخ عن اليوم الذي تحول فيه جامع طليطلة إلى كنيسة: ((و مما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامى ، -رحمه الله تعالى- صار إلى الجامع ، وصلى فيه ، و أمر مريدا له بالقراءة ، و وافاه الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، و تكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ و لا معارضته ، و عصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة و سجد سجدة ، و رفع رأسه ، و بكى على الجامع بكاء شديدا ، و خرج و لم يعرض أحد له بمكروه)) (1) .

ثم يتأسف الشاعر لتلك النهاية المحزنة ، إنه حزن لا يداوى ، يكرر ما تكررت الدهور ، لقد ذوت طليطلة بمحاسنها ، و شردت فيها حرائرها ، و من ثم لا يجد الشاعر غير أن يشارك إخوانه أحزانهم ، قال (2):

فيا أسفاه يا أسفاه حُزْنَا يُكْرَرُ مَا تَكَرَّرَ الدُّهُورُ
و يُنْشَرُ كُلُّ حَسَنِ لَيْسَ يُطَوَى إِلَى يَوْمٍ يَكُونُ بِهِ التُّشُورُ
أَدِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ مَصُونَاتٍ مَسَاكِنُهَا الْقُصُورُ
و أدركها فتور في انتظار لسرب في لواحيه فتور
و كان بنا و بالقينات أولى لو انضمت على الكُلِّ القُبُورُ
لقد سَخِنَتْ بحالتهن عِين و كيف يُصْبِحُ مَغْلُوبَ قَرِيرُ
لئن غَبْنَا عَنِ الْإِخْوَانِ إِنَّا بِأَحْزَانٍ وَ أَشْجَانٍ حُضُورُ
و الشاعر يرجع النكبة إلى فعل الدهر ، أو يرد الأحداث التي حلت بالمدينة

1 - المقري المصدر السابق 4. : 447.

2 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 484 .

إلى تقلب الدهر ، و يستبعد أن تكون ((عقابا من الله على معاصي ارتكبتها أهل طليطلة ، و إنكارا منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه الشريعة ، و حجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، و أشد فسقا و فجورا ، فإذا ارتضينا هذا سببا فعلينا أن نتوقع نفس المصير ، و في قولته هذه يستهدف أمرين فيما أرى : الدفاع عن قوم سقطوا في محنة الاحتلال ، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التفريع و الدم ، و تذكير الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهي إليه حالهم إذا واصلوا سيرتهم العابثة و واصلوا مظالمهم و عصياتهم سرا وعلانية)) (1) ، قال (2):

نُذِرُكَ كانَ لِلأَيامِ فِيهِمُ	مُملِكِهِمُ فَقَدَ وَفَتَ التُّنُذُورِ
فإنَ قَلنا العَقوبَةُ أَدْرَكَتَهُمُ	وَ جَاءَهُمُ مِنَ اللّهِ التَّكْيِيرُ
فإنَّأَ مِثْلَهُمُ وَ أَشَدُّ مِنْهُمُ	نَجُورِ وَ كَيْفَ يَسْلَمُ مِنَ مِجُورِ؟
أنا مَنَ أَن يَحُلَّ بِنا اِنْتِقامِ	وَ فِينا الفِسقِ أَجْمَعِ وَ الفُجُورِ
وَ أَكَلٌ لِلحِرامِ وَ لا اضْطِرارِ	إِلَيْهِ فَيَسْهَلُ الأَمْرَ العَسِيرِ
وَ لَكِنْ جُرْأَةٌ فِي عُقُورِ دارِ	كَذَلِكَ يَفْعَلُ الكَلْبُ العَقُورِ
يَزُولُ السُّتْرُ عَن قَوْمِ إِذا ما	عَلَى العِصيانِ أُرْحِيتِ السُّتُورِ

ثم يحث قومه على الأخذ بالتأثر ، و نصر الديانة ، فقد حامت النور فوق جثث القتلى من المسلمين ، و ذلك حتى يبعث في نفوسهم روح الشجاعة و الحمية و سل السيوف ، و يدعوهم إلى التعاون و عدم التهاون لأن الموت في عزة خير من الحياة في ذلة ، ثم يضيق بالصابرين و يلوم القاعدين (3) :

حُذُوا ثأَرَ الدِّيَانَةِ وَ انصُرُوهَا	فَقَدَ حَامَتِ عَلَى القَتلى النُّسُورِ
وَ لا تَهِنُوا وَ سَلُّوا كُلَّ عَضْبِ	تَهَابُ مِضارِبا مِنْهُ التُّحُورِ
وَ مُوتُوا كُلُّكُمْ فامُوتُ أَولى	بِكُمْ مِنْ أَن تُجارُوا أَوْ تَجُورُوا
أَصْبِرًا بَعْدَ سَبِيٍّ وَ امْتِحانِ	يُلامُ عَلَيْهِما القَلبُ الصَّبُورِ

1 - مكي ، الطاهر أحمد . دراسات أندلسية . 256 ، . 257

2 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 484 .

3 - المقرئ . المصدر نفسه . 4 : 484 .

ثم يصور قعود الناس و جنبهم عن القتال ، فهم كالأبقار التي تحور ، و قد أضعفت عزائمهم أخبار الهزائم ، و ما يجري لمواطنيهم في طليطلة ، و الشاعر كان يتمنى أن يتشجعوا و يكون لهم زئير الأسود ، لقد ساءت أحوال المسلمين و أضحت أخبارهم مصدر كدر و ألم ، و تأتي الكتب مسطرة بالشر ، و النحس خير مبشر لهم ، قال (1):

نَحور إذا دُهينا بالرزايَا و ليس بمُعجَب بقرٍ يَحور
و نَجبن ليس نزار ، لو شَجَعنا و لم نَجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت لنا الأخبار حتى أمات المُخبرين بها الحَير
أتتنا الكتبُ فيها كلُّ شرٍّ و بشرنا بأنحسنا البشير

لقد أضحت أخبار الناس في طليطلة يشيب لكرها الطفل الصغير ، و يصم السميع، و يعمي البصير ، قال (2) :

و قيل تَجَمعوا لفراق شَمَل طليطلةٌ تملكها الكفور
فقل في خُطة فيها صغار يشيب لكرها الطفلُ الصَغير
لقد صمَّ السميع فلم يُعول على نبيا كما عمي البصير

ثم يتحدث الشاعر في ألم شديد عن بعض مسلمي طليطلة الذين أغرتهم وعود ألفونسو ببقائهم على أرض الكفر مع الرضا بالهوان لتنمية ثرواتهم ، بل إن منهم من ارتد عن دينه و اعتنق النصرانية ، و بلغ الحزن غايته حين آثر الجميع البقاء ، و حجتهم ، إلى أين نذهب ؟ ، و كيف نترك بيوتنا و أموالنا و ليس لنا وراء البحر دور و لا أموال؟ ، ليست لنا هناك ضياع ننعم بوارف أشجارها و طيب ثمارها ، و لا طبيعة فياضة بجمالها من ظل و ماء و اعتدال هواء ، قال (3) :

تُجاذبنا الأعادي باصطناع فينجذب المَخول و الفقير
فباق في الديانة تحت خزي تُثبِّطه الشَّويهة و البعير
و آخرُ مارق هانت عليه مصائبُ دينه فله السَّعير

1 - المقري . المصدر السابق . 4 : 485 .

2 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .

3 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .

كفى حَزَنًا بَأَن النَّاسَ قَالُوا إلى أينَ التَّحَوُّلُ و المَسِيرِ
أَتَرَكُ دُورَنَا و نَفَرٌ عَنهَا و ليس لنا وراءَ البحرِ دُورِ
و لا تَمَّ الضِّيَاعُ تروقُ حَسَنًا تُبَاكِرُهَا فُيَعْجُبُنَا البُكُورِ
و ظِلٌّ و اِرْفٌ و خَرِيرٌ مَاءِ فلا قَرٌّ هَناك و لا حَرورِ
و يَأْكُلُ مِن فواكِهَا طَريِّ و يُشْرَبُ مِن جَدَاولِهَا نَميرِ

و يصور الشاعر قبول أهل طليطلة دفع الجزية لألفونسو في كل شهر ، و تسليم
عشر المحصول في كل صيف ، و ذلك مقابل حماية النصارى لهم ، لقد تبدلت الأوضاع
وأصبح النصارى الموالي و العشير للمسلمين ، قال (1) :

يُودى مَعْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ و يُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ
فَهِمَ أَحْمَى لِحَوْزَتِنَا و أَوْلَى بنا و هُمُ المِوَالِي و العَشِيرِ

ثم يقرر بأن اليقين قد ذهب ، و ليس هناك دين و لا دنيا ، فالمسلمون قد رضوا
بالرق و الذل و الهوان ، ثم يطلب من إخوانه أن يبكوا ، و لكن ما جدوى البكاء ؟ و يتألم
الشاعر لحال إخوانه الذين هاموا على وجوههم في فلاة ، حيارى ، ثم يدعو الشاعر
إلى نبذ السلم ، و الاستعداد للقتال ، عسى أن يجبر العظم الكسير ، قال (2) :

لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينُ و غَرَّ القومَ باللهِ العَرورِ
فلا دينٌ و لا دُنْيَا و لكن غُرورٌ بالمعيشيةِ ما غرورِ
رَضُوا بالرَّقِّ ياللهِ ماذا رَأَهُ و ما أشارَ به مُشيرِ
مضى الإسلامُ فابك دَمًا عليه فما ينفي الجوى الدمعُ الغَيرِ
و نُحٌ و اندُبُ رفاقا في فلاة حيارى لا تحطُّ و لا تَسيرِ
ولا تَجَنحُ إلى سِلْمٍ و حارب عسى أن يُجبرَ العظمُ الكَسيرِ

ثم يقارن الشاعر بين فريق المسلمين الذين عموا عن مرآشدهم ، و فريق
النصارى المتميز بنفاذ البصيرة ، و يتعجب من المسلمين ، إذ كيف يلقون فردا من

1 - المقرئ . المصدر السابق . 4 : 485 .

2 - المقرئ . المصدر نفسه . 4 : 485 .

النصارى و يفرون عنه جميعا ، فهم أشبه بالحمير التي يخيفها القناص ، و كان الأولى أن يثبتوا و أن يصبروا ، و لكن ماذا ينفع العدد الكثير إذا ذهب اليقين ؟ ، قال (1) :

أَنْعَمَى عَنْ مَرَاشِدِنَا جَمِيعَا و مَا إِنْ مِنْهُمْ إِلَّا بَصِيرُ
و نَلْقَى وَاحِدَا وَ يَفِرُّ جَمْعُ كَمَا عَنْ قَانِصٍ فَرَّتْ حَمِيرُ
و لَوْ أَنَّا ثَبَّتْنَا كَانَ خَيْرًا و لَكِنْ مَا لَنَا كَرَمٌ وَ خَيْرُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرٌ جَمِيلٌ فَلَيْسَ بِنَافِعٍ عَدَدٌ كَثِيرُ

وأخيرا يتمنى الشاعر أن يظهر قائد ذا رأي ومشورة ، يستعان به وقت الشدائد ويكر إذا أقبلت السيوف ، ويتقدم عند اللقاء ، ويستعظم الشاعر أن يكون الأمر قد بلغ بسكان الأندلس أن يكون إما قتيل أو جريح ، وقد تنغصت الحياة ولا من مجير .

وفي الخاتمة يتضرع الشاعر إلى الله لنصرة المسلمين فهو نعم النصير ، قال (2) :

أَلَا رَجُلٌ لَهُ رَأْيٌ أَصِيلٌ بِهِ مِمَّا نُحَاذِرُ نَسْتَجِيرُ
يُكْرَهُ إِذَا السُّيُوفُ نَتَاوَلَتْهُ وَأَيْنَ بَنَّا إِذَا وُلَّتْ كُرُورُ؟
وَيَطْعَنُ بِالْقَنَا الْخَطَّارَ حَتَّى يَقُولَ الرَّمْحُ مَا هَذَا الْخَطِيرُ
عَظِيمٌ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ طُرًّا بِأَنْدَلَسٍ قَتِيلٌ أَوْ أُسِيرُ
أَذْكَرُ بِالْقِرَاعِ اللَّيْثَ حِرْصَا عَلَى أَنْ يُقْرَعَ الْبَيْضَ الذُّكُورُ
يِبَادِرُ حَرْفَهَا قَبْلَ اتِّسَاعِ لِحْطَبٍ مِنْهُ تَنْخَسِفُ الْبُدُورُ
يُوسِّعُ لِلَّذِي يَلْقَاهُ صَدْرَا فَقَدْ ضَاقَتْ بِمَا تَلْقَى صُدُورُ
تَنْعَصَتْ الْحَيَاةُ فَلَا حَيَاةَ وَوَدَّعَ جَبْرَةَ إِذْ لَا مُجِيرُ
فَلَيْلٌ فِيهِ هَمٌّ مُسْتَكْنٌ وَيَوْمٌ فِيهِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ
وَنَرْجُو أَنْ يُتِيحَ اللَّهُ نَصْرَا عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ نِعْمَ النَّصِيرُ

1 - المقري . المصدر السابق . 4 : 486 .

2 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 486 .

والقصيدة بعد هذا التحليل تتسم بالجودة والأصالة وعمق التجربة وصدقها ،
ويصف الطاهر مكي الشاعر ، بقوله : ((أصيل في أفكاره واتجاهه ، لأن قصيدته أول
ما قيل في باها ، وليس عالية فيها على أحد سبقه)) (1) . وصورت القصيدة سقوط
طليطلة ومحنة أهلها الذين نخاذلوا عن استردادها .

وهكذا خربت مدن الأندلس وسقطت الواحدة تلو الأخرى في أيد النصارى فراح
الشعراء يبكونها ، ويصورون مشاعر مواطنيهم المكرومة ، ويخلدون مراحل السقوط ،
ويعبرون عن ذلك بالدم أحيانا وبالدمع والاستنجد أحيانا أخرى ، إلا أن معظم الشعراء
مالوا إلى الاتجاه الأول ، فوقفوا موقفا سلبيا تمثلت خيوطه باليأس والبكاء وذرف الدموع
على الأطلال دون أن يستنهضوا الهمم لدحر النصارى والقضاء على آملهم لأنهم يمثلون
مواقف ملوكهم — كما تقدم — بيد أن هناك قلة من الشعراء وقفوا موقفا إيجابيا فحثوا
الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال في الذود عن الوطن .

اما الفرع الثاني من الرثاء السياسي فيتجه نحو الممالك الزائلة التي ضاعت بسبب
التفكك والانقسامات والصراعات بين ملوك الأندلس خلال القرن الخامس الهجري،
فسقطت مملكة بني زيري بغرناطة ، ومملكة بني عباد بإشبيلية ، ومملكة بني الأفطس
ببطلبوس ، وغيرها من الممالك ، وكان لذهابها أثر كبير في نفوس الشعراء الذين وقفوا
بيكونها ، غير أن مملكة بني عباد ومملكة بني الأفطس قد نالتا نصيبا كبيرا من اهتمام
الشعراء ، ولذا فسوف نخصهما بالدراسة والتحليل لنرى إلى أي مدى كان إسهام الشعراء
في هذا الفرع من الرثاء السياسي .

أما مملكة بني عباد فقد سقطت بعد الضربة الحاسمة التي وجهها إليها المرابطون
سنة 484 هـ — كما تقدم — حيث هاجم المرابطون إشبيلية واقتحموها متوغلين
إلى أن بلغوا القصر الملكي ، فواجههم المعتمد بن عباد مدافعا عن نفسه وأهله وملكه ،
حتى خارت قواه ، وسقط أسيرا ، وقد وصف لنا الفتح بن خاقان اللحظات الأخيرة
لمقاومة المعتمد ، بقوله : ((ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد خرج
(المعتمد)

-203-

والموت يتسرع في الحاظه ، ويتصور من ألفاظه وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه، فلقبيهم في رحبة القصر ، وقد ضاق به فضاؤها وتضععت من رحبتهم أعضاؤها فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا ، وملاؤهم فرقا ، ومازال يوالي عليهم الكرم المعاد ، حتى أوردتهم النهر وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره ، واستمسك يوما وليلته ، مانعا لعوزته دافعا للذل عن عزته (((1) .

وقد صور لنا المعتمد نفسه هذه اللحظات في أبيات من الشعر يعرض فيها لدفاعه البطولي عن أهله و عرضه و شرفه مصورا شهامة العربي الأصيل ، و أن السم القاتل عنده ألد طعما من الاستسلام و الخضوع ، و أن المرابطين إذا سلبوا ملكه فإنهم لا يستطيعون أن يسلبوا شرفه ، و أنه بذل قصارى جهده في الدفاع عن ملكه ، و لايهمه الاستشهاد في سبيل ذلك ، لأن البطل الشجاع في كل معركة يتوقع نهايته ، و هذه الأخلاق التي تربي عليها إنما ورثها عن آبائه و أجداده ، قال (2):.

لما تماسكت الدُموع	و تَبَّه القلبُ الصَّدِيعُ
و تناكرت هممي لِمَا	يَسْتَأْمُهْا الخَطْبُ الفَظِيعُ
قالوا: الخُضوعُ سياسَة	فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهْمُ خُضوعِ
و ألدُّ من طعمِ الخُضوعِ	على فمي السُّمُّ النَّفِيعُ
إن يَسلبِ القومُ العِدا	مُلْكي و تُسَلِّمُنِي الجُموعِ
فالقلبُ بين ضلوعه	لم تُسلمِ القلبَ الضلوعِ
لم أَسْتَلِبْ شرفُ الطُّبَا	ع ، أَيَسلبِ الشرفُ الرَّفِيعُ؟
قد رُمْتُ يومَ نزالهم	ألا تُحَصِّنِي الـدُّرُوعِ
و بَرزتُ ليس سوى القميـ	ص ، على الحَشَى شيءٌ دَفُوعِ
و بذلتُ نفسي كي تسيـ	لَ إذا يسيلُ بها التَّجِيعِ

1 - ابن خاقان . فلائد العقيان . 88 - 89 .

2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 150 - 151 .

أَجَلِي تَأَخَّرَ لَمْ يَكُنْ بهَوَايِ ذَلِّي وَ الْخُضُوعِ
مَا سَرْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَا لِ وَ كَانَ مِنْ أَمَلِي الرَّجُوعِ
شِيْمُ الْأُلَى أَنَا مِنْهُمْ وَ الْأَصْلُ تَتَّبَعُهُ الْفُرُوعِ

و هكذا سقطت دولة بني عباد و خبا بنجمها ، و لكنها سقطت في عزلة و إباء و كرامة ، سقطت في مناظر من الفروسية الشامخة التي راح ضحيتها ولدا المعتمد :الراضي و المأمون و سيق باقي أفراد الأسرة إلى الأسر تكبلهم القيود ، و هنا انهمر المعتمد في البكاء مصورا حال ولديه المعقولين ، و حال زوجته و أسرته وأنه قد نفذ صبره وآن أو ان البكاء و العويل ، قال (1) :

يقولون صَبْرًا لَا سَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ سَأَبْكِي وَ أَبْكِي مَا تَطَاوَلْ مِنْ عَمْرِي
تَرَى زَهْرَهَا فِي مَاتَمِ كُلِّ لَيْلَةٍ يُخَمِّشْنَ لَهْفًا وَ سَطَّهَ صَفْحَةَ الْبَدْرِ
يُنْحَنَ عَلَى نَجْمَيْنِ أَتُكَلِّنُ ذَا وَ ذَا وَ يَاصِبِرُ مَا لِلْقَلْبِ فِي الصَّبْرِ مِنْ عُذْرِ
هُوَ الْكُوكَبَانِ : الْفَتْحُ ثُمَّ شَقِيقُهُ يَزِيدُ ، فَهَلْ بَعْدَ الْكُوكَبِ مِنْ صَبْرِ

ثم يتحسر الملك الشاعر على نفسه التي أصبحت محطمة في قيود الأسر ، و أن ولديه لو عادا إلى الحياة مرة أخرى و رأيا أباهما على تلك الحالة لفضلا الموت ثانية، ثم يصف دموع بناته و زوجته على الفقيدين ، قال (2):

فَلَوْ عُدْتَمَا لِأَخْتَرْتَمَا الْعُودَ فِي الثَّرَى إِذَا أَنْتَمَا أَبْصَرْتُمَا فِي الْأَسْرِ
يُعِيدُ عَلَى سَمْعِي الْحَدِيدُ نَشِيدَهُ ثَقِيلًا فَتَبْكِي الْعَيْنُ بِالْجَسِّ وَ النَّقْرِ
مَعِيَ الْأَخْوَاتُ الْهَالِكَاتُ عَلَيْكَمَا وَأُمُّكَمَا الثَّكَلَى الْمُضْرَمَةُ الصَّدْرِ
فَتَبْكِي بَدْمَعٍ لَيْسَ لِلْقَطْرِ مِثْلُهُ وَ تَزْجُرُهَا التَّقْوَى فُتْصَغِي إِلَى الزَّجْرِ

و بعد الأسر سيق المعتمد و أهله إلى المنفى ، سيقوا في سفينة أقلعت من نهر الوادي الكبير بإشبيلية ، ثم أخذت طريقها إلى العدو ، و ذلك في منظر حزين ، و جموع الشعب محتشدة لوداع المعتمد بالبكاء و النواح ، فقام أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة

1 - المعتمد بن عباد . المصدر السابق . 162 - 163 .

2 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 163 .

يبكي مملكة بني عباد في ألفاظ أليمة و عبارات حزينة و صور تقطر أسى فقال داليتيه المشهورة التي مطلعها (1) :

تبكي السماء بمزن رائح غادي على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هُدَّت قواعدها و كانت الأرض منهم ذات أوتاد

ثم يصور منظر السفينة و هي تضمهم في جوفها كالقبور ، و تتحرك إلى العدو ، و الناس يودعونها بالعويل ، و يصف نساء المعتمد و قد صدمتهن الفاجعة فسفرن عن وجوههن ، و لطنن خدودهن ، يالها من لحظات قاسية و طويلة كأنها الدهر ، و خاصة ساعة الوداع التي تمنى فيها كل المحتشدين أن يفدوا المعتمد و لو بأرواحهم ، لقد وفق ابن اللبانة في رسم هذه اللوحة الحزينة لمنظر الوداع ، و أضفى عليها مشاعره الحزينة و أحاسيسه المتألمة ، يقول (2) :

نسيتُ إلا غداةَ النهرِ كونهُم في المنشآتِ كأمواتٍ بالحادِ
و الناسُ قد ملأوا العبرينِ و اعتبروا من لؤلؤِ طافياتِ فوقِ أزيادِ
حطَّ القناعُ فلم تُستترِ مُخدرَةٌ و مُزَّقتْ أوجهُ تَمزِيقَ أبردِ
حان الوداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةِ و صارخٍ من مُفدَّاةٍ و من فادِ
سارت سفائنُهم و النَّوحُ يصحبها كأنما إبلٌ يجدو بها الحادي
كم سأل في الماءِ من دَمع و كم حَمَلت تلك القطائعِ من قِطعاتِ أكبادِ

و كان لفداحة الكارثة التي ألمت ببني عباد أثر كبير في شاعرهم الوفي ابن اللبانة ، حيث رثا مملكتهم برائع شعره ، كما ألفت كتابين في الموضوع نفسه ، الأول ((نظم السلوك في مواعظ الملوك)) ، و الثاني ((الاعتماد في أخبار بني عباد)) ، تحدث فيهما عن تاريخ بني عباد و أخبارهم و مراثيهم ، و لكن للأسف ضاع الكتابان و لم يبق من مادتهما إلا ما ذكرته الكتب التي أرخت للأندلس كنفح الطيب ، حيث يصف لنا الداني في كتابه الأول منظر سقوط إشبيلية حسبما شهدته بنفسه ، فيقول : ((فعظم الأمر في

1 - ابن اللبانة الداني . شعره . 39 .

2 - ابن اللبانة الداني . المصدر نفسه . 42 .

الخطب الواقع ، و اتسع الخرق على الرافع ، و دُخل البلد من جهة واديه ، و أُصيب
حاضره بعاديه باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد و بأسه ، و تراميه على الموت بنفسه ،
ما زيد عليه ، و لا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة في البلد ، و لم يُبق فيه على سبَد لأحد
و لا لبد ، و خرج الناس من منازلهم ، يسترون عوراتهم بأناملهم ، و كشفت المخدرات
العذارى ، و رأيت الناس سكارى و ما هم بسكارى)) (1)

أما مرآثيه في المعتمد فقد ظلت خالدة ، و من ذلك ما قاله بعد أن انتهت الكارثة
و حلت المحنة ببني عباد ، و قد أرجع ذلك إلى تقلب الدهر الذي يفعل بالناس كيفما
يشاء ، و يحركهم كما تحرك أشجار الشطرنج ، و يلفت النظر إلى ما حدث للمعتمد ،
فبعد أن كان أميراً أصبح أسيراً و لذا فعلى العاقل أن ينفذ يديه من الدنيا ، و يأخذ العظة
و العبرة منها ، قال (2) :

لكل شيء من الأشياء ميقاتُ	و للمنى في منايهن غاياتُ
و الدهرُ في صفة الحرباء مُغمسٌ	ألوان حالاته فيها استِحالات
و نحن من لعب الشطرنج في يده	و ربّما قُمرت بالبيدق الشّاة
انفضْ يدَيْك من الدُّنيا و ساكنها	فالأرضُ قد أقفرت و الناسُ قد ماتوا

لقد جعل الشاعر من نهاية المعتمد على هذه الصورة نهاية للعالم ، فالأرض
قد أقفرت و الناس قد ماتوا ، ثم يعبر عن جزعه و أسفه لزوال ملكهم يقول (3) :

لهفي على آل عباد فيأهم	أهلة ما لها في الأفق هالات
راح الحيا و غدا منهم بمنزلة	كانت لنا بكر فيها و روحات
أرض كأن على أقطارها سرجا	قد أوقدتهن بالأذهان أنبات

و أثناء رحلة المعتمد البحرية من طنجة إلى مكناس رأى جمعا من الناس
يصلون صلاة الاستسقاء ، فقال المعتمد معبرا عن أحزانه بأن دموعه الهطالة كانت تكفي
الناس وتغنيهم عن المياه التي ينتظرونها ، غير أن مياه دموعه كانت مختلطة بالدماء

1 - المقري . نفع الطيب . 4 : 216 .

2- ابن اللبابة . ديوان . 24 .

3 - ابن اللبابة . المصدر نفسه . 25 - 26 .

فلا تنفعهم (1) :

خَرَجُوا لِيَسْتَسْقُوا فَقُلْتُ لَهُمْ دَمْعِي يَنْوِبُ لَكُمْ عَنِ الْأَنْوَاءِ
قَالُوا حَقِيقٌ فِي دَمْعِكَ مَقْتَعٌ لَكِنهَا مَمْرُوجَةٌ بِدِمَاءِ

و لم يكن ابن اللبانة هو الوحيد الذي رثى مملكة بني عباد ، بل رثاها شعراء آخرون كابن عبد الصمد و ابن حمديس و غيرهما ، و ركزوا في أشعارهم على نعي المعتمد شخصيا ، و من ذلك ما قاله ابن عبد الصمد لما زار أغمات بعد وفات المعتمد بقليل فوقف على قبره في يوم عيد و خر أمامه و غمره بقبلاته و بلله بدموعه و أنشد داليتة الرائعة التي أبكت الحاضرين ، ومنها (2) :

مَلِكُ الْمَلُوكِ أَسَامِعُ فَأُنَادِي أَمْ قَدْ عَدَّتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِ
لَمَّا خَلَّتْ مِنْكَ الْقُصُورُ فَلَمْ تُكُنْ فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ
قَبَّلْتُ فِي هَذَا الثَّرَى لَكَ خَاضِعَا وَ تَخَذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْإِنْشَادِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ تَبَدَّدَ أَدْمُعِي نِيرَانَ حُزْنٍ أُضْرِمْتَ بِفُؤَادِي
فَإِذَا بَدْمُعِي كَلِمَا أَجْرَيْتُهُ زَادَتْ عَلَيَّ حَرَارَةَ الْأَكْبَادِ

و أما عن بطليوس فإن دولة بني الأفطس ، التي استولى عليها المرابطون بعد استيلائهم على إشبيلية فقد صاحبها هي الأخرى محنة كبيرة أدت إلى سقوطها حتى أن محاولات المتوكل بن الأفطس قد باءت بالفشل في مهادنته للأمير المرابطين أو استعانته بألفونسو السادس ، و بالفعل تم الاستيلاء على بطليوس سنة 488 هـ بعد أن ظل بنو الأفطس يحكمونها خمسة و سبعين عاما.

و كانت لمحنة بني الأفطس أثرها الكبير في إذكاء قريحة الشعراء فقاموا يرثونها بصادق شعرهم، و كان أبرز الشعراء الذين رثوا بني الأفطس وزيرهم و شاعرهم عبد المجيد بن عبدون ، حيث رثاهم بقصيدة طويلة نالت شهرة و ذيوعا ، بدأها بأخذ العبر من أحداث التاريخ ، و أن الدهر لا يبقى على حالة واحدة ، و لذا فعل الإنسان ألا يغتر به

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 156 .

2 - ابن خاقان . قلائد العقيان . 34 .

ومسالمته لأن من طبعه الغدر و الخديعة و كثرة الحروب ، قال (1) :

الدَّهْرُ يُفْجِعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ
أَهْمَاكَ أَهْمَاكَ لَا أَلُوكَ مَوْعِظَةً عَن نُّومَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ وَالظُّفْرِ
فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإِنْ أَبَدَى مُسَالِمَةً وَالْبَيْضُ وَالسُّودُ مِثْلَ الْبَيْضِ وَالسُّمْرِ
وَلَا هُوَادَةَ بَيْنَ الرَّأْسِ تَأْخُذُهُ يَدُ الضَّرْبِ وَبَيْنَ الصَّارِمِ الذِّكْرِ

ثم انتقل ليدلل على غدر الدهر مستشهدا بالدول التي زالت وكان لها ماض

عظيم ، فقال (2) :

كَمْ دَوْلَةٍ وَلَيْتَ بِالنَّصْرِ خِدْمَتَهَا لَمْ تُبْقِ مِنْهَا وَ سَلَّ ذِكْرَاكَ مِنْ خَبَرِ
هَوَتْ بَدَارًا وَ فَلَتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ وَ كَانَ عَضْبًا عَلَى الْأَمْلَاكِ ذَا أُثْرِ
وَ اسْتَرْجَعَتْ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَتْ وَ لَمْ تَدْعُ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أَثَرِ
وَ أَتْبَعَتْ أَحْتَهَا طَسْمًا وَ عَادَ عَلَى عَادٍ وَ جُرْهُمَ مِنْهَا نَاقِضُ الْمِرْرِ

و بعد أن ذكر الشاعر في مقدمة قصيدته أحدا ثا تاريخية كثيرة نزلت بالدول والملوك و كان يهدف من ورائها إلى استخلاص العظة و العبرة ، بدأ الشاعر حديثه في رثاء بني الأفتس مقررًا بأن ما حدث لهم شيء عادي بالنسبة للدنيا ، و لكن الشاعر في سرده لمناقبتهم مزج شعره بالحزن واللوعة و خاصة عندما يبكي المتوكل إنه يبكي فيه الدهاء في الحكم ، و الفصاحة في القول ، و السماحة في التعامل ، و الشجاعة في القتال ،

إن ما امتاز به من صفات يجعل الخطاب فيه شديدا و الرزء فادحا ، قال (3) :

بَنِي الْمُظْفَرِ وَ الْأَيَّامُ مَا بَرَحَتْ مَرَاجِلًا ، وَ الْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ
سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَ لَا حَمَلَتْ بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَايِرِ الْعُمُرِ
مَنْ لِلْأَسِيرَةِ أَوْ مَنْ لِلْأَعْنَةِ أَوْ مَنْ لِلْأَسِنَّةِ يُهْدِيهَا إِلَى الثُّغْرِ
مَنْ لِلْبِرَاعَةِ أَوْ مَنْ لِلْبِرَاعَةِ أَوْ مَنْ لِلسَّمَاحَةِ أَوْ لِلنَّفْعِ وَ الضَّرْرِ
أَوْ دَفْعِ كَارِثَةٍ أَوْ دَفْعِ آزِفَةٍ أَوْ رُدِّعِ حَادِثَةٍ تَعْيَا عَلَى الْقُدْرِ

1 - ابن بسام . الذخيرة . 2 / 2 : 721 .

2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 721 .

3 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 723 .

ثم يتعرض الشاعر لاغتيال المتوكل وولديه: الفضل والعباس على أيدي المرابطين متحسرا على أيامهم الماضية وأفضالهم العظيمة ، قائلا (1) :

وَيْحَ السَّمَا حِ وَوَيْحَ الْجُودِ لَوْ سَلِمَا مَا حَسْرَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى عُمَرَ
سَقَتْ ثَرَى الْفَضْلِ وَ الْعَبَّاسِ هَامِيَةً تُعْزَى إِلَيْهِمْ سَمَاحًا لَا إِلَى الْمَطَرِ
ثَلَاثَةٌ مَا رَقَى النُّسْرَانُ حَيْثُ رُقُوا وَكُلُّ مَا طَارَ مِنْ نِسْرِ وَكَمْ يَطِيرُ
ثَلَاثَةٌ مَا رَأَى الْعَصْرَانَ مِثْلَهُمْ فَضْلًا وَلَوْ عَزَّزُوا بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

ثم أخذ الشاعر في بكاء طيباتهم وجلالهم وإبائهم و وفائهم قائلا (2) :

وَمَرَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ أَطْيَبُهُ حَتَّى التَّمَتُّعِ بِالْأَصَالِ وَ الْبُكَرِ
مَنْ لِلجَلَالِ الَّذِي عَمَّتْ مَهَابَتُهُ قُلُوبُنَا وَعُيُونِ الْأَنْجَمِ الزُّهْرِ
أَيْنَ الْإِبَاءِ الَّذِي أَرْسَوْا قَوَاعِدَهُ عَلَى دَعَائِمٍ مِنْ عِزٍّ وَ مِنْ ظَفَرِ
أَيْنَ الْوَفَاءِ الَّذِي أَصْفَوْا شَرَائِعَهُ فَلَمْ يَرِدْ أَحَدٌ مِنْهَا عَلَى كَدَرِ
كَانُوا رَوَاسِي أَرْضِ اللَّهِ مُنْذُ نَأَوْا عَنْهَا اسْتَطَارَتْ بِنِ فِيهَا وَلَمْ تَقْرَ

والشاعر في هذه القصيدة يمجّد بني الألفطس مستلهما الصبر في فقدهم لأنه الملاذ الوحيد ، و قد أحسن الشاعر في استعمال عبارات التفجع و التوجع ، و إن أخذ عليه بعض الألفاظ التي كان يتلاعب بها عن طريق الصور و الأحيولة. و قد نالت هذه القصيدة شهرة كبيرة فشرحها ابن بدرون (3) ، ودرس دوزي شروح قصيدة ابن عبدون وبخاصة ((شرح ابن بدرون)) ، فرأى أن ما قيل من تقييد بصدد هذه القصيدة مبالغ فيه كل المبالغة ولا يتفق مع حقيقتها ، قال : ((إننا نجد في هذه المرثية — إلى جانب بعض أبياتة ذات المعاني المبتكرة الموفقة - نجد براعة عظيمة ، وإن التبحر في العلم ليتجلى فيها على نحو يفيض فيضا ، ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل قصيدته مجرد صرخة محزون يعبر عن لوعته الصادقة العميقة ، في أبيات ذات جرس جميل ، وإنما مضى يعرض كبار

1 - ابن بسام . المصدر السابق . 2/2 : 723 .

2 - ابن بسام . المصدر نفسه . 2/2 : 723 - 724 .

3 - هو أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله الحضرمي الشبلي المعروف بابن بدرون ، (560 هـ) ، و شرح هذه المرثية ، ويسمى شرحه ((بكمامة الزهر وفريدة الدهر)) . انظر ترجمته : ابن الأبار . التكملة . رقم 1727 .

الرجال الذين أحنى عليهم الدهر ، وعظام الدول التي عصفت بها يد الحدثان ، ويقدم لنا
ثبتا منظوما بمصائب الدهر — من عهد دارا ملك الفرس إلى أيام بني الأفتس أصحاب
بطليوس - في أسلوب صحيح يخالطه تأنق بين الحين والحين ، وهو يجهد القارئ ويبحث
إلى نفسه الملل بما يلجأ إليه من اللعب بالألفاظ و ما يستعمله من الأخيطة العسيرة التصور .
إننا لا نجد أنفسنا أمام قصيدة تنير كوامن المشاعر ، وإنما حيال عرض موقف لعلم واسع
مثقل بالزخارف و الزينة)) (1) .

ويرى عمر الدقاق أن ألم ابن عبدون لما حل ببني الأفتس غير صادق ، بقوله :
((والبون شاسع بين هذا الحزن الفاتر المصطنع ، وبين العواطف الصادقة المؤثرة
التي تتجلى في قصائد المعتمد بن عباد الأخيرة ، أو في سائر ما نظمه فيه ابن اللبانة وابن
عبد الصمد)) (2) .

لقد برز في الأندلس فرعان من الرثاء السياسي ، في القرن الخامس الهجري ؛
فالأول انقسم إلى ثلاثة اتجاهات : منه ما يتعلق برثاء المدن التي تخربت أيام الفتنة ، وآخر
انحصر على مدينة بربشتر المستردة ، وثالث كان متوقفا على مملكة طليطلة الضائعة ،
والفرع الثاني فإننا اكتفينا فيه بدراسة الشعر الذي يصور زوال مملكة بني عباد ، ومملكة بني
الأفتس .

ويعد الرثاء السياسي من أبرز فنون الشعر السياسي في الأندلس ، قولا وتجربة
وصدقا وعاطفة وأصالة ، بل إن شعراء الأندلس بزوا شعراء المشرق في هذا الفن من حيث
الإبداع والابتكار ، فكتب له الخلود ، ولا غرو فقد كان من أوسع الفنون السياسية
في الأندلس كما وكيفا .

1 - بالنشيا ، آخل . تاريخ الفكر الأندلسي . 119 - 120 .

2 - الدقاق ، عمر . ملامح الشعر الأندلسي . 287 .

الفصل الخامس البناء الفني

في ضوء ما قدمنا من دراسات وتحليلات لمضامين الشعر السياسي ، في القرن الخامس الهجري في الأندلس ، نصل إلى دراسة البناء الفني لهذا الشعر ، فنركز على بناء القصيدة ، من حيث مطلعها ومقدمتها ، وحسن تخلصها ، وموضوعها الرئيسي ، والخاتمة ، وناحية الوزن والقافية .

ثم نركز على بعض مشارب هذا الشعر من حيث أثر القرآن والحديث والفقهاء ، والموروث الشعري ، وأثر بعض الثقافات ثم البيئة الأندلسية ، ونختتم هذا البحث باللغة والأسلوب مع توضيح أساليب البديع والبيان .

بناء القصيدة

من خلال ما تقدم من نصوص شعرية بالدراسة والتحليل في موضوعات الشعر السياسي ، يمكن تقسيمها من حيث حجمها إلى قسمين :

قسم عبارة عن قصائد مطولة أو معتدلة الطول ، وقسم عبارة عن مقطوعات ذات أبيات معدودة ، هذه المقطوعات إما عبارة عن قصائد لم تصلنا كاملة . وإما هي كذلك كما أنشأها أصحابها اكتفاء بالأبيات القليلة لأنهم رأوا فيها وفاء بالحاجة ، ولكل نوع خصائصه الفنية إلى جانب الخصائص المشتركة .

وبخصوص القصائد المطولة أو معتدلة الطول فهي تمثل قدرا مهما من الشعر الذي سندرسه ، وقد وجدنا الشعراء يتخذون من هذه القصائد إطارا لشعرهم السياسي في القرن الخامس .

المطلع :

لقد ركز النقاد القدماء و المحدثون على مطلع القصيدة و أولوه عناية كبيرة ، لأنهم كانوا يعدون ((أن الشعر قفل أوله مفتاحه)) (1) . معنى هذا أن المطلع يجب أن يكون أول ما ينظم في القصيدة إيذانا بفتح بابها المغلق ، وكذلك النقاد المعاصرون فإنهم لم يغفلوا المطلع وهم يتحدثون عن تجاربهم الشعرية ، فهذا شفيق جبري يرى أن المطلع مفتاح القصيدة إذا وقع قبيد الشاعر هجم على موضوعه (2) . وكذلك الأمر للشاعر رضا صافي الذي يرى ((أن المهم عنده هو المطلع)) (3) ، فإذا واتاه المطلع استطاع أن يطمئن إلى نهايتها (4) .

نستخلص - ما تقدم - أن النقاد القدماء و المعاصرين يعدون أن المطلع مفتاح القصيدة ، و تلك التي تتميز بوحدة الموضوع ، كبعض القصائد ، في الشعر السياسي ،

1 - ابن رشيق . العمدة . 1 : 218 .

2 - بكار ، حسين . بناء القصيدة العربية . 268 ، نقلا عن شفيق جبري . أنا والشعر . 64 .

3 - سويف ، مصطفى . الأسس الفنية للإبداع الفني في الشعر . 229 .

4 - سويف ، مصطفى . المرجع نفسه . 229 .

التي وصلتنا ومنها التي يهجم فيها الشعراء على موضوعاتهم مباشرة ، تبدأ بمطالع متميزة تناسب المواضيع التي يعبر عنها شعراء القرن الخامس الهجري ، في شعرهم السياسي إلى جانب حرصهم على تجويد مطالعهم ، باعتبارها أول ما يصادف القارئ ويقرعه أذن السامع ، يقول ابن رشيقي: ((ينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع وبه يستدل ما عنده من أول وهلة)) (1) . ويتجلى هذا الاهتمام عند ابن عمار في قصيدة استعطافية أرسلها من سجنه للمعتمد بن عباد ، ويقال آخر قصيدة ، ومطلعها(2) :

سجايك - أن عافيت - أندى وأسمحُ

وعذرُك - إن عاقبت - أجلى وأوضحُ

وقول المعتمد بن عباد في قصيدة يرثي فيها ولديه ، ومطلعها (3):

يقولون صبرا لاسييل إلى الصبر سأكبي وأبكي ما تطاول من عمري

وقوله حين هوجمت إشبيلية ، وطلب منه وزراؤه الخضوع والاستسلام ،

في قصيدة مطلعها (4) :

لما تماسكت الدموع وتنبه القلب الصديع

وقول ابن حمديس في مدح المعتمد بن عباد بعد الانتصار الذي حققه

مع يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة ، في قصيدة مطلعها (5) :

ليهنء بني الإسلام أن أبتَ سالما وغادرتَ أنف الكفر بالذل راغما

وقول عبد المجيد بن عبدون في رثاء بني الأفطس ، في قصيدة مطلعها (6) :

الدهر يُفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

1 - ابن رشيقي . العمدة . 1: 218 .

2 - ابن عمار . شعره . تحقيق الغديري . 37 .

3 - المعتمد بن عباد ديوان 162 .

4 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه .

5 - ابن حمديس . ديوان . 425 .

6 - ابن بسام . الذخيرة . 2/2: 721 .

وقول ابن اللبانة في رثاء دولة بني عباد ، في قصيدة مطلعها (1) :

تبكي السماء بمزن رائح غادي على البهاليل من بني عباد

نلاحظ أن هذه المطالع — وكثير غيرها — تتميز بكونها إما تعبيرا عن الرضى بقضاء الله وقدره في السجن ، وإما تطلعا إلى الخروج منه ، وإما استسلاما لأمر الواقع ، وإما انتصارا في المعركة ، وفي كل الحالات تبدو السمة الدينية واضحة لدى شعراء القرن الخامس ، في شعرهم السياسي ، لأن طبيعة الموضوعات تتطلب ذلك .

المقدمة :

إلى جانب هجوم الشعراء على موضوعاتهم مباشرة — كما تقدم في المطالع — في بعض قصائد شعر المهجاء السياسي وشعر السجن السياسي والرثاء السياسي — كما تقدم — إذ الأمر في ذلك يتعلق باستبداد خليفة أو ملك أو وزير ، أو مجاداة سجن ، أو هزيمة جيش وسقوط مدينة أو مملكة ، أو الانتصار في معركة لا ينبغي الابتداء بالغزل لأن ذلك يدل على ((ضعف قريحة الشاعر وقصوره على الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام في موضعه ، و لأن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث)) (2) . هذا المفهوم يدل على تملل ابن الأثير من أثر القصيدة القديمة ، و ترك الحرية للشاعر ، إلا أنه يرى في قصيدة المديح الصرف الذي لا يختص بمجاداة من الحوادث ، فهو مخير بين أن يفتح بالغزل أو لا .

إلى جانب هذه القصائد التي ترد دون مقدمات نجد في القصائد التي تكثر فيها الأغراض ، تعدد المقدمات اعتمادا على البناء التقليدي الذي عرفه الشعر العربي في المشرق و الأندلس قبل هذا العهد ، حيث كانت عبارة عن بنية مركبة من ثلاثة عناصر: مقدمة و موضوع رئيسي وخاتمة ، أو عنصرين فقط مقدمة وموضوع رئيسي .

فمن القصائد التي تتعدد فيها الأغراض ، تنوع المقدمات في موضوعات الشعر

السياسي إلى :

1 - ابن اللبانة . ديوان . 39 .

2 - ابن الأثير . المثل السائر . 2: 236 .

مقدمات غزلية ومن أبرز نماذجها ، مقدمة ابن زيدون وهي مرتبطة بموضوع القصيدة ارتباطا وثيقا وذلك في رأيته في مدح ابن جهور، وهي من أربعة عشر بيتا (1) :

مَا جَالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصْرِ

قصائد تبدأ مباشرة بالموضوع — كما تقدم في المطالع — أو التي تتميز بغياب المقدمة ، كما تقدم في الرثاء السياسي بالإضافة إلى شعر الهجاء السياسي ، وغيرهما من القصائد أو المقطوعات التي وردت دون مقدمات إذ هي في نظر أصحابها لم تكن في حاجة إلى مقدمات على غرار ما قدمنا أعلاه .

قصائد تفتتح بوصف الطبيعة كمقدمة ابن عمار في قصيدته في الاستشفاع بالرشيد بن المعتمد إلى أبيه ، وهي من أربعة أبيات ، يقول (2) :

قُلْ لِبَرَقِ الْعَمَامِ ظَاهِرٍ بَرِيدِي قَاصِدًا بِالسَّلَامِ قَصْرَ الرَّشِيدِ
فَتَقَلَّبَ فِي جَوْهٍ كَفُؤَادِي وَتَنَاطَّرَ فِي صَحْنِهِ كَالْفَرِيدِ

وقصائد تفتتح بمقدمات في الفخر كمقدمة ابن زيدون في مدح ابن جهور والتي افتخر فيها بنفسه وأدبه ونظمه لأن الطبيعة لم تقم مأتما لتندب مآثره في الآفاق وهي عشرة أبيات (3):

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْعَمَامُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبُ نَارِي الْبَرَقَ مَنْصَلَتَ النَّصْلِ؟
وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجُمَ اللَّيْلِ مَأْتَمًا لَتَنْدُبَ فِي الْآفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ نَتْلِي؟

وقصائد تفتتح بمقدمات ذاتية ولها علاقة بموضوع القصيدة كمقدمة ابن حزم لقصيدته في السجن والتي يصف فيها حاله وهي اثنا عشر بيتا (4):

مُسَهَّدُ الْقَلْبِ فِي حَدَّيْهِ أَدْمُعُهُ قَدْ طَالَ مَا شَرِقَتْ بِالْوَجْدِ أَضْلُعُهُ
دَابِي الْهُمُومِ بَعِيدُ الدَّارِ نَازِحُهَا رَجَعُ الْأَيْنِ سَكِيبُ الدَّمْعِ مُفْرَعُهُ

1 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

2 - ابن عمار . ديوان . تحقيق الغديري . 55 .

3 - ابن زيدون . ديوان . 159 .

4 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . 385 .

أعتقد أن الشعراء الذين اعتمدوا على البناء القديم ، من خلال ما تقدم من نماذج في موضوعات الشعر السياسي ، والتي تبدو فيها المقدمة مرطبة بالموضوع ، وبخاصة المقدمة الغزلية ، فإن الشعراء كانوا ملتزمين بفعل إحساسهم العميق البعيد عن التقليد لذاته ، ونجد الشعراء السجناء لم ترد عنهم المقدمات الغزلية أو في الوصف وغيرهما صدفة أو دون غاية ، وعلى هذا فهي ليست منفصلة عن الموضوع الرئيسي ، ولا يمكن أن تعني تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة ، وإنما هي بداية لعمل فني متكامل ، وهو القصيدة المعيرة عن تجربة شعورية عاشها الشاعر غير قابلة للتجزئة أو الحذف ، إنما تمثل وحدة عضوية ، باعتبارها نتاجا طبيعيا لوحدة الإحساس المشكل لديه ، يقول عباس الجراري في الموضوع نفسه : ((أعني بها الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية على السواء باعتبار القصيدة كلا وجدانيا وقطاعا نفسيا وحالة شعورية ، وهي نتيجة طبيعية تلقائية لوحدة الإحساس وتجانسه وصدقه ، تنبع من اكتمال التجربة وتكاملها في القصيدة ، حيث المضمون واحد والغرض واحد ، وحيث البناء يتمم بعضه بعضا أي بناء العناصر والأجزاء المكونة للقصيدة ، وحيث تترك هذه تأثيرها في المتلقين)) (1) ، ثم يضيف مركزا على ضرورة الوحدة في الشعر ، بقوله : ((هذه الوحدة أساسية في الشعر وفي كل عمل أدبي أو فني لأن عملية الإبداع متكاملة لها بداية ونهاية)) (2) .

اعتمادا على قول الجراري في القصيدة التي تتعدد فيها الأغراض ، فإن المقدمة الغزلية وغيرها لم ترد في القصيدة منفصلة عن الموضوع الرئيسي عند الشعراء السجناء في شعرهم السياسي ولكنها جزء غير منفصل عن بنية متماسكة هي القصيدة . ومن أمثلة ذلك مقدمة لقصيدة ابن شهيد في السجن وهي مرتبطة أيضا بالموضوع ارتباطا وثيقا، وهي من عشرة أبيات ، يستهلها بقوله (3) :

قَرِيبٌ مِمَّحْتَلُّ الْمَوَانِ بَعِيدُ يَجُودُ وَيَشْكُو حُرْنَهُ فَيُجِيدُ
نَعَى ضُرَّهُ عِنْدَ الْإِمَامِ فَيَالَهُ عَدُوٌّ لِأَبْنَاءِ الْكِرَامِ حَسُودُ

1 - الجراري ، عباس . فنية التعبير عند ابن زيدون . 10 .

2 - الجراري ، عباس . المرجع نفسه . 10 .

3 - ابن شهيد . ديوان . 99 .

ثم ينتقل إلى الغزل ثم إلى المدح ، كما سيأتي ذلك في حسن التخلص .
ومقدمة لعبد الملك بن غصن الحجاري ، في مقطوعة من ثمانية أبيات في وصف
السجن وطلب الشفاعة ، وهي مرتبطة بالموضوع ارتباطا وثيقا ، والمقدمة بيتان ، يقول (1):
وَحِلُّ يُسْلِينِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ وَيَكْشِفُ مِنْ كَرْبِ الْمَشُوقِ الْمُتَيْمِّمِ
وِدَادِي مَوْقُوفٍ عَلَيْهِ وَخُلَّتِي وَفِكْرِي مَشْغُولٍ بِهِ وَتَوْهُمِي
ومع ما كان لهذه المقدمات الغزلية وغير الغزلية عند الشعراء السجناء من التزام
بالبناء القديم فإنها في الحقيقة نابعة من طبيعة الموضوع ومتصلة به ، وربما كان ذكر المرأة
أو الطبيعة داخل القصيدة أو المقطوعة بفعل إحساسهم العميق البعيد عن التقليد لذاته .
ولقد استطاع الشعراء السجناء أن يربطوا في شعرهم السياسي بين المقدمة
والموضوع الرئيسي ببنية جزئية في البناء العام للقصيدة والتي سماها النقاد بالتخلص .

التخلص :

تعد هذه البنية الجزئية بمثابة الجسر الرابط بين المقدمة و الموضوع الرئيسي ، و لقد
أبدى شعراء هذه الفترة عناية خاصة و إجادة محكمة لهذه البنية من القصيدة ، و سأقتصر
في هذه البنية الجزئية على ذكر بعض النماذج في شعرهم السياسي على سبيل المثال
لأن الإشارات إلى هذا الجزء من البناء ، تقدمت غير مرة في معرض تحليل موضوعات
الشعر السياسي .

ومن أمثلة حسن التخلص نجد ابن زيدون في قصيدته الرائية (2) ، في مدح
ابن جهور وهو في السجن كيف استطاع أن ينقلنا من مقدمة غزلية بذكاء و روعة ،
فجاء تخلصا لطيفا محققا الشرط الذي اشترطه حازم القرطاجني حين قال : ((ويجب أن
يكون التخلص لطيفا)) (3) ، وذلك في البيت الوارد في نهاية المقدمة إلى وصف حاله،
فيقول (4) :

1 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 219 .

2 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

3 - حازم القرطاجني . منهاج البلغاء . 306 .

4 - ابن زيدون . ديوان . 148 .

من يسأل الناس عن حالي فشاهدها محض العيان الذي يبني عن الخبر
ومثل هذا التخلص لا يمكن أن يصدر إلا عن حذق الشاعر و قوة تصرفه ، وقدرته
وطول باعه ، وهذا ما سماه النقاد ((حسن التخلص)) الذي يعرفه الحموي بتعريف يجمع
التعريفين السابقين ، فيقول : ((حسن التخلص هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى
إلى معنى آخر يتعلق بمدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى
بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة
والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد ، ولا يشترط أن يتعين
المتخلص منه ، بل يجري ذلك في أي معنى كان ، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب
أو وصف روض أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجوم ولكن الأحسن أن
يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح)) (1) .

ونجد هذه القدرة عند ابن شهيد في قصيدته الدالية ، التي أحسن التخلص
فيها من تلك المقدمة المركبة من وصف حاله في السجن إلى اصطناع حديث مع
امراته على طريقة القدماء من الشعراء إلى مدح المعتلي يحيى بن علي بن حمود ، حيث ،
يقول (2):

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرَكِبِي أَقْرَبُكَ دَانَ أُمَّ نَوَاكِ بَعِيدِ
فَقُلْتُ لَهَا : أَمْرِي إِلَى مَنْ سَمْتُ بِهِ إِلَى الْمَجْدِ آبَاءُ لَهُ وَجُدُودِ

ثم يتخلص إلى الموضوع قائلا (3):

إِلَى الْمُعْتَلِيِّ عَالِيَتْ هَمِّي طَالِبَا لِكَرَّتِهِ إِنَّ الْكَرِيمَ يَعُودِ

ويتخلص كذلك ابن عمار في قصيدته الدالية من مقدمة في وصف الطبيعة
إل استعطاف المعتمد بن عباد ، فيقول (4) :

فَإِذَا مَا اجْتَلَاكَ أَوْ قَالَ مَاذَا قُلْتَ إِنِّي رَسُولُ بَعْضِ الْعَبِيدِ

1 - الحموي . خزائن الأدب . 149 .

2 - ابن شهيد . ديوان . تحقيق الغديري . 64 .

3 - ابن شهيد . المصدر نفسه . 64 .

4 - ابن عمار . ديوان . 55 .

بعض من أبعده عنك الليالي فاجتنى طاعة المحبّ البعيد

نستخلص — مما تقدم — أن شعراء القرن الخامس الهجري في شعرهم السياسي التزموا بالبناء القديم للقصيدة التي تتعدد فيها الموضوعات ، بدءا بالمقدمة في الغزل أو في وصف الطبيعة ، أو غيرهما — بعد اختيارهم مطلع القصيدة واطمئنانهم إلى نهايتها — وتمكنوا بحذق ومهارة من التخلص إلى بنية جزئية أخرى كما سنرى .

الموضوع الرئيسي :

الموضوع الرئيسي عبارة عن تلك البنية التي ترتبط بعلاقات داخلية مع سائر البنيات الأخرى سواء منها المقدمة و التخلص والانتهاى مكونة جميعا في النهاية القصيدة ، ولقد خصصت الفصول الأربعة من هذا البحث لتحليل ودراسة وتعريف هذا الجزء الرئيسي من القصيدة والمقطوعة ، وهذه الفصول تضم شعر الهجاء السياسي ، وشعر السجن السياسي ، وشعر الحرب وبخاصة في معركة الزلاقة ، وأخيرا الرثاء السياسي ، وقد قدم الشعراء في شعرهم السياسي هذا بمقدمات لبعض قصائدهم وخاصة شعر السجن . وأعتقد أن الفصول المخصصة للحديث عن الشعر السياسي في هذا البحث تعرفنا بهذا الجزء من البناء العام للقصيدة ، وذكر خصائصه ومميزاته دون البحث فيه مرة أخرى .

الخاتمة :

بعد المقدمة وحسن التخلص إلى الموضوع الرئيسي ، يصل الشاعر إلى خاتمة القصيدة التي كانت عناية النقاد لها كعنايتهم بمطلعها ، وذلك من حيث الاهتمام بالسامع والمخاطب ، وفي ذلك يقول ابن رشيق : ((وأما الانتهاى ، فهو القاعدة وآخر ما يبقى في الأسماع ، وسيله أن يكون محكما : لا يمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له ، وجب أن يكون آخر الشعر قفلا عليه)) (1) .

ولقد كان شعراء القرن الخامس ، وبخاصة من طرق موضوعات الشعر السياسي ، يعرفون قيمة الخواتيم وأهميتها مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ملاك العمل الخواتيم)) و ((إنما الأعمال بالخواتيم)) كما حلّى لصاحب دار الطراز

أن يستشهد (1) .

وأما حازم القرطاجني فقد اشترط : ((أن يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه سارا في المديح والتهاني ، وحزينا في الرثاء والتعازي)) (2) .
واستنادا إلى قول حازم في الجزء الأخير من بناء القصيدة ، ومحاولة بيانه ببعض الأمثلة لهذا القرن ، يتضح أن الخاتمة عند ابن شهيد استطاع بها أن يحمل يحيى بن حمود المعتلي على فك سجنه بما ضمنه في قصيدته من مدح واستعطاف ، وبما وفره لخاتمها من تركيز للاستعطاف وتذكير بما له من حرمة عند المعتلي ، وهي حرمة الشعر الذي ألبسه منه بردا ومطارف وجواهر شاكل الجمد درها كما شاكلت جيد الفتاة عقودها ، فيقول (3) :

حنانيك إن الماء قد بلغ الزُّبي	وأنحت رزايا ما لهنَّ عديدُ
ظمئتُ إلى صافي الماء وطلقه	فهل لي يوما في رضاك وُرود
ولي حرمةٌ حاشا لمثلك أن يُرى	مُضيعا لها وهو في العداة شهيد
فلا يعرمن رُحماكم من عليكم	مطارفُ مما حاكه وبُرود
جواهرُ شِعْرٍ شاكلَ الجمدَ دُرُّها	كما شاكلتُ جيدَ الفتاة عُقود

ويختتم ابن زيدن قصيدته في مدح ابن جهور واستعطافه ببيت واحد يدعو له فيه جاعلا نفسه فداء له ، فيقول (4) :

وقاك ما تخشى من الدهر من
تعبت في تأمينه واستراخ
ويختتم ابن العسال قصيدته قبل استرداد بربشتر من أيدي النصارى بإلقاء اللوم على المسلمين الذين بتخاذلهم وتواطئهم قد تركوا الفرصة للنصارى يفعلون ما فعلوا ، فيقول (5) :

1 - العلوي . الطراز . 3 : 183 .
2 - حازم القرطاجني . منهاج البلغاء . 306 .
3 - ابن شهيد . ديوانه ورسائله . تحقيق محي الدين ديب . 64 - 65 .
4 - ابن زيدون . ديوان . 145 .
5 - الحميري . صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من الروض المعطار . 41 .

لولا ذنوبُ المسلمين وأنهم ركبوا الكبائرَ ما لهنَّ خفاءُ
ما كان يُنصر للنصارى فارس أبدا عليهم فالذنوبُ الداء
فشِرارهم لا يختفون بشرَّهم وصلاحُ مُنتحلي الصلاحِ رِياء
فكان لهذه الأبيات الختامية وقعها على نفوس المسلمين ، وهبوا يدافعون على المدينة
حتى استردوها من أيدي النورمانديين .

ويختتم أبو إسحاق الإلبيري قصيدته ، في هجاء اليهود وتوجيه اللوم لباديس ،
مذكرا إياه بأن الله رقيب عليه يحاسبه على ما أئتمنه عليه من تولى شؤون المسلمين ،
فيقول (1) :

وراقب إلهك في حزبه فحزب الإله هم الغالبون
والشاعر في هدم الأبيات ينظر لقوله تعالى : ﴿ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا
فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (2) .

ومجمل القول ، فإن للقصيدة بناء يشتمل على بنيات جزئية ، ولكل جزء منها دوره
وخصائصه ومميزاته ، كما نص على ذلك النقاد ، وعمل شعراء القرن الخامس الهجري
بذلك في شعرهم السياسي بدافع إحساسهم البعيد عن التقليد ، وتم توضيح ذلك بنماذج
شعرية منها ما ورد في موضوعات الشعر السياسي بالوصف والتحليل ومنها ما وضحنا بها
— إن اقتضت الحاجة إلى هذه النماذج — أي بنية جزئية من بناء القصيدة العام أو المقطوعة
باعتبارها تشكل جزءا مهما من الشعر السياسي .

1 — أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 100 .

2 — سورة المائدة الآية . 56 .

الوزن و القافية

الوزن :

إذا كنا تعرضنا ، خلال ما سبق ، إلى البناء العام الذي برزت فيه القصيدة الأندلسية وهو بناء - كما بدا - اتسم بتلاحم أجزائه واتصال نسجها مكونة بذلك وحدة موضوعية و عضوية و أحيانا تكون وحدة موضوعية ، فإن الحديث عن الوزن الذي هو ركن أساسي من أركان هذه القصيدة التي بدونها لا يستقيم لها بناء (1) - كما اتضح لي - من خلال عملية دراسة شعرهم السياسي و استقصاء الأوزان فيه ، كانوا مع البحور الطويلة أميل منها إلى القصيرة لتوافر المقاطع الطويلة فيها و قصرها في الأخرى ، مع الإشارة أنهم لم يتقيدوا ببحر معين في فن ما من فنونهم الشعرية المطروحة ، فالطويل والبسيط والكامل والوافر والمتقارب ، هي من أكثر البحور استعمالا في شعر هؤلاء ، نجدها في الشعر السياسي . ويمكن ذكر بعض نماذج في موضوعات متعددة لتوضيح ذلك:

1 - نماذج من الموضوعات التي وردت في الطويل :

قصيدة لابن شهيد في السجن ، ومطلعها (1):

قريب بمحتلّ الهوان بعيد يجود ويشكو حُزنه فيجيد

وقصيدة للمعتمد بن عباد في الأسر ، ومطلعها (2) :

يقولون صبيرا ، لاسبيل إلى الصبر !

سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

وقول ابن حمديس في مدح المعتمد بن عباد بعد معركة الزلاقة (3) :

ليهنء بني الإسلام أن أبتَ سالما وغادرت أنف الكفر بالذل راغما

وقول ابن وهبون في رثاء الشاعر ابن خلدون في معركة الزلاقة (4)

ملكته فاسجح لا أبالك يا دهرُ أفي كلِّ عام في العُلا فتكةُ بكر

1 - ابن شهيد . ديوان . تحقيق محي الدين ديب . 63 .

2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 162 .

3 - ابن حمديس . ديوان . 425 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 245 .

2 - نماذج من موضوعات وردت في البسيط :

كقول ابن حزم في سجنه (1) :

مُسَهَّد القلب في حَدَّيه أدمعه قد طالما شَرِقت بالوجد أضلعه

وقول ابن زيدون في السجن ويمدح ابن جهور (2) :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتكَ ذِكر العين بالأثر

وقول ابن عبدون في رثاء بني الأفتس (3) :

الدهر يُفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وقول ابن الجدي في ملوك الطوائف (4) :

في كل يوم غريب فيه معتبر نلقاه أو يتلقاه به خبر

3 - نماذج وردت في الكامل :

كقول ابن شهيد في رثاء قرطبة (5) :

ما في الطلول من الأحبة مُخبرُ فمن الذي عن حالها نستخبرُ

وقول ابن عمار في المهجاء (6) :

ألا حيٍ بالغرب حيًّا حلالا أناخوا جمالا وحازوا جمالا

وقول ابن عبد الصمد في رثاء المعتمد بن عباد (7) :

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتكَ عن السماع عوادي

4 - نماذج وردت في الوافر :

قصيدة لشاعر مجهول في رثاء قرطبة (8) :

1 - ابن حزم . ديوان . 70 .

2 - ابن زيدون . ديوان . 147 .

3 - ابن بسام . الذخيرة . 721 : 2/2 .

4 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 242 .

5 - ابن شهيد . ديوان . تحقيق محي الدين ديب . 76 .

6 - ابن عمار . ديوان . 88 .

7 - الذخيرة . ابن بسام . 815 : 2/3 .

8 - المقرئ . نفع الطيب . 483 : 4 .

لثكلك كيف تبتسم الثغور سُرورا بعدما سُيبت تُغور

وقول المعتمد بن عباد يرد على الوزير أبي العلاء بن زهر (1) :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسيرٌ أن يطول به البقاء؟

وقول ابن القزاز في معركة الزلاقة (2) :

ثناؤك ليس تسبقه الرياحُ يطير ومن نَدَاك له جناح

وقول عبد الملك الحجاري في السجن (3) :

أزاح الدهر حُلُو الماء عني على ظميا وأسقاني زُعاقه

ثم مقطوعة في الهجاء لابن الجد (4) ، ومقطوعات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها فضلا عن القصائد ، وبعض القصائد الأخرى — ليست كثيرة — في بحور أخرى غير التي ذكرت لأنها قليلة بالمقارنة مع التي أثبتنا لها الأمثلة .

وإذا نظرنا إلى الأوزان التي اتخذها شعراء القرن الخامس الهجري ، في شعرهم السياسي إطارا موسيقيا لفنوتهم وموضوعات شعرهم انطلاقا من الأمثلة التي تعرضنا لها ، واعتمادا على عملية إحصائية تتعلق بها ، نلاحظ أنهم أكثروا من الأوزان التامة ، ويمكن ترتيب البحور من حيث الكم إلى مايلي :

الطويل ، البسيط ، الكامل ، الوافر ، المتقارب ، الخفيف ، المنسرح ، والرجز .

أما البحور الجزوءة فهي : مجزوء الكامل ، ومخلع البسيط .

نستنتج من عملية إحصائية متواضعة أن بعض الشعراء في شعرهم السياسي تنوعت الأوزان عندهم ، وتعددت مع غلبة واضحة لبعضها على البعض الآخر وهم المعتمد بن عباد ، وابن عمار ، وابن زيدون ، وابن وهبون .

وأما ابن شهيد وابن حزم وغيرهما من الشعراء الذين وردوا في ثنايا البحث فقلة أوزانهم جاءت نتيجة لقلة نتاجهم الذي وصلنا عنهم ، ولو وصلنا نتاجهم كاملا لتنوعت .

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 176 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 815 : 2/3 .

3 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 218 ز

4 - ابن بسام . الذخيرة . 526 : 2/2 .

مما تقدم يتضح أنه لا توجد قاعدة أو أساسا يدل على ارتباط وزن خاص بفن أو موضوع معين ، ولا حتى بعاطفة معينة ، بخلاف ما شاع من آراء عن علاقة ارتباط بحر ما بموضوع أو فن معين (1) ، وهذه الآراء عبارة عن مجرد استنتاجات لا يمكن أن ترقى إلى القواعد والأسس . ومن الأمثلة المذكورة مقدما ، نلاحظ أن بحرا معيناً قد اتخذ إطاراً موسيقياً لمختلف الموضوعات والعواطف ، وهو ما يشير إليه كثير من الدارسين .

وهذا ما جعل فريقاً منهم يربط بين الوزن الشعري ودرجة العاطفة لا بنوعها سواء أكانت فرحاً أم حزناً ، إعجاباً أم نفوراً ، وهذا ما يعبر النويهي عنه ، بقوله : ((أن البحور الشعرية وإن لم تختلف في نوع العواطف التي تصلح لها ، فهي تختلف في درجة العاطفة)) (2) .

وإذا رأينا شعراءنا في شعرهم السياسي أكثروا من الأوزان الطويلة ذات المقاطع الكثيرة في حالة فرحهم وحزنهم ، وآمالهم وآسهم ، فإنهم ركبوا البحور الطويلة وحتى في ساعة انفعالهم النفسي ، وهي حالة غالباً ما اتسمت بالاضطراب المصاحب لزيادة النبضات القلبية (3) . والحديث عن اضطراب الحالة النفسية لشعراء القرن الخامس الهجري يرجع إلى الناحية النفسية والاجتماعية ، فهم كانوا يتعرضون إلى نكبات وأسر مما يلزم أن يكونوا منفعلين ، ومع ذلك فإنهم يتخذون البحور الطويلة في غالب نظمهم ، ليس فقط في القصائد الطويلة وإنما في المقطوعات كذلك . وهذا مرده — في نظري — ربما إلى جهلهم لعلم العروض ومن ثمة اعتمدوا في أوزانهم على المشهور منها ، وبعدهم عن ركوب البحور القصيرة والملائمة لانفعالهم النفسي الذي ينبغي أن يكون قويا تزداد معه سرعة التنفس ونبضات القلب .

يتضح — مما تقدم — أن الشعراء الأندلسيين ، في القرن الخامس الهجري ، في شعرهم السياسي ساروا على منوال المشاركة في النظم على نفس البحور ، فلا تجديد ولا ابتكار ، فلم يضيفوا شيئاً إلى بحور الأقدمين ، إذ ظلت كما هي ، غير أنه من خلال

1 - انظر : بكار ، حسين . بناء القصيدة العربية . 211 ، حازم القرطاجني . منهاج البلغاء . 205 .

2 - النويهي . محمد . الشعر الجاهلي . 1 : 61 .

3 - أنيس ، إبراهيم . موسيقى الشعر . 193 .

عملية إحصاء لأوزان الشعر غير أن شعراءنا في شعرهم السياسي استعملوا في الغالب — كما تقدم — الأجر التامة وفي مقدمتها الطويل ، كذلك استعملوا الكامل في جميع موضوعاتهم الجادة منها وغير الجادة لأنه ((أكثر بحور الشعر جملجة وحركات ، وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله — إن أريد به الجد — فخما جليلا مع عنصر ترنمي ظاهر)) . (1)

وقد تعامل الشعراء مع هذه الأوزان بإدخال عليها من التعديلات ما يكسر من وحدة وقعها في الأذن ، بما يتيح لهم أن ينقلوا صورا موسيقية أقرب ما إلى أحاسيسهم منها إلى النظام العروضي في صورته المقننة . ويدل على ذلك ما يسميه العروضيون بالزحافات والعلل (2) . وإن كثرت أذهبت برونق الشعر (3) ، ولكنهم مع ذلك اهتموا ببعض نواحي الجمال فيه (كالتصريع) الذي لفت انتباههم وهو تصيير مقطع آخر المصراع في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها (4) ، أو ما كانت عروض فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه و تزيد بزيادته (5) .

و لقد اعتبر التصريع دليل قدرة الشاعر وسعة فصاحته و اقتداره في بلاغته (6) ، وكانوا يرونه ضروريا و لازما في شعر المطبوعين الجيدين (7) . و و جوده في أول القصيدة علامة مميزة يفهم منها قبل تمام البيت روي القصيدة و قافيتها (8) . و يبدو اهتمام شعراء القرن الخامس الهجري بهذا الجانب الجمالي في أوزانهم و موسيقى شعرهم واضحا فيما نظموا من قصائد ومقطوعات تقريبا ومن أمثلة ذلك قول ابن شهيد في مطلع قصيدته (9) :

1 - الطيب ، عبدالله . المرشد إلى فهم أشعار العرب . 1 : 84 - 85 .

2 - إسماعيل ، عز الدين . التفسير النفسي للأدب . 80

3 - يقول عز الدين لإسماعيل بأث الخليل كان يستحسن الزحاف بشرط أن يكون قليلا . الأسس الجمالية في النقد الأدبي . 375

4 - قدامة بن جعفر . نقد الشعر . 51 .

5 - ابن رشيق . العمدة . 1 : 173 .

6 - العلوي . الطراز . 3 : 33 .

7 - قدامة بن جعفر . نقد الشعر . 51

8 - الخفاجي . سر الفصاحة . 222 .

9 - ابن شهيد . ديوان . 99 .

قَرِيبٌ بِمَحْتَلِّ الْهَوَانِ بَعِيدٌ يَجُودُ وَ يَشْكُو حَزَنَهُ فَيَجِيدُ

و قول أبو إسحاق الإلبيري في نونيته (1) :

أَلَا قَلِّ لَصْنَهَا جَعَةً أَجْمَعِينَ بُدُورِ النَّدَى وَ أَسَدِ الْعَرِينِ

و قول ابن حزم في الحنين إلى أهله (2) :

مُسْهَدُ الْقَلْبِ فِي حَدْيِهِ أَدْمَعُهُ قَدْ طَالَمَا شَرِقَتْ بِالْوَجْدِ أَضْلَعُهُ

ويضيق المجال لذكر القصائد و المقطوعات المصرفة لدى شعراء القرن الخامس في شعرهم السياسي ، لكن ما يمكن الإشارة إليه في هذه المصرفات أن أصحابها فيهم من صرع دون أن يقع في جوازات الأعراب ، و فيهم من اعتمدها و لم يجد البديل عنها لتحقيقه .

القافية :

القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر و لا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية (3) . فهي إذا ركن أساسي آخر من أركان القصيدة في بنائها و موسيقاها والوزن مشتمل عليها (4) . فهي إذا عنصر أساسي و مهم في بناء القصيدة و توجيهها (5) ، وهي لازمة إيقاعية متمثلة في تكرار صوت معين و عنصر تطريب في القصيدة ، و صلة ربط بين أبياتها (6) .

و إذا فإن النقاد جعلوا القافية مكملة للوزن الذي يقوم عليه الشعر ((لأنهم تناولوا التقنية كظاهرة مستقلة تدليلا على الأهمية التي وجدوها في القافية نظرا لكونها محطة موسيقية ، ومعنوية في آن ، محطة تركز عليها القصيدة في تساوقها المنتظم (الموقع)) (7) . نستخلص — مما تقدم — أن القافية ركن أساسي من أركان القصيدة في البنية الموسيقية للشعر العربي بصفة خاصة باعتبارها لازمة إيقاعية منظمة تتكرر في نهاية أبيات

1 - أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 96.

2 - ابن حزم . ديوان . 69 .

3 - ابن رشيق . العمدة . 1 : 151 .

4 - بكار ، حسين . بناء القصيدة العربية . 230 - 231 .

5 - الحمداني ، الهادي . القافية ودورها في توجيه الشعر . مجلة أقلام . ع 7 . السنة الرابعة . مارس 1968 . ص 29 .

6 - الجراري . عباس . فنية التعبير في شعر ابن زيدون . 36 .

7 - جودت ، فخر الدين . شكل القصيدة في النقد العربي . 163 .

القصيدة ، نجد شعراء القرن الخامس في شعرهم السياسي أولوها عناية خاصة لا تقل عن تلك التي أولوها لاختيار الوزن ، وبحثوا عن الكلمات المناسبة لوضعها في المكان المناسب ، لكونها محطة موسيقية و معنوية في آن كما تقدم .

وفي شعرنا الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري ، نجد عدة مظاهر دالة على عناية الشعراء بالقافية في شعرهم نذكر منها على سبيل المثال ((التصريح)) - كما تقدم في الحديث عنه في الوزن - و هو ليس سوى جزءا من الموسيقى الداخلية التي وردت بكثرة في شعر شعرائنا في مطالع قصائدهم و مقطوعاتهم إدراكا منهم لما لهذا المطلع من أهمية متوخين بالقافية مضاعفة النبر الموسيقي .

و حين نتأمل بعض القوافي لشعراء القرن الخامس الهجري في شعرهم السياسي ، نجد أن رويها غالبا ما يوظف للتعبير عن حالة نفسية معينة ، قد تكون فرحا أو حزنا ، فالمعتمد بن عباد يبدو حزينا غاية الحزن في قصيدته التي يصور فيها اللحظات الأخيرة ، وهو يدافع عن ملكه وشرفه (1) :

لما تماسكت الدموع وتنبه القلب الصديق

نجد الشاعر في هذه القصيدة اتخذ رويها حرفا من حروف الحلق له قرع خاص على الأذن وله في هذا الموضوع ((أثر كبير على خلق الجو الانفعالي الذي ينبغي للشاعر أن يهيئه)) (2) . والقصيدة بجميع عناصرها توحى بجو مأساوي يتضح ذلك من خلال خلق الجو الانفعالي الحزين ، إلى اختياره لهذا الروي الذي يتميز بمخرجه الحلقي المعبر عن حالة نفسية تتمثل في المرارة والجزع والهلع .

وقريب من (العين) في التعبير عن الحزن والألم حرف (الراء) الذي تمثل له بهذه المرثية لشاعر في فقد طليطة ، ومطلعها (3) :

لتكلك كيف تتبسم الثغور سرورا بعدما سببت ثغور

ولابن العسال قصيدة نظمها على روي الهمزة توحى باختناق الشاعر إثر سقوط

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 150 .

2 - الجراري ، عباس . فنية التعبير عند ابن زيدون . 42 .

3 - المقري . نفع الطيب . 4: 483 .

مدينة بريشتر في يد الأعداء (1) :

ولقد رمانا المشركون بأسهم لم تُحْطُ لكن شأنه الصماء

وللمعتمد بن عباد أبيات شعرية نظمها في سجنه ، يقول (2) :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم : دمعي ينوب لكم عن الأنواء

تتضح لنا — من الأمثلة المذكورة — فكرة الربط بين القافية وموضوع القصيدة ، مثلما برزت فكرة علاقة الوزن بالموضوع والعاطفة ، وهي فكرة أرى من الصعب الخوض فيها لأن النقد العربي القديم والحديث أفاض البحث فيها دون أن يصل إلى الحسم في الربط أو عدمه (3) . كما نجد في الأمثلة نفسها وفي غيرها لا نستطيع عرضها — لكثرتها — في هذا المجال ، وعرض في موضوعات أخرى من هذا البحث ، نجد جملة مظاهر تدل على عناية شعرائنا بالقافية وذلك في التزامهم بحرف أو حرفين أو أكثر كما في قول الشاعر عبد الملك بن الحجاري في سجنه (4) :

أأروى وبين ضلوعي حريق وأشجى وإنسانُ عيني غريق

وهذه المقطوعة تشتمل على تسعة أبيات التزم فيها الشاعر قبل الروي بحرف واحد وهو الياء .

وعلى هذا المنوال ، قول المعتمد بن عباد في قصيدة يرثي فيها نفسه (5) :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

هذا ولم تكن عنايتهم بالقافية مقتصرة على حرف دون غيره ، فكانت حروف الهجاء كلها واردة في أشعارهم ، مما يدل على قدرتهم اللغوية وتمكنهم منها مما يزيد

1 - الحميري . صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار . 40 .

2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 156 .

3 - انظر في هذا الموضوع : ابن رشيق . العمدة . 2: 209 ، حازم القرطاجني . منهاج البلغاء . 275 ، إبراهيم أنيس . موسيقى الشعر . 193 ، سليمان البستاني . مقدمة الإلياذة . 97 ، محمد النويهي . الشعر الجاهلي . 1: 63 ، غنيمي هلال . النقد الأدبي الحديث . 477 ، ويقول حسين بكار: ((ومن نقادنا المعاصرين الذين يذهبون إلى الربط بين القافية والموضوع كالتقدماء تماما ، سليمان البستاني ، محمد النويهي ، أما المرحوم غنيمي هلال فلاحظ أن ليس ثمة قاعدة تربط القافية بموضوع القصيدة كما أن ليس قاعدة تربط بحرفها بموضوعها)) . بناء القصيدة . 263 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/3 : 332 .

5 - المعتمد بن عباد . ديوان . 193 .

شعرهم عنصرتنغيم وتطريب معبرين في أكثر المواضع عن حالاتهم النفسية .
وقد تنوع استعمالهم لهذه القافية بين مطلقة ومقيدة ، ومن أمثلة القافية المطلقة —
إلى جانب ما تقدم من أمثلة في هذا المضمار — قول المعتمد بن عباد في سجنه يشتكي
من ضيق القيد (1) :

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة؟ لقد آن أن يفنى ويفنى به الخدُّ

وقول الحصري يعرض بصاحب إشبيلية (2) :

نَبِّه الرُّكْبَ الهُجْوَعَا وُلْم الدهر الفَجْوَعَا

وقول ابن زيدون في السجن (3) :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمرِ إلا ذكرْتُكِ ذكر العين بالأثرِ

فقد صرع الشعاعان عند استعمالهما القافية المقيدة — كما يتضح من الأمثلة
السابقة الذكر — وأيضاً نجدهما اعتماداً القافية الداخلية مما يزيد في مضاعفة النبر الموسيقي .
نستنجح مما تقدم أن الروي في القافية إما أن يكون متحركاً وإما ساكناً ، فحين
يكون متحركاً تسمى القافية مطلقة ، أما حينما يكون ساكناً فهي مقيدة (4) ، ويرد
إبراهيم أنيس سبب كثرة وانتشار القافية المقيدة إلى ازدهار الغناء في العصر العباسي إذا ما
قارناها بشعر الجاهلين فهي قليلة (5) ، وإذا جارينا إبراهيم أنيس فيما ذهب إليه فإن
الشعر المقيد يكون استجابة في غالبته لرغبات المغنين التي لا تأتي إلا في ظروف ارتجالية
و طارئة ، لذلك قيد ليسهل للشاعر بناء قافية دون التزامه لإعراب رويها ، وليس
اختلاف إعرابه عيباً كما هو في المطلق إقواء (((6) .

ومن أمثلة القافية المقيدة قول ابن عمار في سجنه بإشبيلية (7) :

1 - ابن زيدون ز ديوان . 147 .

2 - ابن حلکان . وفيات الأعيان . 3: 333 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 185 .

4 - ابن رشيق . العمدة . 1: 154 .

5 - أنيس ، إبراهيم . موسيقى الشعر ، 288 - 289 .

6 - ابن رشيق . العمدة . 1: 154 ، الطيب ، عبد الله . المرشد . 1: 35 .

7 - ابن عمار شعره . تحقيق الغديري . 59 .

يقول قومٌ : إن المؤيد قد أحال في فديتي على نقده

وقول ابن عباد في ابنه الأصغر أبي هاشم في معركة الزلاقة (1) :

أبا هاشم ! هَشَّمْتَنِي الشُّفَارُ فله صبري لذاك الأوار !

ومن الظواهر الموسيقية اللافتة في الشعر السياسي ، في القرن الخامس الهجري ، ما يعرف بالتدوير ، وهو أن يشترك شطرا بيت في كلمة واحدة فيكون بعضها مكملا لبناء الشطر الأول وبعضها الآخر بداية لبناء الشطر الثاني ، ومن أمثلة ذلك قول عبد الملك الحجاري (2) :

وشفى ذو الجلال علة أيو ب وقد شارف الردى أيوب

وانقضى سجن يوسف وقد استيب أس وارتد مُبَصِّرا يعقوب

وقول المعتمد بن عباد قبيل أسره (3) :

وألذُّ من طعام الخضو ع على فمي السُّم النقيعُ

لم أُستلب شرف الطبا ع ، أَيْسَلِبُ الشرف الرفيع

وما يلاحظ على قصائد ومقطوعات شعر السجن بخاصة في الاعتذار والاستعطاف والشكوى وطلب الشفاعة ظاهرة التدوير ، وهو ما يدل على تمزق نفس الشاعر وحيوته وانقسامه بين الندم والرغبة في الخلاص ، وقد بلغ كل ذلك مداه عند كل من ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد وعبد الملك الحجاري .

مما تقدم ذكره في موضوعات الشعر السياسي من هذا البحث من نصوص شعرية ، والأمثلة المذكورة سابقا لمعرفة القافية المطلقة والمقيدة ، اتضح لنا أن شعراء القرن الخامس نظموا قصائدهم ومقطوعاتهم وأبياتهم الشعرية على روي جميع الحروف الهجائية ، لكن يمكن القول بأن بعضها كان أكثر تداولاً من غيرها كالدال والراء واللام والميم والياء والباء والنون والحاء وغيرها .

1 - المعتمد بن عباد . ديوان 106 .

2 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 150 .

وليس لهذا التداول -حسب النصوص المتوفرة - من علة غير تلك التي أوردتها إبراهيم أنيس حين قال: ((لا تعزى كثرة الشيوخ أو قلتها إلى ثقل في الأصوات أو خفة بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة ، فالدال مثلا تجيء في أواخر كلمات اللغة العربية بكثرة ، ولكن شيوعها في اللغة عامة ليس بالكثير ، بل ربما قل عن (العين) و (الفاء) ومع ذلك فمجىء الدال رويًا يزيد كثيرا عن مجىء كل من العين والفاء وليست تتطلب (الزاي) جهدا عضليا يبرز ندرة ورودها رويًا)) (1) .

1 - أنيس إبراهيم . موسيقى الشعر . 276 ، الطيب ، عبد الله . المرشد . 1: 46 .

أثر القرآن والحديث والفقهاء

أكثر شعراء القرن الخامس الهجري من الاقتباس من القرآن الكريم مما يدل على عمق ثقافتهم الدينية ، وقدرتهم على توظيف محفوظهم القرآني ، وتمثل تأثرهم الذي له حظ كبير في أشعارهم بتضمين الآيات القرآنية حيناً ، واكتفاء بمعناها مع تصرف في اللفظ حيناً آخر ، وهو مظهر قوي من مظاهر التأثير بالروح القرآني ، ومن ذلك قول الإلبيري في هجاء اليهود (1) :

وأنزلهم حيث يستاهلون وردّهم أسفل السافلين

وهو ينظر في ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ (2) .

ونجد ابن زيدون في سجنه مستعظفاً أبا الحزم (3) :

نار بغي سرى إلى جنة الأمن لظاها فأصبحت كالصريم

بأبي أنت إن تشأ تكُ بردا وسلاما كنار إبراهيم

مشيراً في البيت الأول إلى قوله تعالى : ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ (4) ، وفي

البيت الثاني إلى قوله تعالى ﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ (5) .

وهذه القطعة في رثاء المدن ، قال الشاعر (6) :

في سورة الحشر آيات مُفصَّلةٌ في شأنكم أنزلتْ لم تُعدكم أحداً

نعم وفي الكهف العشرين خاتمةٌ تقضي عليكم بالألأ تُفْلِحُوا أبداً

وفي هذا ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم

أنفسهم ﴾ (7) ، وفي البيت الثاني ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء

1 - أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 97 .

2 - سورة التين الآية 5 .

3 - ابن زيدون . ديوان . 125 .

4 - سورة القلم الآية 19 ، 20 .

5 - سورة الأنبياء الآية 68 ، 69 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 110 .

7 - سورة الحشر الآية 19 .

- عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴿ (1) .
- ونجد الإلبيري في هجاء اليهود ، يقول (2) :
- ويضحك منا ومن ديننا فإننا إلى ربنا راجعون
- فهو ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك ﴾ (3) .
- ونجد السميسر في هجاء ملوك الطوائف (4) :
- سكتم يا رياح عاد وكل ريح إلى سكون
- وهو في ذلك ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ (5)
- ونجد ابن الجدي في هجاء ملوك الطوائف (6) :
- صَمَّتْ مسامعه من غير نغمته فما تمر به الآيات والصور
- وهو ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يُصرُّ مستكبرا كأن لم يسمعها فيبشره بعذاب أليم ﴾ (7) .
- ومن ذلك قول الإلبيري في هجاء اليهود (8) :
- فقد ضَجَّتْ الأرضُ من فسقهم وكادت تَمِيدُ بنا أجمعين
- وهو ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تُميدَ بكم وأنهارا وسُبُلًا لعلكم تهتدون ﴾ (9) .
- وقول ابن عمار في سجنه وكأنه ملاذ الجن والنسور (10) :
- عال كأن الجنَّ إذا مردت جعلته مرقاة إلى النسور

1 - سورة الكهف الآية 101 .

2 - أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 99 .

3 - سورة الفجر الآية 28 .

4 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 108 .

5 - سورة الحاقة الآية 6 .

6 - ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 242 .

7 - سورة الجاثية الآية 8 .

8 - أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 98 .

9 - سورة النحل الآية 15 .

10 - ابن عمار . ديوان تحقيق مصطفى الغديري . 71 .

فالشاعر ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ (1) .

كما استعان شعراء القرن الخامس في التعبير عن المعاني بصور الأنبياء عليهم السلام على النحو المشهور عنهم الذي رواه وصوره القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولعله في مقدمة الأنبياء الذين يرد ذكرهم على ألسنة أكثر الشعراء (يوسف عليه السلام) حيث كان مضرب المثل ، حسن الصورة والصبر على أذى إخوته ، ومن أمثلة ذلك قول ابن زيدون في قصيدة لأبي الحزم ويعرض بالوشاة ، يقول (2) :

كان الوُشاة ، وقد مُنيتُ بِإفكِهم ، أسباطُ يَعقوبٍ وَكنتُ الذِّيبا
وهو ينظر في ذلك إلى قوله : ﴿ قالوا يا أبانا إِنَّا ذهبنا نَسْتَبِقُ وتركنا يوسف عند
متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ (3) .

ونجد ابن غصن الحجاري يوظف في شعره قصص الأنبياء الذين مروا بمصائب حمة انتهت إلى الفرج والنعمة ، يقول (4) :

إن رمتنا يدُ الخطوب بقوس
قد أحاب الإله دعوة نوح
وشفى ذو الجلال علة أيوب
وانقضى سجنُ يوسف وقد استيب
طلما كان سهمها لا يصيب
حين نادى بأنه مغلوب
بَ ، وقد شارف الردى أيوب
أس وارتد مُبصِرا يعقوب

فقد ذكر الشاعر (نوح) و (أيوب) ، و (يوسف) ؛ ففي البيت الأول ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ قال نوح رب إنهم عَصَوِي واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خَسارا ﴾ (5) وفي البيت الثاني ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أي مسني الضُّر وأنت أرحم الراحمين ﴾ (6) ، وفي البيت الثالث ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ فلما أن جاء البشير وألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم

1 - سورة الصافات الآية 7 .

2 - ابن زيدون . ديوان . 133 .

3 - سورة يوسف الآية 17 .

4 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 220 .

5 - سورة نوح الآية 21 .

6 - سورة الأنبياء الآية 83 .

من الله ما لاتعلمون ﴿ (1) .

ونجد ابن زيدون وقد وجه إلى أبي الحزم جهور يستعطفه ليخرجه من السجن ،
بقوله (2) :

وفي أم موسى عبرة أن رمت به إلى اليم ، في التابوت ، فاعتبري واسلي
وهو ينظر في ذلك إلى قوله تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفتِ
عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ (3) .

ورغم إفادة الشعراء ، في القرن الخامس الهجري ، من معاني القرآن في شعرهم ،
إلا أننا نراهم لايعمدون إلى الاقتباس المباشر من القرآن الكريم إلا قليلا ، أمثال ابن دراج ،
وابن حزم ، وابن زيدون ، وابن الجدي ، والسامري ، والإلبيري ، والمعتمد ، وابن عبدون ،
وغيرهم ، وابن اللبابة ، وابن وهبون ، وكذا القصائد التي وصلتنا لشعراء مجهولين ،
وتأثرهم بالقرآن الذي يعد الرافد الأول .

ونجد تأثرهم بالحديث الشريف ، فهو بمثابة الرافد الثاني نحو الاتجاه الإسلامي ،
وسنكتفي بذكر بعض مظاهر هذا التأثير ، كقول أبي حفص الهوزني (4) :

أيا أسفا للدين إذ ظل نهبه	بأعيننا والمسلمون شهود
أفي حرم الرحمن يلحد جهرة	ويجعل أشراك الإله يهود
ويثلب بيت الله بين بيوتكم	وقادره عن رد ذاك قعيد
أعيدكم أن تدهنوا فيمسكم	عقاب كما ذاق العذاب ثمود
يقود امرءا طبع إلى علم شكله	كما انمازت الأرواح وهي جنود

وفي هذه الأبيات نلمس ألفاظا دينية مثل : الدين ، المسلمون ، شهود ، الرحمن ،

يلحد ، إشراك ، بيت الله ، وهو في استخدامه مصراع البيت الأخير ((كما انمازت

1 - سورة يوسف الآية 96 .

2 - ابن زيدون . ديوان . 160 .

3 - سورة القصص الآية 7 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 92 - 93 .

الأرواح وهي جنود)) يشير إلى معنى الحديث الشريف ((قلوب المؤمنين أجناد مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف)) (1) .

هذا ولم يتوقف الشعراء عند استخدام السور القرآنية ، والأحاديث النبوية ، بل نجدهم يستخدمون ألفاظ العبادات والشعائر الإسلامية والمصطلحات الفقهية ، كقول أبي حفص الهوزني (2) :

فقد جدَّ أمرٌ هَدَّ شرع محمد وما منجد عن حاله مثل شاهد

فالشاعر — كما تقدم — في استخدامه لألفاظ دينية ، يضيف في هذا البيت شرع

محمد رسول الله

وقول ابن العسال في رثاء مدينة بربشتر ، يذكر المشركين (3) :

ولقد رمانا المشركون بأسهم لم تُخط لكن شأها الصماء

وقال المعتمد بن عباد في طلب المغفرة (4) :

أسر وعُسر ولا يُسر أوُمَّله استغفر الله كم لله من نظر

قال المعتمد بن عباد في معركة الزلاقة يذكر الغزو المبارك ، والفتح القريب ،

ودين الصليب (5) :

غزو عليك مَبَارَك في طيه بالفتح القريب

لله سيفك إنه سُخط على دين الصليب

وقول الشاعر في رثاء طليطلة يذكر دار الإيمان (6) :

وكانت دارَ إيمانٍ وعلم معالها التي طمست تُنير

كذلك عمد الشعراء إلى استخدام الأحكام والمصطلحات الفقهية فأفادوا منها

في بعض المعاني التي وردت في أبياتهم ، ومن أمثلة ذلك قول شاعر في رثاء طليطلة (7):

1 - صحيح مسلم . 2: 295 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2: 88 .

3 - الحميري صفة جزيرة الأندلس (منتخب من الروض المعطار) . 40 .

4 - المعتمد بن عباد . ديوان . 190 .

5 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه . 95 .

6 - المقرئ . النفع . 4: 483 .

7 - المقرئ . نفع الطيب . 4: 485 .

يُؤدَى مَعْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ وَ يُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ

وقول المعتمد بن عباد لما رأى أهل المغرب يصلون صلاة الاستسقاء (1) :

خَرَجُوا لَيْسْتَسْقُوا فَقُلْتُ لَهُمْ دَمَعِي يَنْوِبُ لَكُمْ عَنِ الْأَنْوَارِ

مما تقدم نلمح أن تأثر شعراء ، القرن الخامس ، تأثرا كبيرا بالقرآن الكريم بتضمين الآيات القرآنية حيناً ، واكتفاء بمعناها حيناً آخر ، وكذلك تأثرهم بالحديث الشريف ، والفقهاء الإسلامي بوجه عام ، من حيث استخدام بعض المصطلحات والأحكام الفقهية ، وهذا الأثر يرجع إلى أهل الأندلس — كما تقدم في الإطار العلمي والأدبي — وعلى حد قول المقرئ : ((وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة)) (2)

وأشعارهم التي وصلتنا — كما تقدم من أمثلة — لا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة من أثر المعاني الدينية ، وفي مختلف موضوعات الشعر السياسي التي طرقتها وأثبتناها في البحث .

1 - المعتمد بن عباد . ديوان . 156 .

2 - المقرئ . نفع الطيب . 1 : 221 .

استلهام الموروث الشعري

يعتبر استلهام الموروث الشعري ، قديمه ومحدثه ، ظاهرة واضحة في شعر الأندلسيين السياسي ، في القرن الخامس الهجري ، غير أن ذلك لا يعني الاحتذاء والتقليد بمعناهما المعروف دائما ، بل يدل أحيانا على الرغبة في الاستفادة من هذا الموروث الذي يمثل عنصرا أساسيا في تكوينهم ، ويكون أحيانا أخرى تأثيرا لاشعوريا بمحفوظهم الغزير ، وما ترسب في نفوسهم من رواسب الموروث الشعري ، الذي يشكل جزءا من تكوينهم باعتبار ((أن الأدب الأندلسي ليس مستقلا بذاته)) (1) .

غير أن ذلك لا يتنافى مع اعترافهم بتفوق المشاركة وسبقهم ، واتجاههم نحو المشرق ، ينهلون من منابعه الأصيلة في مختلف الفنون والعلوم ، وكانوا أحيانا يعارضونهم ، تأثرا أو إعجابا بمهارتهم الفنية ، أو سعيا إلى التفوق وإثبات الذات (2) .
ومن أمثلة ذلك قول ابن شهيد في رثاء قرطبة (3):

فَدَع الزمان يصوغُ في عَرصاتهم نورا تكاد له القلوب تُنور
وهو من قصيدة لأبي تمام في مدح المعتصم ، استهلها الشاعر بوصف الربيع ،
ومطلعها (4):

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حلية يتكسر
منها :

أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تُنور
وقول ابن شهيد يستعطف المعتلي بن حمود (5) :

تقول التي من بيتها خفَّ مركبي أقربك دانٍ أم نواكٍ بعيد ؟

1 - الغزوي ، علي . أدب السياسة والحرب . 385 .

2 - لم تقتصر رغبة الأندلسيين في تأكيد الذات على الشعر والنثر الفني فحسب ، بل تعدت إلى مجال التأليف ، وصرحوا بذلك أحيانا ، كرسالة ابن حزم في فضل الأندلس ، وما ذكره ابن بسام في الذخيرة عن فضائل الأندلسيين

3 - ابن شهيد . ديوان . 109 .

4 - أبو تمام . ديوان . 2 . 191 .

5 - ابن شهيد . ديوان . 102 .

وهو من قول أبي نواس في مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر (1) :

تقول التي من بيتها خف موكي عزيز علينا أن نـراك تسير
و المعتمد بن عباد ، في هذا المضمار ضمن عجز بيته بيت أبي تمام ، فيقول (2):
فهاكها قطعة يطوى لها حسدا السيف أصدق أنباء من الكتب
قال أبو تمام في مدح الخليفة العباسي المعتصم بالله (3) :
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وقول ابن زيدون في هجاء بني جهور (4) :

بني جهور! أحرقتم بجفائكم جنائي ، ولكن المدايح تعبق
تعدوني كالعنبر الورد ، إنما تطيب لكم أنفاسه حين يُحرق!
وهو ينظر إلى قول أبي تمام في مدحه واعتذاره (5) :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عُرف العود
وقول المعتمد بن عباد في دفاعه عن ملكه (6) :

لما تماسكتِ الدموعُ وتنبه القلبُ الصديقُ
ويقول ابن بسام هو ((شبيه بقول قيس بن الخطيم :

وإني في الحرب الضروس موكلٌ بتقدّم نفسٍ لا أريد بقاءها)) (7)
إذا فولوع شعراء الأندلس باقتفاء آثار شعراء المشرق ، يعد حقيقة
في تاريخ الشعر الأندلسي ، ولكن هذه الحقيقة ((لاتعني أنهم كانوا يقصدون إلى التقليد

1 - ابن خلكان . وفيات الأعيان . 1: 137 .

2 - المعتمد بن عباد . ديوان . 191 .

3 - أبو تمام : ديوان . 1 . 35 .

4 - ابن زيدون . ديوان . 255 .

5 - أبوتمام . ديوان . 1: 397 .

6 - المعتمد بن عباد . ديوان . 150 .

7 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2: 53 .

كما فهم ذلك نقادو ومؤرخو الأدب في المشرق ، بقدر ما تعني أنهم كانوا يقصدون إلى التحدي وإظهار القدرة والبراعة)) (1) ، كما يري الجراري ، ويركز على ابن زيدون الذي يلقب بالبحثري ، بقوله : ((ربما للاتقائه مع الشاعر العباسي في مجال العناية الفائقة بالموسيقى والصياغة ، وإن لم يبالغ شاعرنا في استعمال المحسنات ولم يتكلفها ، ولكن الذي لاشك فيه أنه يفوق البحثري بقوة العاطفة وصدقها وبغنى التجربة الحياتية عامة)) (2) .

من خلال ما تقدم من أمثلة ، وفي موضوعات الشعر السياسي ، نلمح نوعا من التأثر والاحتذاء للمشاركة ، قدماء ومحدثين ، إما إثباتا للذات وإما للتفوق ، وهذا ما يشير إليه غرسية غومس ، بقوله : ((فلقد كان لشعراء الأندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي ، ولكنهم يرون فيه سيئا أثريا قديما ، فلم يكن له في نفوسهم أثر فعال ، وكذلك المحدثون لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد فيما خلا بدوات تلميحات بين الحين والحين ، ونلاحظهما في الناحية الجمالية)) (3)

1 - الجراري ، عباس . فنية التعبير عند ابن زيدون . 74 .

2 - الجراري ، عباس . المرجع نفسه . 74 - 75 .

3 - غومس ، أميليو غرسية . الشعر الأندلسي . 24 - 25 .

أثر بعض الثقافات

انعكست على أشعار الأندلسيين ، في القرن الخامس الهجري ، في شعرهم السياسي آثار بعض الثقافات : منها ما يتعلق بالتاريخ بشكل عام ، ومنها ما يتعلق بالنسب ، ومنها ما يتعلق بالأمثال ، ومنها ما يتعلق بالأماكن ، ومنها ما يتعلق بالأدب واللغة ؛ حيث تكثر فيها الإشارات والتلميح إلى شخصيات وحوادث تاريخية وأسماء وقضايا أدبية ومصطلحات الكتابة والغناء . ومن أمثلة ذلك :

نجد ابن زيدون وتظهر ثقافته الواسعة في التاريخ ، يقول مثلا في أصدقائه الذين انقلبوا ضده في سجنه (1) :

ما ترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا
ورأوني سامريا يُتَّقَى منه المساس

وفيهما يشير إلى السامري وهو عظيم من بني إسرائيل ، عبد العجل فعوقب بأن منع من مخالطة النساء ، فكان إذا مسَّ الناسَ حمَّ الماسُّ والممسوس فتحامى الناس وتحاموه وكان يصبح في الناس لامساس (2) .

وقوله أيضا في الاستعطاف (3) :

و لو أني واقعت عمدا خطيئة لما كان بدعا من سجايك أن تملي
فلم أستتر حرب الفجار ، ولم أطمع مسيلمة ، إذ قال : إني من الرُّسُل

فهو يشير إلى حرب الفجار التي فجرَّ العرب فيها بأن قاتلوا في الأشهر الحرم ، وقد شهدها النبي (ص) في شبابه ، قبل البعثة ، ويشير إلى مسيلمة زعيم بني حنيفة ، الذي ادعى النبوة في حياة النبي وزعم أنه شريك له في الولاية على الأمة ، و استفحل أمره وقضي عليه في بداية خلافة أبي بكر (4) .

ت

1 - ابن زيدون . ديوان . 82 .

2 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 82 . هامش 6 .

3 - ابن زيدون . المصدر نفسه . 161 - 162 .

4 - ابن زيدون . ديوانه ورسائله . تحقيق علي عبد العظيم . 269 . هامش 2 .

وفي رثاء ابن عبدون لبني الأفطس (1) :
فليس مثلهَا إيوانُ كِسْرَى ولا مِنْهَا الخَوْرَتُقُ (2) و السَّدِيرُ (3)
ويذكر في مرثيته أيضا (بني ساسان) ، (بني يونان) ، فيقول (4) :
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر
ويذكر الشاعر ابن عبد الصمد (الروم) في معركة الزلاقة ، وهم منهزمون شر
هزيمة ، فيقول (5) :

والخيل قد نكصت على أعقابها والروم زرع و الرؤوس حصاد
ومن آثار الثقافة ما يتعلق بالنسب ، فالشاعر الأندلسي ، في شعره السياسي ،
يفتخر بنسب الممدوح ويشيد بحكمه الرزين ، فهذا ابن اللبانة يفخر (ببني عباد) ،
وهو يشير لنسبهم إلى المنذر بن ماء السماء ، فيقول (6):

من بني المنذرين و هو انتساب زاد فخره بنو عباد
ولم يتوقف الشعراء عند حد الافتخار ، بل تعدوه إلى الهجاء ، فهذا ابن عمار
يهجو (إعتماد الرمكية) ويذكر نسبها ، فيقول (7):

تخيرتها من بنات الهجان رمكية ما تساوي عقالا
وما يتعلق بالأماكن فإننا نجد المعتمد بن عباد يذكر معركة الزلاقة جاعلا إياها أختا
لغزوة بدر ، فيقول (8) :

لا بد من يوم يكو ن ، له أخ يوم القليب

-
- 1 - المقري ، نفع الطيب . 4 : 483 .
 - 2 - الخورنق : قصر شه النعمان في القرن الرابع ، في موقع قرب الكوفة ، كان جامع بين العظمة ، وبهاء الزخرف ، وجمال الموقع . انظر: الحميري . الروض المعطار . 225 .
 - 3 - السدير : بالعراق وهو سواد النخل ، وقيل السدير النهر الذي هناك ، وقيل هو قصر عظيم من إنشاء ملوك لحم في القدم وما بقي من قصورهم فهي بيع للنصارى . انظر : الحميري . المصدر نفسه . 300 .
 - 4 - المقر . نفع الطيب . 4 : 483 .
 - 5 - ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 809 .
 - 6 - ابن اللبانة . ديوان . 33 .
 - 7 - ابن عمار . ديوان . تحقيق الغديري . 88 .
 - 8 - المعتمد بن عباد . ديوان . 127 .

وهذا ابن شهيد متأثر بطبيعة البلاد الشرقية ، فيذكر (الفرات) و (دجلة) و (النيل) ، فيقول (1) :

جاد الفرات بساحتيك ودجلة والنيل جاد بها وجاد الكوثر
وأما عن الأمثال المشهورة فقد استعانوا بها وضمنوا بها شعرهم ، فمن أمثلة ذلك
قول ابن عمار مخاطبا المعتمد (2) :

ولالتفت رأي الوشاة وقولهم فكلُّ إناء بالذي فيه يرشح
المصراع الثاني من الأمثال المأثورة ((كل إناء بالذي فيه يرشح)) (3)
ويقول المعتمد في فاجعته في سجنه (4) :

ماذا رمتك به الأيام ياكبدي من نبلهنّ ولا رامٍ سوى القدرِ
يشير إلى المثل ((رب رمية من غير رامٍ)) (5) .

وهناك من ضمن أشعاره بالأمثال العربية ، يقول ابن زيدون (6) :
أيا ذا الوزير ها أنا أشكو والعصا بدء قرعها للحليم
يشير إلى المثل : ((إن العصا قرعت لذي الحلم)) .(7)

وقول عبد الملك بن غصن الحجاري (8)
ولم يك لي بذاك العير عَيْرٍ ولا بقطيع ذاك الدَّودِ ناقة
يشير إلى المثل : ((لاناقة لي في هذا ولاجمل)) (9) .

-
- 1 - ابن شهيد . ديوان . 110 .
 - 2 - ابن عمار . ديوان تحقيق الغديري . 39 .
 - 3 - الميداني مجمع الأمثال . 2: 162 .
 - 4 - المعتمد . ديوان . 189 .
 - 5 - يضرب مثلاً للمخطئ يصيب أحياناً انظر: الميداني . مجمع الأمثال . رقم 1581 .
 - 6 - ابن زيدون . ديوان ، ص 124
 - 7 - ذو الحلم هو عامر بن الظرب ، من حكماء العرب ، وعندما تقدمت به السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبنيه :قد كبرت سني ، فإذا رأيتسومي خرجت عن كلامي فاقرعوا لي المِجَنَّ بالعصا . الميداني . مجمع الأمثال . 146 .
 - 8 - إعتاب الكتاب . 218 .
 - 9 - المفضل الضبي . أمثال العرب . 131 .

وقول ابن شهيد (1) :

إن الماء قد بلغ الزُّبى وأُنحتْ رزايا ما هنن عديد

وهو يشير إلى المثل ((بلغ السيل الزبى)) (2)

هكذا انعكست آثار الثقافات المختلفة ، في الشعر السياسي ، في تشكيل صورهم باهتمامهم بالتاريخ والنسب والأمثال والأماكن بالإضافة إلى اهتمامهم بالقضايا الأدبية واللغوية ، ويتجلى أثرها في شعرهم ومن أمثلة ذلك قول ابن حمديس في وصف معركة الزلاقة وتناثر جيوش النصارى (3) :

وتحسبها في كل بيدااء عنصلاً ترى ناثراً فيها هُنن وناظماً

ونجد ابن زيدون يستخدم بعض صوره من مصطلحات الكتابة كالخط والشكل في مدح ابن جهور ، فيقول (4) :

إذا أشكل الخطب الملم فإنه وآراءه كالخط يوضح بالشكل

ونجد المعتمد بن عباد يستخدم مصطلحات الغناء كالنشيد والثقيل والجلس والنقر ، في مخاطبة قيده ، فيقول (5) :

يُعيد على سمعي نشيده ثقيلاً فتبكي العين بالجلس والنقر

1 - ابن شهيد . ديوان . تحقيق محي الدين ديب . 64 .

2 - هي جمع زُبَيْة. وهي حُفْرَةٌ تُحْفَرُ للأسد إذا أرادوا صيده ، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء ، فإذا بلغها السيل كان جارفاً مُحْجَفاً.

يضرِب لما جاوز الحد. الميداني . جمع الأمثال . رقم 436 .

3 - ابن حمديس . ديوان . 427 .

4 - ابن زيدون . ديوان . 160 .

5 - المعتمد بن عباد . ديوان . 163 .

أثر البيئة الأندلسية

يتجلى أثر البيئة الأندلسية في الشعر السياسي لبعض شعراء القرن الخامس الهجري ، وذلك في ميلهم أحيانا إلى الإكثار من ترديد أسماء الأماكن والأقاليم الأندلسية والأجنبية حتى ولو كانت ضمن الإمارات المسيحية غير الداخلة في نطاق أرض المسلمين ، مما يجعل القارئ في حاجة إلى الاستعانة بالمعاجم للتعريف بالأماكن والأقاليم والأشخاص الواردة في شعرهم ، ومن ذلك قول أبي طالب عبد الجبار يذكر أعلام أهل (قرطبة) (1):

لما رأى أعلام أهل قرطبة أن الأمور عندهم مضطربة

ويذكر ابن العسال في مرثيته (الأندلس) ويحث أهلها على المغادرة ، فيقول (2) :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط

ويذكر ابن رشيح القيرواني في هجاء بني عباد (الأندلس) ، ويشير إلى ما كان من تهافتهم على ألقاب بني العباس فكان منهم (المعتضد) و(المعتمد) ، فيقول (3) :

مما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد

ويذكر أبو إسحاق الإلبيري (غرناطة) في هجاء اليهود بقصيدة كان لها صداها في نفوس الغرناطيين (4) :

وإني احتللت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين

ويذكر المعتمد بن عباد في شعره (أغمات) لما رأى بعض سجنائها أفرج عنهم وهو سجين مقيد ، يقول (5) :

تخلصتم من سجن أغمات والتوت علي قيود لم يحن فكها بعد

ويسمي الشاعر الحصري (إشبيلية) بحمص الشرقية في شعره حين أرسل غلامه

-
- 1 - ابن بسام . الذخيرة . 2/1 : 942 .
 - 2 - المقرئ . نفع الطيب . 4 : 483 .
 - 3 - المقرئ . المصدر نفسه . 3 : 231 .
 - 4 - أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 96 .
 - 5 - المعتمد بن عباد . ديوان . 185 .

يبغي عطاء المعتمد ولم ينله مرغوبه ، قال (1) :

حمصُ الجنّة قالت لغلامي لا رجوعا

ويذكر ابن عمار (شقورة) التي سجن بها ويصف بؤس حاله ، فيقول (2) :

بؤسي شقورة عندي أربى على كل بوسي

ويذكر ابن صمادح (المرية) التي يحن إليها وهو مسجون بغرناطة ، فيقول (3) :

فقدت المرية أكرم بها فما للوصول إليها سبيل

ويذكر أبو عامر محمد الأصيلي (إقليمش) و (البت) في هجاء بني ذي النون ،

فيقول (4) :

هيهات لآخر ولاخرة في باب إقليمش إلى البنت

ويذكر السميصر مدينة (الزهراء) مخاطبا إياها عليها تعود ، فيقول (5) :

وقفت بالزهراء مُستعبرا مُعتبراً أندبُ أشتاتا

فقلتُ : يا زاهرا ألا فارجمي قالت : وهل يرجع من ماتا ؟

وأما ابن دراج القسطلبي ، شاعر المنصور بن أبي عامر ومن شعراء الفتنة العظمى ،

فإنه فاق غيره (6) في هذا المضمار إلى درجة حفزت محقق ديوانه على كتابة بحث بعنوان

((إسبانية الإسلامية من خلال ديوان ابن دراج)) (7) ، وقد تميز شعره بذكر الأماكن

التي غزاها المنصور بن أبي عامر وسبطاه ضد الأعداء ، والشخصيات التي وفدت عليهم

تعلن خضوعها وطاعتها أو التي أسرت في غزواتهم ضدهم (8) . ومن شعره في عهد

1 - ابن خلكان . وفيات الأعيان . 333 .

2 - ابن عمار . شعره . 122 .

3 - ابن حاقان . مطمح الأنفس . 404 .

4 - العماد الإصفهاني . الخريدة . 2: 309 .

5 - المقرئ . نفع الطيب . 1 . 527 .

6 - من شعراء المشرق مثلا المتنبي الذي كثيرا ما يعتمد عليه بعض الجغرافيين فيما أورده من أسماء الأماكن ومنهم ياقوت الحموي .

معجم البلدان . انظر : محمد علي إلياس العدواني . الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبي . مجلة المورد . م 6 ، ع 3 . 1977 .

ص 13 - 22 .

7 - لغزيوي ، علي . أدب السياسة والحرب . 392 ، نقلا عن الطاهر أحمد مكي . مجلة أكاديمية الآداب والفنون الجميلة . مدريد .

8 فورار محمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . 233 .

الفتنة ، ذكره معركة (قتيش) التي انهزم فيها المهدي وقتل فيها الكثير من جيشه (1) :

وشعاب قتيش وقد حُشِرَتْ لهم أمم بُغَاة لا يُكْتُ عديدها

ويذكر ابن دراج (وادي شرنبة) في شعره ، وقربه انهزم المهدي مع المتحالفين

من النصارى ، أمام جيش البربر بقيادة الخليفة المستعين بالله ، فيقول (2) :

واستودعوا جنبي شرنبة وقعةً هَدَّ الجبالَ الراسيات وتيدها

ويذكر ابن دراج (وادي آروه) بالقرب من رندة ، وعنده انهزم المهدي

والنصارى أيضا أمام جيش المستعين ، وقتل عدد كبير من قواده ، وأكثر من ثلاثة آلاف

من النصارى (3) ، يقول (4) :

ودنوا لها قي آر تحت صوارم وريّت بعزّ المسلمين زُنودها

ويذكر ابن دراج سقوط (أرمند) قائد النصارى قتيلا في معركة ضد جيش

المستعين ، فيقول (5) :

شَلُوْ لأرمندوها حشدتْ به للزحف ثم إلى الجحيم حُشودها

هذا وقد ذكر شعراء القرن الخامس في شعرهم السياسي ، إلى جانب ما تميز

به ابن دراج في هذا المضمار ، بعض الشخصيات المسيحية والأندلسية وبعض الأسر

الحاكمة ، وأسماء لبعض الشخصيات المغربية التي لها اليد الطولى في صنع الأحداث

بالأندلس ، فهذا ابن أبي يزيد المصري يذكر عبد الرحمن شنجول حفيد (شانجة) لما تنازل

له الخليفة هشام المؤيد عن الخلافة ، فشبت نار الفتنة العظمى ، فيقول (6) :

وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجة ولي عهد

ويذكر ابن حمديس (الفونسو السادس) في شعره ، وهو فار حائف متستر بظلام

1 - ابن دراج . ديوان . 52 .

2 - ابن دراج . المصدر نفسه . 54 .

3 - انظر هذا البحث . 31 .

4 - ابن دراج . ديوان . 55 .

5 - ابن دراج المصدر نفسه . 55 .

6 - ابن الأبار . الحلة السراء . 1 : 272 .

الليل ، واستطاع أن ينجو من المعركة ، يقول (1) :

ومعترك تلقى الفُنش فيه غَرِيماً مُهْلِكا نفس الغريم
تسَّرت بالظلام وفرَّ خوفاً برَوْع شقَّ سامعيّ ظليم

ويذكر أبو إسحاق الإلبيري قبيلة (صنهاجة) و (باديس) في قصيدة يستثير فيها

حماس الصنهاجيين وعلى رأسهم باديس للتخلي عن اليهود ، فيقول (2) :

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الندى و أسد العرين
أباديس أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين

ويذكر ابن زيدون (بني جهور) ، فقد انقلب من مدحهم إلى هجائهم لما يئس

من الخلاص من السجن ، يقول (3):

بني جهور أحرقتم بجفائكم جناني ، و لكن المدائح تعبق

ويذكر ابن عمار (بني عبد العزيز) في شعره ، وهم الذين أوشوا به ، ويدعو

المعتمد بن عباد إلى ترك أقوالهم ، فيقول (4) :

سيأتيك في أمري حديث وقد أتى برأي بني عبد العزيز مُوشح

ويذكر ابن عبدون في مراثيته (عمر بن الأفطس) لما سقطت دولته في يد المرابطين ،

فيقول (5) :

ويح السماح و ويح الجود لو سلما ما حسرة الدين و الدنيا على عُمر

ويمدح المعتمد بن عباد (يوسف بن تاشفين) في معركة الزلاقة ، فيقول (6) :

ويوم العُروبة ذدت العدا نصرت الهدى وأبيت الفرارا

ولولاك يا يوسف المتقى رأينا الجزيرة للكفر دارا

1 - ابن حمديس . ديوان . 437 .

2 - ابو إسحاق الإلبيري . ديوان . 96 .

3 - ابن زيدون . ديوان . 255 .

4 - ابن عمار . شعره . تحقيق الغديري . 38 .

5 - ابن بسام الذخيرة . 2/2 : 723 .

6 - المعتمد بن عباد . ديوان . 159 .

ويذكر ابن عمار (الرشيد) في قصيدة يستشفعه فيها إلى أبيه المعتمد ،
فيقول (1):

قل لبرق الغمام ظاهر بريدي قاصدا بالسلام قصر الرشيد
ويذكر ابن وهبون الشاعر (ابن خلدون) وقد سقط أبو محمد هذا شهيدا
في معركة الزلاقة ، يرثيه ، في قوله (2) :

رثته فقلنا : إنها لتماضر و إن ابن خلدون لمفوقدها صخر
يتضح مما تقدم أن بعض شعراء الأندلس ، في القرن الخامس الهجري ، في الشعر
السياسي أكثروا من استخدام أسماء الأقاليم والأماكن وأسماء الشخصيات الأجنبية
والأندلسية والمغربية في شعرهم ، حتى لكأننا — أحيانا أمام طريقة تسجيلية قائمة
على التقاط الصور السريعة المتلاحقة ، التي تجعل الدارس يتصور أنه أمام عدسة لاقطة
تنتقل عبر المشاهد تنقلها نقلا آمينا مع مراعاة استخدام المحسنات البديعية ، كما أضفوا
عليها أحيانا حياة وحركة اعتمادا على الصور البيانية المختلفة ، وما تقوم عليها
من تشخيص وحوار ، فجاءت حية نابضة كما سيتضح ذلك في اللغة والأسلوب .

1 - ابن عمار . ديوان . تحقيق الغديري . 55 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 245 .

اللغة والأسلوب

أدرك القدامى أهمية اللغة ، وعرفوا قيمة الألفاظ في تشكيل الصورة الأدبية ، ورد في الصناعتين أن ((الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما نراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرًا ، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما لو حول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رجل ، لتحولت الحلقة وتغيرت الحلية (1) .

وقد جعل العسكري مدار البلاغة على تحسين اللفظ لأنه إذا كانت الألفاظ مختارة حسن الكلام (2) .

كما عقد ابن خلدون فصلا في مقدمته ليثبت أن صناعة النظم إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وأن المعاني تبع لها وهي أصل (3).

وكان نقادنا المحدثون على القدر نفسه من الوعي بأهمية اللغة في العمل الأدبي ، فالأدب فن يتوسل الغاية الجمالية بمادة اللغة ، فاللغة ((هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير ، هي أول شيء يصادفنا وهي النافذة التي من خلالها نطل . ومن خلالها نتنسم ، هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب والجنح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق ، وقد عرف الإنسان العالم أو حاول أن يعرفه لأول مرة يوم أن عرف اللغة ، والشعر هو استكشاف دائم لعالم الكلمة ، واستكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة ومن ثم كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة على السواء (4) .

فالألفاظ إذا هي أداة الشاعر التي يتوسل بها في التعبير و التصوير ، فهو لا ينظم معاني مجردة ، بل ينسجها من الكلمات التي تؤثر في المتلقي بما تتضمنه من المشاعر والأحاسيس و المعاني ، بل قد تؤثر فيه بإيقاعها الصوتي ، فالكلمات في الشعر ليست مجرد إشارات أو علامات و إنما هي مجموعة من المثيرات الحسية تثير في ذهن المتلقي صوراً

1 - أبو هلال العسكري . الصناعتين . 167 .

2 - أبو هلال العسكري . نفس المصدر . 201 .

3 - ابن خلدون . مقدمة . 576 .

4 - إسماعيل ، عز الدين . الشعر العربي المعاصر ، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية . 173 .

وإحساسات وتحرك انفعالاته ومشاعره (1).

وقد اختلف النقاد قديما وحديثا حول لغة الشعر ، حتى إن ابن رشيق قد عقد بابا في كتابه العمدة ليؤكد أن ((للشعراء ألفاظا معروفة وأمثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها ، كما أن الكتاب اصطلاحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها)) (2) ، وهذا هو ما تصوره نقادنا القدامى وهو أن للشعر لغة خاصة أرفع من اللغة العادية للكلام (3).

وأما في العصر الحديث فإننا نجد يوسف خليف يقرر أن للشعر لغة خاصة تختلف عن لغة الحياة التي لا تصلح مادة للشعر أو أداة للتعبير الفني ، معللا ذلك بأن الشعر ((ليس عرضا - أي عرض - للأفكار ، ولا هو تسجيل - مجرد تسجيل - لها ، ولكنه عرض جميل ، وتسجيل له وسائله و أدواته ولولا ذلك لانهارت الحواجز بين لغة الفن ولغة الحياة ، وهي حواجز من الخير للفن أن تظل قائمة ، حتى يظل الفن بمقوماته ، أو بعبارة أخرى ، حتى يظل الفن فنا ، فهي ليست حواجز صناعية مفتعلة ، ولكن حواجز طبيعية أصلية ، نشأت مع الفنان الأول الذي عرفته الحياة ، والفن لا يعرف أنصاف الحلول ، فالعمل الفني إما أن تكتمل له مقوماته فيكون فنا ، وإما ألا تكتمل فلا يكون)) (4) .

يتضح - مما تقدم أن للشعر لغته الخاصة ، والشاعر يشكلها بحيث يثير فيها نشاطها الخلاق حتى يكمل له التشكيل الجمالي الذي يوازي - رمزيا - واقعة النفسي و الفكري والروحي والاجتماعي ، فالقصيدة بنية لغوية مركبة ، يكشف تفاعل عناصرها عن موقف الشاعر الذي يتوسل بأداة الجماعة ليشكل موقفا من الجماعة نفسها (5) .

1 - عصفور ، جابر . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . 334 .

2 - ابن رشيق . العمدة ز 1 : 28 .

3 - بدوي ، أحمد أحمد . أسس النقد الأدبي عند العرب . 116 .

4 - خليف ، يوسف . نداء القمم . 26 .

5 - تليمة ، عبد المنعم . مدخل إلى علم الجمال الأدبي . 99 .

ويرجح ما ذهب إليه الطاهر مكي على أن قيمة الألفاظ في القصيدة ((ليست في بساطها أو جلالها ، وإنما في الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها عليها الشاعر ، و الشاعر الأصيل تنضح ألفاظه بالقيم وتشع منها الموسيقى والمعنى والبساطة و الزخرفة، والصورة والفكرة ، والقوة الدرامية والتكثيف الغنائي والكناية واللون والضوء)) (1) .
وتختلف اللغة الشعرية من تجربة إلى أخرى ، لأنها لا تستمد من معجم اللغة المعروف ، وإنما تستمد من معجم الحالات النفسية الذي يتنوع و يتغير بتغيير المبدع وتنوع التجربة وتغير الزمان و المكان.

وقد استطاع شعراء القرن الخامس الهجري في شعرهم السياسي أن يحكموا السيطرة على اللغة ، هذه الأداة الجميلة ، فأجادوا استخدامها بحيث جاءت معبرة عن تجاربهم الشعرية — على اختلافها — وإن كانوا قد حافظوا على لغة القدماء ، فقد طوعوها لإحساسهم وجعلوها في خدمة تجاربهم الشعرية ، ولا يعيهم ذلك بحال ، فهذا اليوت يقول: ((إن ولاء الشاعر يجب أن يكون للغة التي يرثها من الماضي ، والتي يجب أن يحافظ عليها وينميها)) (2) .

واللغة هي أوضح وأقوى ظاهرة تعبر عن حضارة الأمم ، وليس مبالغة أن يقال : ((إذا أردت التعرف على الإطار الحضاري لشعب من الشعوب في زمن من الأزمان فادرس لغته ، ففي عروق اللغة — إذا صح هذا المجاز — يعيش نبض العصر)) (3) .

وإذا رجعنا إلى لغة الشعر السياسي ، في القرن الخامس الهجري ، نجد الشاعر يمزج في كثير من الأحيان بين حبه للطبيعة وبين عناصرها مزجا جميلا لا نعرفه إلا عند من همام بالجمال واستعذب رفته وابن زيدون ممن يسحره الجمال وقره الطبيعة الناضرة ، فنراه يشرك عناصرها معه في مشاعره وأحاسيسه ، فيصور سوء حاله في السجن الذي تطاول أمده بالروضة التي طاوها القحط ، يقول (4) :

1 - مكي ، الطاهر أحمد . الشعر العربي المعاصر ، روائعه ومدخل لقراءته . 80 .

2 - الرباعي ، عبد القادر . الصورة الفنية في شعر أبي تمام . 243 .

3 - إسماعيل عز الدين . الشعر العربي المعاصر . قضايا وظواهره الفنية والمعنوية . 175 .

4 - ابن زيدون . ديوان . 86 .

وطاول سوء الحال نفسي فأذكرتُ
من الروضة الغنّاء طاولها القحطُ
ونجده في قصيدة أخرى في مدح ابن جهور ، متذكرا ماضيه بقرطبة ، يشرك
عناصر الطبيعة باستخدامه ألفاظها الأيكة الخضراء ، الظل ، الجنة ، النهر ، يقول (1) :
والبس من النعمة الخضراء أيكّتها
ظلا حراما على الإرماضِ والخدرِ
نَعيم جنة دنيا ، إن هي انصرمتُ
نَعِمْتَ بالخُلدِ في الجنّاتِ والنّهْرِ

ويستمر الشاعر على هذا المنوال في المزج بين عناصر الطبيعة وموضوعه متطلعا
إلى السهل من الألفاظ ، غير أن هناك بعض الشعراء ومنهم ابن زيدون ظلوا يحذون حذو
شعراء المشرق ، قدماء ومعاصرين للشعر القديم ، لفظا وأسلوبا وصياغة ، ولعل هذا التمثل
يبدو أكثر وضوحا في شعر الحرب ورتاء المدن ، وأغلب الظن أن بعض الشعراء هنا كانوا
متأثرين بشعراء المشرق ليس في ألفاظهم وحسب ، وإنما تأثروا كذلك بمعانيهم وصورهم
— كما تقدم — في الموروث الشعري (2) ، وكذلك في منهج القصيدة (3) . ورغم تأثرهم
بالأساليب القديمة إلا أن القاعدة العامة للشعر الأندلسي وبخاصة السياسي تبقى هي ميلها
إلى السهولة والرقّة يشذ عنها قليلا ما ذكرته قبل ولا سيما شعر الحرب والرتاء السياسي
حيث يستخدم ألفاظ وأسلوب الشعر المشرقي القديم والمعاصر .

و أما الشعر الحربي فإن المتلقي كثيرا ما يلتقي بشواهد فيه تدل على تأثير الحياة
الحربية المضطربة في لغته و ألفاظه ، فنرى الشعراء يرددون ألفاظا مثل (الحرب ، الانهزام ،
الحسام) ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول ابن حمديس في معركة الزلاقة (4) :
نوى خدعةً في الحرب والحرب خدعة
فأدبر مهزوما وقد كان هازما
وقل ابن وهبون في نفس المعركة (5) :
ولم يثبّت من الأشياع إلاّ
شقيقك وهو صارمك الحسام

1 - ابن زيدون . ديوان . 151 .

2 - انظر هذا البحث . 239 .

3 - انظر هذا البحث . 212 .

4 - ابن حمديس . ديوان . 427 .

5 - ابن دحية . المطرب . 120 .

وقول ابن حمديس (1) :

عُلُوجُ قُمصِ حَرَبِهِمْ حديدُ يُعَبِّرُ عَنْهُمْ سَهْكَ النَّسِيمِ

وقول ابن القزاز في الموضوع نفسه (2):

وقفتَ وموقفُ الهيجاءِ ضنكُ وفيه لباعك الرِّحْبُ انفساح

وقول ابن جهور تسمية معركة الزلاقة بيوم العروبة (3) :

لم تعلم العُجْمُ إذ جاءت مُصمِّمة يومَ العروبة أن اليومَ للعرب

وكما وردت ألفاظ (الحرب ، الانهزام ، الحسام ، الصارم ، القمص ، الحديد ،

الهيجاء ، يوم العروبة) ، عكفوا على معجم الألفاظ الطبيعية يستمدون منه ، ويسترفدون

— كما تقدم — ولذلك من الطبيعي أن نجد موضوعاتهم ، في الشعر السياسي ، حافلة

بالألفاظ المستمدة من الطبيعة .

هذا وتميزت لغة الشعر أيضا بالميل إلى البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة

المستخدمة في لغتهم اليومية ، كلغة الهجاء السياسي التي اقتربت من لغة النثرية ، كقول

بعضهم في نقد الخليفة المهدي الذي أظهر الفسق والخلاعة (4) :

أمير الناس سَخْنَةُ كل عين يبيتُ الليل بين مُخنثين

يجشم ذا ويلثم خدَّ ذا ويسكر كل ليلة سكرتين

لقد ولوا خلافتهم سفيها ضعيف العقل شينا غير زين

وأما ميل لغة الهجاء السياسي إلى الشعبية ، فلكي يضمن لها الشعراء الذبوع

والانتشار على ألسنة العامة ، فاستخدموا ألفاظ السباب المتداولة لديهم ، وأكثروا ، فمن

ذلك قول أبي الحسين بن الجدي في هجاء اليهود (5) :

وقامت دولة الأندال فينا وصار الحكم فينا للعلوج

1 - ابن حمديس . ديوان . 438 .

2 - ابن سعيد . المغرب . 2: 135 .

3 - ابن الأبار . الحلة السراء . 2: 101 .

4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3: 80 .

5 - ابن بسام . الذخيرة . 2/2: 562 .

وقول الإلبيري يصف اليهودي الوزير بالقرد ، يقول (1) :

ورخّم قردهم داره وأجرى إليها نَمِير العيون

وقول بعضهم في هجاء المهدي (2) :

أبو الوليد الذي اقصعت لنحسه شعرة البلاد

فابن الجد يصف دولة اليهود بالأنذال ويصف الإلبيري وزيرهم بالقرد ، وأما شاعر

آخر يصف المهدي بالنحس .

وقد لاحظنا شعراء القرن الخامس ، تأثروا بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وبعض المصطلحات الفقهية ، ومصطلحات الكتابة ، ومصطلحات الغناء ، فكثرت في شعرهم السياسي مثل هذه المصطلحات ، كما كان للبيئة الأندلسية دورها في ظهور ألفاظ وأسماء أجنبية وأندلسية ومغربية تداولها الناس ، وتسربت في الشعر نتيجة اختلاط الشعراء بالعناصر البشرية المختلفة ، وكثرة الفتن والحروب مع النصارى ، وقد وضحنا ذلك في أثر البيئة الأندلسية .

هذا وقد احتفى شعراء الفترة في أساليبهم بالصور البيانية و أنواع البديع على نحو ما فعل أضرابهم من المشرق كالبحتري و أبي تمام وغيرهما ، وما كان يستخدمه الشعراء ، كان أكثره جميلا ومقبولا .

والحقيقة أن الصور البيانية وأنواع البديع ليست صيغا تالية يؤتى بها للتزين والتحسين وإنما هي جوهرية في لغة الشعر لا تتحق المادة الشعرية إلا بها ، واللغة الشعرية من خلق الشاعر ، كما تقدم ، والشاعر يستخدمها استخداما إيجائيا ، ومن ثم تؤثر في اتجاه القارئ وتقنعه .

وبخصوص احتفاء شعراء القرن الخامس في شعرهم السياسي بأنواع البديع ، فإننا سنكتفي بذكر بعض الأمثلة لبعضهم لنؤكد صحة هذا الاحتفاء ، فمن ذلك قول الحجاري فهو مطابقا بين حر وعبد ، وعزيز وذليل يصور حاله في السجن ، فيقول (3) :

1 - أبو إسحاق الإلبيري . ديوان . 99 .

2 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 80 .

3 - ابن خاقان . مطمح الأنفس . 404 .

أبعد السنا والمعالي خُمول؟ وبعد رُكوب المذاكي كُبول
ومن بعد ما كنتُ حرّاً عزيزاً أنا اليوم عبدٌ أسيرٌ ذليل
وقول ابن عمار يستعطف صاحب المرية وهو يطابق بين الفناء والبقاء (1) :
ثم أمض فيّ على احتيايا رك من فناء أو بقاء
وقول ابن عبدون في رثاء طليطلة (2) :
فالدهر حربٌ وإن أبدى مسالمة والبيض والسود مثل البيض والسُّمر
وقول المعتمد معتمدا على الطبايق أسلوباً للمقارنة بين ماضيه وحاضره (3) :
ذُلٌّ وفقرٌ أزالا عِزَّةً وغنى نُعمى الليالي من البلوى على كتب
وقوله (4) :
أسر وعسر ولا يُسر أوْملهُ استغفرُ الله كم لله من نظر
فهو يطابق بين العسر واليسر ، والذل والعزة ، والفقر والغنى ، كما استخدم
الجناس الناقص بين أسر وعسر ويسر .
وكقول الشاعر في رثاء طليطلة (5) :
لثُكلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعدما سُبيت ثغور
فقد استخدم الجناس التام بين كلمة الثغور . بمعنى مدن الحدود وبين الثغور . بمعنى
الأفواه .

وقول ابن زيدون مستخدماً الجناس الناقص (6) :
أذوَّب حامت بلحمي فانتهاش وانتهاش
وقول الحصري يعرض بأصحاب إشبيلية (7) :

1 - ابن عمار . ديوان . تحقيق مصطفى الغديري . 92 .

2 - ابن بسام . الذخيرة . 721 : 2/2 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان 190 .

4 - المعتمد بن عباد . المصدر نفسه 190 .

5 - المقري . نفع الطيب . 4 : 483 .

6 - ابن زيدون . ديوان . 81 .

7 - ابن حلكان . وفيات الأعيان . 3 : 333 .

نَبَّهَ الرَّكْبَ الْمَجُوعَا وَلَمْ الدَّهْرَ الْفَجُوعَا

وأما احتفاء شعراء القرن الخامس في أساليبهم بالصور البيانية اعتمادا على التشبيه ، إدراكا منهم لأهمية التشبيه ، في الإبانة عن المعنى وإظهاره وتوضيحه وتأكيد ، واقتفاء بأثر الأقدمين ، سيرا على منوالهم ، فقد كانوا يعتبرونه الحد الفاصل في التوضيح ، وإحالة المجهول إلى المعلوم ، وفي ذلك يقول الرماني : ((إن التشبيه يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبه تأكيدا ، ولهذا أطبق عليه جميع المتكلمين ، من العرب والعجم ، ولم يستغن أحد منهم عنه)) (1) .

ونحن نلاحظ أن شعراء القرن الخامس اعتمدوا التشبيه بمختلف عناصره ، وبمختلف أنواعه البسيطة والمركبة ، وأكثروا من التشبيهات ورسم الصور المتلاحقة لموضوعاتهم وكان شعر المهجاء السياسي وشعر السجن والرثاء السياسي وشعر الحرب من المجالات التي يظهر فيها ميلهم إلى هذا الأسلوب في التصوير ، وحرصهم على التجويد الفني في قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية . ومن أمثلة ذلك ما ينسب لابن رشيقي قوله (2) :

ألقاب مملكة في غير موضعها كألهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

فالشاعر شبه ملوك الطوائف في إقبالهم على ألقاب بني العباس وهم دونها ، كألهر الذي يحاكي في انتفاخه صورة الأسد .

وقول ابن عباد الذي يشبه رمحه بالثعبان في الوغى وهو ينهش رؤوس أعدائه مستخدما (3) :

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى فغدا عليك القيد كالثعبان

وقول ابن حمديس وهو يشبه الجيش النصراني بالخطب الذي جمع وألقي به في النار (4) :

كأنما احتطب العلوج وساقهم بحريق ضرب بالصوارم موقد

1 - الرماني . النكت في إعجاز القرآن . 75 .

2 - المقرئ . نفع الطيب . 1ك 213 .

3 - المعتمد بن عباد . ديوان . 183 .

4 - ابن حمديس . ديوان . 172 .

وقول ابن وهبون وهو يشبه الفونسو السادس بأحقر الطيور (1) :

ولاينفكُ كالحفّاش يُغضي إذا لم يياشره الظلام

وقول الشاعر ابن اللبانة يشبه منظر السفينة و المعتمد وأهله في خوفها

بالقبور(2):

نسيتُ إلا غداةَ النهر كوثهم في المنشآت كأموات بألحاد

وقوله أيضا وهو يشبه السفينة متجهة إلى العدو ، والناس يودعونها بالعويل كالإبل

يحدو بها الحادي (3) :

سارت سفائنهم والتّوح يصحبهم كأنما إبل يحدو بها الحادي

وقول ابن عبد الصمد في تشبيه الروم بالزرع ، والرؤوس بالحصاد في معركة

الزلاقة (4) :

والخيل قد نكصت على أعقابها والروم زرع والرؤوس حصاد

ونجد السمة البارزة ، في استخدام التشبيه بمختلف أنواعه وعناصره ،

التصويرالحسي المرئي ، وذلك باعتباره من أساليب البيان ، وربما تجسيدا لنظرية (الكندي)

التي تنتهي إلى أن حاسة البصر أشرف الحواس (5) .

من خلال ما تقدم يمكن أن نميز مستويين في لغة الشعر السياسي في القرن الخامس

المجري .

الأول تلك اللغة الرصينة و الألفاظ ذات الجرس ، وقد نهج فيها شعراء الأندلس

على نهج شعراء المشرق الفحول ، وقد كان أكثر استعمالهم لهذا الأسلوب يأتي في الرثاء

السياسي، وشعر الحرب ، هذا الأخير الذي نجد لغته قوية محكمة النسيج يتأنق الشاعر في

اختيارها معتمدا في ذلك على مادة غزيرة من الألفاظ القديمة كقول ابن عبد الصمد (6) :

1 - ابن بسام . الذخيرة . 1/2 : 246 .

2 - ابن اللبانة الداني . شعره . 42 .

3 - ابن اللبانة . المصدر نفسه 42 .

4 - ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 809 .

5 - عصفور ، جابر . الصورة الفنية . 376 ، نقلا عن رسائل الكندي . 1 : 54 .

6 - ابن بسام . الذخيرة . 2/3 : 815 .

لو زُلَّتْ زال الدين وانتهب الهدى ونا اليقين وناق التوحيد
لكن وقفت وملء درعك للعدا درع يهد الراسيات شديد
و كثيرا ما نجد ألفاظا سلسلة في شعر الحرب تأخذ بعضها برقاب بعض ، فمثلا هذه
الآبيات لابن القزاز يقول (1):

وقفت وموقف الهيجاء ضنك وفيه لباعك الرّحب انفساح
والسنة الأسنة قاتلات إذا ظهر المؤيد لا براح
نجد أنها معتمدة على مادة غزيرة من الألفاظ القديمة ، كما نجد تلاحق الألفاظ ذات
الجرس الصاحب كما في (وقفت ، موقف) و (السنة ، الأسنة) .

إذا في هذا المستوى نجد الشعر يعكس التيار القديم في كيفية تعامله مع اللغة
في ذروتها الرفيعة من الفصاحة والقوة وهو تعامل تفرضه نواحي ذاتية أحيانا ، وتتحكم فيه
موضوعا الشعر السياسي في معظم الأحيان .

وأما المستوى الثاني فهو ذلك الاستخدام الذي تتحقق فيه - أكثر من غيره -
معظم سمات شخصية الشعر الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري ، إضافة إلى ملامح
عصره ونعني به ذلك الأسلوب الذي لايسرف في اصطناع الصياغة القديمة واعتماد الشعر
القديم بناء وسبكا ، إنما هو أسلوب يحافظ على توازنه وسلامة عباراته ، كما يتميز بعدوابة
الألفاظ ورقتها وسلاستها ، وتبدو عليها آثار التأنق والروية .

ويستأثر هذا الاتجاه بأكبر قدر من الشعر الأندلسي ، في القرن الخامس الهجري ،
فهو أكثر الاتجاهات ائتلافا مع نفس الشاعر وتجاوبا مع طبعه وسجيته لذلك فإن لغته تبدو
مزيجا من لغة الشعر المشرقي ، وروح الطبيعة الأندلسية الناعمة ، ويتجلى ذلك في شعر
السجن ، فإننا نحس فيه العبارات تتلاحق سلاسة ويسرا ، والألفاظ تجري على لسان
الشاعر السجين دون تكلف .

خاتمة

تناول هذا البحث الشعر السياسي الأندلسي ، خلال القرن الخامس الهجري ، فقدم في المدخل توضيحات حول الجو السياسي ، وكيف كان الصراع في الأندلس بدءا بسقوط الدولة العامرية ، وقيام الفتنة العظمى ، وبانتهائها تشكلت دول الطوائف ، وما ساد بينها من صراع وتنافس و تناحر أدى إلى زوالها بحكم تعدد عناصرها البشرية ، ورغم ذلك فإن الحركة العلمية والأدبية شهدت تطورا وازدهارا كبيرين ، مما أفرز هذا الشعر .

وقدم في **فصله الأول** تعريفا ووصفا وتحليلا ، ما أمكن ، لشعر المهجاء السياسي الذي نشأ في عهد الدولة العامرية ، وتطور في القرن الخامس الهجري ، وبرز فيه شعراء نقدوا الوضع السياسي و الاجتماعي على حد سواء .

وتلا في **فصله الثاني** شعر السجن ، كان الشعراء السجناء قد وصفوه ووصفوا حالتهم واستعطفوا واعتذروا وحنوا وأملوا في حريتهم ، ومنهم من استكان إلى اليأس والاستسلام ، وتميز شعرهم بأن مزجوا فيه بين فنون الشعر الأخرى وأجادوا ، وبخاصة في الغزل والفخر والمدح المرتبطة بموضوع شعر السجن إلى حد كبير .

وأردفه في **الفصل الثالث** بشعر الحرب ، وكان التركيز على معركة الزلاقة ، والتعريف بها ، و الاستعداد لها و حوضها و الانتصار فيها ووصف حال العدو إثر الهزيمة والإشادة بما استخدم في الحروب الأندلسية ولأول مرة من طبول وجمال .

وختتم البحث في **فصله الرابع** بالرياء السياسي مركزا على رثاء قرطبة وبكائها بعد خرابها ، ورثاء مدن وممالك الأندلس التي سقطت في أيدي النصارى ، ورثاء زوال الممالك بعد توحيدها في شعر حزين وصادق .

واهتم البحث في **فصله الخامس** بالدراسة والتوضيح لأهم جوانب الشعر السياسي من حيث البناء الفني ، حيث ركز على بناء القصيدة مطلقا ، ومقدمة ، وحسن تخلص و موضوعا رئيسيا ، وخاتمة ، والوزن والقافية ، وعلاقة ذلك بالموضوع المطروق .

و أشار البحث إلى بعض مشارب الشعر السياسي وأصوله ، ولكن أثر البيئة يبقى

بارزا ، الشيء الذي يعطيه طابع التفرد والتميز . وأشار البحث إلى اللغة والأسلوب
واتضح تميز الأندلسيين في هذا المجال .

هذا وقد كشف البحث عن بعض الحقائق ، وخلص إلى نتائج خاصة
أهمها ما يلي:

1 - شهد القرن الخامس الهجري صراعا وتنافسا كبيرين من قبل الخلفاء
حول السلطة وضعف في إدارة شؤون البلاد ، مما مكن العناصر البشرية المتعددة الأجناس
إلى الاستقلال بالأقاليم ، فكان ملوك الطوائف ، والذين في عهدهم نشطت الحركة
العلمية والأدبية في مختلف المجالات ؛ دينية ، وعلمية ، ولغوية ، وأدبية ، سعيا
من الأندلسيين خاصة ، وعمامة ، للتفوق عن المشاركة ، وإثبات تفردهم وتميزهم رغم
اعتمادهم على الموروث الثقافي ، وتأثرهم بالقرآن والحديث و الفقه .

وأفرزت هذه الحركة كثرة الدراسات الدينية و اللغوية والفلسفية و الأدبية ،
صفوة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ، أنتجت مؤلفات سبقت الإشارة
إلى بعضها - وإبداعات شعرية - تقل فيها عيوب القافية ، ومرد ذلك أن أغلب
الشعراء فقهاء ولغويون ونقاد ، وهؤلاء أكثر الناس تعصبا ، وأقلهم تسامحا سواء
في الشعر أو النثر

2 - ارتباط الشعر الأندلسي والسياسي منه بخاصة ، في القرن الخامس
الهجري ، بالعصر ارتباطا وثيقا وكان مما يذكي هذا الارتباط الواقع المضطرب القلق
المشحون الذي صحب العصر بالكثير من الفتن الداخلية واسترداد المدن والممالك
من قبل النصارى ، في عهد ملوك الطوائف ، وطابع العجز والضعف ، والنفوذ والتوسع
الذي تميز به عهدهم ، وعبر عن ذلك الشعراء ، في نقدهم للوضع كله ، ووصف بعضهم
مخنهم في غيابات السجن ، وفيهم من رثى حال المسلمين ، وهذه البلاد نشبت فيها
الحروب الأهلية وخربت قرطبة ، وكذلك سقوط مدن وممالك في أيدي النصارى ،
وهذا الضعف توج بالانتصار في معركة الزلاقة ، ولكن هذا الانتصار استمر إلى حين .

3 - إبراز بعض الشعراء الذين لم يلتفت إليهم الدارسون في بحوثهم ودراساتهم ، وهم طرقتوا موضوعات الشعر السياسي ، وتميزوا فيها ، مما جعل بعض المؤرخين والأدباء القدماء يكشفون عن بعض جوانب هذا التميز .

4 - تغلغل فن الوصف في موضوعات الشعر السياسي ، التي طرقتها شعراء القرن بتصويرهم للأشياء ، وتشخيصها ومحاورتها ، ونفخ الروح فيها ، فهم يمزجون وصفهم للأشياء بانفعالهم وأحاسيسهم ، فيبدو الوصف ومعها العاطفة الصادقة .

5 - ارتباط الغزل بالاستعطاف والاعتذار ارتباطا عضويا ، فتحققت بذلك الوحدة الموضوعية ، ويتجلى ذلك في نتاج شعر الشعراء السجناء السياسيين الغزير ، مما يدعو إلى التنبيه إليه لدراسته ، موضوعا وفنا ، لما له من مميزات خاصة .

6 - وأما الرثاء السياسي ، فإنه يتميز بالاستعانة بالتراث واعتماد التاريخ للعظة والعبرة ، مما آلت إليه مدن وممالك الأندلس ، ويكثر فيها التضرع إلى الله والتوسل برسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، والتركيز على ماضي المدينة وحاضرها ، قبل السقوط وبعده .

7 - توزع الشعر السياسي على مستويين ، قوي وبسيط سواء من حيث المعنى أو المبنى ، أما البسيط فهو يتجلى في الهجاء السياسي . وأما القوي فيعكسه شعر الحرب والرثاء السياسي ، وكنا أشرنا إلى جملة المميزات في مضامها لكل موضوع من موضوعات هذا الشعر .

ولاشك أن هذا البحث المتواضع - مهما كانت النتائج التي حققها - سيسهم في إثارة الاهتمام ، وفتح آفاق جديدة أمام الباحثين ، وخصوصا إذا ضم إليه الجانب الثري ، فهو - حسب رأيي - طريف وجديد .

وأدعو الله تعالى أن تنال هذه الدراسة الرضا والقبول لأنني بذلت جهدا متواضعا ، متمنيا أن تسد ركننا من أركان الدراسات الأندلسية التي تحتاج إلى جهود كبيرة ومتواصلة لكشف النقاب عن هذا التراث الغزير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر و المراجع

أولاً- المصادر:

- 1 - القرآن الكريم
- 2 - أبو إسحاق الإلبيري ، إبراهيم بن مسعود (- 460 هـ) . ديوان . تحقيق محمد رضوان الداية . مؤسسة الرسالة بيروت . ط 1 . 1976 .
- 3 - الأمير عبد الله بن زيوري (_ 483 هـ) . مذكرات الأمير عبد الله ، أو كتاب التبيان . تحقيق ليفي بروفنسال . دار المعارف مصر . 1955
- 4 - ابن الأبار ، أبو عبد الله (- 658 هـ) :
 - أ - إعتاب الكتاب . تحقيق صالح الأشر . مجمع اللغة العربية . دمشق . 1961 .
 - ب - التكملة لكتاب الصلة . تحقيق عزت العطار الحسيني . القاهرة . 1956 .
 - ج - الحلة السيرة . تحقيق ، حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة و النشر . ط 1 . 1963 .
- 5 - ابن الأثير ، علي بن محمد (_ 630 هـ) . الكامل في التاريخ . الجزء الثامن و التاسع و الحادي عشر . دار الطباعة المنيرة . 1357 هـ .
- 6 - الإدريسي ، أبو عبد الله محمد الشريف السبتي (_ 548 هـ) . القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق تحقيق إسماعيل العربي . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . 1983 .
- 7 - ابن الأثير ضياء الدين (- 637 هـ) :
 - أ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور . تحقيق مصطفى جواد جميل . المجمع العلمي العراقي . بغداد . 1956 .
 - ب - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . تحقيق محمد محي الدين الحلبي . القاهرة . 1939 .
- 8 - ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو المعالي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (668 هـ) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء . شرح وتعليق نزار رضا . دار مكتبة الحياة . بيروت . 1965 .
- 9 - ابن بسّام ، أبو الحسن (_ 542 هـ) . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس الدار العربية للكتاب . ليبيا - تونس . ط 1 . 1979 .
- 10 - ابن بشكوال ، أبو القاسم (_ 578 هـ) . كتاب الصلة . الـمدار المصرية للتأليف و الترجمة . 1966 .

- 11 - البكري ، بوعبيد(487هـ) .جغرافية الأندلس وأوربا ، من كتاب المسالك والممالك . تحقيق عبد الرحمن الحجي .دار الإرشاد للطباعة والنشر .بيروت . ط 1 . 1968 .
- 12 - أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي . (- 231 هـ) . ديوان . تحقيق محمد عبده عزام . دار المعارف . مصر . ط 2 . 1970 .
- 13 - التنسي ، أبو عبد الله (كان حيا سنة 893 هـ) . تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان) تحقيق عبد الحميد حاجيات . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . 1984 .
- 14 - النعالي، أبو منصور(429 هـ) . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . الجزء الأول والثاني . محمد محي الدين . دار الفكر بيروت . ط 3 . 1973 .
- 15 - ابن ثغري، أبو الحسن(874هـ) . النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة . الجزء الثالث . دار الكتابة المصرية . 1966 .
- 16 - حازم القرطاجني ، أبو الحسن (-684هـ) . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تحقيق محمد الحبيب . دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط 3 . 1981 .
- 17 - ابن حزم ، أبو محمد علي (- 456 هـ) :
أ - جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف . القاهرة . 1962 .
ب - ديوان . تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم . دار الصحابة للتراث . طنطة . مصر . ط 1 . 1990 .
ج - رسائل ابن حزم . تحقيق إحسان عباس . الجزء الثاني . المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت . ط 1 . 1980 .
د - طوق الحمامة . تحقيق الطاهر أحمد مكي . دار المعارف . مصر ط 3 . 1980 .
- 18 - الحميدي ، أبو عبد الله (488هـ) . جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس . الدار المصرية للتأليف والترجمة . 1966 .
- 19 - الحميري ، محمد بن عبد المنعم(727هـ) :
أ - الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس . دار القلم للطباعة بيروت . 1975 .
ب - صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من الروض المعطار) . تحقيق ليفي بروفنسال . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . 1937 .
- 20 - الحموي ، ابن حجة (-837هـ) . خزنة الأدب وغاية الأرب . دار القاموس الحديث . بيروت .

- 21 - ابن حيان، أبو مروان (469هـ). المقتبس في أخبار بلد الأندلس. تحقيق عبد الرحمن الحجي. دار الثقافة. بيروت.
- 22 - بن خاقان ، أبو الفتح (529هـ): .
- أ - مطمح الأنفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق محمد علي شوابكة. مؤسسة الرسالة . بيروت. ط.1. 1983.
- ب - قلائد العقيان في محاسن الأعيان . تقديم ووضع الفهارس محمد العتاني دار الكتب الوطنية . تونس .
- 23 - الحشني ، أبو عبد الله (971هـ) . قضاة قرطبة. تحقيق إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1968.
- 24 - ابن الخطيب ، لسان الدين (776هـ):
- أ - الإحاطة في أخبار غرناطة . الجزء الثاني. تحقيق عبد الله عنان. القاهرة. 1974.
- ب - أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. تحقيق ليفي بروفنسال. دار المكشوف. لبنان. ط.2. 1956.
- ج - الحلل الموسية في ذكر الأخبار المراكشية . تونس . ط 1 . 1929 .
- د - رقم الحلل في نظم الدول . المطبعة العمومية . تونس . 1316 هـ .
- 25 - ابن خلدون ، عبد الرحمن (808هـ):
- أ - العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . الجزء الرابع. تحقيق عبد الكريم وحسن الزين . دار الكتاب اللبناني . بيروت. 1968.
- ب - المقدمة . تحقيق درويش الجويدي المكتبة العصرية . صيدا . بيروت . ط 1 . 1995 .
- 26 - ابن خلكان، أبو العباس (681هـ). وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . 1968.
- 27 - ابن دحية، أبو الخطاب (633هـ) . المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق إبراهيم الأبياري . المطبعة الأميرية . القاهرة . 1954.
- 28 - ابن دراج القسطلي، أبو عمر (421هـ) . ديوان . تحقيق محمود علي مكّي. المكتب الإسلامي. ط 2. 1389 هـ
- 29 - ابن رشيق ، أبو علي (-426هـ-) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجليل . بيروت . ط 1. 1980.

- 30 - الروماني ، أبو الحسن (-386هـ) . النكت في إعجاز القرآن . تحقيق محمد خلف الله ،
ومحمد زغلول سلام . دار المعارف . مصر .
- 31 - ابن سعيد ، علي بن موسى (-685هـ):
أ - المغرب في حلي المغرب . تحقيق شوقي ضيف . دار المعارف . مصر . ط 3 . 1978 .
ب - رايات المبرزين وغايات المميزين . تحقيق النعمان عبد المتعالي . لجنة إحياء التراث الإسلامي .
القاهرة . 1973 .
- 32 - السلاوي ، أحمد بن خالد (-1315هـ) . لاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى . الجزء
الأول . طبعة القاهرة . 1894 .
- 33 - ابن سنان الخفاجي ، عبد الله محمد بن سعيد (- 466 هـ) . سر الفصاحة . تحقيق عبد
المتعال الصعيدي . القاهرة . 1952 .
- 34 - السلفي ، أبو طاهر صدر الدين أحمد بن محمد (- 576 هـ) . أخبار وتراجم أندلسية .
تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . 1963 .
- 35 - السيوطي ، جلال الدين . (- 911 هـ) . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحويين .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الفكر . ط 2 . 1979 .
- 36 - ابن شرف القيرواني ، أبو عبد الله بن محمد (- 460 هـ) . ديوان . تحقيق حسن زكري
حسن . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة .
- 37 - ابن شهيد ، أبو عامر :
أ - ديوانه . تحقيق يعقوب زكي . دار الكتاب العربي للطباعة . القاهرة .
ب - ديوانه ورسائله . تحقيق محي الدين ديب . المكتبة العصرية . بيروت . ط 1 . 1997 .
- 38 - الضبي ، أحمد بن يحيى (-599هـ) . بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكتاب
العربي . القاهرة . 1967 .
- 39 - الصولي ، أبو بكر (-335هـ) . أخبار أبي تمام . تحقيق خليل محمود عساكر ، محمد عبده ،
نظير الإسلام . المكتبة التجارية للطباعة والنشر . بيروت .
- 40 - الضبي ، المفضل . أمثال العرب . تحقيق إحسان عباس . دار الرائد العربي . بيروت . ط 1 .
1981 .
- 41 - العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (- 395 هـ) . الصناعتين . تحقيق
علي محمد البحاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم . دار الفكر العربي . القاهرة . ط 1 . 1971 .

- 42 - العلوي ، يحيى (-749هـ) . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. تصحيح سيد علي المرسفي . مطبعة المقتضب . مصر . 1914 .
- 43 - العماد الإصفهاني . أبو محمد صفي الدين عبد الله محمد (- 579 هـ) . خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب والأندلس . تحقيق آذرتاش وآذرنوش ، ونقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى . الدار التونسية للنشر . تونس . 1972 .
- 44 - ابن العماد ، أبو الفرج الحنبلي (1089هـ) . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . الجزء الثالث . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي . دار الآفاق الجديدة . بيروت .
- 45 - ابن عمار ، أبو بكر محمد بن عمار الأندلسي (- 477 هـ) :
أ - شعره . تحقيق صلاح خالص . مطبعة الهدى . بغداد . 1957 .
ب - شعره . تحقيق مصطفى الغديري . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية . وجدة . المغرب . 2001 .
- 46 - القاضي عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى (- 544 هـ) . ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . الجزء الرابع . تحقيق أحمد بكير محمود . دار مكتبة الحياة . بيروت . 1967 .
- 47 - قدامة بن جعفر ، أبو الحسن . (237 هـ) . نقد الشعر . تحقيق مصطفى كمال . مطبعة الخانجي . مصر .
- 48 - ابن القوطية ، أبو بكر (-367هـ) . تاريخ افتتاح الأندلس . تحقيق إبراهيم الأبياري . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ط 1 . 1982 .
- 49 - الكتبي ، محمد بن شاكر (764 هـ) . فوات الوفيات . تحقيق إحسان عباس . دار الجيل . بيروت .
- 50 - ابن الكردبوس ، عبد الملك بن قاسم (575 هـ) . تاريخ الأندلس . تحقيق العبادي ، أحمد مختار . معهد الدراسات الإسلامية . مدريد . 1971 .
- 51 - ابن اللبانة الداني ، أبو بكر محمد بن عيسى (- 507 هـ) . شعره . جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد . مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر . جامعة الموصل . 1977 .
- 52 - ابن منظور ، أبو الفضل (-711هـ) . لسان العرب . المؤسسة المصرية للتأليف والنشر
- 53 - مؤلف مجهول . أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها . تحقيق إبراهيم الأبياري . دار الكتاب الإسلامي . القاهرة . بيروت .

54 - مؤلف مجهول (كان حيا سنة (712 هـ) . نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب (مفاخر البربر) . تحقيق ليفي بروفنسال. الرباط . 1934 .

55 - المتنبى ، أبو الطيب (-354هـ) . ديوان . دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت . 1980 .

56 - مسلم ، الإمام أبو حسن (-261هـ) . صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة . . 1955 .

57 - المعتمد بن عباد . ديوان . تحقيق رضا الحبيب السويسي . الدار التونسية للنشر . 1975 .

ابن منظور ، أبو الفضل (-711هـ) . لسان العرب . المؤسسة المصرية للتأليف والنشر .

58 - الميداني ، أبو الفضل أحمد النيسابوري (— 518 هـ) . مجمع الأمثال . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الفكر . بيروت . 1972 .

59 - أبو نواس ، أبو علي (— 198 هـ) . الديوان . تحقيق أحمد عبد الحميد . دار الكتاب العربي . بيروت .

60 - ياقوت الحموي ، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (— 626 هـ) :

أ - معجم الأدياء . تحقيق أحمد فريد الرفاعي . مكتبة عيسى البابي الحلبي . القاهرة . 1936 .
ب - معجم البلدان . دار صادر بيروت . 1955 .

ثانياً - المراجع :

1 - أدهم ، علي . بين الفلسفة والأدب . مكتبة دار المعارف . مصر . ط 1 . 1958 .

2 - إسماعيل ، عز الدين :

أ - الشعر العربي المعاصر . قضايا وظواهره الفنية واللغوية . درا الفكر العربي . القاهرة . ط 3 . 1978 .

ب - التفسير النفسي للأدب . دار العودة . بيروت . ط 4 . 1981 .

3 - أشباخ ، يوسف . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عنان ، محمد عبد الله . مكتبة الخانجي ، القاهرة . ط 3 . 1996 .

4 - أمين ، أحمد . النقد الأدبي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ط 3 . 1963 .

5 - أنيس ، إبراهيم (د) . موسيقى الشعر . دار القلم . بيروت . ط 4 . 1972 .

6 - بالنشيا ، آنخل جانثالث . تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ط 1 . 1955 .

- 7 - بدر ، أحمد . تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري،عصر الخلافة .مكتبة أطلس.دمشق.1974.
- 8 - بدوي ، أحمد أحمد . أسس النقد الأدبي عند العرب . دار نهضة مصر للطباعة والنشر . 1979.
- 9 - بروفنسال ، ليفي :
- أ - الإسلام في المغرب والأندلس .ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمي . مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية . 1990 .
- ب - سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخه . ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة . القاهرة . المطبعة الأميرية القاهرة . 1951 .
- 10 - بكار ، يوسف حسين . بناء القصيدة العربية . دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة . 1979.
- 11 - بوزياني ، الدراجي.القبائل الأمازيغية،أدوارها ، ومواطنها ، وأعيانها.الجزء 1 .دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع .الجزائر.ط 1 .1999.
- 12 - يول ، لين .فضة العرب في إسبانيا . ترجمة علي الجارم . دار المعارف . مصر . 1947 .
- 13 - بيريس ، هنري:الشعر الأندلسي في عصر الطوائف . ترجمة الطاهر أحمد مكي .دار المعارف.القاهرة .ط 1 . 1988 .
- 14 - تشركوفا ، كليليا سارنللي . مجاهد العامري قائد الأسطول العربي غربي البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس الهجري .لجنة البيان العربي . القاهرة . 1961 .
- 15 - تليمة ، عبد المنعم .مدخل إلى علم الجمال الأدبي . دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة . 1978.
- 16 - التونجي ، محمد . المعجم المفصل في الأدب . دار الكتب العلمية . بيروت . ط 2 . 1999.
- 17 - الجاروي ، عباس :
- أ - الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها الجزء الأول . ط3.مطبعة المعارف الجديدة. الرباط.1986.
- ب - فنية التعبير في شعر ابن زيدون . مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء . 1977 .
- 18 - الحجي ، عبد الرحمن علي:التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة(92 هـ —897هـ) دار القلم. دمشق . ط 3 . 1987 .

- 19 - الحوفي ، أحمد . أدب السياسة في العصر الأموي . دار نهضة مصر . القاهرة . ط 3 . 1969 .
- 20 - خالص ، صلاح . إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دراسة أدبية تاريخية . دار الثقافة . بيروت . 1981 .
- 21 - خليف ، يوسف . نداء القمم (شعر) . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . القاهرة . ط 1 . 1967 .
- 22 - خليفة ، عبد الكريم . ابن حزم الأندلسي ، حياته وأدبه . دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان .
- 23 - الدقاق ، عمر . ملامح الشعر الأندلسي . منشورات جامعة حلب . ط 3 . 1978 .
- 24 - دوزي ، رينهرت . المسلمون في الأندلس . ترجمة حسن حبشي . الأجزاء الثلاثة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة 1994 .
- 25 - سالم ، السيد عبد العزيز :
- أ - تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، قاعدة أسطول الأندلس . دار النهضة العربية بيروت . ط 1 . 1969 .
- ب - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت . 1981 .
- ج - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس . مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع الإسكندرية . 1985 .
- 26 - سعدي ، عثمان . الأمازيغ (البربر) عرب عاربة (وعروبة الشمال الإفريقي) . 1996 .
- 27 - السعيد ، محمد مجيد . الشعر في ظل بني عباد .
- 28 - سويف ، مصطفى . الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر . دار المعارف . مصر . ط 4 . 1981 .
- 29 - الشايب ، أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني . دار القلم . بيروت . ط 5 . 1976 .
- 30 - ضيف ، شوقي . فصول في الشعر والنقد . دار المعارف . مصر . ط 3 . 1977 .
- 31 - طيب ، عبد الله . المرشد إلى فهم أشعار العرب . دار الفكر . بيروت . ط 2 . 1970 .
- 32 - لعبادي ، أحمد مختار :
- أ - الصقالبة في إسبانيا . المعهد المصري للدراسات . مدريد . 1953 .

- ب - صورة من حياة الحرب والجهاد في الأندلس . منشأة المعارف . الإسكندرية . مصر . 2000 .
- ج - في تاريخ المغرب والأندلس . دار النهضة العربية . بيروت . 1978 .
- 33 - عباس ، إحسان :
- أ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين . دار الثقافة . بيروت . ط 5 . 1978 .
- ب - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . دار الثقافة . بيروت . ط 6 . 1981 .
- 34 - عبد البديع ، لطفي . الإسلام في إسبانيا . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ط 2 . 1969 .
- 35 - عبد العزيز ، أحمد . قضية السجن و الحرية في الشعر الأندلسي . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ط 1 . 1990 .
- 36 - عبد العظيم ، رجب محمد . العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانية التصراية في عصر بني أمية وملوك الطوائف . دار الكتاب المصري ، القاهرة ودار الكتاب اللبناني . بيروت .
- 37 - عبد النور ، جبور . المعجم الأدبي . دار العلم للملايين . بيروت . ط 2 . 1984 .
- 38 - عصفور ، جابر . الصورة الفنية في التراث الفني و البلاغى . دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة . 1974 .
- 39 - عنان ، محمد عبد الله .:
- أ - الدولة الأموية في الأندلس ، عبد الرحمن الناصر . مكتبة الخانجي . القاهرة . ط 4 . 1969 .
- ب - الدولة العامرية وسقوط الخلافة في الأندلس . الجزء الثالث . مطبعة مصر القاهرة . ط 1 . 1958
- ج - دول الطوائف . مطبعة الخانجي للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ط 1 . 1960
- 40 - عيسى ، فوزي سعد . المهجاء في الأدب الأندلسي . دار المعارف . مصر .
- 41 - غومس ، إميليو غرسية .:
- أ - الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه . ترجمة حسين مؤنس . القاهرة 1952 .
- ب - مع شعراء الأندلس والمتنبي . ترجمة الطاهر أحمد مكى . دار المعارف . مصر . ط 3 . 1983 .
- 42 - فلاح القيسي ، فائز عبد النبي . أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري . دار البشير للنشر والتوزيع . الأردن . ط 1 . 1989 .
- 43 - فخر الدين ، جودت . شكل القصيدة في النقد العربي . دار الآداب . بيروت . ط 1 . 1984 .
- 44 - الكيلاني ، كامل . مختارات في التاريخ والأدب . مطبعة المعاهد بالجمالية . القاهرة . ط 1 . 1929 .

- 45 - لغزوي ، علي . أدب السياسة و الحرب في الأندلس من الفتح إلى نهاية القرن الرابع الهجري. مكتبة المعارف . الرباط . 1987.
- 46 - مطلق ، البير حيب . الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف. المكتبة العصرية . صيدا . بيروت . 1968.
- 47 - مؤنس، حسين:
- أ - فجر الأندلس . الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة . ط 1 . 1959 .
- ب - موسوعة تاريخ الأندلس ، فكر وتاريخ وحضارة وتراث . الجزء الأول. مكتبة الثقافة الدينية القاهرة . ط 1 . 1996 .
- 48 - مرسي صالح ، نادية . العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانية ، عهد الملك الفونسو الأول. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية . القاهرة . ط 1 . 2000 .
- 49 - مكى ، الطاهر أحمد:
- أ - دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة . دار المعارف . مصر ط 1 . 1980 .
- ب - دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . دار المعارف . مصر . ط 3 . 1981 .
- ج - الشعر العربي المعاصر ، روائعه ومدخل لقراءته . دار المعارف . القاهرة . ط 2 . 1983 .
- د - دراسات في مصادر اللغة والأدب . دار المعارف . مصر . ط 4 . 1977 .
- 50 - مندرور ، محمد . النقد المنهجي عند العرب . مطبعة نهضة مصر . القاهرة .
- 51 - ماكيب ، جوزيف . مدينة العرب في الأندلس . ترجمة تقب الدين الهلالي . بغداد . 1950 .
- 52 - النويهي محمد . الشعر الجاهلي . منهج في دراسته وتقويمه . دار القومية للطباعة والنشر . القاهرة .
- 53 - نالينو ، كالمو . تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية . نشر نالينو ، مريم، وتقدم طه حسين . دار المعارف . مصر . ط 2 . 1970 .
- 54 - النوشي ، حسن أحمد: التصوير الفني للحياة الاجتماعية للشعر الأندلسي دار الجيل . بيروت . ط 1 . 1992 .
- 55 - هلال ، محمد غنيمي . النقد الأدبي الحديث . مطابع الشعب . القاهرة . ط 3 . 1964 .
- 56 - هيكل ، أحمد . الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . دار المعارف . مصر .
- 57 - يعلاوي ، يوسف . ابن هانئ الأندلسي . دار الغرب الإسلامي . بيروت . 1985 .

ثالثا : الرسائل والأطروحات الجامعية

1 - بن سلامة ، الربيعي :

أ - أدب المحنة الإسلامية في الأندلس . أطروحة الدكتوراه الدولية . إشراف . بن محمد ، علي . معهد اللغة والأدب العربي . جامعة الجزائر . 1991 - 1992 .

ب - شعر الحرب في الأندلس من الفتح إلى سقوط الدولة العامرية . رسالة ما جستير . إشراف الدكتور الركابي ، جودت . معهد الآدب واللغة العربية . جامعة قسنطينة . 1980 - 1981 .

2 - فورار ، محمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . إشراف الركابي ، جودت . معهد الآداب واللغة العربية . جامعة قسنطينة . 1994 - 1995 .

فهرس الموضوعات

مقدمة.

مدخل

الناحية السياسية

1	الحياة السياسية
2	عبد الرحمن الثالث
4	الحكم المستنصر
6	هشام المؤيد بالله
7	محمد بن أبي عامر يسيطر على مراكز القوى
9	عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر
10	عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر
16	الفتنة العظمى
20	خلافة المهدي و الفتنة العظمى
26	سليمان المستعين بالله
29	المستعين بالله يدخل قرطبة
31	المهدي يصح خليفة من جديد
39	علي بن حمود الناصر لدين الله
42	القاسم بن حمود
44	يحيى بن علي الناصر
46	عودة الخلافة للأمويين
51	بداية عهد الطوائف
52	دولة بني جهور
57	دولة بني عباد
62	المعتمد بن عباد
63	دولة بني زيري في غرناطة
71	دولة بني عامر الصقلبية
73	خيران العامري

74	زهير العامري
75	بنو صمادح أمراء المرية
76	نهایة دول الطوائف
81	الناحية الاجتماعية
81	العرب
83	البربر
84	المولدون
86	أهل الذمة
90	اليهود
91	الصقالبة
95	الإطار الفكري والأدبي
	الشعر السياسي
113	تمهيد
	الفصل الأول
118	الهجاء السياسي
119	هجاء الخلفاء وملوك الطوائف
129	هجاء الوزراء
135	هجاء العمال (الولاة)
	الفصل الثاني
138	شعر السجن
139	وصف السجن
151	الاستعطاف والاعتذار
158	الحديث عن الذكريات
162	الأمل واليأس والاستسلام
	الفصل الثالث
165	شعر الحرب
166	معركة الزلاقة

الفصل الرابع

186	الـرثاء الـسياسي
186	رثاء قرطبة
192	رثاء المدن والممالك التي سقطت في أيدي النصارى
192	رثاء بربشتر
194	رثاء طليطلة
202	رثاء الممالك الزائلة

الفصل الخامس

211	الناحية الفنية
212	بناء القصيدة
212	المطلع
214	المقدمة
217	التخلص
219	الموضوع الرئيسي
219	الخاتمة
222	الوزن والقافية
222	الـوزن
227	القافية
233	أثر القرآن والحديث والفقہ
239	استلهام الموروث الشعري
242	أثر بعض الثقافات
242	أثر البيئة الأندلسية
251	اللغة والأسلوب
261	خاتمة.
264	فهرس المصادر والمراجع.
275	فهرس الموضوعات.